

شبكات التواصل الاجتماعي وآثارها في تفعيل الخطاب الدعوي من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك

البحث الفائزة بجائزة قطر العالمية لحوار الحضارات
لعام 2020 - 2021 (الدورة الثالثة)

تأليف

الدكتور عبد السلام رياح

تقديم

د. إبراهيم بن عبد الله الأنصاري

د. أحمد بن حسن الحمادي

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

نائب رئيس اللجنة القطرية لتحالف الحضارات

مراجعة وتحرير

أ. د. عز الدين معميش

رئيس كرسي الإيسيسكو لحوار الحضارات
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

9	مقدمة الجهات الراعية
13	مقدمة
13	أ. بواعث التأليف في الموضوع
15	ب. إشكاليات الموضوع
15	إشكالية الاختلاف بين الواقع والمأمول
17	إشكالية ضعف جهات تعزيز المشترك الإنساني وغُطْرسة جهات إشاعة الكراهية
18	إشكالية ازورار شبكات التواصل الاجتماعي عن تفعيل الخطاب الإصلاحي
20	ج. الجهود السابقة
26	د. أهداف البحث
27	هـ. خطة البحث
31	و. المنهج العلمي المعتمد
33	تمهيد: المفاهيم والامتدادات
33	المبحث الأول: تحديد المفاهيم مدار البحث
33	المطلب الأول: مفهوم شبكات التواصل الاجتماعي
40	المطلب الثاني: مفهوم الخطاب الدعوي
47	المطلب الثالث: مفهوم خطاب الكراهية
50	المطلب الرابع: مفهوم تعزيز التعايش الإنساني المشترك
51	المبحث الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي سيف ذو حدين، والخطاب الدعوي يوجهها نحو ما يبني المجتمع
51	المطلب الأول: مفهوم الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك: التقابل والغلبة
52	المطلب الثاني: خطاب الكراهية يستهدف الفئات المستضعفة، وتعزيز التعايش الإنساني يصلح أوضاعها
57	المطلب الثالث: دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني رهيان بالتوظيف الإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي وتفعيل الخطاب الدعوي

61	الباب الأول: إمكانيات شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي
65	الفصل الأول: إمكانيات التوظيف الفعالة لشبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي
65	المبحث الأول: تيسير شبكات التواصل الاجتماعي الجذب والمنافسة
65	المطلب الأول: شبكات التواصل الاجتماعي قادرة على جذب الجمهور
72	المطلب الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي مساعدة على المنافسة الناجحة
75	المطلب الثالث: بجذب الجمهور والمنافسة الناجحة تفعل شبكات التواصل الاجتماعي الخطاب الدعوي
80	المبحث الثاني: قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على تحديد فئات المستهدفين بالخطاب الدعوي
81	المطلب الأول: تحديد فئات المستهدفين بالخطاب: قواعد وطرائق
84	المطلب الثاني: تحديد الجمهور المستهدف يوجه نحو إنتاج الخطاب الدعوي بمواصفات خاصة
89	المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تمد الجسور مع الثقافات بتيسير الترجمة الفورية
89	المطلب الأول: الشابة تُوفّر مواقع الترجمة وتطبيقاتها
91	المطلب الثاني: استثمار الخطاب الدعوي إمكانيات توظيف الترجمة على شبكات التواصل الاجتماعي
94	المبحث الرابع: شبكات التواصل الاجتماعي منصات لإشهار التطبيقات الدعوية الإيجابية
94	المطلب الأول: تنظيم العمل الدعوي بتوظيف التطبيقات المتوفرة
96	المطلب الثاني: إنتاج تطبيقات دعوية إيجابية
98	المطلب الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بتوظيف التطبيقات الإيجابية
102	الفصل الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي تمكن من إعادة صياغة الإنسان صياغة إيجابية
102	المبحث الأول: شبكات التواصل الاجتماعي وتشكيل الإنسان
102	المطلب الأول: شبكات التواصل الاجتماعي محاضن مطروحة في الطريق

104	المطلب الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي محاضنٌ مغرقةٌ غيرٌ محايدة
107	المطلب الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تشكل النفسيات
111	المبحث الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي مؤهلة لصياغة الإنسان إيجابياً
111	المطلب الأول: اختيار الإيجابي المعروض في شبكات التواصل الاجتماعي سبيل إلى البناء الإيجابي للإنسان
112	المطلب الثاني: الارتباط الإيجابي الدائم بشبكات التواصل الاجتماعي يُكسب تمثّل الصفات الخُلقية الحميدة
117	المطلب الثالث: دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش نتيجةً للاستعمال الإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي
120	المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي جسر واصل بين الدعاة وبين الجماهير
120	المطلب الأول: إنجاح الخطاب الدعوي يستلزم الانعتاق من طابع التقليد في الدعوة
123	المطلب الثاني: وجوب تمثّل الدعاة ما يؤثر على المقصودين بالخطاب الدعوي
130	المطلب الثالث: توجيه الخطاب الدعوي نحو نبذ الكراهية وتعزيز التعايش محققٌ للوظيفة الأصلية لشبكات التواصل الاجتماعي
137	الباب الثاني: الآليات الأساسية لتفعيل الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي
139	الفصل الأول: آليات تواصلية
139	المبحث الأول: توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي
143	المطلب الأول: توظيف البريد الإلكتروني
148	المطلب الثاني: إنشاء المواقع الإلكترونية الدعوية الاحترافية
153	المطلب الثالث: إنشاء القنوات الناجحة على "اليوتيوب"
157	المطلب الرابع: إنشاء المجموعات التواصلية على شبكات التواصل الاجتماعي
162	المبحث الثاني: استثمار الخطاب الدعوي خدمات الترجمة إلى اللغات المختلفة
162	المطلب الأول: فَرَق الترجمة الدعوية روادئ للعبور إلى الثقافات المختلفة
166	المطلب الثاني: الانطلاق بالترجمة الدعوية من التحقق إلى الاستثمار

173	المبحث الثالث: استثمار الخطاب الدعوي خدمات التطبيقات الدعوية الإيجابية
173	المطلب الأول: تلبية طلبات المتابعين استباقياً
178	المطلب الثاني: تجديد المعلومات تبعاً لطبيعة المستجدات
180	المطلب الثالث: استثمار خدمات التطبيقات الدعوية في إزاحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش
183	الفصل الثاني: آليات تأهيلية
183	المبحث الأول: تفنُّح الدعاة على استعمالات شبكات التواصل الاجتماعي
183	المطلب الأول: عقد دورات تكوينية لفائدة الدعاة
187	المطلب الثاني: تقوية التنسيق بين الدعاة وتبادل التجارب والخبرات بينهم
195	المبحث الثاني: تمكين الدعاة من التقنيات التواصلية المؤثرة
195	المطلب الأول: ترسيخ اللّمسات الخُلقية المؤثرة
200	المطلب الثاني: تمكين الدعاة من تمثل صفات الأمانة الدعوية في التواصل
202	المطلب الثالث: تمكين الدعاة من امتلاك المؤثرات المظهرية والإخراجية
206	المبحث الثالث: توسيع مدارك الدعاة عن الثقافات المختلفة
206	المطلب الأول: الكشف عن خصائص الثقافات ونشرها بين الدعاة
209	المطلب الثاني: تفعيل الخطاب الدعوي بتقوية صفة الاقتحام لدى الدعاة
213	الباب الثالث: من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك: استشرافات مستقبلية
217	الفصل الأول: تصحيح المفاهيم المغلوطة
217	المبحث الأول: فهم حرية التعبير فهماً صحيحاً
217	المطلب الأول: استخلاص الفروق الأساسية بين حرية التعبير وخطاب الكراهية
223	المطلب الثاني: إدراك تأرجحات التعبير بين الحرية والاعتداء
226	المطلب الثالث: التمييز بين الحق في التعبير والواجب فيه
232	المبحث الثاني: تصحيح الفهم السائد عن إنسانية الإنسان
233	المطلب الأول: الفرق الوحيد بين الناس هو تقوى الله تعالى

237	المطلب الثاني: الفهم الخاطئ لمفهوم الإنسانية يُنتج الانحراف في الأقوال والأفعال
247	المبحث الثالث: تصحيح مفهوم الغائية من الوجود
247	المطلب الأول: خَلَقَ الناس لم يكن عبثاً أبداً
251	المطلب الثاني: بعد الموت هناك ثواب وعقاب
257	المطلب الثالث: للتعايش أجور، وللظلم ظلمات يوم القيامة
263	الفصل الثاني: رجوع الناس في المجتمع الإنساني إلى التزام الأخوة والتواد
263	المبحث الأول: تحقق الإقلاع عن خطاب الكراهية
263	المطلب الأول: تجفيفُ منابع خطاب الكراهية واجتثاثُ جذوره
268	المطلب الثاني: تطهير شبكات التواصل الاجتماعي من ترويج الكراهية
269	المطلب الثالث: أداء الخطاب الدعوي دوره المنشود في تحقيق الأخوة والتواد
273	المبحث الثاني: تحقق الشعور بالإنسانية المشتركة
273	المطلب الأول: استحضار وحدة الأصول يبعد التنافر
276	المطلب الثاني: إبعاد الفوارق يشعر الإنسان بحقيقته
279	المطلب الثالث: تحقق الشعور بأحوال الأقليات والمستضعفين
282	المبحث الثالث: تحقق الاستعدادات النفسية لخدمة المشترك الإنساني
282	المطلب الأول: تفعيل الخطاب الدعوي يوضح الحقائق ويزيح المغالطات
285	المطلب الثاني: تفعيل الخطاب الدعوي يطهر النفوس من الكراهية
289	المطلب الثالث: التطلع إلى بناء الأمة الإنسانية المتوادة
293	الفصل الثالث: تعزيز التعايش المشترك في المجتمع الإنساني
293	المبحث الأول: توليد الرغبة في التعايش
293	المطلب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل يستجلب نماذج التعايش من التاريخ
296	المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعّل يرسم السبيل للمحاكاة والاقتداء
300	المبحث الثاني: تثبيت الرغبة في التعايش
300	المطلب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل يوظف مثبتات الرغبة في التعايش

307	المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعّل يسوق الشواهد عن تثبيت الرغبة في التعايش
317	المطلب الثالث: الخطاب الدعوي المفعّل يَحْتِم على تثبيت الرغبة في التعايش
324	المبحث الثالث: تفعيل مقتضيات الرغبة في التعايش
324	المطلب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل يدحر خطاب الكراهية إلى الأبد
333	المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعّل يبني المجتمع الإنساني على التسامح
339	المطلب الثالث: من إصلاح المحلي إلى الانفتاح على الدولي والعالمي
351	الخاتمة
355	أولاً: نتائج البحث
358	ثانياً: توصيات البحث
361	قائمة المصادر والمراجع
361	أولاً: المصادر والمراجع العربية
369	ثانياً: مراجع أجنبية
370	ثالثاً: مواقع وروابط إلكترونية

مقدمة الجهات الراعية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
محمد، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين؛

يشهد العالم مرحلة مضطربة على الصعيدين الإقليمي والدولي، تفاقمت فيها الأزمات التي تهدد استقرار المجتمعات الإنسانية، والتي تُخِلُّ بالأمن والسلم الدوليين، مما ينعكس على رسالة الدعوة والإعلام، وعلى الدور الذي تضطلع به في نشر الحقائق، وتنوير العقول، وإشاعة الثقافة البانية، وترسيخ قيم التعايش والحد من الكراهية. ويعيش المجتمع الدولي اليوم واقعاً يسوده القلق والتوتر، ومن أسباب ذلك انحراف الإعلام عن أداء رسالته الإنسانية وعن قصور في الحوار بين الثقافات الإنسانية، ومن مظاهر ذلك الانحراف والقصور؛ عدم التمييز بين الحق في التعبير وواجب احترام حقوق الإنسان والكف عن ممارسة الكراهية. إن الحديث عن دور وسائل الدعوة والإعلام في ترسيخ قيم التعايش والحد من الكراهية لا ينفصل عن القضايا الرئيسية التي تشغل اليوم بال النخب الفكرية والثقافية والأكاديمية على الصعيد العالمي، والتي تشكل محوراً من محاور العلاقات الدولية في سياقاتها الثقافية خاصة ما يتعلق ببناء السلام من خلال نشر قيم الحوار والتعايش والتسامح، ودورهم في تطوير المجتمع واستقراره والتعايش بين مختلف فئاته باعتبار كل الوسائل صانعة للرأي العام، وبمثابة القوة الدافعة لطاقت الشعوب نحو تحقيق التقدم والازدهار والانفتاح على الآفاق الإنسانية، وإشاعة ثقافة اللئام والتسامح والتعايش والتفاهم والاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب. وإذا كان الحوار والإعلام الهادف إلى نشر الحقائق وتنوير الرأي العام يوفران أجواء التعايش السلمي بين الأمم والشعوب، فإنهما يساهمان كذلك في الحد من الكراهية والتمييز العنصري.

وإذا كان التعايش بين الأمم والشعوب يعد من أهم القيم التي على أساسها بُنيت العلاقات الدولية في المجتمع الدولي المعاصر، فإن ضرورة ترسيخ قيمه عبر مناهج التعليم والبرامج الإعلامية أضحت ملحة اليوم في ظل النظام الدولي المعولم، حيث

أزيلت الحواجز بين الأقطار والشعوب، وتضاءلت المسافات، وتشابكت المصالح بين الدول وامتزجت الحضارات والثقافات، فتداخلت مع بعضها البعض. ولذلك حاول المجتمع الدولي بتحريك من الدول المتبينة لحوار الحضارات؛ تأسيس جملة من قواعد القانون الدولي لحقوق الإنسان، وقواعد القانون الدولي المنظمة للممارسة الإعلامية والتي تؤكد جميعها على ضرورة التدخل للحد من تطاول كثير من وسائل الإعلام على حق الآخرين في احترام خصوصياتهم الدينية والثقافية، من أجل تعزيز قيم السلم والأمن والعيش المشترك؛ فالجهاز الاتفاقي لحقوق الإنسان، على سبيل المثال، وضع قيوداً لحرية الرأي والتعبير عبر وسائل الإعلام، إن هي تمادت في التعدي على الحياة الخصوصية للأفراد أو حاولت المساس بأمن الدول، أو بالنظام العام، بمختلف مكوناته الاجتماعية والاقتصادية، أو عندما تتجراً على إثارة وتشجيع العنصرية والكراهية بمختلف ضروبها. إن هذه القيود التي يحفل بها القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الدولي للإعلام قد صارت قواعد أمر لا تجوز مخالفتها اتفاقاً.

كما أصبح من الضروري توعية المؤسسات الدعوية والإعلامية بالتأثيرات السلبية لخطاب الكراهية في المجتمعات، وتمكين الدعاة والإعلاميين من امتلاك أفضل تقنيات ومهارات تحليل خطاب الكراهية، وإنتاج مضامين إعلامية بديلة تحثُّ أفراد المجتمع على التشبّع بقيم التعايش وأهمية التسامح واحترام الآخر. كما أن دور وسائل الدعوة والإعلام سيكون فاعلاً ومؤثراً في ترسيخ التعايش ومواجهة الكراهية عندما تقوم هذه الوسائل، في شكلها التقليدي والجديد، بالتعريف بالثقافات والتقاليد والمعتقدات المختلفة للقضاء على الصور النمطية التي تعزز مواقف الكراهية داخل وسائل الإعلام. ولتحقيق هذه الأهداف، فإن الحاجة ماسة لتطوير القدرات المهنية والتواصلية للدعاة والإعلاميين من أجل التعرف على خطاب الكراهية ومواجهته بأنجع الطرق.

وفي هذا السياق، وحيث إن وسائل الدعوة والإعلام تعد من أهم آليات التعبير في العالم المعاصر، ومن المقومات الأساسية لنشر قيم التسامح وتعزيز التعددية والتنوع الاجتماعي وضمان السلم والأمن، ووعياً من الجهات المشرفة على تنظيم جائزة قطر العالمية لحوار الحضارات بأهمية انخراط الباحثين في الجهود الدولية الهادفة إلى

ترسيخ قيم التعايش والحد من خطاب الكراهية، وإسهاماً منها في تفعيل القرارات الأممية الداعية إلى حظر نشر الأفكار القائمة على الكراهية العنصرية، وحرصاً منها على تشجيع ودعم إنتاج خطاب إعلامي رصين وموضوعي قائم على المصادقية وقادر على الحد من خطاب الكراهية والدعوة للتسامح ونشر قيم التعاون والسلام، فقد تم اختيار التوافق والإجماع على أن تخصص الدورة الثالثة لجائزة قطر العالمية لحوار الحضارات، لعام 2020-2021، لقضية مهمة وذات أولوية في واقعنا المعاصر، فكان موضوع: ”دور وسائل الدعوة والإعلام في ترسيخ قيم التعايش والحد من خطاب الكراهية“ مجالاً للمنافسة بين الباحثين؛ وقد فاز هذا البحث الذي نقدم له بالمرتبة الثالثة في سياق تنافسي متميز، وهو بعنوان ”شبكات التواصل الاجتماعي وآثارها في تفعيل الخطاب الدعوي من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك“ للباحث د. عبد السلام رياح من المملكة المغربية، حيث أشاد المحكمون بمضمونه وعمق أفكاره وسلسلة أسلوبه وتناسق مخرجاته مع مخرجات موضوع الجائزة المشار إليه سابقاً؛ ويسعدنا أن نقدمه للقراء الكرام، آمليين أن يفتح آفاقاً في البحث العلمي في الموضوع المطروح، وأن يوسع دائرة النظر وزوايا المعالجات في الإشكالات المتعددة التي يحفل بها عالم التواصل الإعلامي والاجتماعي.

د. أحمد بن حسن الحمادي

نائب رئيس اللجنة القطرية لتحالف الحضارات

د. إبراهيم بن عبد الله الأنصاري

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

أ. بواعث التأليف في الموضوع:

من المفارقات الغريبة التي لا يقبلها عقل سليم ولا يستسيغها كائن فهيم، أن نجد ما يجمع بني الإنسان أكبر مما يفرقهم من جانب، وهم في واقعهم أشتات وأوزاع، وأن يكون ما يوحدهم أقوى مما يشتتهم في حقائقهم الإنسانية، ولكنهم من حيث ممارساتهم ومواقفهم قد مُرِّقوا كل مُمَرِّق وتناثروا في الأرض أيادي سبا؛ فكل حزب بما لديهم فرحون، وكل قبيل منهم قد ولى وجهه شطر جهة يجد فيها ضالَّته، وينتشي بما يراه في مرآتها فيخادع نفسه، ويستجيب لغروره واستكباره، ويعادي بني جلدته وشركائه في أصله، ويعلن كراهيته السَّمَّجَة لكل مخالف فيه في الرأي أو العرق أو اللون أو الدين والمعتقد.

إن هذا الأمر لم يستقر، في المجتمع الإنساني المعاصر، في حدوده العادية الساذجة، فيمارس كما يمارس بين الأطفال الصغار الذين لم يعرفوا من الحياة شيئاً، ولكنه أصبح ثقافة ينظر لها، وتدوّن بها المظانّ والمؤلفات والمواقع والمدونات، ويسعى أصحابها إلى توسيع دوائر الأتباع وحشو عقولهم، فيستجيب كلُّ خَفِيف عقل، وكلُّ من نسي أصوله الإنسانية المشتركة، لإثاراتها الداعية إلى التفرقة وغرس الكراهية في النفوس، حتى شاعت ثقافة الصدام في الحياة الإنسانية المعاصرة، فأصبحت مألوفة عادية في حياة الناس، فاختلط فيها الحق والواجب، فلم يعد يدري المرء ماذا يقدم وماذا يؤخر. فإذا كان مستهدفاً بخطاب الكراهية تجده يتراجع إلى المواقع المتأخرة، وينكمش على نفسه فيعود القَهْقَرى، وإذا كان ممارساً له، قائماً بزلاته فيه، فإنه يظن ظن اعتقاد أنه صاحب حق في ما يأتيه منه. فترى الحق والواجب قد ضاعا معاً، فيتلاشى واجبه تجاه بني الإنسان من جهة، وتذوب حقوق الآخرين من خلال تصرفاته من جهة أخرى.

إن التساؤل الذي يلح علينا كثيراً لنطرحه في هذا السياق هو المتمثل في مَنْ المستفيد من ترويج خطاب الكراهية بين الناس؟ فكثيراً ما تكون الأوضاع هادئة، والعلاقات الرابطة بين الشعوب والأمم علاقات جوار قائمة على التواد والتعاون

والتراحم، وبين عشية وضحاها تنقلب الأمور رأساً على عقب، فتجد التوترات مواقع لها، وتجد الأوصاف القذرة الدافعة إلى كراهية طرف والميل نحو طرف آخر بروزاً في المصاف المتقدمة، فما تلبث أن تتحول إلى حروب وقتال ودماء وإزهاق أرواح وتشريد أطفال وإبادة حياة.

إن المرء ذا اللبِّ الحَصيف لا يستجيب للتحويلات المرئية رأي العين فيقتصر على رؤيتها على الحال التي هي عليها، ولكنه يبحث عن خلفياتها التي انبثقت منها شراراتها الأولى، ويتتبع مقاصدها لتكتمل صورتها الحقيقية لديه. وحين يفعل ذلك، تتبين له الأصول الأولى لكبائر الشرور، فتتجلى في صورة ترويج خطاب الكراهية بين الطرفين وقد تولَّى كِبَرَ تشكيلها طرف ثالث، فتتسع الهوة، وتعظم الرقعة، وتندلع النيران الحارقة بلا هوادة.

فمن يحرك خطاب الكراهية هو من يستفيد من تفرقة الناس، ومن يؤجج دواخل النفوس تجاه طرف معين، فيحرك النزوات ويؤجج العداوات، هو من ينشد مصلحة من ذلك، قد تكون مصلحة هينة وقد تعظم عظماً لافتاً يحقق به مآرب ينشدها في الحياة. فتراه يسعى نحو تجفيف منابع الإصلاح، وتجده يحث الخطى نحو توسيع الهوة بالتفرقة والكراهية وإغلاق أبواب التضامن والتكافل والتعاون، فيصير الواقع مسمماً، والأفق مسوداً، والسماء مُكفَهَرَةً الأديم، فيغدو الواقع قطعاً فسيفسائية؛ أفراداً وجماعات وأشلاءً وأوزاعاً.

فالمصلحة الدنيئة التي قد تكون نفسية أو مادية أو اجتماعية أو غيرها هي المتحكمة في ترويج خطاب الكراهية وإمداده بالوقود اللازم، وكلّما خَبَت ناراها زادها المستفيدون من المصلحة سعيراً.

ولقد كان من الأولى أن يكون المجتمع الإنساني يداً واحدة، كل طرف منه على ثغرة ينبغي ألا يمس المجتمع منها بأذى، فما يوحد المجتمع الإنساني أكبر مما يفرقه، وما يجمع بين أفرادهِ أقوى مما يشنت شملهم، فيكون من الواجب البحث عن السبل اللاحبة التي تزاخ فيها الخطابات السلبية جميعها، فلا يعكر صفو الحياة، وتُرأب ثُلوم المجتمع الإنساني المتصدعة، ويخبو أوار نيران الحروب المتأججة، ويرفل بنو الإنسان في ظلال الفرص الإيجابية التي تعرضها عليهم الحياة في كل حين.

إن موضوعنا لما ينصرف باهتمامه نحو توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل الانتقال بالإنسانية من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك، يكون قد انصرف إلى البؤرة التي إذا صلحت صلح واقع الإنسانية كله، وإذا فسدت فسد واقعها كله؛ فهو متعلق بالإنسانية العامة، التي إذا اضطربت أو اكفهرت فإنها تحوّل بين التقدم الاقتصادي وبين أن يمنح أصحابه لذته، وتدفع التقدم الثقافي عن أن يوجد على الناس بالانتشاء، وتعرض بوجهها الكالح عن أن يكون للتقدم الاجتماعي عطاؤه في البناء والهناء ورص الصفوف.

ب. إشكاليات الموضوع:

تتعدد إشكاليات موضوع البحث تعدداً لافتاً. وهي بذلك تتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع التشعبات التي يحبل بها الموضوع. فبعد أن كانت الإشكالية الواحدة - كما ينبه على ذلك محمد عابد الجابري "منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين (فكر فرد أو فكر جماعة)، مشاكلٌ عديدة مترابطة، لا تتوافر إمكانية حلها مفردةً، ولا تقبلُ حلاً من الناحية النظرية إلا في إطار حلٍّ عام يشملها جميعاً"⁽¹⁾، فإنها تصير حزمة من الإشكاليات الفرعية التي تصب في بُورٍ خاصة، ما تلبث أن تتجمع في محضن واحد تتشكل منه الإشكالية الأم. وهي التفرعات التي نحب أن نقف عليها في الفقرات الآتية:

• إشكالية الاختلاف بين الواقع والمأمول:

يحبل الواقع الإنساني المعيش بتجليات مختلفة من خطاب الكراهية؛ فرواد ذلك الخطاب متعددة؛ حيث يظهر منها المنظم المنطلق من خلفيات، المستهدف تحقيق مقاصد وأهداف. ويظهر إلى جانبه ما ليس كذلك، مما لم يكن صادراً عن رؤية ولا ناشداً بغية محددة؛ فصاحبه ينطق بما لا يسمع، فتستهويه كل صيحة في واد، وتشده للإخلاد إليها كل زوبعة يأتي بها قوم آخرون، فيلوك ما يلوكون، ويرد ما يرددون، من غير إدراك للمنطقات ولا للمستقرات.

1. محمّد عابد الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993م، ص 27.

فإذا كان الواقع يشتمل على هذا الخليط من إمدادات الروافد المختلفة التي تتخذ في النهاية صبغة واحدة، وتحمل علامة ترويجية واحدة، فإن حامي شاراتها ليسوا من فصيل اجتماعي واحد؛ فمنهم صاحب النزوع العرقي الذي يستهويه الدم فيرتد دوماً إلى الأصول، ومنهم من ينشدُ إلى الجغرافيا فيخلدُ إلى الأرض والتراب، ومنهم عابر السبيل الذي يتبع كل قوم ويردد ما يرددون، ومنهم المتدين الذي يميل إلى ما يختص به معتقد بعينه، ومنهم من لا دين له.

وقد يبدو أن روافد الكراهية مختلفة، ولكن القاسم المشترك بينها جميعاً أنها تضر ولا تنفع، وتشتت ولا تجمع، وتمزق المجتمع الإنساني كل ممزق، فتجعله هباءً منثوراً.

ولكن المأمول الذي ينشده موضوع البحث يصب في مسار نقيض تماماً؛ فينشُد إصلاح الفاسد، وإزاحة المختل، ويتطلّع إلى صناعة المستقبل الإنساني السوي. وما تأتي به الروافد المذكورة سلفاً صباح مساء، وتتقمصه الفئات المرتبطة بها قبل، يستعصي على من يريد إزاحته عن الواقع للوصول إلى ما يريد؛ حيث يبدو أنه أخلاق وتنظيرات وجدت لنفسها مَنابِتَ في أصول النفسانيات وأعماقها. ومن ثم، فقد بُعدت الشُّقَّة بين كثير من واجهات المجتمع وبين قبول دعوات الإصلاح.

إلا أن صورة الاختلاف بين الواقع والمأمول إذا كانت تُثير الرعب وتُشيع الخوف في النفوس المتطلعة إلى إصلاح الأوضاع، لما بين البناء والهدم من بعد شقة، ولما يسببه عنثُ إرجاع المجتمع الإنساني إلى جادة الصواب من متاعب ومشقات، فإن أمور الإصلاح ليست متعذرة، وإيجاد مساحات الأخوة والمودة والرحمة بين الناس أقرب إلى المصلحين الغيورين على الإنسانية من حبل الوريد.

فكما قابل الأنبياء والرسل والمصلحون الاختلالات بصدور مقبلة راغبة في انتشارال بني الإنسان مما هم فيه إلى أوضاع الصلاح والفلاح والنجاح، فنجحوا في الوصول إلى ما أرادوا، رغم رفض الرافضين ومكر الماكزين، فإن قضية الإصلاح التي ينشد معالجتها موضوعنا- وهي قضية ثنائية جزئية فريدة- يتولى الخطاب الدعوي اجتثاث طرفها الأول من جانب، ويتولى غرس طرفها الثاني وتثبيته من جانب آخر، إذا وجدت العزائم الناضجة الراغبة التي تتولى القيام به.

فالقضايا التي تولّى الأنبياء والرسول والمصلحون إصلاحها كانت قضايا مجتمعاتهم كلها، وموضوعنا يريد للخطاب الدعوي أن يتولى هذه القضية الثنائية فقط، فضلاً عن كون الأولين كان يفرض عليهم أن يلاقوا، خلال دعواتهم، أفراد المجتمع واحداً واحداً، حتى يحققوا ما أرادوا. والمسألة المعروضة بين أيدينا تتخذ مراكب إصلاحها من شبكات التواصل الاجتماعي، وهي تقنيات تواصلية عصرية واسعة الانتشار، قوية التأثير؛ حيث ضغطة زرٌ تُبلغ ”الكل“، وردُّ موجهٌ واحد يستفيد منه الجميع؛ فإذا وُظِّفت وجد القائل فيها آذاناً مصغية، وإذا استثمرت آلياتها ومداخلها استثماراً إيجابياً، فإنها تأتي بكل عطاء غير مجذوذ. ولذلك، فأملنا كبير في توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي للحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

• إشكالية ضعف جهات تعزيز المشترك الإنساني وغُطْرسة جهات إشاعة الكراهية:

إن الضعف هنا ليس مادياً، ولكنه ضعفٌ صاحب الأخلاق أمام من يفتقدها؛ فالمعجم الخلقي معجم بنائي إصلاح، والآخر معجم لا ضابط له، فينطق صاحبه بالفحشاء ويتفوّه بالخنا ويرفع صوته بما لا يليق، كفعل مَنْ قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ”وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ“⁽²⁾. وشتان بين من يطلب وقاراً واتزاناً ينسجم مع ما يعلن أنه من أهله، من أخلاق ودين وسمت طيب، وبين من لا يرعوي لذلك كله، ولا يهتم لأحكام الآخرين ونظراتهم وانعكاساتها على دينه وخلقه. حتى إذا وجدا معاً في مشهد جامع فإن الجمهور غير المنضبط تستهويه العبارات غير الخلقية فيتفاعل معها بما يجعل المجرّد من الأخلاق ينتشي بإحساس المتفوق المتحكم البطل.

والأغرب من هذا، أن يُبدي المتفاعلون المائلون عن الحق حميةً ويبدون مناصرة لما يحدث جراحاً نفسية مُزوّرين عن بناء أقوالهم على الحجة والدليل. فالذي يهم لديهم

2. رواه البخاري في الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ، في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم: 34، 1/ 16، ومسلم في المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم: 58، 1/ 78.

يتحدد في الخوض في الكلام وإن كان بغير ضابط، ويركن إلى الميل عن الحق لصالح من أبدى تبجحاً وصلافة وإن كان ظالماً.

إن ملامح هذا التوجه هي الملامح التي طالما اعتز بها من كان مطموراً في أخلاق الجاهلية التي يحيل عليها قولهم السائر: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، والتي يدفعنا إلى استحضارها قول شاعرهم⁽³⁾: (البسيط)

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهُمْ *** طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ *** فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا

وهكذا، فإن صيحة واحدة من صاحب خطاب الكراهية تجعل المجتمع يستجيب من غير تبين ولا وقوف على حقائق الأشياء، فيحسبون كل صيحة عليهم، ويستجيبون لكل ناعق وهم يجهلون ما يخص المسألة التي يخوضون فيها. وقد قالوا قديماً: "لو سكت الجاهل لقل الخلاف".

فالخوض في المسألة الواحدة بمعجمين مختلفين؛ معجم بانٍ وآخر هادم، وبالاحتكام لرؤيتين متباينتين؛ إحداهما تريد إصلاحاً للمجتمع، فتستحضر تبعات كل ازورار عن مسارات الإصلاح في الأقوال والأفعال، وأخراهما تريد هدماً لما هو قائم، أو على الأقل، لا تستحضر بناء ولا ما يلزم البناء، ستكون له عواقب غير محمودة؛ حيث توجهات الخطابات متباينة، ومقاصد القائمين بها متباعدة متناقضة. وهو الأمر الذي يجعل المجتمع مقسم الأوزاع، متناثر الأطراف، يخبط خبط عشواء في حله وفي ترحاله.

• إشكالية ازورار شبكات التواصل الاجتماعي عن تفعيل الخطاب الإصلاحي:

إن الفرق بين البناء والهدم فرق شاسع، وإن البون بين الإصلاح وغيره بون لا يقدر. فإذا أضيف إلى ذلك كون الفضاء المستفاد من معطياته فضاء مغرقاً في

3. نسبت هذا القول مصداقاً كثيرة لقرطوب بن أنيق الغنيري. نذكر منها: ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام جبيب بن أوس (ت: 231هـ)، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ت: 502هـ)، دار القلم، بيروت، دون رقم للطبعة ولا تاريخ، 3/1، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت: 1093هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1418هـ- 1997م، 7/ 445.

الذاتية حتى كأنه إعلام فردي، يقول فيه المرء ما يشاء، ويسكت فيه عما يشاء، وينطلق فيه مما يشاء، ويستقر أينما يشاء، فإن خطورته تكون أكبر مما يتصور، ولا سيما أن هذا الفضاء صار يمنح الإمكان لكل من هب ودب ليدي بدلوه في كثير من المسائل التي تتجاوز المتخصصين أن يعالجوها فرادى، فتحول من التلقي السلبي إلى المشاركة الفعالة والتحرر من الرقابة الأمنية والقانونية والاجتماعية؛ فيسبُّ ويُشهر بدون مراقبة ولا متابعة، ويطلق العنان للسانه ليقول الكائن والمحال.

فمن هنا أصبح من أخص خصائص فضاءات شبكات التواصل الاجتماعي أن تكون محاضن تجمع الغثَّ والسمين، والصحيح والموضوع، والحق والباطل، وتجد فيها الخطاب الدعوي الإصلاحى النظيف وتجد غيره من سفاسف الأمور التي تزرى بالمجتمع، كما تلاقي فيها التصرفات الفردية الطائشة، وتلاقي الإنتاجات المنظمة المؤطرة برؤية بنائية أو تدميرية. وهي غير ملتزمة في ذلك كله بتحقيق التوازن بين هذه الثنائيات في أي تجلٍّ من تجلياتها، بل إنها تجعل نسبة الإيجابي منها إلى نسبة السلبي الذي لا ينضبط لرؤية إصلاحية قليلة جداً. ومن ذلك القليل ما يحتاج إلى تصفية وإزاحة شوائب.

فنسبة الصلاح في شبكات التواصل الاجتماعي إلى نسبة غيره فيها، متناسبة تماماً مع نسبة الصلاح في واقع الناس إلى نسبة الفساد فيه. فالذي يُبثُّ فيها إنما هو نتاج ما يُبثُّ في المجتمع، والأخلاق السائدة فيها هي بنت التربة التي يفرشها الناس في حياتهم الواقعية. فإذا كان الواقع يشهد على نفسه بالاختلال والاوزار عن مسالك الهدى إلا لماماً، فإن النتاج الذي يبث في شبكات التواصل الاجتماعي لن يكون إلا متناسباً مع أصله الذي أنتجه. ولذلك، فإن شبكات التواصل الاجتماعي لن تنصرف باهتمامها إلى تفعيل الخطاب الإصلاحى إلا بمقدار. وهو ما يكون أضعف بكثير مما تُقدِّمه من خدمات مختلفة للجهات المنافسة.

ج. الجهود السابقة:

لم تكن إنتاجات الدارسين والباحثين في موضوع شبكات التواصل الاجتماعي وآثارها في تفعيل الخطاب الدعوي: من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك على نمط واحد، ولم تكن على صورة واحدة؛ فالموضوع يقوم على شقين كبيرين. أولهما يتعلق بآثار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي. وثانيهما يهتم بمكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

إن الشق الأول من الموضوع شق حديث؛ فهو تابع لهيمنة شبكات التواصل الاجتماعي على المشهد الإعلامي والتواصلي اليوم. وهي هيمنة حديثة جادت بها التحولات الاجتماعية والثقافية والعلمية التي يعرفها التطور العالمي المتسارع. ولذلك، فإن اتخاذ شبكات التواصل الاجتماعي بؤرة انطلاق من أجل رصد آثارها الواقعية والمحتملة في تفعيل الخطاب الدعوي، سيكون موضوع بحث لم تنتهك فيه الأقلام بعد، ولم يسئل فيه مدادٌ كافٍ للإحاطة بأمره جمعاً.

فهذا الشق مطبوع بالتّوق نحو استثمار مكوّن في تحقيق تفعيل مكوّن ثان. والتوجّه نحو التفعيل يقتضي استحضار تحقيق المرغوب في تفعيله وجوده؛ فهو موجود إلا أنه غير مفعّل، أو أنه موجود ولكنه يعمل على شاكلته تبعاً لما أحاط به من ظروف وملابسات اجتماعية وثقافية ودينية وسياسية، جعلته يتخذ هيئةً تصورية في الأذهان، تحيل على نمط من الخطاب يلقي بطريقة من الطرق.

وأما الشق الثاني من الموضوع، فإننا نجد شائعاً متداولاً قديماً؛ فالحديث عن خطاب الكراهية ومكافحته والتعايش الإنساني المشترك وتعزيزه حديثٌ يعمر المكان ويصكُّ الأذان، فنحن نلفاه منتصباً في أنشطة المنظمات والجمعيات والجهات المناهضة للسلوكات غير السوية، إلا أننا نجد ذلك معروضاً بطرائق شتى، منطلقاً من رؤى متباينة لا يجمعها جامع.

إن جدّة شبكات التواصل الاجتماعي والتطلع إلى استثمارها في تفعيل الخطاب الدعوي، كان لهما أثر بالغ في عدم توازن الجهود السابقة للدارسين والباحثين؛ فقد كان الاهتمام القديم منصباً على الشق الثاني من موضوعنا، فأولاه هؤلاء نصيباً

موفوراً من التفكير وبذل الجهد وتحديد المخاطر والانعكاسات ورصد الأبعاد وتتبع الخلفيات واقتراح الحلول. إلا أن رصد آثار هذه الشبكات في تفعيل الخطاب الدعوي لم يظفر من تلك الجهود إلا بالنزر اليسير.

ولذلك، فإننا لن نخضع لعدم التوازن في الإنتاج، ولن تستهويننا هيمنة الجهود المبذولة في شق على شق. ومن ثم، فإننا سنقتصر على إيراد الإنتاج الذي يتماس مع جانب من الجوانب التي ننشد فيها ضالتنا المتمثلة في استثمار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي الموجه نحو مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني تحديداً. فنحن لن نهتم بكل ما يروج في شبكات التواصل الاجتماعي، ولن نتتبع قضايا الخطاب الدعوي جميعها، ولكننا سنولي اهتمامنا لهذين المكونين برصد آثار الأول في تفعيل الثاني لمكافحة الثالث وتعزيز نقيضه. وليكن ما نريده متمثلاً في ما يلي:

- **مكافحة خطاب الكراهية في الإنترنت⁽⁴⁾**، لأغنيو كاكاياردون، ودانيت كال، وتياغو ألفي، وغابرييلا مارتينيز. وهو بحث من البحوث القيمة التي اهتمت بمكافحة خطاب الكراهية على الإنترنت. وقد تشكل من ست محطات بحثية؛ تمثلت ثلاث منها في تمهيد ومقدمة وإعلان عن معالم المنهجية. وقد حدد فيها مؤلفو البحث مفهوم خطاب الكراهية والمفاهيم التي ترتبط به، كما حددوا فيها مميزات هذا الخطاب المرتبطة بالإنترنت وردود الأفعال القانونية وغير القانونية تجاهه. وأما المحطات الثلاث الأخرى، فقد اهتمت أولاً بالأطر القانونية الدولية الخاصة بخطاب الكراهية وتحليلها من أجل مواجهة الظاهرة. وانصرفت ثانيها لمعالجة جانبين من الجوانب التي لها علاقة بهذا الخطاب على الإنترنت؛ تحليل ردود الفعل الاجتماعية بعد رصدها وتعبئة المجتمع المدني من أجل الضغط على الشركات الخاصة المهيمنة على الإنترنت، ثم مواجهة هذا الخطاب من خلال الوسائط الثقافية، كالترقية على المواطنة والمواطنة الرقمية، والتربية والتعليم، والوسائط الإعلامية.

4. مكافحة خطاب الكراهية في الإنترنت، لأغنيو كاكاياردون، ودانيت كال، وتياغو ألفي، وغابرييلا مارتينيز، ترجمه إلى العربية طاهر طرورات، اليونسكو، الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، والمكتب الميداني لليونسكو في المغرب، باريس، فرنسا، 2015.

• وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة الدعوة الإسلامية، لسامر أبو رمان⁽⁵⁾.

وهو بحث محدود الصفحات إلا أنه عظيم الفائدة؛ حيث إن صاحبه يلقي بين سطوره وفقراته إشارات جليّة جداً، تشبه الومضات التي تدل على الطريق في الليلة الظلماء. فالاقتراحات التي يتضمنها هذا البحث تستهدف الإرشاد إلى التوجيه الأمثل لشبكات التواصل الاجتماعي من أجل أن يكون لها أثر على الخطاب الدعوي، ولا سيما في ما يتعلق بقياس الرأي العام والتأثير فيه. وهو عمل يتوجه باهتمامه نحو الفئات المستهدفة بالخطاب؛ إذ إن ما ينشده الخطاب الدعوي وما يرومه القائلون عليه، إنما يتحدد في التأثير في المخاطبين وتوجيههم نحو التمسك بسلوك يرتضيه الدين الإسلامي لهم. فهم الغاية والمبتغى، وهم الذين إذا اهتدى منهم واحد فقط ظفر من كان سبباً في هدايته بأجر أعظم من حمر النعم.

لقد اقترح صاحب البحث على المشتغلين بالخطاب الدعوي تسخير طريقة البيانات الكبرى في استطلاعات الرأي واستثمارها في معرفة ما يطلبه الجمهور المتابع لمحتويات شبكات التواصل الاجتماعي. فهي تحقق ما تحققه استطلاعات الرأي التقليدية حول مسألة من المسائل التي تشغل الرأي العام، متجاوزة إياها بأضعاف عديدة، فتحلل مضمون الشبكات الهائل ما بين غمضة عين وانتباهتها، وتستخرج نتائج ذلك قبل أن يرتد إلى المرء طرفه.

ونبّه صاحب البحث ثانية على أن شبكات التواصل الاجتماعي غدت أوعية حاملة لتوجهات الناس وأفكارهم التي يقدمونها تقديماً مجانياً على أطباق من ذهب لهذه المنصات. ولذلك، فإن المشتغلين بالخطاب الدعوي ينبغي لهم أن يقتنعوا بأهمية توظيفها واستثمار خدماتها في معرفة الأفكار الرائجة والتوجهات المستجدة وخصائص الفئات المستهدفة ولامحها المميزة.

وورد في البحث ثالثة إرشاد آخر إلى أن الدعاة ينبغي لهم أن يعتمدوا البرمجيات الجديدة لقياس الرأي العام عبر وسائل التواصل الاجتماعي حول مسألة محددة

5. وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة الدعوة الإسلامية، سامر أبو رمان، مجلة المجتمع، الكويت، 12 ديسمبر 2017. وهو بحث متوفر على الرابط: <https://bit.ly/3sBJVCv> - تاريخ الاطلاع: 2020/10/06.

يكون التنسيق بخصوص معالجتها قد قام على قدم وساق من لدن الدعاة؛ حيث يمكن فرز الآراء الرائجة بخصوصها، وتفييء المواقف الخاصة بها، والحجج التي تقوم عليها الدعاوى عبر الشائكة كلها، ولا سيما وسائل التواصل الاجتماعي منها، ومقابلتها بما يناسبها من خطط المعالجة المناسبة، تبعاً للجهات التي تصدر عنها؛ سنّاً وثقافةً وانتماءً عرقياً ودينياً ولغوياً وجغرافياً.

وإلى جانب الاقتراحات السابقة، فقد انصرف الباحث باهتمامه إلى الإلحاح على الدعاة للاستفادة من خدمات شبكات التواصل الاجتماعي والتطبيقات المنشورة عليها، من أجل تحقيق التتبع الفوري لمحدثات الرأي العام، ومن أجل التمكن من تتبع ما يعرض من لدن الدعاة من مواضيع. وقد اقترح الباحث، إلى جانب هذا، إمكان استخدام هذه الشبكات في جمع البيانات، من خلال إرسال استطلاعات الرأي التي تعرضها جهات مختلفة، باشتراكات مجانية أو مدفوعة.

• التقرير العلمي لورشة العمل المتخصصة بشأن توظيف الإعلام وتكنولوجيا

الاتصال لمواجهة خطاب الكراهية والتطرف⁽⁶⁾، وهو تقرير صدر عن جامعة الدول العربية، وانبئ من أربعة محاور وتمهيد وخاتمة. وقد اهتم محوره الأول بالمفاهيم العامة بشأن الإعلام والإعلام الرقمي وخطاب الكراهية والتطرف؛ فحددت فيه مفاهيم هذه المكونات تحديداً استوفى الجوانب اللغوية والاصطلاحية والتداولية.

وأما المحور الثاني، فقد ناقش فيه المتدخلون دور وسائل الإعلام العربي ومدى تأثيرها على المجتمع. وقد طفت على سطحه مجموعة قضايا، مثل التحريض، ومسألة الدعوة إلى التزام الإبراهيمية في التدئين، وغياب المهنية في مناقشة خطاب الكراهية، والتحولات التي صارت تظهر بوضوح في ما يتعلق بالحروب؛ فقد استبدلت الحروب العسكرية بالحروب الإعلامية.

6. التقرير العلمي لورشة العمل المتخصصة بشأن توظيف الإعلام وتكنولوجيا الاتصال لمواجهة خطاب الكراهية والتطرف، جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، قطاع الإعلام والاتصال، إدارة البحوث والدراسات الاستراتيجية، مطبعة جامعة الدول العربية، المعادي، القاهرة.

وأما المحور الثالث، فقد عُرضت فيه الأساليب الفنية في تجارب الدول الأعضاء لمواجهة خطاب الكراهية والتطرف. وقد أورد فيه المتدخلون نموذجين؛ خص أحدهما دار الإفتاء المصرية، وتعلق ثانيهما بمدخلة الكنيسة القبطية. وأما المحور الرابع، فقد اهتم بمناقشة المعالجة الإعلامية لخطاب الكراهية والإرهاب.

موقع البحث من البحوث السابقة:

لكي يتبين لنا موقع بحثنا من البحوث السابقة، ينبغي أن نعرض المحتويات التي عالجت تلك البحوث على المحتوى الذي اشتمل عليه بحثنا، حتى تتوضح لنا الأهداف التي كانت تتشدها في مقابل المقاصد التي كان بحثنا يروم تحقيقها. وسنتبع ذلك بالوقوف على كل بحث على حدة، وليكن ما نريده متمثلاً في الفقرات الآتية:

• موقع البحث من بحث "مكافحة خطاب الكراهية في الإنترنت":

إن هذا البحث من البحوث القيمة التي اهتمت بمكافحة خطاب الكراهية على الإنترنت. وقد اتسع فيه الفضاء الذي يُرصد فيه خطاب الكراهية كثيراً، فشمّل الشبكة كلها. وهذا الاختيار يختلف عن الاختيار الذي وجهنا إليه بحثنا؛ حيث تمثل الفضاء الذي اهتم به في شبكات التواصل الاجتماعي فقط، فلم تمتد الأبصار فيه إلى خارجها إلا لمأماً.

وفي ما يتعلق بخطة التدخل الإصلاحية التي يمكن أن تعتمد في الخروج من هذا الوضع المزري الذي تعانيه الإنسانية؛ مشرقاً ومغرباً، فإن البحث لم يضع منها معلماً واحداً. وهو ما أبقاه في مستوى وصف الظاهرة، فلم يبرحها، ولم يقدم مقترحات للإنسانية لتتمسك بها للخروج مما هي فيه. ولكن بحثنا قد قام على خطة تدخل تمثلت في استثمار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

• موقع البحث من مقال ”وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة الدعوة الإسلامية“، لسامر أبو رمان:

لقد اتخذ صاحب البحث معلمين بارزين لبحثه؛ أولهما ”وسائل التواصل الاجتماعي“، وثانيهما ”خدمة الدعوة الإسلامية“. وهما معلمان يحيلان على ما يمكن للدعوة الإسلامية أن تستفيد من وسائل التواصل الاجتماعي، فتستثمر التقنيات التواصلية الجديدة، من أجل أن تحقق أكبر مردود بأقل مجهود. وفي ما يخص بحثنا فقد اتخذنا له ثلاثة معالم؛ أولها شبكات التواصل الاجتماعي، وثانيها الخطاب الدعوي، وثالثها مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

والملاحظ أن المقال- رغم قلة صفحاته وتركيز توجيهاته- يتقاطع مع بحثنا في المعلمين الأولين؛ حيث يكون السعي حثيثاً نحو استثمار خدمات شبكات التواصل الاجتماعي وتقنياتها الجديدة من أجل خدمة الخطاب الدعوي. ولكنهما يفترقان بعد هذا؛ حيث يتوقف المقال، أو يفتح على كل إنجاز محتمل للخطاب الدعوي أن ينصرف إليه. ولكن بحثنا يواصل المسير، فينصرف نحو معالجة مسألة مؤسسة على شقين؛ مكافحة خطاب الكراهية، وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

ولذلك، فإن بحثنا يتجاوز الحدود التي خطها المقال لنفسه، فيتميز عنه بسعة أبوابه وفصوله ومباحثه ومطالبه، كما يوجه الطاقة من أجل مكافحة مسألة محددة في حياة الناس وتثبيت نقيضتها عبر مبدأي التخلية والتولية.

• موقع البحث من بحث ”التقرير العلمي لورشة العمل المتخصصة بشأن توظيف الإعلام وتكنولوجيا الاتصال لمواجهة خطاب الكراهية والتطرف“:

لقد تناول البحث المفاهيم الأساسية فحدها تحديداً كافياً، كما تناولناها في بحثنا فحددها باستفاضة وافية. وخاض في القضايا المرتبطة بخطاب الكراهية كما خضنا فيها. وقدم تجربتين واقعتين محلّيتين، لمواجهة هذا الخطاب الذي يفكك العرى ويفصم الأواصر.

وإذا كان العمل ينماز بأهميته ورسمه الخطوط العريضة لمكافحة خطاب الكراهية، فإن بحثنا ينماز عنه من جوانب كثيرة، منها اتخاذه لشبكات التواصل

الاجتماعي من أجل تفعيل الخطاب الدعوي وتوجيهه نحو خطاب الكراهية من أجل اجتثاثه وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

ومنها أنه لا ينشد الاكتفاء بمكافحة الخطاب الضار ولكنه يتجاوزه إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك؛ ذلك لأن التوقف عند ذلك المستوى يجعل الساحة تعاني من الفراغ الذي يسببه خلوها من الشر وعدم تعويضه بالخير.

ومنها تحديدنا للآليات الأساسية التي يفَعَل بها الخطاب الدعوي من أجل المضي به قدماً لاجتثاث جذور هذا الخطاب القذر وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

ومنها استشرافنا للمستقبل ورسمنا للمامح الواقع الذي سيعيشه الناس بعد تسخير تلك الآليات الإصلاحية. وقد تبين لنا أن مستقبل الإنسانية سيكون على أحسن حال بعد خضوعها للوصفات العلاجية التي تقدمنا بها.

ومن خلال هذا الجرد، تكون قد تبينت لنا نقاط الائتلاف والاختلاف بين بحثنا وغيره من البحوث. وهو ما يجعله يبرز بلامحه المميّزة التي تجعله مكتسباً شرعيته للاستقرار في موقعه بين البحوث التي رصدت المشكل وانصرفت إليه بهمة وعزيمة متوقّدين من أجل إصلاحه حتى يعيش الناس في سلام واطمئنان.

د. أهداف البحث:

ينشد البحث تحقيق الأهداف التالية:

- تسليط الضوء على الاختلالات التي تعرفها شبكات التواصل الاجتماعي في توظيفاتها الحديثة؛ فهي تحمل في طياتها دلالة التواصل الاجتماعي، إلا أن أغلب توظيفاتها الراهنة لا يدرك منها إلا بث الكراهية ونشر الرذيلة وسلك ما يقطع الأواصر ويفصم العرى الإنسانية، فالوجهة التي تولّوها يوجد بينها وبين التعايش الإنساني بَوْنٌ شاسع وشقّة بعيدة.
- بيان الأدوار التي يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن تؤديها في خدمة المجتمع الإنساني برأب صدوعه وإقامة أوده وإصلاح ثلومه وردم هواته. وذلك بتوظيف مؤهلاتها التقنية والتواصلية لتفعيل الخطاب الدعوي في البناء والإصلاح.

- بيان ما للخطاب الدعوي من مكانة عالية في إصلاح الأوضاع المختلة في الحياة الإنسانية المعاصرة؛ فالخطاب الدعوي خطاب دين وممارسة هداية إلى الشرع الحنيف والأخلاق السامية. وتأثيره على الإنسانية من أجل هدايتها إلى إزاحة خطاب الكراهية من أذهانها ونفسياتها ظاهر جلي؛ فكم من إرشادات نبوية آتت أكلها لما ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين، فجعلت مجتمعهم نقياً بهياً بعيداً عن كل ما تعانيه مجتمعات غيرهم من كيد وحقد وصراعات وبغضاء. وكم من توجيهات دعوية ألقاها الدعاة والمصلحون عبر التاريخ، فرصت الصفوف، ووحدت الكلمة، وأصلحت ذات البين، وأخمدت نيران الفتن الملتهبة.

- مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني باعتماد الآليات الحديثة التي استهوت المجتمع الإنساني اليوم، بتسخير الخطاب الدعوي بروافده كلها، بعد إصلاح ما يحتاج منه إلى إصلاح، أو تنضيد ما يمكنه من الظهور بمظهر الخطاب الذي يستقر في قلوب الفئات المستهدفة به استقراراً إيجابياً يوجهها نحو الالتزام بما يبني ولا يهدم، ويرص الصفوف ولا يشتتها.

- تصحيح المفاهيم المتعلقة بحرية التعبير وبيان حدودها؛ فكم من الناس يتفوه بما يتفوه به من الخنا والأقوال الراكبة مراكب الشطط، بسبب فهمه لحرية التعبير على مقاسه، وبسبب ممارسته لتلك الحرية ممارسة لا تحترم ممنوعات ولا تقف عند حدود؛ فالتمييز بين الحق والواجب يعاني من خلل في ذهنه، وضبط الحدود الفاصلة بينهما غير مفعّل التفعيل اللائق الذي يحول بينه وبين اقتحام ما هو من نصيب الآخرين.

هـ. خطة البحث:

لقد تناول البحث مسألة من أهم المسائل التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. إنها المتمثلة في استفحال خطاب الكراهية في المجتمعات كلها، حتى إن العالم صار يعاني من الكوارث التي يخلفها هذا الخطاب الذي سرى في النفوس سريان النار في الهشيم. ولذلك، فإن دراستها والبحث عن بدائل لها يعد من أوجب الواجبات.

إن مهمة الدعاة على مواقع التواصل الاجتماعي ثقيلة جداً. فكيف يصلحون ما أفسد الناس؟ وكيف يعممون أفضال إصلاحهم على العالمين؟ فإذا كان المرء يعجز أحياناً كثيرة عن إصلاح ابنه أو ابنته أو أسرته الصغيرة، فكيف له أن يصلح العالم كله؟ إنها أسئلة كبيرة تبين ما تنوء به كواهل الدعاة من مسؤوليات. وبالنظر إلى رغبتنا الأكيدة في إرشاد المشتغلين بالخطاب الدعوي إلى المداخل التي إذا التزموها وحثوا خطاهم نحو استثمارها والاستفادة منها، فإن خطاب الكراهية سينتقل من حال إلى حال، ودعوتهم في هذا الباب سيكون لها شأو لا يدرك. ولذلك، فقد خففنا الأثقال، وهوّن المتاعب، ودللنا على طريق الرشاد.

وإذا كان الدارسون يشكّون أحياناً كثيرة من صعوبة قلة المصادر، كما يشكون أحياناً آخر من صعوبة كثرتها، فإن شكوانا في دراستنا انصرفت إلى تشتت تلك المصادر تشتتاً يجعلها موزعة بين الشبكي الإلكتروني، وبين الدعوي الديني، وبين النفسي والاجتماعي، وبين المستشرف للمستقبل.

ولما كان الموضوع ينصرف باهتمامه نحو تفعيل الخطاب الدعوي، فقد كان لزاماً علينا أن نعتمد ما ينطلق منه هذا الخطاب من أسس تضمّن كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. وكنا في كل مرة نستند إلى تفاسير المفسرين وشروح شراح الحديث النبوي الشريف حتى لا يكون كلامنا معبراً عن رأي وحيد، وحتى يستجلب القوة من أقوال شهود الحق المنتشرين في البقاع كلها.

وكما كان الشأن كذلك، فقد كان لزاماً علينا أن نطوف بشبكات التواصل الاجتماعي شرقاً وغرباً من أجل أن نصل إلى المادة الخام التي يقتات عليها خطاب الكراهية، فاستندنا إلى المظان التي تكشف عن كيفيات اشتغال هذه الشبكات، ولا سيما في ما يخدم موضوعنا، مثل توسيع فئات المخاطبين، وإنشاء التطبيقات الدعوية الإيجابية، وتحقيق المحاصرة والتوجيه، وتيسير الترجمة الفورية مداً لجسور التواصل مع أهل الثقافات المختلفة، فأرشدنا القارئ إلى المواقع التي تحقق هذا المبتغى بطريقة آلية تصبو إلى الحفاظ على المعنى المراد.

ولما كان الموضوع يستهدف الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني

المشترك، فقد رأينا فيه بياناً لآليات تغيير السلوك. وهو ما أحوجنا إلى الرجوع إلى كتب علم النفس، ولا سيما تلك التي تهتم بتربية الإنسان، أو بإعادة تربيته. وبعد أن تمكنا من جمع المادة الكافية لمعالجة البحث، فقد لجأنا إلى صياغتها، بعد المقدمة والتمهيد، في أبواب ثلاثة، وهي ما نورده على الصورة الآتية:

• أولاً: الباب الأول: عالجتنا فيه إمكانات شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي، وقد قسمناه إلى فصول:

- **الفصل الأول:** وسم بعنوان: إمكانات التوظيف الفعالة لشبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي. وقد انضوى تحته ثلاثة مباحث:
 - المبحث الأول: تيسير شبكات التواصل الاجتماعي الجذب والمنافسة.
 - المبحث الثاني: قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على تحديد فئات المستهدفين بالخطاب.
 - المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تمد الجسور مع الثقافات بتيسير الترجمة الفورية.
- **الفصل الثاني:** وسم بعنوان: استثمار شبكات التواصل الاجتماعي في إعادة صياغة الإنسان صياغة إيجابية. وقد اشتمل على ثلاثة مباحث:
 - المبحث الأول: شبكات التواصل الاجتماعي وتشكيل الإنسان.
 - المبحث الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي مؤهلة لصياغة الإنسان إيجابياً.
 - المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي جسر واصل بين الدعاة وبين الجماهير.

• ثانياً: الباب الثاني: عالجتنا فيه الآليات الأساسية لتفعيل الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي من أجل الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، وقد اشتمل على فصلين اثنين، نوردهما كما يلي:

- **الفصل الأول:** آليات تواصلية. وقد انضوت تحته المباحث الآتية:
 - المبحث الأول: توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي.

- المبحث الثاني: استثمار الخطاب الدعوي خدمات الترجمة إلى اللغات المختلفة.

- المبحث الثالث: استثمار الخطاب الدعوي خدمات التطبيقات الدعوية في التواصل.

• **الفصل الثاني:** آليات تأهيلية. وقد اشتمل على مباحث ثلاثة:

- المبحث الأول: تفتحُ الدعاة على استعمالات شبكات التواصل الاجتماعي.

- المبحث الثاني: تمكين الدعاة من التقنيات التواصلية المؤثرة.

- المبحث الثالث: توسيع مدارك الدعاة عن الثقافات المختلفة.

• **ثالثاً: الباب الثالث: قد رصدنا فيه الاستشرافات المستقبلية التي سيؤول إليها الوضع الإنساني بعد تفعيل الخطاب الدعوي باستثمار خدمات شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة، فكانت صيغته كما يلي: "من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك: استشرافات مستقبلية"، وقد قسمناه إلى فصول:**

• **الفصل الأول:** وسم بعنوان: تصحيح المفاهيم المغلوطة. وقد اشتمل على مباحث:

- المبحث الأول: فهم حرية التعبير فهماً صحيحاً.

- المبحث الثاني: تصحيح الفهم السائد عن إنسانية الإنسان.

- المبحث الثالث: تصحيح مفهوم الغائية من الوجود.

• **الفصل الثاني:** وسم بعنوان: رجوع الناس في المجتمع الإنساني إلى التزام

الأخوة والتواد. وقد كانت المباحث المنضوية تحته على الصورة الآتية:

- المبحث الأول: تحقق الإقلاع عن خطاب الكراهية.

- المبحث الثاني: تحقق الشعور بالإنسانية المشتركة.

- المبحث الثالث: تحقق الاستعدادات النفسية لخدمة المشترك الإنساني.

• **الفصل الثالث:** وسم بعنوان: تعزيز التعايش المشترك في المجتمع الإنساني. وقد

اشتمل على مباحث ثلاثة:

- المبحث الأول: توليد الرغبة في التعايش.
- المبحث الثاني: تثبيت الرغبة في التعايش.
- المبحث الثالث: تفعيل مقتضيات الرغبة في التعايش.

ثم ذيلنا البحث بخاتمة رصفنا فيها النتائج التي توصلنا إليها فيه والتوصيات التي نستشرف بها المستقبل لإصلاح هذا الوضع الإنساني الخطر. وبعدها ذيلنا البحث بلائحة خصت المصادر والمراجع، تكشف عن مرجعيات المواد العلمية التي وظفناها في الاستشهاد والمقارنة والدرس والتحليل، وذلك بعد أن استهللناه بفهرس للموضوعات حتى تكون الصورة واضحة عن الوارد فيه، من خلال الإشارة للأبواب والفصول والمباحث والمطالب.

و. المنهج العلمي المعتمد:

لما كانت دراستنا تصبو إلى الكشف عما يمكن أن تقدمه شبكات التواصل الاجتماعي من خدمات في تمكين الخطاب الدعوي من الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني بين الناس، فقد اعتمدنا في إنجازها المنهج الوصفي الذي يتميز بقدرته على سبر مكامن الظواهر الاجتماعية والإنسانية واستكناه دواخلها. ولكن ارتباط البحث بمجموعات مختلفة من جوانب الحياة المعاصرة، وتوقه إلى إصلاح ما أفسد الناس، سيُحوجه إلى مناهج أخرى تبتعد عن مقتضيات المنهج الوصفي. ومن خلال ذلك، فإن البحث سيكون محضاً تتأزر فيه مجموعة أطراف لإنضاج محتوياته. وقد كان الشرط الذي احتكمنا إليه في ذلك هو التكامل بينها جميعاً، فالتكامل يبقها مستقرة في مستويات التناغم والانسجام؛ حيث يبدو كلُّ منها على ثغرة، فيدفعُ بما وُكل إليه من قضايا البحث ليحقق المنشود منه، ويَوزرُ عن الانشغال بشيء اختص به أول مرة إلا أنه غير مطلوب فيه.

ولقد لجأنا إلى وضع مجموعة من المعالم التي تتفاعل إيجابياً مع اختيارنا المنهجي؛ دعماً وتقوية، وتوضيحاً وتبييناً، وتصحيحاً وتقويماً. وهي التي نذكرها في الفقرات الآتية:

• الاستشهاد:

وقد طلبنا به تقوية الآراء، وتعزيد ما نذهب إليه من القول، ملتجئين به الاستناد إلى شهود الحق الذين يكونون أعواناً على تثبيت المراد وترسيخه في أذهان المتلقين.

• المقارنة:

وهي تزيد ما نذهب إليه توضيحاً وبياناً؛ فقد أثر عن الأولين، في كثير من السياقات، قولهم الذي سارت به الركبان: بأضدادها تعرف الأشياء. فحينما يوضع الرأي إلى جانب غيره من الآراء، تظهر أفضليته أو دُونيته، ويتجلى تميزه أو عدم صلاحه.

• النقد:

ومن خلاله يتجلى أننا كنا خلال رحلتنا في إنجاز هذا العمل، لا نتراجع ولو قيد أنملة عن إعمال العقل وتقليب الرأي على أوجهه المختلفة، ولا نتوانى في تمحيص النظر في قبول كل شاذة أو فاذة مما صدر عن الدارسين قبلنا ممن اعتمدنا آراءهم واستشهدنا بها في دراستنا.

• التوثيق:

وقد توخينا منه أن نرد به الأقوال إلى أصحابها، حتى يتيسر على من يحب تدقيق النظر أن يرجع إلى مظانها في سهولة ويسر، حريصين في ذلك كله على الحفاظ على المقتبس بألفاظه؛ فطالما نبهنا القرآن الكريم إلى أن الحفاظ على الألفاظ سيكون وسيلة للحكم للشخص أو عليه، بعد أن كان قد كُلف بأقواله رقيبٌ عتيد.

وأخيراً، فإننا نعتذر عن كل سهو أو تقصير انتاب جنابات هذا البحث؛ فتلك صفة ابن آدم التي لا تنفك عنه. ولكي يتصف ربك بالكمال فقد خلق عباده كما ترى.

تعميد: المفاهيم والامتدادات

المبحث الأول: تحديد المفاهيم مدار البحث

• المطلب الأول: مفهوم شبكات التواصل الاجتماعي

يحدد الباحثون مفهوم شبكات التواصل الاجتماعي بكونها "الوسائل المختلفة التي يمكن للأشخاص أن يتواصلوا عبرها لتبادل المعلومات والمشاركة في الأحداث حول الموضوعات ذات الاهتمام المشترك"⁽⁷⁾. وهي منظومة شبكية تسمح للمشاركين فيها بإنشاء حساباتهم أو صفحاتهم أو قنواتهم الخاصة؛ رغبة في تحقيق التفاعل والتواصل مع من يرغبون في تحقيقهما معهم. ولذلك، فقد تقرر لدى المهتمين بهذه الشبكات أن التواصل والمعرفة والترفيه هي أهم فوائدها⁽⁸⁾.

ولقد هيمنت شبكات التواصل الاجتماعي على من يعُمرون المعمور؛ ذكوراً وإناثاً، شبيهاً وشباباً، حتى إن زيارات المترددين على هذه المواقع أمست تعد بالساعات، فتحقق مفهوم الإبحار فيها بصورة واضحة، وصار الانشغال بمتابعة ما يعرض فيها انشغالاً يوصف في كثير من الأحيان بالإدمان الإلكتروني.

ووقفة عجل على الجدول التالي لتبين بجلاء متوسط عدد الساعات التي يقضيها كل زائر على مواقع التواصل الاجتماعي حسب المنطقة⁽⁹⁾:

المنطقة	ذكور	إناث
آسيا والمحيط الهادي	2.7	3.3
أوروبا	6.3	8.2
أمريكا اللاتينية	6.9	8.2
أمريكا الشمالية	6.0	7.9
المتوسط العالمي	5.0	6.5

7. Mass Communication Specialist, center for service support - Department of the Navy, United states of America, 2013, P: 2- 14.

8. التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب، 2015، 53.

9. ComScore "it's a social world: top 10 Need- to- knows about Social Networking and Where it's headed", December 2011.

وقد بلغ عدد مستخدمي هذه الشبكات في العالم ثلاثة ملايين مستخدم، وبلغ عدد الحسابات النشيطة مليارين ومائة مليون حساب، بل إن عدد المشتركين قد بلغ، في منتصف عام ثلاثة عشر وألفين، في فرنسا وحدها اثنين وثلاثين مليون مشترك. حتى إن المهتمين بأمر تطور شبكات التواصل الاجتماعي قد نظروا إلى هذا الرقم بكونه رقماً مذهلاً، وذهبوا عبر إحصاءاتهم إلى أن الحياة الاجتماعية لفرنسي واحد من بين اثنين تتم الآن جزئياً عبر الإنترنت⁽¹⁰⁾.

وإذا كانت هذه الشبكات تؤدي دورها في الحفاظ على الروابط الاجتماعية؛ فتتبادل الصور ومقاطع الفيديو عبرها⁽¹¹⁾، فإن فئات عديدة من مستخدميها تنحرف بها كثيراً عن الهدف الذي وجدت من أجله⁽¹²⁾، فتتم إساءة استخدامها من قبل هؤلاء الراغبين في نشر الدعاية والتشهير بمختلف الجماعات أو الأفراد⁽¹³⁾. ولذلك، فإنها بالنظر إلى التطور الذي تعرفه هذه الشبكات، وإلى الانحرافات عن أهدافها المسطرة أول مرة، فقد توجب على المهتمين بالتشريعات أن يولوها اهتماماً خاصاً بإصدار ما يناسبها من القوانين⁽¹⁴⁾.

ولقد تعددت المواقع الخاصة بها تعدداً لافتاً، فاختلفت مهامها ووظائفها اختلافاً بينا، وإن كانت تشترك جميعها في أداء وظيفة التواصل بين الأفراد والجماعات. ومن هذه الشبكات، الفيسبوك facebook، والواتس آب Whatsup، وسناب شات snapchat، وتويتر twitter، وإنستغرام instagram، واليوتيوب youtube، وتيك توك tiktok، وجوجل google، وبانتريست pinterest، وريدديت reddit، ولينكد إن linkedin، وفاديو Viadeo...

ونحب بعد هذا أن نقف على المميزات التي تنماز بها شبكات التواصل الاجتماعي حتى تتوضح حقيقتها، وتنجلي صورتها في الأذهان. وليكن ذلك متمثلاً في الآتي:

10. Cédric Manara, Réseaux sociaux, 101 questions juridiques, Edition française 2013, diateino, P: 17

11. Ibid.

12. Ibid, P: 18

13. WE CAN! Taking Action against Hate Speech through Counter and Alternative Narratives, Written by Agata de Latour, Nina Perger, Ron Salaj Claudio Tocchi and Paloma Viejo Otero, Edited and co-ordinated by Celina Del Felice and Menno Ettema, 2017, 4.

14. Cédric Manara, Réseaux sociaux, P: 19

1. قدرتها على تغطية مناطق العالم كلها:

تتجاوز قدرة شبكات التواصل الاجتماعي قدرة القنوات التلفزيونية بكثير، فهي تتيح الفرصة للاطلاع على المحتويات كلها، كما تتيح الفرصة لنشر ما يريد المرء نشره، من غير تدخل من الرقابة، فتقرب البعيد، وتطوي المسافات، وتنشر المعلومة قبل أن يترد إلى المرء طرفه.

2. سهولة الوصول إلى المبتغى:

بضغطة زر يتحقق المبتغى، فيكون معروضاً في كل مكان؛ إخباراً، وإشهاراً، ورداً، وتعليقاً، من غير متاعب تذكر، وبدون مشقات تحول بين المرء وبين ما يريد.

3. تمكين الزوار من تلبية حاجاتهم من خلال تنوع العرض وتعدد إمكانات الاستعمال:

تسمح هذه الشبكات لروادها بالاستفادة من المحتويات المعروضة عليها؛ قراءةً وتحميلاً وحفظاً، سواء أكانت وثائق مكتوبة، أم ملفات مقروءة، أم فيديوهات مرئية تعرض المعلومة عرضاً لا يضيع صوتاً ولا صورةً.

4. تمكين الزوار من التفاعل السريع:

تمكن هذه الشبكات زائريها من الاطلاع على الجديد؛ أخباراً واقتراحات وإنتاجات، فتسمح لهم بالتفاعل حول المسألة الواحدة؛ سلباً وإيجاباً. وهنا يجد الخطاب الدعوي ضالته، فيطلع القائلون به على ما يروج لدى المتابعين، ويبنون موادهم على أساس ما يتطلبه ذلك؛ ردوداً وتوضيحات وعرضاً للومضات المميزة المجهولة لدى كثير من الناس، بهدف ألا يستشري الأمر الفاسد ويستفحل الرأي الشاذ.

وسنولي اهتمامنا لوسائل ثلاث من هذه الوسائل المختلفة، نراها ذات تأثير كبير وانتشار بين الناس خطير، فنتخذها شواهد على ما لم تسعفنا الشروط المحيطة على الوقوف عليه. وهي التي نريد الوقوف عليها في ما يلي:

• أولاً: "الفيسبوك"

لن نجد من يعرفنا بهذا الموقع أفضل ممن أنشؤوه. ولذلك فإننا سنقوم بإطلاقة على موقع "الفيسبوك" نفسه، ليمدنا بما ينبغي أن نعرفه عنه⁽¹⁵⁾. وهكذا، فإننا نجد أول تأسيس لهذا الموقع قد كان مع مارك زوكربورك Mark Zuckerberg، والمؤسسين المشاركين داستون موسكوفيتز Dustin Moskovitz، وكريس هيوز Chris Hughes، وإدواردو سافرين Eduardo Saverin، بتاريخ 4 فبراير 2004.

وبعد النشأة وتكاثر المنتسبين للموقع يوماً بعد يوم، حتى صاروا يقدرون بالملايين، أخذت إدارة "الفيسبوك" تعدد مشروعاتها الإعلانية حتى أصبحت من المؤسسات العملاقة في العالم؛ فاستحوذت على "الماسينجر" Messenger، بتاريخ: 9 غشت، عام 2011، ثم انهالت استحواذاتها على مواقع تواصل اجتماعي أخرى، ومؤسسات أخرى؛ فاستحوذت في 9 أبريل 2012، على "الإنستغرام"، وفي 19 فبراير 2014 ضمت "الواتس آب"، وفي 10 أكتوبر 2016، التهمت "الورك بلاس"، وفي 8 أكتوبر 2018، حازت على ملكية بوابات "porta and portal +"، وفي 18 يونيو 2019، هيمنت على مؤسسة "نوفي" Novi التي تم الإعلان عنها أول مرة باسم "كالبرا" Calibra.

وإلقاء نظرة خاطفة على هذه التطورات التي عرفتتها مسيرة موقع "الفيسبوك"، في غضون ما يناهز ست عشرة سنة، لتبين مدى القوة التي أمسى يحظى بها، ولتجلي مدى استحواذه على المواقع الإعلانية الأساسية في الحياة المعاصرة.

ويذكر علي خليل شقرة في كتابه "الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي"، أن "الفيسبوك" استمد اسمه من عادة كان طلبة جامعة هارفارد يقيمون استمرار علاقاتهم عليها؛ فقد شاع بينهم ما يعرف بـ "كتب الوجوه" التي كانت تطبع وتوزع على الطلاب بهدف إتاحة الفرصة لهم للتعارف والتواصل مع بعضهم البعض، خاصة بعد الانتهاء من الدراسة والتخرج؛ حيث يتفرق الطلاب في شتى الأنحاء⁽¹⁶⁾. فلما ظهرت الإلكترونيات، وشاعت خدمات الشبكة بين الناس، أنشأ الطالب مارك

15. ينظر الرابط: <https://about.fb.com/company-info/> - تاريخ الاطلاع: 17 / 09 / 2020.

16. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، نبلاء - دار أسامة- عمان - الأردن، ط 1، 2014، 64.

زوكربورك Mark Zuckerberg موقعاً سماه "الفيسبوك" عام 2004، ليقوم بالدور الذي كان "كتاب الوجوه" يقوم به، ولكن بطريقة أسهل وأمتع وأسرع.

وفي عام 2006، حدث تطور باهر في أداء خدمات "الفيسبوك"؛ حيث لم يعد من شروط إنشاء حساب فيه أن يكون المرء منتسباً لجامعة هارفارد أو غيرها، فأصبح بإمكان كل شخص تجاوز الثالثة عشرة من عمره⁽¹⁷⁾، ويمتلك بريداً إلكترونياً، أن يصبح عضواً في موقع الفيسبوك⁽¹⁸⁾.

وأما عن شيوع "الفيسبوك" في العالم العربي، فإن التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، الذي أصدرته قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب، عام 2015، فقد جاء فيه أن "الفيسبوك" يمثل وسيلة التواصل المفضلة لما يقرب من 2 من بين كل 5 مستخدمين في العالم العربي⁽¹⁹⁾. وقد فاقت الاشتراكات فيه كل التوقعات. ولعل أقرب دليل على استهواء "الفيسبوك" للعرب، أن تكون نسبة المشتركين من الخاضعين لهذا الاستطلاع الذي قام عليه هذا التقرير هي 87%⁽²⁰⁾.

وأما من حيث الاستعمال اليومي، فإن "الفيسبوك" يستحوذ على نصيب الأسد من استعمالات شبكات التواصل الاجتماعي في العالم العربي؛ حيث إنه يستحوذ على 89% من الاستعمالات⁽²¹⁾، سواء أكانت استعمالات عبر الهواتف الذكية أم على الحواسيب واللوحات الإلكترونية⁽²²⁾.

17. كتب أورليان بونين Aurélien Bonnin مقالاً موسوماً بـ: "أبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، فهل يمكنني إنشاء حساب على الفيسبوك؟"، ضمن المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه سيدريك منارا Cédric Manara، والذي يحمل عنوان: "شبكات التواصل الاجتماعي: 101 من الأسئلة القانونية"، diateino, 2013, P: 101. Réseaux sociaux, 101 questions juridiques, 2013, P: 101. وهو سؤال هام، فأجاب في متن مقاله، مستهلاً قوله بأن "استطلاعاً تحقيقياً أجرته المفوضية الأوروبية سنة 2011، أبان عن كون 38% من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين تسع سنوات واثنين عشرة سنة، لديهم حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي، ولا سيما الفيسبوك". (ص: 26).

لقد جعلت هذه النتيجة الاستطلاعية إدارة "الفيسبوك" في حيرة من أمرها، فالأطفال يمتلكون حسابات بتواريخ غير حقيقية. وقانون الولايات المتحدة الأمريكية يمنع الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثلاث عشرة سنة من إنشاء حسابات بأسمائهم. (نفسه). فاللتنظير القانوني ينص على أمر، والممارسة الواقعية تسلك سبيلاً آخر لا يتلاءم معه. وسبب المنع هو أن الرشد الذي يمكن الأطفال من عدم إبقاء حساباتهم رهن إشارة عامة زوار هذه الشبكات غير متوفر لدى الأطفال؛ فتستغل بياناتهم وتوظف في كل مريب. (نفسه).

18. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، ص 64.

19. التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، ص 26.

20. المرجع نفسه.

21. المرجع نفسه، ص 27.

22. المرجع نفسه.

وقد انشغل كثير من الناس بحِلَّةِ هذا الموقع أو حرْمَتِهِ، بناءً على كونه محضناً مطروحاً في الطريق، يمكن للمرء أن ينشر فيه اللائق وغير اللائق، المنضبط للأخلاق الإنسانية العامة وغيره. فأرَّق هذا الانشغال علماء المسلمين المحدثين، فانصرفوا باهتمامهم إلى مناقشته وإصدار الحكم الشرعي المناسب له. وذلك ما نجده لدى علي خليل شقرة؛ حيث يقول: إن “الفيسبوك” “كأي وسيلة أو جهاز أو آلة تم اختراعها أو ابتكارها؛ حيث من الممكن أن توجه لخدمة الناس أو العكس. فالتحليل والتحرير يجب أن يتجه إلى الاستخدام والتوجيه، وليس إلى الآلة أو الجهاز نفسه”⁽²³⁾.

• ثانياً: “اليوتيوب”

يذكر علي خليل شقرة أن موقع “اليوتيوب” قد تأسس سنة 2005 على يد ثلاثة موظفين في شركة “باي بال” (Pay Pal). وهؤلاء الموظفون هم تشاد هيرلي Chad Harley، وستيف تشين Stave Chen، وجاود كريم Jawed Karim، في مدينة سان برونو في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية⁽²⁴⁾. ولم يمر على تأسيس موقع “اليوتيوب” عام واحد حتى اشترته شركة “جوجل” بحوالي مليار وستمئة وخمسين مليون دولار⁽²⁵⁾.

وبالنظر إلى قصر مدة الفيديوها المرفوعة إلى الموقع لتتسجم مع روح العصر التي تميل إلى السرعة والخفة، فقد انتشر موقع اليوتيوب في العالم انتشاراً مذهلاً، بالإضافة إلى استخدامه لخمس وأربعين لغة⁽²⁶⁾. وهو ما جعل زائري موقع “اليوتيوب” في ازدياد متواصل؛ ذكوراً وإناثاً، حيث بلغت نسبة الإناث منهم 44%، وبلغت نسبة الذكور 56%. وبالنسبة لتفضيل المجتمع العربي لليوتيوب، فإن 5% من المستطلعين يفضلونه على غيره⁽²⁷⁾. ويشارك حوالي 2 من بين كل 5 مستخدمين لوسائل التواصل الاجتماعي في “اليوتيوب” حالياً⁽²⁸⁾. ويستخدمه حوالي 66% من مستخدمي هذه الوسائل⁽²⁹⁾.

23. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، 71.

24. المرجع نفسه، 90.

25. المرجع نفسه.

26. المرجع نفسه، 91.

27. التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، 42.

28. المرجع نفسه.

29. المرجع نفسه.

والخدمة التي يتميز بها هذا الموقع، متمثلةً في التوثيق، خدمة جليلة؛ حيث يحتفظ بالصوت والصورة والجودة⁽³⁰⁾، ويمكّن زواره من "إسماع أصواتهم للآخرين واكتشاف العالم من حولهم"⁽³¹⁾.

وفي ما يتصل بمكافحة خطاب الكراهية، فإننا نجد موقع "اليوتيوب" يقف له بالمرصاد وقوفاً صارماً. ولا أدل على ذلك مما هو وارد في الفقرة التي خصصتها إدارته لسياسة الكلام الذي يحض على الكراهية؛ فقد جاء فيها ما يلي:

لا يسمح بنشر الكلام الذي يحض على الكراهية على "You tube"؛ فنحن نزيل المحتوى الذي يروج للعنف أو الكراهية ضد الأفراد أو الجماعات استناداً إلى أي من السمات التالية: العمر، والطبقة الاجتماعية، والعجز، والانتماء العرقي، والهوية الجنسية والتعبير عنها، والعرق، وحالة الهجرة، والديانة، والجنس، والتوجه الجنسي، وضحايا عمل عنف ضخم وأقاربهم، وحالة الخدمة العسكرية السابقة⁽³²⁾. بل إن إدارة الموقع تلتزم من زواره أن يبلغوا عن كل محتوى يخالف هذه السياسة، ويرفعوا شكاواهم عن القناة التي تشتمل عليه⁽³³⁾.

• ثالثاً: "تويتر"

ظهر هذا الموقع عام 2006 على يد شركة "Obvious" الأمريكية، ثم أطلق رسمياً للمستخدمين في العام نفسه⁽³⁴⁾. وكان الهدف من تأسيسه أن تنشر الأخبار والأفكار فيه بسرعة وسهولة وتركيز على طريقة: "خير الكلام ما قل ودل"⁽³⁵⁾. وهو موقع لا يشترط، حين إنشاء حساب فيه: Twitter Profile إدخال قصة حياة المشترك، وإنما يقتصر على إدخال العناصر التعريفية الأساسية، فيشترط ألا يتجاوز التعريف 160 حرفاً، وأن تدرج فيه وسيلة اتصال، مثل الموقع الخاص على الشبكة، وأن يرفق التعريف بصورة شخصية⁽³⁶⁾.

30. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، 93.

31. ينظر الرابط: <https://www.youtube.com/intl/fr/about> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/17.

32. ينظر الرابط: https://support.google.com/youtube/answer/2801939?hl=ar&ref_topic=9282436 تاريخ الاطلاع: 2020/09/17.

33. ينظر الرابط: https://support.google.com/youtube/answer/2801939?hl=ar&ref_topic=9282436 تاريخ الاطلاع: 2020/09/17.

34. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، 75.

35. المرجع نفسه.

36. How to FIND A JOB on, LinkedIn Facebook MySpace Twitter AND OTHER SOCIAL NETWORKS, by Brad and Debra Schepp, A S, 2010, P:172

وأما بالنسبة لاستعمال “تويتر” في العالم العربي، فقد صرح التقرير بأن معدل التفضيل كان منخفضاً؛ حيث ذكر 4% فقط من المستطلعين أنهم يفضلون “تويتر”. وكان أعلى معدل تفضيل لتويتر في كل من السعودية والإمارات العربية المتحدة بما نسبته 12% و9% على التوالي، في حين كان أدنى معدل في مصر بما نسبته 1%⁽³⁷⁾. وقد يظهر لمتتبع الإعلانات على “تويتر” أنه أضعف من غيره، ولكنه يبقى ذا أثر بالغ في نشر الأخبار المختصرة بسرعة فائقة. وهو ما عبر عنه Jon Clark بقوله: “على الرغم من أنه (موقع تويتر)، قد لا يكون الموقع الأول الذي يخطر ببالك لإرسال المحتوى، إلا أنه يتمتع بجمهور كبير وهو نظام أساسي فعال للنشر”⁽³⁸⁾.

• المطلب الثاني: مفهوم الخطاب الدعوي

- ترجع دلالة مادة “خ، ط، ب” في اللغة إلى معاني الخطبة، وسبب الأمر، ومراجعة الكلام، والأمر العظيم والحقير، وخطبة المرأة، واختلاف اللّونين.
- فهي تعني الخطبة؛ حيث ورد في معاجم اللغة أن “اسمَ الكلام: الخطبة”⁽³⁹⁾.
- وتعني سبب الأمر؛ فالخطب: سبب الأمر⁽⁴⁰⁾.
- وتعني مراجعة الكلام؛ فالخطاب: مراجعة الكلام⁽⁴¹⁾. وقد جاء في مقاييس اللغة أن “الخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَاباً”⁽⁴²⁾.
- وتعني الأمر العظيم والحقير؛ فتقول: “هَذَا خَطْبٌ جَلِيلٌ وَخَطْبٌ يَسِيرٌ. وَجَمْعُهُ خُطُوبٌ”⁽⁴³⁾.

37. التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، 27.

38. 130 Social Sharing Sites That Boost SEO & Drive Traffic, jon Clark.

وهو متوفر على الرابط: <https://www.searchenginejournal.com/youtube-video-recommendations/368426/> تاريخ الاطلاع: 2020/10/17.

39. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، مادة “خطب”، 1/ 291.

40. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، القاهرة، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، مادة “خطب”، 4/ 222.

41. المرجع نفسه.

42. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، مادة “خطب”، 2/ 198.

43. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، مادة “خطب”، 7/ 113.

- وتعني خطبة المرأة؛ فقد جاء في لسان العرب أن "الخطب: الذي يخطب المرأة. وهي خطب التي يخطبها، والجمع أخطاب" (44).

- وتعني اختلاف لونين؛ فقد قال في مقاييس اللغة أن الخاء والطاء والباء أصلان، فالأصل الأول ذكرناه في ما سبق، "وأما الأصل الآخر فاختلاف لونين. قال الفراء: الخطباء: الأتان التي لها خط أسود على متنها. والجمار الذكر أخطب" (45).

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في مواضع عدة؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ (37) (هود: 37). وقال عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (63) (الفرقان: 63). وقال جلّت قدرته: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾ (20) (سورة ص: 20).

ولقد تتبع المهتمون بالبلاغة في العصر الحديث أحوال الخطاب، فوجدوه يختص في أحواله المختلفة بمجموعة خصائص، وهي التي نحب أن نقف على اثنتين منها مما يتفاعل مع موضوعنا، وليكن ذلك على الصورة الآتية (46):

• أولاً: الخطاب موجّه

حيث يوضع تبعاً للأهداف التي ينشدها صاحبه، كما أنه يستجيب للتحولات التي يعرفها مسار الحديث بين الملقى والمتلقي. ومن بين تلك التحولات أنه "يمكن أن يحدد أثناء الطريق (استطرادات)، ويرجع إلى اتجاهه الأصلي، ويغير اتجاهه، إلخ" (47).

إن كون الخطاب موجّهاً نجده متحققاً في سياقات قرآنية مختلفة. ومن ذلك أن نقف على ما ورد في القرآن الكريم بخصوص اتخاذ الله عز وجل موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعون وملئه؛ فالخطاب القرآني ينطلق من نداء الله تعالى موسى بالوادي

44. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظر، الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة "خطب"، 360 / 1.

45. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، مادة "خطب"، 198 / 2.

46. تنظر تلك الخصائص في معجم تحليل الخطاب، إشراف باتريك شارودو ودومينييك منغينو، ترجمة عبد القادر المهيري وحماضي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م، 182.

47. المرجع نفسه.

المقدس طوى، وما صاحبه من وصف دقيق لطبيعة العلاقة التي تربط نبي الله بالقوم الظالمين، فقال الله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِأَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ (الشعراء: 15-17).

فالخطاب ينطلق من التكليف بالرسالة، ويحيط رحاله عند تبليغها لفرعون وملئه. وهو ما نحب أن نضعه على الصورة الآتية:

الخطاب	توجيه الخطاب	الجهة الموجه إليها الخطاب
الرسالة الإلهية	← ← ←	فرعون وملؤه

فهو خطاب موجه منطلق من نقطة انطلاق ومستهدف نقطة وصول. ولكن الملاحظ أن بين المحطتين؛ الأولى والأخيرة، توجد محطات آخر تجلى الخطاب من خلالها أنه لم يلتزم مساراً مستقيماً واحداً. وهي التي سماها البلاغيون المحدثون حيداً عن الطريق (استطردات) قبل أن يعود الخطاب إلى الطريق الذي سلكه أول مرة. فتظهر من خلال الحوار الذي دار بين فرعون وموسى عليه السلام، حين محاولاته أن يذكره فيه بالخدمات الجليلة التي قدّمها له حين الاحتياج، فقال الله تعالى بشأنها:

- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)﴾ (الشعراء: 18-19).

فكان جواب نبي الله موسى عليه السلام، كما حكاه القرآن الكريم متمثلاً في قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)﴾ (الشعراء: 20-22).

فالخطاب الموجه هيمنت عليه هذه الاستطردات فازورت به عن مقصده المتمثل في السير قدماً نحو المستهدف به. ولكن لما سقط في يدي فرعون، فرأى أن تذكره بالنعم التي أسداها صار مدافعاً بتقديم المسوغات العقلية والواقعية التي حاجّه بها

نبي الله موسى عليه السلام، مذكراً إياه بالظلم والاعتداء والاستعباد الذي مارسه على بني إسرائيل، عاد بالخطاب إلى مساره الأول، فصار يستفسر عن رب العالمين، فقال الله تعالى بشأن ذلك:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ (24)﴾ (الشعراء: 23-24).

• ثانياً: الخطابُ فعلٌ

يذكر صاحباً معجم تحليل الخطاب أن "الخطاب شكل من أشكال الفعل"⁽⁴⁸⁾، بل إنهما يعلمان هذا الحكم على الخطابات كلها، فيقولان: "كل ملفوظ هو عمل (وَعَدَ، اقْتَرَحَ، أَكَّدَ، سَأَلَ) يهدف إلى تغيير وضعية. وفي مستوى أعلى تندمج هذه الأعمال الأولية ذاتها في أنشطة لغوية من جنس معين (منشور، وصفة طبية، نشرة أخبار تلفزيونية...) مرتبطة هي نفسها بأنشطة غير كلامية"⁽⁴⁹⁾.

ونحن من جانبنا، ما دمنا نشتغل بالخطاب الدعوي، وما دمنا نرصد المداخل التي يتحقق بها تفعيله في مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، بالانطلاق من شبكات التواصل الاجتماعي، فإننا لا نزهد في تبين حقيقة كون الخطاب فعلاً من الأفعال⁽⁵⁰⁾، وليكن ذلك مرتبطاً بالنص القرآني باعتباره أصل الخطاب الدعوي ومادته الأولى، فننتبع المواطن التي يتحول فيها الخطاب إلى فعل.

سنقف في هذه العجالة على بعض المشاهد التي ربطت بين نبي الله سليمان عليه السلام وبين ملكة سبأ التي فوجئت لما وصلها كتاب سليمان، فقال الله تعالى بشأنها:

- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (31)﴾ (النمل: 29-31).

48. المرجع نفسه.

49. المرجع نفسه، 182-183.

50. دافعنا إلى إيراد هذا الشاهد على صحة كون الخطاب فعلاً من الأفعال يتمثل في أن خطاب الكراهية لا يتوقف أثره عند المحطات التلفضية المتمثلة في الكلام؛ شفويّاً أو مكتوباً، ولكنه يتجاوز به إلى أن تراق به الدماء وتزهق به الأرواح وتحرق به المنازل وتتنوع به الأضرار.

إن الحادث غريب، وإنه يقتضي تعاملًا حكيمًا. وهو ما دفعها لاستشارة ملئها، فحكى الله تعالى قولها في ما يلي:

- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)﴾ (النمل: 32).

ولكن الاستشارة إذا كان يستهدف بها الخروج بقرار حكيم، فإننا نجد أنها قد دفعت الملأ لأن يرفع نبرة الخطاب، ويعلن عن قوته وبأسه، ويطمئن الملكة بأنه على أتم استعداد للمواجهة التي إذا تحققت يتحقق بها الفعل في أسمى صوره.

- ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)﴾ (النمل: 33).

فاستشعرت المآلات الوخيمة لهذا الرأي الذي يذهب بالفعل إلى محطاته الأخيرة، فنبهتهم إلى التحولات التي يمكن أن يعيشوها إذا هم أقدموا على ما اقترحوه؛ حيث تقتحم البلدة، ويصير الأعزة أذلة. وهي أفعال منكرة تتحدد أصولها ومنطقاتها في كلمات حُطَّتْ بالأيمان على قرطاس أول مرة. وهو ما قال الله تعالى بشأنه:

- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34)﴾ (النمل: 34).

إن الفعل يتطور، وإن تقدير حدته عند محطاته الأخيرة، دفع الملكة إلى أن تفكر في الإقدام على فعل يتحقق به التواصل بين المرسل والمرسل إليه، دفعاً لكل صدام محتمل، فأرسلت هديتها التي لم تقع من قلب سليمان عليه السلام موقعاً حسناً، فقال رداً على ذلك:

- ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37)﴾ (النمل: 37).

لقد بلغ الخطاب باعتباره فعلاً مبلغاً عظيماً يستقر في نقطة تمثل مفترق الطرق المنفتحة على السبل السلبية والإيجابية كلها؛ فإما خضوع واستسلام طلباً للنجاة، وإما وقوف على عتبات المجابهة التي لا تفضي إلى خير. فسخر نبي الله سليمان

طاقات ملكه الظاهرة والخفية من أجل إحضار عرشها قبل مجيئها وقومها مسلمين مدعنين، فحكى الله تعالى قوله:

- ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)﴾ (النمل: 41-42).

إن الخطاب يصير فعلاً لما تسجل الملكة الفروق بين الملُكين، وتلاحظ البون الشاسع بين القوتين، فتعيش التحولات الذهنية والعقدية التي أعلن سليمان عليه السلام عن رغبته في تحقيقها فيها وفي رعيته. وهو ما نطق به القرآن الكريم؛ حيث قال الله عز وجل:

- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)﴾ (النمل: 43-44).

ويمكن تبين هذا الأمر من خلال المسار الذي يتضمنه الجدول الآتي:

الخطاب	إجراءات تحويل الخطاب إلى فعل	تحويل الخطاب إلى فعل
أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (31).	استعراض مظاهر القوة: - إحضار العرش. - التحسيس بالتفاوت.	{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)}.
← ← ←	← ← ←	← ← ←

وأما الخطاب في الاصطلاح، فإنه يتحدد بكونه نتاجاً شفوياً أو مكتوباً، يرام منه التأثير على متلقيه للانتقال به من حال إلى حال.

فإذا وصف الخطاب بكونه دعوياً، فإنه لا يكاد ينصرف الذهن بخصوصه إلا إلى ارتباطه بالإسلام. والتفتيش في المزان التراثية لا يكاد يهدينا إلى قول لأحد علماء المسلمين يتضمن هذا البناء. فهو بناء وافد على الثقافة العربية الإسلامية حديثاً؛ فقد صنعه الغرب ضمن ما صنع من مصطلحات تهم الإسلام والمسلمين في الآونة الأخيرة.

ومن ثم، فإن التركيب يبدو محملاً بخلفيات رؤيوية ما تلبث أن تطبع الدعوة إلى الله بطابع يجعلها مشوبة بلامح خاصة، رغم أن الدعوة تجد من ركائز الوحي الكثير مما يمنحها الشرعية الإيمانية. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (125) (النحل: 125)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (108) (يوسف: 108). وهو ما يجعل الخطاب الدعوي المقصود عندنا متمثلاً في الدعوة الإسلامية بكل أطيافها وتوجهاتها، وبجميع خلفياتها ومقاصدها المختلفة.

وأما ما يتعلق بالتفعيل، فإنه ينصرف بالخطاب الدعوي منصرفاً آخر، يتبين منه أن الخطاب الدعوي موجود على أرض الواقع ومتحقق في حياة الناس، ولكنه لما يبلغ المحطات التي ينبغي له أن يبلغها، فيؤثر ويوجه ويبني ويرص الصفوف ويزيح الخنا من القول والفعل، وينقل المجتمع برمته من مستوى معين إلى مستويات أجل منه قدراً وأوفر عطاء وأكثر قدرة على مجابهة المخاطر المحدقة بالإنسانية في كل حين.

ولقد كان من الإرهاصات الأولى الداعية إلى تفعيل الخطاب الدعوي في العصر الحديث، تلك التي وجه إليها الأنظار الأستاذ محمد رشيد رضا وشيخه محمد عبده في تفسير المنار؛ حيث جاء فيه: "وَإِنَّ لَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ عَلَى وُجُوبِ تَعَلُّمِ فُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْأُصُولِ لِأَجْلِ فَهْمِ الدِّينِ دَلِيلًا عَلَى وُجُوبِ تَعَلُّمِ طُرُقِ الدَّعْوَةِ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِطَرِيقَةٍ صِنَاعِيَّةٍ"⁽⁵¹⁾.

51. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 4/ 36.

• المطلب الثالث: مفهوم خطاب الكراهية

ترجع دلالة الكراهية في اللغة إلى معاني المشقة، وجعل الأمر مكروهاً، والحمل عليه.

- فهي تعني المشقة؛ حيث ورد في معاجم اللغة أن ”الكُرْه، بِالضَّمِّ، المشقَّة. يُقَالُ: قُمْتُ عَلَى كُرْهِ أَي عَلَى مَشَقَّة“⁽⁵²⁾.

- وتعني جعل الأمر مكروهاً؛ فقد ورد في معجم العين أن ”كَرِهْتُهُ كَرَاهَةً وَكَرَاهِيَةً وَمَكْرَهَةً. وَكَرَهُ إِلَيَّ كَذَا تَكْرِيهاً: صَيَّرَهُ عِنْدِي بِحَالٍ كَرَاهِيَةً“⁽⁵³⁾. كما أنهم يقولون ”وَكَرَهُ إِلَيْهِ الْأَمْرَ تَكْرِيهاً: صَيَّرَهُ كَرِيهاً إِلَيْهِ، نَقِيضُ حَبَبِهِ إِلَيْهِ“⁽⁵⁴⁾.

- وتعني الحمل على أمر مكروه؛ حيث يقال: ”وَأَكْرَهْتُهُ: حَمَلْتَهُ عَلَى أَمْرٍ وَهُوَ كَارُهُ“. فالتعديّة، سواء بالهمزة أم بالتضعيف، تجعل الأمر متجاوزاً الذات المتكلمة إلى الذات المتحدث عنها، فيقال: ”أَكْرَهْتُهُ عَلَى كَذَا: حَمَلْتُهُ عَلَيْهِ كَرهاً“⁽⁵⁵⁾.

- ولقد أورد الأزهري في تهذيب اللغة أن أهل اللغة قد أجمعوا على أن ”النَّكَرُ والنَّكَرَةُ لُغَتَانِ، فَبِأَيِّ لُغَةٍ قَرِئَ فَجَائِزٌ، إِلَّا الْفَرَاءَ، فَإِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ النَّكَرَ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ، وَالنَّكَرَةُ مَا أَكْرَهَكَ غَيْرَكَ عَلَيْهِ“⁽⁵⁶⁾.

- ولقد ذكر ابن منظر في لسان العرب أن ابنَ بَرِّي اختار قول الفراء مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾، وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾، فَيَصِيرُ الْكَرْهُ، بِالْفَتْحِ - كما يروي ابن منظور - ”فِعْلَ الْمُضْطَرِّ، وَالْكَرْهُ، بِالضَّمِّ، فِعْلَ الْمُخْتَارِ“⁽⁵⁷⁾.

فالجزر الصرفي ”ك، ر، ه“، يحيل من خلال ما مضى على العنت والمشقة واتخاذ المواقف غير السوية.

52. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،

دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1987م، مادة ”كره“، 6/ 2247.

53. كتاب العين، الفراهيدي، مادة ”كره“، 3/ 376.

54. لسان العرب، ابن منظور، مادة ”كره“، 13/ 534-536.

55. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة ”كره“، 6/ 2247.

56. تهذيب اللغة، مادة ”كره“، 6/ 11.

57. لسان العرب، مادة ”كره“، 13/ 534.

وإذا انصرفنا بأبصارنا إلى الجهات المسؤولة عالمياً عن تحديد الاصطلاح الإجرائي الخاص بهذا المفهوم، متمثلة في الجمعية العامة للأمم المتحدة في تقريرها عن تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، فإننا نجد أنها قد أوردت تحديداً خاصاً لهذا المفهوم، فورد في تقريرها أن الكراهية "حالة ذهنية توصف بأنها مشاعر قوية وغير عقلانية"⁽⁵⁸⁾.

إن هذا التحديد لا يحمل مسؤولية ولا تبعات للجهة الممارسة للكراهية بخطابها أو بفعلها. فبقي أمره في حدود الوصف. ولذلك، فإن الفقرة التي اختصت بتحديد المسؤوليات جاءت باهتة، فقيل فيها: "ولهذا يهيب المقرر الخاص بالدول أن تحدد عتبات عالية ومتينة، تشمل العناصر التالية: شدة الضرر، والقصد منه، ومضمونه، ومداه، وإمكانية أو احتمال حدوثه، ووشوكة، وسياقه. ويجب إجراء هذا الفحص على أساس كل حالة على حدة، مع مراعاة السياق"⁽⁵⁹⁾.

وقد حدده مركز "هي" للسياسات العامة بعمان بالملكة الأردنية الهاشمية بأنه "استثارة وتحريض وصولاً إلى عداوة قاتلة. وقد تتخذ دولة ضد دولة، أو طائفة ضد طائفة، أو حزب ضد حزب، أو فرد ضد فرد، أو مسؤول ضد مسؤول"⁽⁶⁰⁾.

إن خطاب الكراهية يبدأ حينما ينحرف الفكر الإنساني عن جادة الصواب؛ فهو ملمح من ملامح الانحراف والتدمير وإحداث الثلوم في صرح الإنسانية الكبير. ولا يمارس إلا حين يسود التطرف في الفكر فيبحث لنفسه عن مخارج لفظية ما تلبث أن تتخذ تجليات من الفعل والممارسة في واقع الحياة. فيسود من خلاله التمييز والتعصب والتحريض.

58. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، الدورة السابعة والستون، 7 شتبر 2021، المادة: 43.

59. المرجع نفسه، (التوصيات).

ومما يدل على أن الإجراءات التي تحول بين خطاب الكراهية وبين أن يكافح بالصورة الكافية تلوح باهتة في أدبيات الجهات المسؤولة عن إصلاح الوضع العالمي، أن يقتصر على تعريف مستويات الكراهية ولا تحدد عقوباتها؛ فتذكر الكراهية، والازدراء، والدعوة، والتحريض، والتمييز، والعداوة، والعنف. ينظر: المرجع نفسه، المادة: 43.

60. التصدي لخطاب الكراهية عبر الإنترنت، مركز "هي" للسياسات العامة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية - ديسمبر 2015، 8.

إن شهادات واقع الحياة الآتية من هنا وهناك، لتبين أن خطاب الكراهية ما ساد في أرض إلا وعاش أهلها القطيعة والانفصال والصراع وعدم التعاون، فلا يجد التواصل والتسامح بين أهلها موقع قدم، فيستشري تأثيره ولا يتوقف، بل إنه يستمر مع الزمن ليرثه اللاحق عن السابق، وليذوق ثمراته من لم يكن حاضراً في زمن إطلاق شرارته الأولى.

ولذلك، فإن الكراهية- كما ترى نيزا ياناي Niza Yanay، في بحثها الموسوم بإيديولوجيا الكراهية- تظهر بمظهر المرتبط بالتاريخ واللغة وأسئلة الهوية، بل إنها تفرض ألا تُتجاهل علاقات القوة واستخداماتها، وإساءة استخداماتها. فالكراهية، تبعاً لهذا المنظور، تحتاج إلى أن تصنف باعتبارها ”إيديولوجية للسلطة والقوة“؛ فهي سياسة يستشرف من ملامحها الشعور بالخطر وانعدام الأمن والحاجة إلى السيطرة⁽⁶¹⁾. ومن ثم، فإنها تصبح عاطفة سلبية قوية تجاه المستهدفين بها؛ إذ إن ”أكثر جوانب الكراهية وضوحاً هي العاطفة الشديدة“⁽⁶²⁾ - حسب عبارة وليام غايلين Willard Gaylin، في بحثه الموسوم: بالكراهية: الانحدار النفسي نحو العنف.

إن ممارسة الكراهية طلباً للسيطرة لن يدوم ما دامت الجهة المستهدفة به خاضعة للتحويلات الحياتية، فإذا انتقلت من موقع ضعف إلى موقع قوة، فإنها ستبادل خصمها بمثل جنس ما يعاملها به. ولن تكون معتدية آنئذ. فقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (126) (النحل). ولذلك، فإن كثيراً من المنتسبين لعلم الاجتماع يكونون على صواب لما يرون أن ”الكراهية ما هي إلا تبادل للانتقام العاطفي وتأكيد العلاقات المتبادلة من الكراهية“⁽⁶³⁾.

61. ينظر موقف الكاتبة من الكراهية في مؤلفها:

The Ideology of Hatred, The Psychic Power of Discourse, Niza Yanay, 2013, Fordham University Press, 2.

وللإشارة، فإن الكاتبة ربطت بين الكراهية وبين هذه المفاهيم التي تنصرف إلى مستويات عليا، لأن حديثها كان موجهاً نحو وصف السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، والوقوف على المواقف الأمريكية من المسلمين وقضاياهم. فمن خلال تشهير القادة الإسرائيليين بأهل فلسطين، داخل البرلمان وخارجه، وترويجهم للكراهية ضداً عليهم، فإن العديد من الأطفال الصغار يتخيلون الفلسطينيين على أنهم أشرار. والكاتبة، من هذا الجانب، تتعاطف مع الفلسطينيين، وتدعو إلى التمييز بين الكراهية باعتبارها رد فعل على القمع، وبين الكراهية بوصفها إطاراً إيديولوجياً.

62. Hatred, The Psychological Descent into Violence, by Willard Gaylin, Published in the United States by Public Affairs, New York, 2003, 18.

63. The Ideology of Hatred, The Psychic Power of Discourse, Niza Yanay, 2.

• المطلب الرابع: مفهوم تعزيز التعايش الإنساني المشترك

إن دلالة التعزيز في اللغة ترجع إلى معاني القوة والغلبة والقهر والقلّة والرّفعة والإمْتِناع.

- فهي تعني القوة والغلبة؛ حيث ورد في معاجم اللغة أن العِزَّة هي القوة والغلبة⁽⁶⁴⁾.
- وتعني أيضاً القهر؛ فيقال: "عز يعز عزة وعزا إذا صار عَزِيْزاً. وعز يعز عزا إذا قهر"⁽⁶⁵⁾.
- وتعني القلّة؛ فقد ورد في المعاجم أن "عز الشيء يعز وعزة وعزاة، إذا قلّ لا يكاد يوجد، فهو عزيز"⁽⁶⁶⁾.
- وتعني الرفعة والامتناع؛ فيقال: "والعِزُّ والعِزَّة: الرّفعة والإمْتِناع"⁽⁶⁷⁾.

فالتعزيز تقوية، وإن تعزيز التعايش الإنساني المشترك دعم لأركانه ورص لصفوفه وإقامة لأوده ودفع لكل ما يستهدف الإضرار به. ولكن همسات صار يأتي حسيّسها إلى الثقافة الإنسانية المعاصرة رغبة من أصحابه في أن يحدثوا تغييراً في بناء مفهوم تعزيز التعايش الإنساني. فصار يسمع عن توحيد الديانات والاقتصار على القواسم المشتركة بين بني الإنسان.

إن التعايش من غير حفاظ على الخصوصيات لا يفيد تعايشاً بالمعنى الصحيح، وإنما هو محو للملامح ودرء للمميزات. وإذا لم يكن مؤسساً على بناء مفهومي سليم، فإن تعزيزه لن يكون إلا شداً لعضض الانحراف، وتقوية لمسارات الرّيبة وإفقاد المجتمع الإنساني هويته وملامحه المميزة.

فلكل مجتمع خصوصياته الدينية واللغوية والعرقية التي لا يمكن لأحد أن يتجاهلها. ولذلك، فإن تعزيز التعايش الإنساني المشترك يقتضي تحقيق الأخوة الإنسانية في مستوياتها العليا، كما يقتضي الحرص على بناء المجتمع الإنساني بما لا يجعل الضرر يلحقه من أي ثلّم من الثلُوم، ويعصمه من التنافر والتفكك والاندثار.

64. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة "عزز"، 3/ 885-886.

65. تهذيب اللغة، مادة "عزز"، 1/ 129.

66. الصحاح، مادة "عزز"، 3/ 885-886.

67. لسان العرب، مادة "عزز"، 5/ 374-379.

المبحث الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي سيف ذو حدين، والخطاب الدعوي يوجهها نحو ما يبني المجتمع

• المطلب الأول: مفهوم الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك: التقابل والغلبة

خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك من الثنائيات الأساسية في حياة الناس؛ فكثيراً ما تجد طرفيها سائدين في ممارساتنا وفي أقوالنا وفي علاقاتنا وأواصرنا؛ حيث تجدهما ذوي أثر واضح في تحديد صورة المجتمع الحقيقية، وتلفاهما مسهمين في رسم مساره الذي يسير عليه، فبهما تكون النظرات شزراً فتكاد تزلق الآخرين، ويكون الوجه متجهماً مكفهراً فيحمل في ثنايا تقطبه ملامح الرغبة في الصدام، أو تكون النظرات منبسطة تنبئ المنظور إليهم أنها مكسوة بالسلا، ناشدة الطمأنينة للجميع، ملتزمة أن يأكل بنو الإنسان رغداً حيث شاؤوا.

إن الواقع الإنساني اليوم واقع يتأرجح بين طرفي ثنائية خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، ولكن تأرجحه لا يمنح الغلبة لأحدهما على رديفه إلا من خلال سيادة أحد الأصلين اللذين ينبثقان منهما. وهما المتمثلان في الخير والشر. فكلما هيمن أحدهما على الآخر، وحقق السيادة في واقع الناس، كانت له الكلمة الفصل في طبع ذلك الواقع بطابعه.

وتبعاً لتحكم هذين المنطلقين في صناعة الواقع، فإن سيادة أحد الطرفين تجعل المجتمع منقسماً على ذاته؛ حيث تتشكل طائفة منه تشكلاً مؤسساً على الشر، منبثقاً من قواعده، سالكاً مسالكه، مستهدفاً تحقيق أهدافه ومقاصده. كما تنبني إلى جانبها طائفة أخرى تتخذ منطلقاتها من الخير، فتتشد ما يدلها عليه، وتتطلع من خلاله إلى تحقيق راحة الإنسان ودعم أواصره ورص صفوفه وشده عراه.

إن سلك مسار من المسارين لا يأتي عبثاً، ولكنه يأتي بتوجيه الأصول التربوية وتدخّلها؛ فالاختيار يكون عائداً إلى تلك المنطلقات التي تؤتي أكلها على شاكلة جنسها، فالإنسان وعاء، وكل وعاء بما فيه ينضح. وإذا كانت المنطلقات التربوية ماتحة من الخير ومن محاضنه جاءت ثمراتها على صورتها؛ فيميل صاحبها إلى الكلمة الطيبة،

ويختار معجماً يكون بلسماً إذا وضع على الجرح جعله مندملاً، وإذا اعتمد في إصلاح علاقات أفراد المجتمع جعلها علاقات أخوة وتواد وتراحم. وكذلك الشأن بالنسبة للأصول التربوية الماتحة من الشر، فإنها أينما ولّيت لا تأتي بخير، فلا تدفع بلاء ولا ترص صفوفاً، ولكنها تزيد النكبات وقوداً وتزيد الأواصر تفككاً.

ومن ثم، فإن غلبة التأثير تكون لما كان مهيمناً من الطرفين؛ فإذا كان المجتمع منشداً إلى الخير وإلى فعله وبذله والحرص على مصالح الآخرين وتحقيق طمأنينتهم وسكينتهم، فإن التربية العامة السائدة فيه تجعله سالكاً المسالك التي تسود فيها الكلمة الطيبة، ويهيمن فيها ما يعزز التعايش الإنساني المشترك. وإذا كان المجتمع منشداً إلى الشر وإلى ما يُذيق به الناس الأمرين، فإن التربية السائدة فيه توجهه نحو المسالك التي تحقق فيها الكلمة الخبيثة تعشيشاً وتفريخاً وتكاثراً وإضراراً.

• **المطلب الثاني: خطاب الكراهية يستهدف الفئات المستضعفة، وتعزيز التعايش الإنساني يصلح أوضاعها**

غالباً ما يستهدف خطاب الكراهية الفئات المستضعفة، وغالباً ما يستحضر أصحابه في تعاملاتهم درجة قوة المستهدفين بخطابهم. وخطاب الكراهية خطاب متجذر في تاريخ الإنسانية كلها؛ فلم يسلم منه نبي ولا رسول ولا واحد من مستضعفي المؤمنين، فهذا نبي الله نوح عليه السلام قد عرف من صنوف المعاناة ما لا يطيقه الناس، وعاش من المواقف السلبية القائمة على الكراهية المتعددة الألوان والأشكال ما لا حصر له.

ووقفاً على بعض ما جاءنا به القرآن الكريم عنه لتبين مدى خطورة أوضاع الكراهية التي تعرض لها هو وأتباعه. ولننظر إلى بعض ذلك في الآتي:

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الْإِثْمِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (27) (هود: 27).

إن القول الذي حكاه القرآن الكريم عن قوم نوح ليبين مدى غوصهم في مستنقعات الكراهية الآسنة؛ حيث انطلقوا من المقارنة بينهم باعتبارهم ضالين مدعوين إلى التزام

سبيل الهداية، وبين من يدعوهم باعتباره نبياً مرسلًا من الله تعالى؛ فأروا أن التميز بينهم وبينه غير متحقق؛ فهم أنداد وأمثال! كما أن أتباعه كلهم أراذل، وهم سفلة الناس- كما يعبر ابن عطية في المحرر الوجيز- فهم ”من لا أخلاق له، ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له“ (68).

ويرصد الزمخشري سبب السقوط في هذه المطبات غير الإنسانية التي تهوي بأصحابها من علٍ في مهاوي الكراهية التي تحدث الشرخ الهائل بين أفراد المجتمع ومكوناته، فيقول: ”وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال“ (69). فسبب الاستضعاف عائد إلى الجانب المادي. ومن لا مادة له لا يعدُّ امرأً ذا بال. ولذلك، فإن مسوغ النزول عن الأبراج العاجية غير ممكن، فما ثمَّ شيء يستحقون به الاتباع والطاعة (70).

ولنا مشهد ثان يتكرر فيه خطاب الكراهية، وتتكرر فيه سماجتها المهدمة غير البانية. إنه القول الذي جابه به قوم شعيب نبيهم عليه السلام، فقال الله تعالى حاكياً قولهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ﴾ (91) (هود: 91)؛ حيث يستوقفنا موقفهم منه وإحجامهم عن أن يفعلوا شيئاً يضره اعتداداً برهطه واحتراماً لهم، لأنهم- كما يوضح الزمخشري في الكشف- ”كانوا على ملَّتْهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزَّتْهم“ (71).

إن هذا القانون الذي حكم خطاب الكراهية ها هنا، قانونٌ يحكمه في كل زمان؛ ففي عصرنا الحالي- وهو عصر يبعد عن الزمن الذي نُطق به فيه بدهور وعصور- ما زلنا نرى المجتمعات في علاقتها بالمستضعفين تنطلق من هذا المنطلق؛ فإذا كانت هذه الفئة محميةً الظهر بجهة محترمة مقدرة من لدن ممارسي خطاب الكراهية، فإنهم يحجمون عن الاستمرار فيه.

68. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ، 3/ 163.

69. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407هـ، 2/ 389.

70. المحرر الوجيز، ابن عطية، 3/ 164.

71. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 2/ 423.

ويجد خطاب الكراهية القائم على الاستصغار والاحتقار مستقراً متميزاً في المواقف التي أبداهها فرعون من نبي الله موسى عليه السلام، فقال الله تعالى بشأنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) ﴿ (الزخرف: 51)؛ حيث يقدم مسوغات الكراهية والانتقاص من شأن المستهدف بالخطاب متمثلة في المقارنة كما قدمها أسلافه من ممارسي هذا الخطاب من قبل.

وهو الأمر الذي يتكرر مع كفار قريش حين أخذت قلوبهم تلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت تنقشع خيوط الانفراج شيئاً فشيئاً؛ فقد روى أبو الكنود عن خباب رضي الله عنهما، قال: ”جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعَيْنُهُ بُنْ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَحَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبِدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمُّهُمْ عِنَّا، فَإِذَا نَحْنُ فَرَعْنَا، فَأَقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: ”نَعَمْ““ (72).

إن النظرة القائمة على الاحتقار هي ما جعل أشراف العرب يدعون النبي صلى الله عليه وسلم لأن يطرد الفئة المستضعفة من المؤمنين، متشبثين في بنائها على المعيار الاجتماعي والرغبة في المحافظة على الهوية الذاتية؛ فهم يتطلعون لأن تعرف العرب فضلهم باقترابهم من النبي صلى الله عليه وسلم، ويأنفون من أن يروهم مع هذه الفئة. إلا أنهم كانوا يريدون أن يكون الاتفاق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم موثقاً مكتوباً، فقالوا: فَاصْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا.

72. رواه ابن ماجه، في سننه: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء الكتب العربية، في كتاب الزهد، باب مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ، رقم: 4127 / 2 / 1382، والطبراني في المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط 2، في باب ”الطاء“، أَبُو الْكُنُودِ، عَنْ حَبَّابٍ، رقم: 3693، 4 / 75، والبيهقي في شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، إشراف مختار أحمد النحوي، صاحب الدار السلفية، بومباي، الهند- مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1423هـ- 2003م، في الزهد وقصر الأمل، رقم: 10009، 13 / 96.

وبالنظر إلى رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأليف قلوبهم وتقريبهم من الدين وأهله، فقد رحب بما دعوا إليه، ”فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ“⁽⁷³⁾؛ ذلك لأنهم كبراء في أقوامهم، وهم بوابات مُوصدة في وجه مَنْ حَلَفَهُمْ، وإذا أسلموا فإن أولئك سيدخلون الإسلام لا محالة.

إن تدخل القدر في رد الاعتبار للفئة المستضعفة من المؤمنين كان قوياً بيناً، ولا سيما حين أوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ، فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 52)، بل إنه كان سبباً في تحول النبي صلى الله عليه وسلم عن عادة كانوا قد ألفوها منه، فقد كان يجالسهم، فإذا أراد أن يقوم قام وتركهم، وبعدها لم يكن يقوم حتى يقوموا⁽⁷⁴⁾.

لقد رام القدر تحقيق التعايش الإنساني بين هذه الفئة المستضعفة التي لا تزاحم القوم في شيء من مصالحهم ولا تتطلع إلى الفوز بجانب من نفوذهم في الحياة المعيشة، وبين المجتمع الذي توجد فيه، فلم يستجب لما يرغب فيه ممارسو خطاب الكراهية القائم على الاحتقار والإهانة والنظرة الدُّون.

لقد تراكم من خلال الصور السالفة أن علاقة المجتمع الإنساني بخطاب الكراهية علاقة قديمة ضاربة في أعماق التاريخ، وأن القوانين الضابطة لمسارها وممارستها قوانين واحدة، تقوم على المقارنة المادية والوضع الاجتماعي، ولا تستحضر أسبقية دينية ولا اجتهاداً في سلم الأخلاق. وما ذلك إلا لأن التميز المادي والاجتماعي تنبهر به النفوس التي تنشأ إلى عَرْض من الدنيا قليل، ولأن السابقة الدينية والخلقية تحول بين المرء وبين السقوط في هذه المسالك غير الموصلة لجمع شمل المجتمع ورص صفوفه.

ومشاهد هذا الخطاب تغزو العالم، فمن حيث وليت وجهك رأيت ما لا يروك منه، في مشرق الأرض وفي مغربها؛ في أوروبا: (فرنسا وهولندا والدانمارك والسويد والبوسنة والهرسك...)، وفي آسيا: (الصين والهند وباكستان وسريلانكا وفلسطين

73. التخرّيج نفسه.

74. التخرّيج نفسه.

والروهنجا والإيكور)، وفي الأمريكتين: (الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية فنزويلا البوليفارية...)، وأستراليا⁽⁷⁵⁾.

وخطاب الكراهية لا ينحصر في تجلياته الاجتماعية؛ حيث نراه متجلياً في المظاهر الدينية التي تبرز من خلال إبداء كراهية الدين وأهله، وتوظيف التعبيرات غير السوية في إبداء المواقف السلبية. ومن ذلك ما نجده مبعوثاً في بعض قنوات اليوتيوب التي أنشأها حامد عبد الصمد ووظفها في خدمة كل من كانت له مواقف عدائية من الإسلام والمسلمين. ومن ذلك استضافته للمسمى هشام نوستيك وخوضه في مواضيع ساخرة عن الدين والقرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم⁽⁷⁶⁾.

وكذلك الشأن بالنسبة للأستاذ رشيد أيلال صاحب كتاب "صحيح البخاري: نهاية أسطورة"⁽⁷⁷⁾. وقد أبدى في تصريحاته كل ما تضمّنه كتابه الذي تعدد تأليفه عن صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى؛ ذلك لأن هؤلاء يعلمون علم اليقين أن استهداف القادة والزعماء والقامات الرفيعة الشأن، له ما له في نفسيات الرعايا الذين يمثلون الأتباع والأنصار.

وهو الأمر الذي نراه قد تكرر في صور أخرى ومشاهد مباينة؛ فقد أقدم بعض مروجي خطاب الكراهية بالسويد والدنمارك على إحراق المصحف الشريف من غير داع، إلا أن يكون داعي الكراهية والحق الموجهين نحو الإسلام والمسلمين. فمروجو هذا الخطاب ينفرون من وجود الأجانب في بلادهم، ولا سيما من كان مرتدياً لزيّ يحيل على الثقافة العربية والإسلامية؛ حرصاً منهم على الحفاظ على انتمائهم وملاحمهم الثقافية المميزة.

إن خطاب الكراهية لا يهدأ لأصحابه بال حتى يحولوه إلى عنف مادي وضرب ورسف وجروح ودماء. ومن المشاهد التي تدمي القلب ما تعرضت له سيدتان؛ إحداهما المسلمة السويدية مادلين التي استجابت لما يأمرها به دينها من حجاب وتعفف وابتعاد عن الرذائل. وذات مرة خرجت لتمتع نظرها بجمال البحيرة التي

75. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 28.

76. ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=sZAQebi0Avw&ab_channel=Hamed.TV

تاريخ الاطلاع: 2020/09/06.

77. ينظر الرابط وتاريخ الاطلاع نفسهما.

بجوار منزلها الواقع في جزيرة شمالية تكاد تكون خالية من الناس، فاقترب منها ثلاثة أشخاص اقتراباً مغرضاً، فزاحموها، وضربوها على بطنها وهي حامل، وألقوها على الأرض وأخذوا يصرخون أن بلادهم لا تقبل هذه الأفكار الدخيلة عليها.

وشبيه بهذا ما عاشته رُبَى دَاوُدَ مَجِيد قَعُوار الشابة الأردنية المسيحية المقيمة في ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية⁽⁷⁸⁾. لقد كانت نقطة تحولها إلى الدين الإسلامي دخولها مع بعض الطلبة المسلمين في حوار تعلق بالمقارنة بين المسيحية والإسلام، فعزمت على أن تأتيتهم بما ينقص من قيمة القرآن أو يظهر خطأه، فانكبت على القرآن متلهفة لأن تجد فيه ما يثلج صدرها، إلا أن الأمر كان مفتاح هداية لها إلى دين الله تعالى، ولا سيما حين وقفت على قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83)﴾ (المائدة: 82-83).

إنها لم تتمالك نفسها، فأذرفت دموعها، وبكت بكاءً شديداً، فلم ترجع إلى شعورها العادي إلا وهي تقول: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83)﴾. ولكن هذا التحول سبب لها متاعب كثيرة مع أفراد أسرتها، فضربت ضرباً مبرحاً، وأهينت، وأودعت في الحمام، إلى أن تؤوب إلى رشدتها. وما كان ذلك إلا لأن كراهية الدين الإسلامي متجذرة في بعض النفوس تجذراً لا يطاق.

• المطلب الثالث: دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني هينان بالتوظيف الإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي وتفعيل الخطاب الدعوي

بالرغم من أن مواقع التواصل الاجتماعي تعلن في خطاب خصوصياتها عن كونها مستعدة لاتخاذ الإجراءات اللازمة ضدّ على كل من يسيء استعمالها، إلا أنها تبقى محاضن لاستنابات ثقافة تتوق إلى سماع عبارات الكراهية في أحوال كثيرة؛

78. ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=uXH_w31X0Jg&ab_channel=

فكم من صفحة من صفحاتها تتضمن أقوالاً رئيسية تروج لهذا الخطاب، وكم من تعليقات تأتي تباعاً يتوالد خطاب الكراهية في ثناياها، وكم من حسابات تشتمل على عبارات يأنف من سماعها من لم توجه إليه تحديداً، فبالأحرى أن يستسيغها من وجهت إليه قصداً.

فإذا كان المرء يتلقى جرعات من هذا الخطاب يومياً، ويمارسه في كل وقت وحين، فإن أثره يكون بيناً عليه في سلوكه وتصورات وأقواله وأفعاله. أما إذا كان صاحبه مدمناً على هذه المواقع، فإن الطامة عليه تكون كبرى، وإن العواقب التي يصيب بها غيره من أفراد المجتمع الإنساني تكون أدهى وأمر.

ومن ثم، فإن إصلاح الوضع القائم، من خلال دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، يكون رهيناً بالتوظيف الإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي وتفعيل الخطاب الدعوي فيها. وبلوغ هذا المبلغ لن يكون هيئاً البتة، لأنه يتعلق بسلوك اجتماعي عالمي عام؛ فكل الأمم يسودها هذا الخطاب، وكل الأمم تنتج منه ما يضر ولا ينفع. ولذلك، فإنه ينبغي تعديل السلوك الشائع بين الناس في المعمور كله؛ شرقاً وغرباً. وهو ما يحتاج إلى توظيف ترسانة متعددة الموارد؛ تعليمياً وإعلامياً، وتربوية وتنشئة، وقوانين وشرائع، من أجل إعادة تشكيل الإنسان تشكيلاً تنتفع به الإنسانية جمعاء. وهي الموارد التي نريد أن نعرضها في الفقرات الآتية:

إن أول ذلك يتأسس على الوعي الخلقي والقانوني. وهو الأمر الذي يمد الفرد بقوة تجعله قادراً على التمييز بين الحق والواجب. فإذا تمكن من ذلك، فإن حواجز تقوم بين الحقوق والواجبات لديه؛ حيث يكون الحق حقاً والواجب واجباً، فيستقل كل واحد منهما بموقعه الذي ينبغي أن يكون له. ومن ثم، فإن المنطقة المظلمة التي كانا يتداخلان فيها من قبل تصير منطقة مخصصة لأحدهما، فتختفي الفوضى ويختفي التلاعب بحقوق الآخرين، ويُدحر الاعتداء الذي يبرز من جوانبه المترامية الأطراف خطاب الكراهية والشحناء والبغضاء.

فالوعي بالحدود الفاصلة بين الحقوق والواجبات يمكن المرء من إدراك خطورة الخلط بينهما؛ حيث تكون له انعكاسات جمة على المجتمع عامة، وعلى الجهة المستهدفة بخطاب الكراهية خاصة. وهو ما يكون التوظيف الإيجابي لشبكات

التواصل الاجتماعي ثمرة له؛ فالوعي الخلقي والقانوني يجعل المرء مميزاً بين أصناف السلوكات، مدركاً لما يمثل حقاً لذاته ولما يمثل واجباً عليه تجاه الآخرين.

وإلى جانب هذا المورد، يظهر التعليم والإعلام بصفتها محضنين مرافقين للإنسان منذ نعومة أظافره؛ فلهذين المحضنين أثر بالغ في تشكيل الشخصية الإنسانية وبنائها على الطريقة التي يريدها القائمون عليهما. ولذلك، فإن البرامج المقررة وطرق التدريس التي تؤدي بها، وسلوك من له دخل في أداء تلك المهمات من مدرسين وإداريين ومسؤولين مختلفين، تتدخل كلها في طبع المتعلم بملامحها المميزة الخاصة ليكون صاحب أخلاق كريمة بانية، أو ليكون حاملاً لمعاول الهدم والاعتداء على الآخرين، فيمضي في حياته وهو مجرد من كل وازع تربوي تكون المدرسة قد لقنته إياه.

كما أن للصور الإعلامية التي يتلقاها المرء صباح مساء من موارد لا حصر لها، أثر بالغ في رسم معالم الطريق المناسب لما يريده القائمون على الإعلام العالمي؛ فالصور التي تبث في القنوات كلها، والأخبار التي تذاع فيها وفي غيرها، حينما تأتي ناقلة الدمار والخراب في كل جنباتها، وتأتي حاملة جثث القتلى والضحايا، فتلوح ملطخة بالدماء من كل جوانبها، مثل ما نراه في فلسطين وليبيا وميانمار وأفريقيا الوسطى...، فيسأل من يشاهد تلك المشاهد البشعة المرعبة، بأي ذنب قتلت تلك النفوس؟ ولم هدمت مساكنها وأريققت دماؤها؟ فلا يكاد يجد جواباً مقنعاً، فإنه حينئذ يعلم علم اليقين أن الظلم والاعتداء استشرياً في حياة الناس. ومن ثم، فإن كثيراً من النفوس التي لم تتمثل مبادئ التربية الحسنة، تميل ميلاً عظيماً إلى الظلم والاعتداء كما علمها التعليم والإعلام. وتصريف خطاب الكراهية في شبكات التواصل الاجتماعي لن يكون إلا تجلياً من تجليات الانحرافات التي ستقبل عليها في حياتها.

ويوجد إلى جانب الموارد المذكورة المؤثرة على النفسيات لممارسة خطاب الكراهية رافد التنشئة الاجتماعية؛ فإذا كان المرء منذ طفولته يسجل الاعتداءات التي يمارسها أبوه أو أمه أو من يحيطون به، ويسجل التشجيعات التي يتلقاها المعتدون من لدنهم، فإنه يجد في ذلك مرتعاً خصباً لإنعاش موارد الظلم لديه والتمكين لمحاكاة الاعتداء في نفسه، حتى إذا اقتصر اعتداؤه مستقبلاً على توجيه خطاب الكراهية نحو الآخرين، فإن أمره يكون يسيراً هينا بالمقارنة مع اعتداءات أخرى أشد وأنكى.

فهذه الأسس المسهمة في تشكيل شخصية الإنسان، هي التي تتحكم فيه حين يريد أن يستعمل شبكات التواصل الاجتماعي؛ فهي التي توجهه نحو إلحاق الأذى بالآخرين وتؤلّب القلوب ضدّ عليهم، وتصرفه نحو ترويج خطاب الكراهية، فتلقّيه في الآفاق كما تلقى الشرارات الأولى في الهشيم، فما تلبث أن تحدث كل مكروه حتى تأتي على الأخضر واليابس.

ولما كان المجتمع الإنساني برمته قد انحرف عن جادة الصواب انحرافاً بيناً، فقد انتشر أذاه الذي ينطلق منه ويعود إليه، في شبكات كان من الأولى أن تكون وسيلة وصل بين أطرافه، فترص صفوفه، وتدعم المتداعي من واجهاته، وتهديه في حياته سبل السلام.

وقد يقول قائل إن كلامنا يعتريه الشطط في أكنافه. ولكن حين تشهد الجهة المسؤولة عن الأمن العالمي وتسوية أوضاعه المختلة، محددة في الأمم المتحدة، فإن الأمر يصير جلياً لا غبار عليه. ومن ذلك أن نقرأ في بعض مقرراتها أنه "حدث ارتفاع مقلق في عدد أشكال التعبير عن الكراهية والتحريض على العنف والتمييز. وكثيراً ما تزداد حدة أشكال التعبير هذه بسبب الساسة ووسائل الإعلام. بينما سهّلت الإنترنت أيضاً تنامي خطاب الكراهية وبروزه في السنوات الأخيرة"⁽⁷⁹⁾. ولذلك، فإنها ترى أن "يتحمل كل فرد المسؤولية عن التنديد علناً بذلك الخطاب"⁽⁸⁰⁾.

79. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 75.

80. المرجع نفسه، المادة: 63.

الباب الأول

إمكانيات شبكات التواصل الاجتماعي
في تفعيل الخطاب الدعوي

تتعدد الإمكانيات التي تختص بها شبكات التواصل الاجتماعي تعدداً لافتاً؛ حيث يوجد منها التواصلية والمعرفية والإخباري والتجاري والمالي. ونحن لن نهتم لكثير من الجوانب التي لا تتقاطع مع موضوعنا، أو لا تمكننا من توظيفها في خدمة ما نريد تفعيله وإنعاشه ونقله من حاله السائدة إلى حال إيجابية أفضل منها.

ومن ثم، فإن رصدنا لهذه الإمكانيات الفعالة لن ينشغل بغير ما يسهم في تحقيق الطفرة النوعية في مجال الخطاب الدعوي. وحتى لا نستهلك وقتاً إضافياً في الرصد والتتبع، فإننا نحب أن نقيم عملنا في هذا الجانب على مبدئي المحاكاة والاستثمار؛ بحيث إننا سنلجأ إلى الأول اقتفاء لآثار من سبقونا في تفعيل المجالات التي يهتمون بها، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالمال والتجارة، فقد انكبت العقول على استخلاص ما يفيد اهتماماتها، وبذلت الجهود من أجل اختصار الطرائق للوصول إلى المردوديات العالية، وتوجهت الخلائق نحو هذه الشبكات زرافات ووحداً؛ كل منهم يبحث عن جدوى يستفيدها، أو ثمرة يقطفها، أو تحقيق مبتغى يتطلع إليه.

كما أننا سنلجأ إلى استثمار تلك الجهود وتصريفها نحو ما يخدم مجالنا؛ فكم من جهد بذل من لدن المهتمين بمجالات المال والتجارة، يمكننا توظيفه في المجال الدعوي توظيفاً نظيفاً، لا يمس خصوصيات الدعوة بما يعكر صفوها، ولا يطبعها بما يفقدها ملامحها المميزة، فتتم الاستفادة من الطرائق التي وظفوها واستطاعوا من خلالها الوصول إلى جيوب الزبناء وأموالهم.

وإذا كنا في عملنا هذا لا نستهدف جيوباً ولا أموالاً، وإنما نستهدف عقولاً وقلوباً، فإن ما أثر على الزبون ومكّن التاجر من الوصول إلى جيبه، يمكّننا من أن نصل إلى عقله وقلبه دون كبير عناء. ولا سيما أن المشتغلين بالمال والتجارة والتسويق ينطلقون في استثمار أموالهم وتجاراتهم وتسويقاتهم من أسس علمية مدروسة دراسة عميقة، تقيم أمرها على قواعد نفسية تواصلية، من أجل إقناع مخاطبيهم والتأثير فيهم وجعلهم يبذلون ما يبذلون عن طيب خاطر وابتسامة عريضة.

إن إقناع المخاطب والتأثير فيه يمثلان المبتغى النهائي والثمرة المنشودة من العمل كله؛ حيث تصب فيهما الروافد كلها، وتتفاعل الإسهامات التي تجود بها المكونات

المختلفة جميعها. ولذلك، فإن إمكانات شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي لا تتمثل فيهما تحديداً ولكنها تتمثل في الأسس والقواعد التي يقومان عليها. وهي التي نراها متمثلة مرة في ما يرجع إلى هذه الشبكات، ومتمثلة مرة أخرى في ما يرجع للإنسان المستهدف بالخطاب الدعوي. وهما الأمران اللذان سنخوض في شأنهما في الفصلين الآتين.

الفصل الأول: إمكانات التوظيف الفعالة لشبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي

المبحث الأول: تيسير شبكات التواصل الاجتماعي الجذب والمنافسة

• المطلب الأول: شبكات التواصل الاجتماعي قادرة على جذب الجمهور

طرحَت الباحثة "أليس نورمويل Alysse Normoyle" سؤالاً جوهرياً يثير دواخل المهتمين بشأن شبكات التواصل الاجتماعي، فقالت: "لماذا يحرص المهتمون على إنشاء صفحات على الفيسبوك Facebook والإنستغرام؟" (81). فإذا كانت هذه الشبكات غير مفيدة، أو كانت فائدتها محدودة، فلم نرى الخطى تُحَثُّ نحوها بالليل والنهار؟ ولم نرى بناء المواقع وإنشاء الصفحات عليها يمثل الهاجس الأكبر لدى متصديري الصفوف التجارية والسياسية والثقافية الطامح أصحابها إلى الوصول إلى أهداف مرصودة من لدنهم؟

إن السؤال رغم كونه سؤالاً ساذجاً، إلا أنه يمثل مهمازاً لتتبع الإجابات المحتملة التي يحرص المهتمون بشبكات التواصل الاجتماعي على الوصول إلى نتائجها وتحقيق مردودياتها. ونحن إذا كنا قد أعلننا عن اقتناعنا بمبدأي المحاكاة والاستثمار، فإننا سنقتفي آثار من حققوا نجاحهم في هذا المضمار القُدَّة بالقُدَّة، والشبر بالشبر، من أجل أن نحقق للخطاب الدعوي ما يصبو إليه، فنختصر الطريق الشائكة، ونحقق المردوديات الهائلة، ونستثمر الوقت والجهود استثماراً خاضعاً للعقل والروية.

إن المطلب الذي نحن بصدد معالجته يهتم بقدرة شبكات التواصل الاجتماعي على جذب الجمهور. فما الكيفية التي يسلكها المهتمون بهذه الشبكات لجذب جماهيرهم الغفيرة؟ وإذا كنا لا نحب أن نرتمي في أحضان الطرائق غير الشرعية في تحقيق هذا المأرب، فإننا نصرف جهودنا لتتبع المعالم التي يدير بها الجادون من ممثلي هذه الفئات سلك طريقهم الطويل. وهي التي نراها محددة في الآتي:

81. ينظر مقالها المنشور بتاريخ: 2019/10/03، وهو متوفر على الرابط: <http://bit.ly/2MFxiCi> تاريخ الاطلاع: 2021/03/01.

1. الحضور الدائم المتجدد:

شبكات التواصل الاجتماعي، كما سنوضح في فصول ومباحث لاحقة، شبكات مطروحة في الطريق؛ فهي شبيهة بالملك المشاع، حيث نجدها ملبية رغبة كل من طلبها، أو رغب في الدخول إليها. ولذلك، فإنها تمثل ملتقى، أو ملتقيات، يتردد عليها الناس جميعاً. وهنا تتبين الحكمة من إصرار المهتمين بهذه الشبكات على الحضور الدائم والظهور المستمر. فكم تراهم يلحون على من يريدون توجيهه نحو النجاح في مواقع شبكات التواصل الاجتماعي وفي صفحاتها، بأن يسجل الحضور فيها في كل حين، وكما تسمعهم وهم يوجهون فئاتهم المستهدفة نحو تطعيم محتويات مواقعها أو صفحاتها أو قنواتها بالجدید، وألا يتجاوز غيابهم عن مواقعهم أو صفحاتهم أو قنواتهم اليوم أو اليومين، حتى تصير قوة حضورهم في تلك الشبكات قوة ظاهرة بالمقارنة مع حضورهم في حياتهم العادية التي يعيشونها مع الناس.

فإذا كان التجار والمستثمرون والباعة والمسوقون ممن اهتموا بالتجارة وجلب المال يقرون بأفضال الحضور الدائم على هذه الشبكات، فإن الدعاة أولى بأن يحرصوا على هذا المراد الجلل. وقد يظن ظان أن البون شاسع بين السبيلين وأن الفرق واضح بين المبتغيين؛ فأولئك تجار ومسوقون، ونحن نشغل بالدعوة إلى الله ونوجه الناس نحو إصلاح تعاملاتهم الدنيوية بغية الفوز بالدرجات الأخروية الرفيعة. ولذلك، فإن صرف جهودنا في ما صرف فيه غيرنا ممن يخالفوننا الرغبات والمنطلقات جهودهم يكون تبديداً للقوى ومضيعة للوقت.

إن هذه التصورات الخاصة بالفروق بين المشتغلين بالتسويق والتجارة على شبكات التواصل الاجتماعي وبين المشتغلين بالخطاب الدعوي، إنما هي فروق من صنع الخيال، وإلا فإن المبادئ التي تحكم التجارة لدى هؤلاء تحكمها مع أولئك؛ فكل وتجارته، وكل ومراده منها. وطالما وصف الله سبحانه المهتمين بدينهم بكونهم أصحاب تجارة، فقال سبحانه بشأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (29) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)﴾ (فاطر: 29-30).

فالدعاة إلى الله تعالى منغمسون في التجارة انغماساً كلياً، ولكنها تجارة غير التجارة التي يتداولها الناس في حياتهم؛ فأقل أرباحها أن تحقق البضاعة عشرة أضعافها، وأعلها يبلغ السبعمئة ضعف أو يتجاوزها، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: 160)، وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 261).

وفضل تجارة الدعاة لا يقارن بفضل تجارة التجار والمسوقين أبداً؛ ذلك لأن الله سبحانه عرض التجارتين معاً في سياق واحد، وفاضل بينهما، ورجح تجارة الدعاة، بل إنه أشاد بهم لما لم يجعلوها مطلبهم الوحيد، ولم يمكنوها من قلوبهم حتى تصرفهم عن ذكر الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾ (النور: 36-38).

ونحن حينما نصر على استثمار قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على جذب الجمهور، فإننا ننظر إلى هذا الإجراء من زاوية تجارة الدعاة وليس من زاوية تجارة التجار والمسوقين؛ فهؤلاء حينما يتردد على بضاعتهم الجُمُ الغفير من الناس، ويبيعون ويشتررون وتنمو التجارة وتعتظم الأرباح، فإنهم لن يصلوا معشار ما يحققه الداعية مع شخص واحد إذا وفقه الله تعالى في جذبه إلى الإسلام، مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه يوم فتح خيبر لما قال له: "نَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟"

فَقَالَ: "عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ" (82).

82. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالتَّبَوُّقِ، وَأَلَّا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، رقم: 2942، 4/ 47، ومسلم في كتاب مَقَاتِلِ الْمُشَاكِبَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب مِنْ مَقَاتِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم: 2406، 4/ 1872.

فإصرارنا على الحضور الدائم المتجدد إصرار على جذب المزيد من المتابعين. والمتابعون لدينا لا نرجو من متابعتهم عرضاً دنيوياً زائلاً تأتي به تراكمات الإعجابات والاشتراكات، ولكن الذي نرجوه منها يتمثل في تلك الأضعاف المضاعفة التي تستعصي على العد والحصر، ويتحدد في تلك الامتدادات الفضائية التي تتجاوز امتدادات ما طلعت عليه الشمس من فضاءات.

2. التتبع الإحصائي الدقيق:

تمكننا شبكات التواصل الاجتماعي من معرفة طبيعة الجمهور الذي يتابع ما ننشره من محتويات معرفة عميقة؛ انتماءً جغرافياً، ومستوى معرفياً، وكثافة إقبال، ودرجة تفاعل مع ما يلقي إليهم. ولذلك، فإن تمكيننا من الإحاطة بهذه العناصر التي تتشكل لدينا من خلالها الصورة الخاصة عن جمهورنا، يساعدنا على التواصل مع من أبدى منهم إقبالاً وإعجاباً، ويمهد الطريق بين أيدينا للبحث عن أسباب من ولّى عن محتوياتنا المعروضة الأدبار، فأعرض ونأى بجانبه.

إن الفريق الأول الذي تساعدنا شبكات التواصل الاجتماعي في التواصل معه وتوطيد العلاقات بيننا وبينه ودعم الأواصر التي تمد من خلالها الجسور لكي نقيم المتداعي من بنائه، ونرمم الثلوم التي تمس حصونه بسوء، فريق قريب قريباً يجعل الحرص عليه من المسؤوليات الجسام التي تفرض على الداعية ألا يفرط فيه؛ إذ إن التفريط فيه هو تفريط في ربح عظيم ومردود جسيم يتجاوز كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان.

وإن الفريق الثاني الذي تمدنا شبكات التواصل الاجتماعي بأنه قدّم رجلاً وآخر أخرى، فأقبل علينا قليلاً ثم ارتد إلى غير رجعة، فريق مذبذب شاك متوجس خيفة مما تذكره به المحتويات الدعوية التي نعرضها عليه، والتي تكون وسائل الإعلام المختلفة قد شوّهت صورتها لديه، وأفسدت ملامحها في عينيه، فأصبح ينتابه الخوف من كل جانب حينما يراها، ويصيبه الهلع المضني كلما سمع محتواها.

فلا بد من أن يؤخذ بأيدي هؤلاء، ولا بد بأن تؤلّف قلوبهم رويداً رويداً، حتى تطمئن وترى الحقيقة بأم عينها؛ فليس من رأى كمن سمع. فما يُبعد هؤلاء سوى

امتلاء قلوبهم بالأخبار الزائفة عن الدين وأهله. ولذلك، فإن أهل الدين ينبغي لهم أن يقتربوا من هذه الفئة اقتراباً ملحاحاً حتى يتبين الحق من الباطل، ويتوضح الصواب من الزيف والبهتان.

لقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة. وهو الذي كان يتألف القلوب النافرة، ويرد العقول الجامحة، ويتواصل مع كل من ركب رأسه فطاف بعيداً في أطراف البلاد. ومن هنا، فإن الواجب أن يلتفت إلى هذه الفئة التفات الملحاح الذي يريد لهدفه ألا يضيع من يديه، فيجتهد في احتواء هؤلاء وتقريبهم إلى أجواء الدعوة الوسطية المسالمة الخالصة مما توصم به في السنة المعادين الكائدين والجاهلين الناعقين بما لا يسمعون على حد سواء.

فشبكات التواصل الاجتماعي تمكنا من خلال الإحصاءات التي تجعلها طوع أيماننا من معرفة نسبة المقبلين والمديرين. ومنه تتوضح معالم الطريق، فنهتدي إلى المضي قدماً في تقديم عروضنا المتواليات الحاملة للملامح مميزة واحدة، أو نقلع عن ذلك إلى غيره، ولا سيما إذا تبين لنا أن المردوديات التي ننشدها ليست على الوجه الذي نرتضيه لأنفسنا ولدعوتنا ولديننا.

3. تمكين المحتوى من الظهور على محركات البحث بقوة:

(Seo: search Engine Optimization)

قد يتساءل بعض الناس عن حرص أصحاب المواقع والمدونات على ظهور مواقعهم ومدوناتهم على رأس قائمة البحث في "جوجل". إن الأمر مردوديات؛ حيث نجد منها عرض المحتوى على مستعملي الإنترنت قبل أن يعرض عليهم غيره، دون احتياج إلى دفع مقابل مادي لشركة "جوجل" ولا غيرها من أجل أن تضمن الظهور ذا المردود الوافر.

إن شبكات التواصل الاجتماعي تسمح بالظهور في نتائج البحث الأولى لمن أحسن استخدام المداخل الموصلة إلى ذلك المبتغى. ولكي يتحقق هذا الأمر، فلا بد من التزام شروط أساسية، يرد على رأسها استراتيجية الكلمات الرئيسية (keyword)، وجودة المحتوى، ودقة الوصف (Meta Title and Meta Description)، وربط الموقع بالمواقع الخلفية (BACK LINKS).

ولا بد لمن أراد أن يحقق بغيته بهذا الخصوص أن يلجأ إلى مواقع معلومة تحقق له هذه البغية. وسنقف منها على موقعين اثنين، نعرضهما على الصورة الآتية:

• موقع GuinRank:

هو موقع من أهم المواقع التي تمكن الداعية من القيام بمجموعة من العمليات قبل إعداد محتواه الدعوي، وبعده. فقبل إعداد المحتوى يسمح الموقع للداعية بتحديد الكلمات المفتاحية التي تمثل ما يطلبه المتابعون من موضوعات، كما يسمح له بأن يوجهها إلى مجال جغرافي معين؛ مدينة أو دولة.

ومن جهة أخرى، فإن الموقع يُمدّ الداعية باختيارات لا حصر لها من الموضوعات المقترحة التي يمكنه أن يشتغل عليها باعتبارها محتويات دعوية خاصة. إضافة إلى عرضه العديد من المقالات التي تناولت الموضوع، فيتخذها مراجع يطلع من خلالها على اهتمامات أصحابها.

فإذا أراد الداعية مناقشة موضوع دعوي يحقق ظهوراً مميزاً على محركات البحث، فإنه لا ينبغي له أن يتعامل مع موضوعه بالطريقة التقليدية التي كان يتعامل بها معه في أيامه الخالية، ولكنه يلزمه أن يستفيد من خدمات موقع GuinRank، فيبحث في الكلمات المفتاحية عن الكلمة التي تستقر في الصف الأول من صفوف ترتيب الكلمات.

• موقع <https://neilpatel.com/ubersuggest>:

هذا الموقع لصاحبه NEILPATEL، وهو موقع لديه خدمات كثيرة حول محركات البحث SEO، يرد على رأسها مجانيته وإحصاء ترددات الكلمات المبحوث عنها، ودرجة المنافسة عليها. فالداعية إذا أراد استهداف فئة معينة بخطابه الدعوي، فإنه يتعين عليه تحديد مجال البحث وتحديد الكلمة، أو الكلمات الرئيسية keyword، التي يستهدف الفئة من خلالها خلال الشهر الواحد. ولنقم ببعض التجارب على بعض الكلمات الدعوية في علاقتها بجهات جغرافية محددة، وليكن الأمر على الصورة الآتية:

إذا أردنا أن نبحث عن كلمة "الله" جل جلاله لمعرفة عدد المرات التي تم البحث

عنها خلال الشهر في بعض الدول، فإنه يتعين علينا أن ندخل الكلمة في الخانة المخصصة للكلمات المبحوث عنها، ثم نحدد نطاق البحث، فتظهر لنا النتائج الخاصة بذلك. فالنتيجة الخاصة بها في الولايات المتحدة الأمريكية هي: 6600 مرة، وفي اليابان، هي: 260 مرة.

وإذا أردنا أن نبحث عن كلمة "الجنة" لمعرفة إقبال الجمهور المستهدف عليها في مناطق أخرى من العالم، فإن الموقع يسمح لنا بإدخال الكلمة في الخانة المخصصة للبحث، ثم نحدد نطاق البحث، فتظهر لنا النتائج الخاصة بذلك، فالنتيجة الخاصة بها في إنجلترا، هي: 210 مرة، ولكنها في الأوروكواي لم تتجاوز الصفر.

4. التذكير الدائم:

إن النتائج التي يمدنا بها التتبع الإحصائي الدقيق لا ينبغي أن تبقى في حدود فائض المعرفة، أو الإشادة بها بين المعارف والخلان، ولكنها ينبغي لها أن تكون مدخلا موصلا إلى تطوير العلاقة بين الداعية وبين المتابعين، ودعمها، وتوجيهها نحو المراد الذي ننشده من المحتويات التي نلقيها مرة بعد مرة، بغية نشر دين الله تعالى وتوسيع فئات المؤمنين به في العالم كله.

ولذلك، فإن الركيزة الأساس في هذا السياق تقوم على التواصل الإيجابي والتذكير الدائم؛ فسواء أكان المتابع من الفئة المقبلة على المحتوى غير المدبرة، أم كان ممن قدموا رجلا وأخروا أخرى فقفلوا راجعين، فإن طرق أبوابهم من غير كل ولا ملل يعد الوسيلة الأساس لمد جسور التواصل بين الداعية وبينهم. وقد قالوا⁽⁸³⁾: (البسيط)

لَا تَيَأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ *** إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا

أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ *** أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ

والملاحظ أن المرء يتوصل في كثير من الأحيان برسائل تأتية حيناً بعد حين، يسأله فيها أصحابها عن مستوى الخدمة التي قدموها له، فجوابه أساس لتقييم عملهم،

83. نقلاً عن الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ، 4/ 29.

ولكن الحقيقة أن تلك الرسائل هي وسيلة لد جسور التواصل ودوامه مع الزبون. فالدعاة أولى بهذا الإجراء وبركوب هذا المركب، بل إنه يتوجب على الداعية أن يهتم بمتابعيه وألا ييقيهم أرقاماً يتلوها كل مرة، ويفرح بها كلما ازدادت ونمت، فيمكّن علامته الدعوية المميزة من خلال تذكيره إياهم بما يريدونه من المنتج الدعوي، وإصراره على معرفة ما يرغبون فيه منه وما يحتاجون إليه من خدماته.

فمردود هذا الإجراء ليس مقصوراً على هذه الجوانب فحسب، ولكنه يتجاوزها إلى ما هو أبعد منها؛ ذلك لأن الوصول إلى ما يطلبه المستهدفون بالخطاب إنما هو مرحلة من المراحل، إلا أنه مرحلة أساس يتمكن فيها الداعية من الاهتمام بما أهمله في إستراتيجيته وتخطيطاته القريبة والمتوسطة والبعيدة. وهو الأمر الذي يكون من نتائجه الوصول إلى الجَمِّ الغفير من الناس، فتَقَوَّى الأواصر، وتوضح الأفكار، ويصبح المستهدفون بالخطاب من الأنصار.

• المطلب الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي مساعدة على المنافسة الناجحة:

ينبغي أن يعلم الدعاة أن الساحة ليست حكرًا عليهم، وأن الجمهور ليس طوع أيمانهم في كل حال؛ فالساحة فيها البر والفاجر، وفيها المؤمن التقى والملاح والكافر، وفيها من يُقبل على خطابات الدعاة ومن ينفر منها جميعاً ويؤيّل عنها دبره.

ومن ثم، فإن الواجب على الدعاة أن يجتهدوا في معرفة منافسيهم، والاطلاع على خططهم وطرائقهم في جذب الجمهور الذي يعد سلعة غالية لا ينبغي بوجه من الأوجه أن تنفلت من أيديهم وتلتحق بأيدي الآخرين، لتكون في يوم من الأيام سلاحاً عليهم ومعاول هدم لما بنوه في آمادهم الطويلة. وهو ما يقتضي الارتقاء بوعي الدعاة وتوجيه أبصارهم إلى ما يجري حولهم؛ إذ إن الداعية اليوم ليس هو داعية الأمس، وإن الظروف المحدقة به وبالمجتمع من بعده ظروف تنوء بحملها الجبال الرواسي، فلا مناص له من أن يجدد تقنياته، وأن يتفاعل مع ما غزا الواقع الإنساني منها، وأن يسخرها في خدمة دين الله تعالى تسخيراً يتحقق به مراد الله سبحانه ويدفع به أذى من يوظفها للإضرار بالإنسانية جمعاء.

إن هذه الرغبة الأكيدة تقدّم شبكات التواصل الاجتماعي بخصوصها خدمات جلية، يصل إليها الداعية من خلال تتبع نشاطات المنافسين والاطلاع على جديدهم؛ فهذه الشبكات تحبل بها في كل مواقعها ومنتدياتها، سواء على "الفيس بوك" أم "اليوتيوب" أو "الإنستغرام" أم غيرها. فالمنافسون أنشؤوا قنواتهم وصفحاتهم ومواقعهم، وهم الآن يوظفونها في الدعوات المضادة التي تهدم ولا تبني وتؤجج القلوب وتثير الأحقاد وتروج خطاب الكراهية ترويجاً فظيماً لا يخدم الإنسانية بحال من الأحوال.

وقد ينتاب بعض الدعاة الحرج من تلبية ما يُدعون إليه من إصرار على الاطلاع على ما عند المنافسين، ظناً منهم أن المسألة تتماس مع التجسس وكشف عورات الآخرين. وهو أمر منهي عنه بقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (12)﴾ (الحجرات: 12)، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ" (84)، أو ظناً منهم أن هذا المسار يمكنهم أن يطلعوا فيه على بعض ما يخالف ما يدعو إليه الدين من عفة وأخلاق وحسن سمت.

إن الخطاب الدعوي يخوض حرباً ضروساً على مستويات مختلفة؛ فمن الناس من يحاصره، ومنهم من يطفئ الأضواء في طريقه، ومنهم يتخطف أهله ورموزه والمنتسبين إليه. وكل ذلك له هدف واحد يتمثل في ألا يؤتي الخطاب الدعوي أكله، وألا يؤدي المراد منه، وأن يستتب الأمر لما يخالف ما يدعو إليه. ومن ثم، فإن قول النبي صلى الله عليه وسلم، كما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "الْحَرْبُ خَدْعَةٌ" (85) قول يقتضيه الشرع والواقع.

84. رواه الترمذي في سننه، في البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم: 2032، 4/ 378، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1295-1975م.

85. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحَرْبُ خَدْعَةٌ، رقم: 3029، 4/ 64، ومسلم في كتاب الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، باب جَوَارِ الْخُدَاعِ فِي الْحَرْبِ، رقم: 1740، 3/ 1362.

ولقد خاض شراح الحديث النبوي في هذا القول الشريف، وتواترت آراؤهم على "جواز التجسس على المشركين"⁽⁸⁶⁾، حسب عبارة ابن بطال في شرحه صحيح البخاري، وانصرفت شروحاتهم نحو "اسْتِعْمَالِ الْحِيلَةِ مَهْمَا أُمُكِّنَ وَلَوْ مَرَّةً"⁽⁸⁷⁾، كما ذكره ابن حجر في فتح الباري، وكما ذهب إليه صاحب عمدة القاري⁽⁸⁸⁾. فهم مجمعون على "جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ، وَكَيْفَ أُمُكِّنَ الْخِدَاعُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ، فَلَا يَحِلُّ"⁽⁸⁹⁾، كما قرره النووي في شرحه صحيح مسلم. والسبب في ذلك سبب نفعي يستهدف تحقيق أكبر مردود بأقل مجهود؛ إذ إن "المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام على غير علم، ومنه قيل: نفاذ الرأي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب"⁽⁹⁰⁾.

إن الانطلاق من هذا التصور وبناء الأنشطة الدعوية عليه يحقق للدعوة إلى الله مآرب كثيرة لا تخطر على بال؛ فمنها تحديد الأهداف التي ينبغي أن تُنجز لأن الواقع يقتضيها، وليس المراد الأهداف التي تخطر على البال، من غير دراسة عميقة، فينطلق الدعاة لتنفيذها والوصول إليها. ومنها اختصار الطريق بمعرفة تحركات من يريدون إفساد الأجواء على الخطاب الدعوي لكي لا يؤدي ما عليه من واجب. ومنها قضاء المآرب بفعالية بعيدا عن إكثار الصخب والضجيج بغير طائل.

فلكي ينجح الخطاب الدعوي يكون عليه أن يؤمّن الأجواء المحيطة به. ومن شروط تأمينها قيامه بما ذكرناه من قبل. وهي إجراءات تقتضي الوقوف على الملفات الشخصية للمنافسين، ومراجعة ما ينشرون، وتتبع حركاتهم بالليل والنهار، وتحليل تفاعلات الجمهور معهم من خلال الأسئلة التي يطرحها والإجابات التي يجيبون

86. شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط 2، 1423هـ- 2003م، 5/ 183.

87. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف محب الدين الخطيب، تعليق العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379م/ 6/ 158.

88. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي، بدرالدين العيني (المتوفى: 855هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، 14/ 275.

89. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1392، 12/ 45.

90. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 5/ 187.

بها، وتفيء المستويات المعرفية الخاصة به، ومقابلتها بالمستويات المعرفية الخاصة بالجمهور المرتبط بالخطاب الدعوي، ورصد ما يقدمه المنافسون لجمهورهم من خدمات ومقارنتها بما يقدمه الدعاة، والتفكير في إنتاج خدمات تكون أفضل مما هو سائد متداول.

إننا حينما نصر على هذا الجانب، نصر عليه ونحن مهووسون بالواقع المعيش الذي يعيشه الدعاة والخطاب الدعوي على السواء؛ فكم من كارثة حلت بهما معاً ولم يكن سببها متجاوزاً عدم الانتباه إلى ما عند الخصوم، بل لم يكن متجاوزاً إشغال الذهن باستحضار هذا الهاجس فيه. وعواقب الاهتمام بهذا الجانب، أو التفريط فيه، عواقب خطيرة جداً في الاتجاهين معاً.

إن الخطاب الدعوي النظيف المتوازن الذي لا يبني ذاته على التملق والتزلف والاستجداء، ولا يرتمي في أحضان الجموح والتهور وتقطيع كل عقل، يسبب متاعب للجهات المنافسة التي لا تكون في العادة مهملة لشأنه، فتتنظم خطاباً دعوياً مضاداً، يستفيد من خدمات الجهات التي ترعاه، وتوفر له الأجهزة التي لن يجدها الخطاب الدعوي طوع يمينه ولو فعل ما فعل، فيسخر أعين الناظرين والمتابعين ويقلب الحقائق في أذهانهم، ويدفعهم للانشداد إليه والعزوف عن غيره، فيضيع الجمهور المستهدف. وإذا انفلت الجمهور من يدي الداعية انفلت كل شيء.

• المطلب الثالث: بجذب الجمهور والمنافسة الناجحة تفعل شبكات التواصل الاجتماعي الخطاب الدعوي:

تنخرط شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من خلال مجموعة من الواجهات الأساسية التي تربطه بالجمهور؛ مؤيدين ومنافسين، ومن خلال تصحيح الأفكار السائدة في الأذهان وتثبيت الصواب فيها، حتى لا تكون الغشاوة مضروبة عليها فتكون معاول هدم بدل أن تكون وسائل بناء.

وإذا أردنا أن نتبين حقيقة ما نرمي إليه، فإننا نحب أن نقف على هذه الواجهات التي أشير إليها قبل في الفقرات الآتية:

1. شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بنشر أفكاره:

لقد أشرنا في مناسبات كثيرة في هذا البحث إلى أن شبكات التواصل الاجتماعي محاضن معروضة بين أيدي الناس جميعاً، فكل من أراد عرض محتوى، أو تلقي آخر، فإنه يكون بوسعه الوصول إلى بغيته بيسر وسهولة. والخطاب الدعوي ليس بعيداً عن هذا المرام، فالمهتمون به يجدون ضالتهم في هذه الشبكات؛ حيث يكون بإمكانهم نشر ما يريدون في كل وقت وحين، كما يكون بإمكانهم إرساله للفئات التي يريدون استهدافها به فلا يجاوزها إلى غيرها.

إن تمكين شبكات التواصل الاجتماعي الخطاب الدعوي من نشر أفكاره في فضاءاتها المختلفة هو ترويج للرؤى التي تحكمه، ورسم لملامح الأهداف التي ينشدها، وتمهيد لتثبيت الأفكار التي يقوم عليها. فإذا تحقق للخطاب الدعوي هذا المبتغى، واستقر في النفوس المستقبلية استقراراً حسناً، فإنه ينتقل بذلك من حال إلى حال، فيشعر أصحابه بأن فاعليته قد ارتفعت، وأن مردودياته قد ازدادت، وأن عطاءه سيكون غير مجذوذ في المستقبل من الأيام.

2. شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بتوسيع جمهوره:

لما كانت شبكات التواصل الاجتماعي قادرة على تمكين الخطاب الدعوي من توسيع جمهوره وإيصال محتوياته إلى الفئات التي يستهدفها، فإنها تمنحه بذلك فرصة التبليغ بأقل جهد، ونشر المحتوى بأقل حركة.

وإذا كان الخطاب الدعوي لا ينشد من توسيع الجمهور مردوداً مادياً، كما لا ينتظر منه شهرة ولا عائداً معنوياً، إلا أن يكون ذلك متمثلاً في تقريب البعيد من الدين، وتصحيح الأفكار الخاطئة وتصويب المغالطات المركوزة في الأذهان، وتقوية الأواصر الرابطة بين الناس وبين دينهم وعقيدتهم، فإن المبتغى الأجل لديه يتحدد أساساً في الظفر بالأجر الوافر يوم لا ينفع مال ولا بنون.

إن الأمر شبيه بالأفكار التي تبدأ من الواحد والاثنين ثم ما تلبث أن تنتشر وتستحوذ، فيصير لها شأن آخر من الظهور والهيمنة. ولعل أقرب ذلك إلى موضوعنا الكيفية التي انتشر بها الدين الإسلامي ذاته؛ فقد بدأ بالرجل الواحد، فصار اثنين وثلاثة، حتى

هيمن على العالم كله. ولولا المكر الذي يُنصب في طريقه بالليل والنهار لكان له شأن آخر في صناعة الحياة وتطهيرها من الأحقاد والضغائن والخطابات المنحرفة.

إن شبكات التواصل الاجتماعي قادرة على إزاحة الصعوبات التي وجدها الأولون في نشر دين الله وتوضيح مراده للناس من طريق الدعوة، من خلال الخدمات التي تقدمها والتسهيلات التي تعرضها لمن عرف المداخل التي ينبغي له أن يلجها حتى يحقق أكبر مردود بأقل ما يبذل من الجهود.

3. شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بمدافعة منافسيه:

عرفنا من قبل أن الساحة ليست فارغة ولا صادرة عن رؤية واحدة، سواء أكان الأمر متعلقاً بممثلي الخطاب الدعوي، أم كان خاصاً بخليط الرؤى التي تعمر الساحة وتسود الميدان. وشبكات التواصل الاجتماعي تمكن الخطاب الدعوي من مدافعة الخطابات التي تقف في وجهه، كما تمكنه من كشف مثالب الممارسات التي تحول بينه وبين أدائه مهماته الموكولة إليه من لدن الله تعالى.

إن التمكين من المدافعة يجعل الخطاب الدعوي مستقراً في المصاف التي يحول فيها بين الخطابات المضادة وبين أن تعرقل مسيرته أو تدفعه إلى الظل، ولا سيما حين يكون منظماً منطلقاً من رؤية واضحة تستهدف الإصلاح وتقف في وجه الفساد، فيصير مبرراً من كل التبعات التي تحدثها المنافسة، بعيداً عن كل المكائد التي يكيد بها من يقفون في وجهه، أو يسلكون المسالك الوعرة التي تخالف ما يسلكه من مسالك وسبل. وبذلك يصير في عفو وعافية، وتسدل عليه ستائر الفعالية من كل جانب، فيقبل على أهدافه ولا يدبر، ويقدم في طريقه ولا يحجم.

4. شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بتصحيح الأفكار السائدة:

كثيراً ما سادت الأفكار المغلوطة بين الناس، وكثيراً ما كانت لها عواقب وخيمة على المجتمع وعلى تراص صفوفه؛ فمرة كان نشر المغالطات من جهات خارجية تعض الأنامل على الإسلام والمسلمين، ومرة كثيرة كان ذلك النشر من أبناء الدار الذين اعتقدوا في ما يخالف معتقد أهل الدار، فصاروا يؤلون ظهر المجن لما عدلوا عن التمسك به والعض عليه بالنواجذ، فانصرفوا بهمهم عالية وبعزم وافر يقل نظيرهما

نحو نقد الإسلام والإيمان والدين برمته، رغبة منهم في الفتّ في عضد ما قامت على أساسه الأمة وبنت عليه تاريخها الطويل.

ولقد أصبح الواقع المعيش يمنح من كان غيوراً على الحقيقة فرصة الدفاع عنها عبر شبكات التواصل الاجتماعي، فيوفر له الفضاء لينشر تصحيحاتها، ويقدم بين يديه التقنية لأن ينشر بواسطتها الصحيح من الأفكار.

ولقائل أن يقول إن هذه الشبكات تقبل الصحيح والفاقد، وتقبل البريء والمغرض، فالخطاب الدعوي ليس وحده في الساحة؛ فالتزام قوي، والتدافع بينه وبين غيره قد جرت به السنن الإلهية منذ آحاد بعيدة. ولذلك، فإن قوة الخطاب الدعوي ستبقى في أحسن أحوالها مساوية لقوة من يدافعه ويزاحمه، ومن ثم، فتأثيره سيبقى ضعيفاً غير محقق البغية ولا بالغ الهدف المنشود.

وبهذا الخصوص، فإننا نقول إن الأفكار كانت تروج من قبل والمسلمون سامدون، وكانت تثبت في الأذهان وهم في دورهم قائلون، فلا يدرون ما تم ترويجه، ولا يعلمون ما تم تثبيته. ولكن بفضل هذه الشبكات فقد أصبح من اليسير الاطلاع على المكائد التي تحاك والحبائل التي تنصب، فلا يبقى إلا أن يكون الدعاة في يقظة وحدة أذهان، فيكونون بالمرصاد لكل مكر، ويكونون لمخططاته المبنية من لدنه ومن لدن من وراءه بما يلزم مما يكشف عنه كل ما يظهر حقيقته للعالمين.

5. شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بتثبيت الأفكار الصحيحة:

فإذا تمت الخطوة السابقة، وأدى فيها القائمون على الخطاب الدعوي أدوارهم الواجبة، فإنه يلزمهم القيام بخطوة أساس بعده. وهي خطوة ليست بالهينة، بل إنها تكتسب من الملامح ما يميزها عن سابقتها لتعلقها بالعقول والأذهان المستهدفة؛ فالمراد منها هو تثبيت ما تم تصحيحه في المرحلة السالفة الذكر. وهو أمر يتطلب حنكة إضافية، ويفرض اطلاعا على الأساليب المختلفة التي تستجيب عن طريقها النفوس، وتتقبل بواسطتها العقول والأذهان ما يلقي إليها.

إن هذه المرحلة تتطلب من الداعية ألا يتعامل مع جمهوره من خلال الطرائق التقليدية المعهودة؛ فالمرحلة غير المراحل، والمخاطبون غير المخاطبين، فضلاً عن أن

الموارد العلمية والمعرفية أصبحت تمتد الداعية وغيره بكل ما يخدم مراده، ويحقق بغيته. ومن ثم، فإن الواجب يفرض على الداعية أن يأخذ من كل الموارد التي تخاطب النفوس والعقول والأذهان بطرف، فيأخذ من الخطابة وتقنياتها، ويستقي من علم النفس وخباياه، ويستمد من علم الاجتماع ومداخله، ويرتوي من المتميز من تجارب الأولين والآخرين وسيرهم، ويتتبع كل حكمة مطروحة في الطريق من أجل توظيفها والاستفادة منها.

6. شبكات التواصل الاجتماعي تفعّل الخطاب الدعوي بالانتقال به من مستواه السائد إلى مستويات أخرى:

يرجوها له كل غيور على الدعوة إلى الله، ويأمل الوصول إليها كل من تآقت نفسه إلى إصلاح الأمة وإكسابها مواقع الشامات بين الأمم والشعوب. فإذا التزم ما أشرنا إليه في الفقرات السابقة وفي غيرها، فإن الخطاب الدعوي يصبح قادراً على أداء رسائله المتعددة بيسر وسهولة، معافي من الأمراض التي داخلته منذ أمد بعيد، فجعلته لا يبرح مكانه، بل دفعته في كثير من الأحيان إلى التقهقر عن مواقعه التي كان يستقر فيها، فيزيح الخطابات المنكرة، ويصد الأبواب في وجه العوامل التي تفرق ولا تجمع، وتفتق ولا ترقع، ويضع المعالم الواضحة لكي يسلك بنو الإنسان طرائق التعايش والتعاون والتراحم.

المبحث الثاني: قدرة شبكات التواصل الاجتماعي على تحديد فئات المستهدفين بالخطاب الدعوي:

نقصد بالجمهور المستهدف بالخطاب الدعوي على شبكات التواصل الاجتماعي (target audience) الجمهور الذي نتوجه إليه بهذا الخطاب رغبة منه أو اقتحماً منا. ومن ثم، فإنه جمهور يتخذ موقعين متقابلين مختلفين؛ أحدهما يكون فيه الجمهور في الاتجاه الذي ينطلق صوبه الخطاب الدعوي؛ فهو يتميز بمواصفات عقدية وفكرية ورؤيوية واحدة. وقد يكون التفاوت في تمثل هذه المواصفات وممارستها بين الطرفين متحققاً بوضوح، فيجد الداعية مبتغاه في تلك الأجواء؛ حيث يكون صاحب القول الفصل في التوجيه والإرشاد وإنارة الطريق للسالكين.

وفي حال ثانية، قد يكون التفاوت منطبعاً بطابع التقارب بين الداعية وبين المستهدف بالخطاب. ولا ضير في الأمر؛ فكم من المدعويين يكون قد أحاط بالمعلوم من الدين بالضرورة، فلم يبق في طور المقتصدين، فانتقل إلى طور المجتهدين إلا أنه بقي واقفاً على عتبات الأبواب فلم يبرحها. وأنشد ينبغي أن يكون التفاعل بينه وبين الداعية تفاعلاً إيجابياً؛ حيث يدفع التنافس، وترد الإحساسات السلبية، ويحرص على تحقيق التقارب والتساكن والتعاون.

أما إذا كان الجمهور متجاوزاً الداعية، فتلك طامة كبرى؛ حيث يموت التحفيز على المواكبة والإقبال. ويكون الواجب أن يلتفت إلى هذا الوضع التفاتاً يغمره الاهتمام بوضع الخطط المناسبة لإكساب الخطاب الدعوي شروطه التي يتحقق بها تفعيله المنشود.

وثاني الموقعين يكون فيه الجمهور في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي ينطلق صوبه الخطاب الدعوي. وهو الأمر الذي لا ينبغي للدعاة أن يولّوا فيه الأدبار، فيقفلون راجعين، بعد أن تكون سحائب اليأس قد انسدت على محياهم؛ حيث إن الحياء ليس خياراً من خيارات الدعوة إلى الله. فمضامينها ينبغي أن تصل إلى الناس، وتوجيهاتها ينبغي أن تتمثل في ممارساتهم الحياتية.

ومن خلال هذا التفييء يتحدد لدينا ما يحيط بالخطاب الدعوي في علاقته بالجمهور المستهدف. وهو ما نصوغه في ما يلي:

- الجمهور المستهدف بالخطاب الدعوي هو الجمهور الذي نتوجه إليه بالمحتوى الدعوي بتوظيف العناصر الضرورية المحققة لتطلعات المشتغلين بهذا الخطاب.
- للجمهور المستهدف انتظارات من الخطاب الدعوي، فينبغي للقائمين عليه أن يولوها ما تستحق من الاهتمام، فهي التي إذا تحققت ووجد الجمهور من خلالها ضالته، فإنها تكون سبب الإقبال الدائم، والارتباط غير المنفصم، ومواصلة السير التي لا تنقطع.
- يقتضي الظفر بالبغية المنشودة من الجمهور المستهدف التفكير في الأساليب التي تحقق النتائج المرضية؛ مردوداً واستجابة. ولعل أكثر هذه الأساليب إيجابية يتمثل في الانشغال الاستباقي المستشرف للمستقبل؛ حيث تُتخيل توقعات المستهدفين بالخطاب، وتُستحضر الانشغالات التي تؤرقهم، وتُفرز الحلول الملائمة لما يشغلهم من قضايا.

• **المطلب الأول: تحديد فئات المستهدفين بالخطاب: قواعد وطرائق**

قد تنفتح شهية الدعاة لإيصال الخطاب الدعوي إلى أكبر جمهور، بل قد تنفتح لتحقيق التغطية الشاملة للناس أجمعين، طلباً للظفر بالأجر الوافر الذي نطق به النبي صلى الله عليه وسلم مرات عديدة. ولعل أجل صوره عظمة ما نطق به لما أعطى عليا كرم الله وجهه الراية يوم فتح خيبر، فقال علي:

”نَقَاتْلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟“

فَقَالَ: ”عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ“ (91).

وهو أمر لا يتحقق إلا بمشيئة الله تعالى. ولقد نطق القرآن الكريم بهذا، فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (99) (يونس: 99)، وقال له عز

91. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّبِیُّ، وَأَلَّا يَنْجَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَرْثَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، رقم: 2942، 4/ 47، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم: 2406، 4/ 1872.

وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)﴾ (القصص: 56).

فالأمر الدعوي جدٌ، واستهداف أكبر عدد من الناس هدف مرغوب فيه، ولكن التغطية الشاملة تكون متعذرة. فالدعوة من هذا المنطلق ستلقى إلى الجميع، ولكن المراهنة ستكون على الأقرب فالأقرب. ومن ثم، فإن تحديد نوع الجمهور يكون ضرورياً، لأن عنصراً فاعلاً واحداً منه أفضل من ألف إن لم يكونوا فاعلين ولا آبهين بما يلقي عليهم.

والخطاب الدعوي ليس كالخطابات الأخرى التي تجعل أهدافها دنيوية محصورة بحدود حياة الإنسان، فبعد انصرام عقد عمره تنتهي أهدافه ومخططاته وآماله، ولكنه خطاب يمنح الامتدادات الأخروية مجالاً ليس بالهين؛ فيحث على إصلاح الحيز الدنيوي بغية الفوز بالعتاء الأخرى غير المجذوذ. إلا أنه ليس متحرراً بأن يأتي من الأمر ما يشاء ويعدل عما يريد؛ فالمحيط يفرض على أصحابه أن يتصرفوا بحكمة، وأن يقتحموا العقبات بتبصر.

والمشكل الذي يعترض الخطاب الدعوي بهذا الخصوص، يتحدد في كيفية انتقاء هذا الجمهور الذي يكون صاحب فاعلية وإقبال على ما يدعى إليه، فيأخذ الكتاب بقوة ويصير مصلحاً بعد أن كان يطلب صلاحه، ويصبح بانياً للمجتمع الإنساني، فيوجهه نحو الأخلاق الفاضلة التي تطهر القلوب من الحقد والكراهية، بعد أن كان يطلب منه أن يكون لبنة تدخل في البناء.

إن شبكات التواصل الاجتماعي تضع بين أيدي الدعاة تقنيات سهلة ويسيرة الاستعمال من أجل الوصول إلى الجمهور أولاً، ومن أجل انتقاء الفاعلين منه بعد ذلك. إنها المتمثلة في وضع استبيانات مناسبة للمرجوب فيهم؛ فالاستبيان يتضمن المعلومات الأساس التي تمكن الدعاة من معرفة من سيخاطبون، وفهم طبائعهم، وإيصال الأفكار المناسبة إليهم.

والأفكار المناسبة ليست شيئاً مجهولاً غريباً بعيداً عن المتداول في حياتنا المعيشة، وإن كانت تميل أكثر إلى الإحاطة بما يميز من يستهدف الخطاب الدعوي الوصول

إليه؛ حيث إن خطاب الكهل يختلف عن خطاب الشاب واليافع والطفل. وخطاب المرأة يباين خطاب الرجل في كثير من الأحيان. والكيفية التي يلجأ إليها في تحريك دواخل النفسيات تختلف من شخص إلى آخر ومن فئة إلى أخرى.

ولذلك، فإن معرفة المعلومات الأساسية التي يتضمنها الاستبيان تعد أمراً ضرورياً، ولكن الميل بها إلى المعلومات الدقيقة يعد أكثر جدوى وأعظم فائدة. فمعرفة الفئة العمرية، والبلد الذي يعيش فيه الجمهور، وجنسه... كل ذلك يعد أمراً أساسياً في تحديد المعالم الكبرى لطبيعة الخطاب الذي سيعتمد مع الجمهور المستهدف.

ولكن معرفة الانتماء العرقي والديني والرؤيوي، تكون جدواها أكثر مردوداً على الخطاب الدعوي، لأن الفئة الأولى من المعلومات إنما تمدنا بالمعلومات الخارجية التي ينقسم الناس إليها دائماً؛ فمن كان امرأة فهو ليس رجلاً، ومن كان طفلاً فهو ليس شاباً ولا كهلاً. ولكن الانتماء الديني والرؤيوي والعرقي بحمولاته التاريخية التي قد تكون مؤسسة على الصراع والحروب، أو على السلم والمهادنة، يدلنا على ما يكلفنا الدخول في الحوار مع الجمهور. فمن كان صاحب دين، ومن كان صاحب توجه إيديولوجي، يحملان الداعية أكثر مما يُطبق حال الدعوة والإقناع بصلاح دين الله تعالى. وقد قالوا قديماً: الأرض المحروثة لا تُحرث مرّتين⁽⁹²⁾.

إن بناء الاستمارة ينبغي أن يتضمن المعلومات الشخصية المألوفة، وأن يتضمن إلى جانبها المعلومات الدقيقة التي تكون منارات هدى تتحدد من خلالها مواصفات من سينتج الخطاب الدعوي من أجله؛ فمن يحتاج إلى تصحيح الأفكار المغلوطة المركوزة في ذهنه، ليس هو من يحتاج إلى صدق الدين أصلاً وصلاحه لحياة الناس. ومن يعيش الضلال في حياته، فيأكل كما تأكل الأنعام، ويخبط خبط عشواء في علاقاته، فلا يهتدي إلى معرفة الكيفية التي خلق بها أول مرة، ولا يستبين إلى أين يسير، لن يكون على شاكلة من يكون ضالماً في دينه أو مذهبه الفلسفي الذي اتخذه عقيدة في حياته.

92. ثُلُح علي فكرة توجيهية لعمر بن عبدالعزيز - يرحمه الله تعالى- في رسالة منه إلى معشر فاتحي الأندلس، بألا يستمروا في فتحها، فهي أرض يعمرها دين سابق، وأن يولوا وجوههم نحو أفريقيا، لأنها ما زالت دون دين، أو من كان منها صاحب دين فهو وثني غير منضو تحت مظلة دينية جامعة. ولو تحقق ما كان يصبو إليه الخليفة عمر بن عبدالعزيز لكان للتاريخ البشري مسار آخر غير المسار الذي آلت إليه أوضاعه.

ولذلك، فإن مستويات الإقناع التي يتوجه بها الخطاب الدعوي إلى هذه الفئات، ينبغي أن تكون مستويات مختلفة، فتوضع الصيغ المناسبة لكل فئة، وتدرج فيها الشواهد التاريخية الخادمة لأهداف الدعوة. ومن ثم، فإن التحديدات الأولى التي تدرج في الاستثمارات والاستبيانات، ينبغي أن توضع بعلم وروية واستهداف دقيق.

• **المطلب الثاني: تحديد الجمهور المستهدف يوجّه** **نحو إنتاج الخطاب الدعوي بمواصفات خاصة**

كما أن المشتغلين بالبلاغة، بعد أن خاضوا في أمور التواصل، انتهوا إلى أن لكل مقام مقالاً، فإننا بعد أن خضنا في شأن فئات المستهدفين بالخطاب الدعوي، فقد انتهينا إلى أن هناك علاقة حميمة بين الجمهور المستهدف ونوع الخطاب الدعوي الناتج بشأنه؛ حيث تنشأ بينهما علاقة واصله تعبر على الانسجام بين المخاطبين بعد معرفتهم وتحديد ملامحهم، وبين الخطاب الذي يستهدفون به.

وإذا كانت شبكات التواصل الاجتماعي قادرة على تحديد فئات المستهدفين بالخطاب كيفما كان نوعه، فإننا بعد أن ولينا وجوهنا نحو رصد قدرتها على تحديد فئات المستهدفين بالخطاب الدعوي، نحب أن نرصد الجسور الواصلة بين تحديد الجمهور المستهدف وبين توجيهه نحو إنتاج الخطاب الدعوي بمواصفات خاصة. فكما أن الجمهور يتوزع أوزاعاً، ويتنوع أنواعاً، فإن الخطاب الدعوي ينبغي أن يكون خطابات شتى وليس خطاباً واحداً قاراً؛ فيخاطب به البعيد والقريب، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمنشد إلى المواقف السلبية الماضية المركوزة في ذاكرة قومه الجمعية والمتحرر منها.

وإذا كنا نروم لخطابنا الدعوي أن يكون خطاباً وسطياً غير مغال ولا منحلّ، فإن المسار الذي نتبعه ينبغي أن ينقلب رأساً على عقب؛ فبعد أن كانت الفئة المستهدفة هي المحكمة في تحديد طبيعة الخطاب الدعوي، فإن الخطاب الدعوي حينما لا نريده أن يحيد عن وسطيته يصير متحكماً في تحديد طبيعة الجمهور المستهدف؛ فرغم أن خاصية الوسطية تمكنه من أن يحقق التواصل مع الجماهير كلها، إلا أن قوة تأثيرها تتفاوت من حال إلى حال؛ فالبعد والقرب، والعداوة والحياد، كلها عوامل تحول بينها وبين أن يكون تأثيرها على شاكلة واحدة؛ فمن كان قريباً من بؤرتها كان

التأثير فيه قوياً، ومن كان بعيداً منها فإن تأثيرها فيه، وإن كان متحققاً، فإنه يبقى أضعف من تأثيرها على القريب من البؤرة.

إن تعدد هذه الحالات يحول بيننا وبين أن نعرضها مفصلة في علاقتها بالخطاب الدعوي الذي يلائمها. ولكننا سنقف على بعض ما نعهده شاهداً على ما يتغيب منها، حسب ما وجود به المقام وما تسمح به ظروف البحث. وليكن ما نرومه متمثلاً في الآتي:

– الحالة الأولى: الجمهور الوسطي يفرض إنتاجاً دعوياً وسطياً

فمن مواصفات الجمهور الوسطي أن يكون جمهوراً تواصلياً قريباً، يتميز بالوسطية والاعتدال واحترام الآخر والانتصار للحوار والاستجابة لما يؤدي إليه الإقناع والعدول عن الصراعات والتوترات والتجاوزات، فلا تحكمه العقد النفسية التي تراكمت عبر التاريخ، ولا يميل إلى اللجوء إلى العنف حين حله المشكلات التي تجابهه في حياته كلها. ومن ثم، فإن الجمهور الوسطي جمهور يتّصف بصفات حميدة تساعد على أن تجعل السبيل سالكة من أجل الوصول إلى كلمة سواء.

ولقد وقف الإمام الطبري على قول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: 143)، فقال: ”وأما التأويل، فإنه جاء بأن “الوسط” العدل. وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عُذُولُهُمْ“⁽⁹³⁾. وقد وُصف المسلمون بكونهم أمة وسطا ”لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غُلُوٍّ فيه (...) ولا هم أهل تقصير فيه (...) ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها“⁽⁹⁴⁾.

فالجمهور الذي تكون هذه صفاته، فإنه يكون جمهوراً ملتزماً بأوامر الشرع التي تقتضي تعاوناً وتآزراً ومحبة ومودة؛ ولذلك، فإنه يفرض إنتاج خطاب دعوي تسوده هذه المواصفات ويدحر فيه خطابه الكراهية.

93. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000م، 3/ 142.

94. المرجع نفسه. وقد أورد الطبري مكوّنين مخالّفين حتى يتحدد موقع الأمة الوسط من خلال تحديد موقعيهما. إنهما النصارى واليهود؛ فالمسلمون وصفوا بكونهم أمة وسطا ”لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غُلُوٍّ فيه، غُلُوّ النصارى الذين غلّوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه- ولا هم أهل تقصير فيه، تقيّمير اليهود الذين بذلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها“. ينظر جامع البيان، 3/ 142.

– الحالة الثانية: الجمهور الذي يحمل أحقاداً

يفرض إنتاجاً دعوياً يُعرض عن الاستفزاز

فإطلالة سريعة على ما يجري في أرض الله تعالى، لتبين أن طبيعة الجمهور المستهدف كانت سبباً في إنتاج خطاب يتميز بلامح خاصة وبمواصفات محددة. ومن أمثلة ذلك ما يتميز به الخطاب اليميني في فرنسا بحركاته وجمعياته وأحزابه. ومن ذلك حركة جيل الهوية اليمينية المتطرفة⁽⁹⁵⁾ التي تأسست في سبتمبر سنة 2012، بمدينة ليون بفرنسا، معلنة أن من مبادئها معاداة الهجرة والإسلام والميل نحو الفاشية والنازية. إن هذه الحركة توجه خطابها القائم على نشر الكراهية عبر شبكات التواصل الاجتماعي لجمهورها المنتقى عن سبق إصرار وترصد؛ ولذلك فقد كان من نتائج خطابها المنحرف ارتكاب أعمال الشغب والاحتجاز والاختطاف وإتلاف الممتلكات الخاصة والعامة.

إن إنتاج خطاب يخص هذه الفئة من المستهدفين بالخطاب الدعوي وشبهاها أمر عسير؛ ذلك لأن المنطقة المظلمة المتضمنة للقواسم المشتركة الجامعة منطقة ضيقة جداً؛ فالخطابات التي تنتجها هذه الفئة تجاه الخطاب الدعوي وما حام حوله، من قائمين به ومُحيلين عليه وما يرتبط به من دين وتاريخ وثقافة وحضارة، خطابات متسمة بالعداء المستشري، ومطبوعة بالكراهية القاتلة.

ولكننا نستهدي بالقرآن الكريم في مخاطباته لمن كانوا يناصرونه، ويناصبون النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه، العداء، فنسلك الطريق نفسه، ونسترشد بالمعالم ذاتها؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)﴾ (النساء: 81).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في تعامله مع من تطورت الكراهية لديهم إلى أفعال جرت بها الدماء، وانتهكت بها الحقوق، وذاعت بها الأجساد العذاب والتنكيل. ومن أقرب ما نعرضه من صور تعامل النبي صلى الله عليه وسلم

95. ينظر التعريف بهذه الحركة على الرابط: <https://sawtalhikma.org/archives/15803> تاريخ الاطلاع: 2021/03/09.

في هذا الباب، موقفه مما جرى لآل ياسر رضي الله عنهم؛ فقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبي عمار وأم عمار: **”اصْبِرُوا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّةُ“** (96).

فمن كان قلبه قد امتلاً حقداً واحتقن تغيضاً وزفيراً، وكانت له القدرة على القول المؤذي، أو الفعل الذي يلحق الضرر بالخطاب الدعوي وأهله، بعد أن أغلق أبواب الحوار والتواصل، مثل القوم الذي وصفهم القرآن فقال الله تعالى بشأنهم: ﴿وَلَيْتَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: 145)، فإن الإعراض عنه وعما يأتي من الأفعال يصير الصفة الأولى التي ينبغي أن يتشبث بها أولو الخطاب الدعوي في مثل هذا السياق، ولاسيما في ظل الضعف المهيمن على الذات في علاقتها بالآخر.

– الحالة الثالثة: الجمهور الذي لا يعادي ولا يحابي يفرض خطاباً دعوياً ليناً

لإن الخطاب صفة ينبغي للخطاب الدعوي أن يستحضرها في الحالات كلها. وقد كانت أشد الحالات منها على الرحمن عتياً حالة فرعون الذي لم يقتصر خطاب كراهيته على نبي الله موسى عليه السلام ومن معه، بل امتد ليمس الذات العلية؛ ذات الله سبحانه، فنازعها في صفاتها، وادعى أنه الأولى بها، فكان على رأسها ادعاء الألوهية والربوبية.

إن صفة الألوهية تعني الصفة التي يختص بها من لا يُعبد بحق سواه. وحين يكون التنازع بشأنها فإنها لا تكون من حق من ينازع الله تعالى فيها، لأن نسبتها إلى الذات التي لا تستحقها لا تكون إلا ادعاء. وإن صفة الربوبية صفة تتمثل خصائصها في ”التفرد بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإعطاء والمنع، والضر، والنفع، وغير ذلك“ (97).

96. رواه الطبراني في المعجم الكبير، في مسند النساء، باب السين: سَمِيَّةُ بِنْتُ حَبَاطٍ ”مَوْلَاةُ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْرُومٍ أُمُّ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَكَانَتْ مِنْ غَدَبٍ فِي ذَاتِ اللَّوِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا“، رقم: 769، 24/303.

وروى البيهقي أن ابن إسحاق قال: ”حَذِيفَةُ رَجُلٌ مِنْ آلِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، أَنَّ سَمِيَّةَ أُمَّ عَمَّارٍ عَذَّبَهَا هَذَا الْخَبِيُّ مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهِيَ تَأْبَى حَتَّى قُتِلَتْهَا، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْرُ بِعَمَّارٍ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَهُمْ يَعْذَّبُونَ بِالْأَبْطَحِ فِي زَمَانِهِمْ فَيَقُولُونَ: ”مُتَرَا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ““. رواه البيهقي في شعب الإيمان في ”شع المرء بدينه حتى يكون القذف في النار أحب إليه من الكفر“، رقم: 1515، 3/172.

97. المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر بن محمد عطا صوفي، دار الإعلام، ط 1، 1422هـ - 1423هـ، 112.

ومن رحمة الله تعالى ولطفه بعباده وفسح المجال أمامهم من أجل التوبة والإنابة أن القرآن الكريم يُعلمنا بالكيفية التي دعا الله تعالى لالتزامها حين مخاطبة فرعون الذي كانت تلك بعض ملامح جبروته وعلوه في الأرض، فقال سبحانه مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) ﴿ (طه: 42-44).

إنَّ لِنِ الخطاب الدعوي الموجه نحو هذه الفئة قد لا يرجى منه أن يحقق مردوديات جسماً فيدخل أفرادها في دين الله تعالى أفواجاً، لأنَّ أمر الهداية موكل إلى الله سبحانه، ولكن الذي ينتظر أن يتحقق منه هو أن تخفَّ حدة غلواء القلوب، وتذوب الشحناء فيها، وينظر إلى بني الإنسان بأنهم سواسية، فتزاح منها الكراهية التي يروِّجها هؤلاء بالقول والفعل تحت مظلات مختلفة.

المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تمد الجسور مع الثقافات بتيسير الترجمة الفورية

• المطلب الأول: الشبكة تُوفّر مواقع الترجمة وتطبيقاتها

نتوجّه باهتمامنا في هذا السياق إلى الشبكة باعتبارها الفضاء الرحب الذي يحتضن المواقع والتطبيقات التي تقدم خدمات الترجمة المختلفة المستويات، المتعددة المظاهر والتجليات؛ فمن المواقع والتطبيقات التي يقتصر دورها على ترجمة الكلمات المفردة، إلى أشباهها مما يترجم المستندات والبحوث والمؤلفات، وانتهاءً بالمواقع والتطبيقات التي تولي اهتمامها للتصحّيات الإملائية والنحوية، سواء أتعلق الأمر بالتراكيب أو بالمفرد من الكلمات.

ونتوجه باهتمامنا مرة أخرى إلى توجيه الدعاة نحو استثمار خدمات هذه المواقع في ممارسة خطابهم الدعوي، ولا سيما إذا تعلق الأمر فيه باستعمال لغتين أو أكثر، رغبة في تفعيل أدوارهم في هداية الناس، وفي الانتقال بالخطاب الدعوي من حاله الآنية إلى حال أفضل منها يفرح فيها المؤمنون بنصر الله تعالى.

وسنقف في الفقرات الآتية على المواقع والتطبيقات التي تحقق هذه الخدمات التي تيسر العمل وتهون مصاعب البحث وتضع عن الدعاة الإصرَ والأغلل التي تعرقل تحقيق ما يطمحون إليه.

– أولاً: مواقع وتطبيقات تترجم الكلمات:

1. موقع: <https://www.reverso.net>

هو موقع عالمي شهير، يمنح الباحث شرح الكلمة المفردة في اللغة المطلوبة ويمكنه من كيفية نطقها.

2. موقع: <https://www.wordreference.com/conj/EnVerbs.aspx>

خدماته شبيهة بالخدمات التي يقدمها الموقع السابق.

3. موقع: <http://www.babelfish.com>

خدماته شبيهة بالخدمات التي يقدمها الموقعان السابقان.

– ثانياً: مواقع وتطبيقات تترجم النصوص والوثائق ذات الأحجام الصغيرة

ومن تلك المواقع ما يلي:

1. موقع: [Sdl.com/translation](https://www.sdl.com/translation)

2. موقع: [Translation2.paralink.com](https://www.translation2.paralink.com)

وهما موقعان متشابهان الوظائف والمهام. وكيفية الاستفادة منهما تتحدد في أن يأتي الباحث بالنص المراد ترجمته ثم يضعه في الخانة المخصصة لذلك، ويحدد اللغتين؛ المترجم منها والمترجم إليها، ثم يضغط على زر الترجمة، فيلبي الطلب بسرعة تنسجم مع قوة صبيب الإنترنت الموجه نحو الحاسوب. ولا يقبل هذان التطبيقان الملفات التي يزيد حجمها على عشرة آلاف كلمة.

3. موقع: [Freetranslation.com](https://www.freetranslation.com)

ويأتي هذا الموقع في درجة أقل من سابقه، فخدماته لا تصل إلى خدماتهما.

– ثالثاً: مواقع وتطبيقات تترجم الملفات والمستندات ذات الأحجام الكبيرة

فكيفما كان نوع الملف، فإن المراحل التي تقطعها ترجمته عبر هذه المواقع والتطبيقات، تجعله قابلاً لأن يُترجم ويُنقل إلى لغة أخرى. وأول خطوة في هذا العمل، تبدأ من الدخول إلى موقع: [ilovepdf.com](https://www.ilovepdf.com)، واختيار النافذة المسؤولة عن فتح الملف، وتحويله إلى ملف وورد، ثم ينقل الملف إلى موقع [Onlinedoctranslator.com/](https://www.onlinedoctranslator.com/) en، فنطلب ترجمته فيه. وهذا الموقع يتوفر على اللغات العالمية ذات الصدارة، كما يتوفر على أغلب اللغات العالمية القليلة الانتشار.

– رابعاً: مواقع وتطبيقات خاصة بتصحيح الإملاء

هناك مواقع وتطبيقات أخرى تهتم بتصحيح الإملاء؛ فقد يشك الباحث في ما جاء به، أو يشك في ما أمدته الترجمة به من طريقة في كتابة العبارات، فيلجأ إلى هذا التطبيق ليعرض عليه ذلك حتى يصحح ويصير معتمداً في ما يريد توظيفه فيه.

ومن تلك التطبيقات ما يلي:

1. موقع: <http://spellcheckplus.com>

2. موقع: <https://www.onlinecorrection.com>

– خامساً: مواقع وتطبيقات خاصة بتصحيح النحو واللغة

هناك مواقع وتطبيقات أخرى كثيرة تؤدي مهمة تصحيحية أخرى تتعلق بتصحيح النحو واللغة. ويرد على رأسها موقع: <https://www.grammarcheck.net> وهو موقع يساعد الباحث على التغلب على مشكلات الإعراب والنحو التي قد يواجهها، ليس فقط في اللغات الأجنبية التي يجهلها، أو لا يتقنها بالشكل الكافي، ولكن يساعده في تصحيح الهفوات التي قد يقع فيها في لغته الأصلية.

• المطلب الثاني: استثمار الخطاب الدعوي إمكانيات

توظيف الترجمة على شبكات التواصل الاجتماعي⁽⁹⁸⁾

لا ينحصر دور الترجمة في نقل كلام بلغة إلى لغة أخرى، ولا تتوقف وظيفتها عند إفهام معنى مقرر لدى جهة لجهة أخرى، ولكنها تتجاوز ذلك كله إلى أبعاد مختلفة واستشرافات مستقبلية عديدة. ولاسيما إذا علمنا أن سياق حديثنا هذا يقتضي الانطلاق من رصد تجليات توظيف الترجمة على شبكات التواصل الاجتماعي، بغية استثمارها من لدن الخطاب الدعوي.

فالترجمة لكي تؤدي وظيفتها على الوجه المطلوب لا بد بأن ينظر إليها باعتبارها علما قائما على قواعد محددة، وألا يبقى عليه في المستويات الفنية التي تتملص من القواعد والضوابط؛ فيأتي فيها القائم بها بما يشتهيهِ ويَعِدِلُ عما لم يَرْقهِ منها. ولقد سبقنا إلى تأكيد هذا الأمر وأولو الاختصاص في هذا المجال، فقد أشار محمد يحي أبو ريشة في كتابه محاضرات في الترجمة إلى أن تعلم الترجمة ليس فناً فحسب بل هو

98. ونحن نضع اللمسات الأخيرة لهذا البحث، إذا بموقع الفيسبوك يطلع علينا بكونه قد أضاف إلى خوارزمياته وظيفتين اثنتين؛ أولاهما تتمثل في نقل المنطوق إلى مكتوب، فتصير لغة الفيديو منقولة إلى اللغة التي أنجز بها كتابة. وثانيتهما تتحدد في الترجمة الفورية التي تمكن من ترجمة المكتوب بحروف لغة الفيديو، إلى حروف اللغات العالمية المختلفة. وهو خير ينبغي للدعاة أن يستبشروا به استبشاراً عظيماً، لأنه يمكنهم من الوصول إلى الفئات والشعوب والأمم التي ما كان لهم ليبلغوا إليها إلا بشق الأنفس. مع الإشارة إلى أن دقة المعنى يحافظ عليها بنسبة 80%.

علم قائم بذاته⁽⁹⁹⁾، فيؤكد من خلال ذلك أن الترجمة بعد اعتبارها علماً، فإنها تصير مرتبطة بقواعد. وهو ما يدعو إلى عدم الابتعاد عنها. فعلى المترجم تعلّم هذه القواعد كلما واجه مشكلة في الترجمة⁽¹⁰⁰⁾.

وإذا كان أمر الترجمة كذلك، فإنها من جانب آخر تعد من القضايا الملحة التي يفرضها الواقع الإنساني المعيش؛ ذلك لأن العولمة - حسب عبارة عبد المحسن إسماعيل رمضان في مؤلفه "في فن الترجمة" - "تكاد تجعل من هذه القرية الإلكترونية التي نعيش فيها منزلاً متعدد الغرف لشعوب متمازجة وأفكار متماوجة"⁽¹⁰¹⁾؛ فهي الوسيلة التي حققت تواصل الشعوب والأمم عبر التاريخ الإنساني الطويل، وهي الأداة التي ساعدت على نقل المعرفة عبر دول العالم وقاراته⁽¹⁰²⁾.

وإذا كانت مردوديات الترجمة على هذه الصورة، وكانت الشبكة، بما فيها شبكات التواصل الاجتماعي، توفر خدماتها المتنوعة لكل الراغبين في الاستفادة منها، فإنه يكون من أوجب الواجبات على الدعاة أن يقتحموا عقباتها، وأن يجعلوها مركباً تقنياً للعبور إلى الثقافات المختلفة، بغية تبليغ دين الله تعالى؛ غرضاً طرياً، لم تمسه وسائط بسوء، ولم تعكر صفو حقائقه أياد مأكرة طالما اجتهدت في عرض صورته عرضاً مغرضاً.

فإذا توفّر لدى الداعية النصيب الضروري من تقنيات الترجمة وأساسياتها، أو ما أنعته بالمعلوم من الترجمة بالضرورة، فإنه يتوجّب عليه أن يستثمر ما تمده به التقنيات الحديثة المعروضة على الشبكة من خلال المواقع الخاصة بهذا الأمر، ومن خلال التطبيقات المعروضة هنا وهناك.

إن تلك الخدمات التي تمد بها شبكات التواصل الاجتماعي الدعاة ليست ذات قول فصل في إنجاز ما ينبغي أن ينجز من أمور الخطاب الدعوي، فلا بد، حين القيام

99. محاضرات في الترجمة، محمد يحيى أبو ريشة، مكتبة عتيقة الإلكترونية، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات، الأردن، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، 4/1.

100. المرجع نفسه.

101. في فن الترجمة، إعداد عبد المحسن إسماعيل رمضان، مكتبة جزيرة الورد،

ميدان الأوبرا، القاهرة، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، 11.

102. المرجع نفسه.

بالترجمة عبر هذه الوسائط، من مراجعتها وتنقيحها، ولا بد من التدقيق فيها وتقليب أوجه الآراء المحتملة المفضية إلى مقاصد صاحب الخطاب الأصلي من خطابه.

ولا بد هنا من اختيار الخطاب الدعوي لثلة من الرواحل التي تتولى مراجعة ما أُلقت به التقنيات الجديدة، وما أسهمت به الوسائط من خدمات تقرب البعيد، وتيسر العسير، وتقطع بالداعية أشواطاً في إنجازه مهمات الدعوة مما يتطلبه الخطاب الدعوي؛ حيث يكلف العنصر البشري المتخصص في هذا المجال الثر الذي يمد الجسور بين الدين الإسلامي وبين الثقافات الأخرى، بتصحيح الأخطاء، والحذر من اختلاف السياقات، وحفظ التعابير الاصطلاحية والمتلازمات اللفظية، والتزام الأمانة في النقل وفي الترجمة على السواء، ومحو الفراغات الفاصلة بين النص الأصلي وبين الفرع المترجم، حتى يظهر هذا على صورة ذاك.

وبعد ذلك تأتي مرحلة استثمار هذه الإمكانيات التي تتميز بها شبكات التواصل الاجتماعي؛ ذلك، لأن الترجمة في حد ذاتها ما هي إلا وسيلة لخدمة ما نريد خدمته من الدعوة. ومن ثم، فإن تفعيل الخطاب الدعوي في هذا الباب سيتحقق بنشر المنتج الدعوي على الصفحات الخاصة على "الفيس بوك" وعلى "اليوتيوب" و"الإنستغرام" و"تويتر" وغيرها.

وما دامت تلك الوسائط تحقق خدمات الترجمة إلى مختلف اللغات، فإن تعميم تلك المحتويات على اللغات المختلفة ينبغي أن يتحقق؛ طلباً للوصول إلى الثقافات المختلفة، ومداً لجسور التبليغ إلى من يجهل حقيقة الإسلام، فتنتشر بين يديه المحتويات الخاصة بديننا وثقافتنا.

إن استثمار الخطاب الدعوي إمكانيات توظيف الترجمة على شبكات التواصل الاجتماعي سيكون له شأن ذو بال، وسيكون مردوده وافراً على الدين الذي طالما كُيد له، ودُبّرت أمور بليل لقطع الطريق أمام تبليغه، فيكون وسيلة إلى حطّ الرحال عند قلوب الناس وأذهانهم ونفوسهم وعواطفهم، فتراهم يدخلون في دين الله أفواجاً، ولا سيّما بعد أن تكون الحقيقة قد توضحّت بين أيديهم، والغشاوة المنسدلة قد تكشّفت، والظلمة الدامسة الحائلة بينهم وبين أن يروا منه ما ينبغي أن يرى قد تبددت.

المبحث الرابع: شبكات التواصل الاجتماعي منصات لإشهار التطبيقات الدعوية الإيجابية

• المطلب الأول: تنظيم العمل الدعوي بتوظيف التطبيقات المتوفرة

تمنح الشابة الناس جميعهم إمكان تنظيم إنتاجاتهم بطريقة فعالة جديدة، بوضع تطبيقات بين أيديهم للاستفادة منها صباح مساء. وهي تطبيقات يمكن للخطاب الدعوي أن يوظفها في الاستفادة من تنظيم شأنه، بغية أن يصل إلى مبتغاه في وقت مدبر وجيز، وأن يقدم نتاجه على أحسن صورة لا تضيع فيها مادة سهواً، ولا يُعرض فيها ما ليس منها تجزئاً. ونحب أن نقف على هذه التطبيقات في الفقرات الآتية:

1. تطبيق Microsoft to do⁽¹⁰³⁾

إن هذا التطبيق متوفر على الهاتف وعلى الحاسوب. ويشتمل على لائحة خاصة بكل يوم to - do list تتكون من قائمة مهام، فيفتح على نافذة my day. وهي نافذة تسجل عليها المهام التي ينتظر أن تنجز خلال اليوم. وهو يمنح خيارات لتحديد وقت الإنجاز، مصحوبة برسائل تحمل تنبيهات على عدم إنجاز ما أعلن المرء عن رغبته في القيام به خلال اليوم. كما يمنح خدمة أخرى تتمثل في نافذة planned؛ حيث يمكن للداعية التخطيط للأسبوع أو الشهر أو غير ذلك، على مدى قريب أو متوسط أو بعيد.

2. تطبيق Tick Tick⁽¹⁰⁴⁾

يتيح هذا التطبيق إمكان بناء مهام وتصنيفها في قوائم خاصة، ووضع جدول زمني محدد بغية إنجازها، وإدراج قوائم لمراجعة المنجز من الأعمال. كما يسمح بإدارة الوقت أثناء معالجة فقرات البرنامج وإنشاء وسوم خاصة بالتذكير بمواعيد استحقاق مواد بعينها.

103. ينظر الرابط: <https://to-do.microsoft.com/tasks> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/09.

104. ينظر الرابط: <https://ticktick.com> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/09.

3. تقنية Pomodoro technique⁽¹⁰⁵⁾

وهي تقنية تمكن المرء من تقسيم المهام التي يعتزم القيام بها إلى أجزاء صغيرة وأقسام يمكن التغلب عليها والسيطرة على إنجازها. وإذا كانت أشغال الداعية متعددة المشارب والاهتمامات، فإن هذه التقنية تمده بإمكان تقسيم الغلاف الزمني المخصص للإنجاز الذي يريده، فتجد فيها تحديدات زمنية مختلفة، من بينها المدة المتمثلة في الخمس والعشرين دقيقة، مردفة بخمس دقائق مخصصة للاستراحة.

4. تطبيق STRICT WORKFLOW⁽¹⁰⁶⁾

إن لهذا التطبيق مهمة جلية يستفيد منها الداعية المنهك في إعداد مادته، فهو تطبيق مضاف للمتصفح من أجل أن يحجب المواقع والمنصات المشتتة للذهن والعمل. إلا أن تدخل هذا التطبيق في الحيلولة بين الداعية وبين أن ينشغل بما يمكن أن يشده إليه بعيداً عما يريد إنجازه تدخل ليس دائماً، فبعد انتهاء المدة المخصصة للعمل يمنح التطبيق الداعية استراحة تستغرق خمس دقائق، يمكنه أن يتردد فيها على المواقع التي كان التطبيق قد حجبها عنه من قبل.

5. تطبيق Google Keep⁽¹⁰⁷⁾

يمثل هذا التطبيق أداة يمكن تنزيلها على الهاتف أو الحاسوب. وقد وضع أساساً ليكون مذكرة خاصة تدون فيها الملاحظات والأفكار والقوائم. ويتميز بواجهته الرائعة التي تسمح بإدراج جدول الأعمال الخاص بيوم محدد، كما تسمح بإضافة الأعمال المستجدة إلى القائمة وتسجيل عناوينها حتى تتميز عن غيرها، وإثبات الوقت المخصص لها، وتخصيصها بصورة تكون لها علاقة بالعمل يتم تحميلها وتثبيتها. فهو يقوم مقام العمليات التي كان ينجزها الباحث خلال إنجاز بحوثه، وتستغرق منه وقتاً ليس بالهين. فالتطبيق من خلال هذا يقدم للداعية خدمة تنظيمية جلية، فيمكنه من تلوين الملاحظات بغية تمييزها وتفييء المتشابه من الأقسام إلى مجموعات متألّفة.

105. ينظر الرابط: <https://todoist.com/productivity-methods/pomodoro-technique> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/09.

106. ينظر الرابط: <https://kcll.org/topics/strict-workflow> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/09.

107. ينظر الرابط: <https://keep.google.com> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/09.

• المطلب الثاني: إنتاج تطبيقات دعوية إيجابية

يحتاج الخطاب الدعوي لكي يفعل وينتقل من حال إلى حال إيجابية أحسن منها إلى إنتاج تطبيقات دعوية إيجابية، تشهر في شبكات التواصل الاجتماعي، وتنوب عن الداعية في نشر ما يريد نشره من خطاب ديني وخلقى يسهم في إصلاح المجتمع. وقد يقف في وجه كلامنا هذا كثير من الدعاة، وكثير ممن يهتمون بشأن الدعوة إلى الله تعالى، بدعوى أن إنتاج تطبيقات دعوية يحتاج إلى علم الداعية بلغات البرمجة. وهو أمر ليس متوفراً للجميع. ولذلك، فإن المطلب يكون متعذر التحقق لما يُطلب ممن هو مجرد من أساسياته.

إننا لما نتوجه باهتمامنا نحو التأكيد على مردوديات إنتاج التطبيقات الدعوية الإيجابية، فإن اهتمامنا بذلك يكون بسبب ما نعلمه من مردوديات هذه التطبيقات وأشباهاها على المجال الذي تنتج من أجل خدمته وإنعاشه وتفعيله. وأمثلة ذلك مطروحة في الطريق؛ بحيث إنها تعمر أرصفة الشابكة، وتغطي مساحات ليست باليسيرة من مجالات الحياة. وإذا كان الأمر كذلك، فلم لا يُستثقل تنفيذ المطلب إلا حينما يتعلق الأمر بالخطاب الدعوي؟

إن الاعتراض لن يبقى له مسوغ يُتخذ مشجَباً ليعلق عليه العجز والكسل والإحجام وعدم الإقدام لما نعرف أن وجوب توفر الداعية على لغات البرمجة ليس حائلاً بينه وبين إنجاز ما نوجهه لإنجازه، ولا سيما إذا علمنا أن التطبيقات الدعوية الإيجابية يمكن إنتاجها على الطريقة التي يُنتج بها كثير غيرها من غير أن يحتاج ذلك إلى لغات برمجة، فعلى الشابكة مواقع كثيرة تولت هذا الأمر، وأعفت من يبتغي تحقيق ذلك الهدف من أن يحمل ما لا طاقة له به. وسنقف في الفقرات الآتية على موقعين اثنين توليا هذه المهمة، وهما على الصورة الآتية:

1. الموقع الإلكتروني thinkablefor android

فإن إنتاج تطبيق على هذا الموقع لا يتطلب كبير عناء، ولا يفرض على الداعية بذل جهد يتجاوز طاقته؛ حيث يتم التسجيل في الموقع، ويضغط على نافذة إنشاء تطبيق جديد. وعند ظهور الصفحة الحاملة لواجهة الهاتف ينبغي أن يحرص الداعية على

إزالة الأشرطة الموجودة في رأس الصفحة وفي أسفلها، من أجل أن تكون الواجهة دالة على إنجاز احترافي متميز.

ولكي نختار الخلفية الخاصة بالتطبيق، فإنه يتعين علينا الضغط على نافذة back ground ضغطة واحدة، فتظهر لنا مجموعة من الخلفيات المعدة من لدن الموقع العالمي ”جوجل“، المعروضة للاستعمال مجاناً، ثم نختار منها الخلفيات الموجودة على ”جوجل“ ونحفظها على جهاز الحاسوب ونسميها ونحملها، ثم نضغط على زر ”موافق“ من أجل نقلها إلى التطبيق المراد إنشاؤه.

وتأتي بعد ذلك مرحلة وضع الشعار لتمييز التطبيق وربطه بالمستعمل، فيتوجب آنئذ أن ندخل إلى واجهة المستخدم ”user interface“، ثم نأخذ في إدراج الأزرار ”buttons“ الخاصة بالتطبيق واستجلابها من الواجهة السابقة نفسها، ونسمي كل زر من الأزرار باسم المهمة التي نريده أن يؤديها.

فإذا بني التطبيق باهتمام، وأدرجت فيه محتويات دعوية تهتم بالعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك وتزكية النفس... واتخذ شكلاً من الأشكال السائدة في التطبيقات المختلفة؛ فكان قائماً على الأسئلة والأجوبة، أو مؤسساً على مغامرات في لعبة، أو مؤدياً تبليغ معلومات عن الموضوعات المذكورة سلفاً، فإن الداعية يكون قد أدى ما عليه، واستفاد من خدمات الشبكة وما حام حولها من شبكات التواصل الاجتماعي. وبه يتم تفعيل الخطاب الدعوي في هذا الجانب الأساس من الحياة.

2. الموقع الإلكتروني <https://ar.appypie.com>

بعد الدخول إلى الموقع والتسجيل فيه، وبعد الضغط على ”إنشاء تطبيقك الآن“، يتم الدخول عبر زر ”إنشاء التطبيقات“. وحينما تفتح الصفحة المطلوبة يجب على الداعية أن يسجل عنوان تطبيقه وأن يختار نوعاً من أنواع الموضوعات التي يهتم بها، مثل المعلومات والصحة والعبادة والتعليم وغيرها، وأن يختار خلفية من الخلفيات المتوفرة.

ولكي ينشر التطبيق نشرًا يغطي كل من يرتاد مواقع التواصل الاجتماعي، فإن الداعية يكون ملزماً بربط التطبيق بصفحة الفيسبوك الخاصة به، أو بقناته على

اليوتيوب، أو بموقعه الإلكتروني الخاص، أو غير ذلك. فإذا تم له هذا الأمر، فإنه يكون قد أدى جزءاً غير يسير في إيصال خطابه الدعوي إلى الناس جميعاً، وقربه منهم تقريباً يجدون فيه ضالتهم انطلاقاً من تفاعلهم مع ما توفره شبكات التواصل الاجتماعي تحديداً، ومع ما تجعله الشبكة طوع يمين مرتاديها جميعهم.

إن هذا الموقع يتميز بخصائص عظيمة يمكن للدعاة أن يستثمروها الاستثمار الذي يخدم دعوتهم؛ فهو موقع يدعم اللغة العربية بالكامل، فيتمكنون من التواصل مع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي باللغة المشتركة بينهم، كما ييسر عليهم تحديد الملامح المميزة للتطبيقات التي ينتجونها من غير اعتماد لتعبيرات قد يساء فهمها إذا كانت من لغات آخر. كما أنه يدعم التحديث الآلي؛ فكلما أضيف جديد إلى فقرات التطبيق فإنه يجد مكانه فيها من غير إحداث اضطراب ولا خلل يمس العرض.

إن مقارنة بين الوضع الذي يعيشه الخطاب الدعوي، وبين ما ندل الدعاة على اللجوء إليه بغية استثماره استثماراً إيجابياً، ليبين أن الفرق بين مردوديات هذا ومردوديات ذاك سيكون واضحاً جداً. ومن ثم، فإن شبكات التواصل الاجتماعي بتوفيرها الفضاء الرحب لإطلاع مرتاديها على جديد الدعاة، وعرض نتاجاتهم الإيجابية بين أيديهم، ونشرها في كل هاتف وعلى كل حاسوب، تكون قد أدت أدواراً جليلة في تفعيل الخطاب الدعوي. وهو ما ينبغي للدعاة استثماره على الوجه الأفضل.

• **المطلب الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تفعل الخطاب الدعوي بتوظيف التطبيقات الإيجابية**

بعد أن عرفنا أن الشبكة توفر لنا مجموعة من الإمكانيات التي ننشئ من خلالها تطبيقات دعوية إيجابية، فإننا نستشرف المستقبل فنربط فيه بين المنتوجات وبين إشهارها وعرضها على شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة. ولكن قبل أن ننصرف إلى الحديث عن هذا الجانب من الموضوع، فإننا نحب أن نؤكد على وجوب اطلاع المهتمين بالخطاب الدعوي على ما يلزم في بناء التطبيقات الدعوية الإيجابية، من

قواعد الموشن جرافيك (MOTION GRAPHIC)، ومبادئ الأفتر إفيكت⁽¹⁰⁸⁾ (After effect)، ومستلزمات الإلستريتور⁽¹⁰⁹⁾ (Illustrator)، وضروريات الفوتوشوب⁽¹¹⁰⁾ (Photoshop).

وقد يعترض معترض فيقول إن هذا الأمر لا يتييسر للدعاة جميعاً؛ فقد يكون منهم من شارك في دورات تكوينية أو خضع لتكوينات مكنته من الإحاطة بالمطلوب، ولكن العديد منهم ليس له من الأمر شيء، فلم يقترب قط من هذا المضمار، بل إن منهم من لم يسمع عن هذه التقنيات شيئاً أبداً. ولذلك، فإنه يتعذر على الجم الغفير من الدعاة أن يحققوا ما يطلب منهم في هذه الآونة.

إننا نقول إن هذا الأمر داخل بوجه من الأوجه في ما تتحقق به الاستجابة لمستجدات الحياة، من أجل ملاحقة الركب الحضاري العالمي من جهة، ومن جهة أخرى، فإنها تتحقق لدين الإسلام صفة صلاحه لكل زمان ومكان. وهي صفة من أعظم صفاته التي يختص بها.

وإذا لم يتمكن الدعاة من الانخراط في هذا المسار لتحقيق هذا المراد، فإنه يلزمهم لجعل شبكات التواصل الاجتماعي تفعّل الخطاب الدعوي بتوظيف التطبيقات الإيجابية أن يخصصوا موارد مالية لتعيين موظفين تقنيين يتولون القيام بهذه المهمة الجليلة. ومن ثم، فإنه لا بد من قصد الجهات التي يتوسم فيها الخير وحب الإحسان وخدمة الدين والإنفاق على دعوته.

ولما كان كثير من المحسنين ما يزالون متشبثين بطرائق الإحسان التقليدي، فيسارعون إلى التصديق على المتسولين المنتشرين في الشوارع، ويسهمون في بناء

108. الأفتر إفيكت (After effect)، أداة انتقال لإنشاء الرسوم المتحركة والمؤثرات الخاصة. يستخدمها الفنانون ومحرروها ما بعد الإنتاج لإنشاء تأثيرات مذهلة للأفلام والتلفزيون والفيديو والويب.
ينظر الرابط: <http://adobe.ly/3ig46C3> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/11.

109. الإليستريتور (Illustrator)، برنامج أنتجته شركة "أدوبي" لإعداد التصميمات. وهو قادر على تحويل الأشكال البسيطة إلى شعارات مذهلة وأيقونات فريدة وصور معبرة، من الشاشة الصغيرة إلى الأجهزة المحمولة واللوحات الإعلانية العملاقة، مع احتفاظ الإبداعات بكل دقتها وحيويتها.
ينظر الرابط: <http://adobe.ly/2Lq5ExI> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/11.

110. الفوتوشوب: (Photoshop) محرر رسومات نقطية، طوره توماس نول وجون نول بشركة "أدوبي" عام 1988. وهو برنامج يستخدم في تحرير الصور وتركيبها، وفي الرسم الرقمي والرسوم المتحركة والتصميم الجرافيكي.
ينظر الرابط: <http://adobe.ly/38L1DMD> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/11.

المساجد، ولكنهم إذا طلب منهم أن يوجهوا إحسانهم إلى خدمات اجتماعية مثل بناء الطرقات وإنشاء المدارس والإنفاق على المؤسسات، فإنهم يترددون عن ذلك، ويرغبون عن الإقدام عليه. وما ذلك، إلا لأنهم يرون أن هذه المجالات لا أجر فيها، ولا سيما أن الإنفاق عليها هو من واجبات الدولة وليس من واجبات المحسنين.

إن هذا الوضع يفرض على رعاة الخطاب الدعوي أمراً آخر عظيماً. إنه المتمثل في إقناع هذه الفئة المنفقة بمردوديات إنشاء التطبيقات الدعوية على الدين وأهله. وهو أمر ذو بال، فإذا كان المحسنون لا يجدون شغفهم في الإنفاق على ما تكون استفادة المواطنين منه واضحة جلية، فكيف يقتنعون بما ترسخ في أذهان كثير منهم بأنه من جنس الألعاب الإلكترونية التي يلهو بها الأطفال والمغمومون بها؟

فلا بد للدعاة الذين يحملون هم الدعوة إلى الله أن يتجشموا هذه الوعثة وأن يقتحموا هذه العقبة بتسخير الخطاب الدعوي لخدمتها، وبتوظيف سمعتهم التي تكون مقنعة قبل أن يُلْقوا بكلماتهم إلى الآذان؛ فكم من أمر يعزف عنه الناس، ولكن إذا دعاهم إليه الداعية الذي يكون قد استقر في قلوبهم استقراراً حسناً، فإنهم يلبُّون ويستجيبون ويسارعون إلى فعل ما دعاهم إليه الداعية.

فإذا تحقق هذا المبتغى، وتوفرت موارده، واحتشدت الطاقات التقنية التي تتولى القيام بإنشاء التطبيقات الدعوية الإيجابية، فإن أبواب الخير ستفتح على الدين كله، فيدخل الناس في دين الله أفواجاً، ولا سيما من الجيل الجديد الذي صار مولعاً كثيراً بالارتباط بالرقميات، وصارت بينه وبين الهاتف أواصر قرى تشده إليه في كل حين.

إن الجيل الجديد هو من يُتَشَوَّفُ إلى أن يتولى القيام بهذا الأمر الجلل؛ فهو من سيستلم المشعل عما قريب، وهو من يُتَطَّلَعُ إلى بنائه بناءً رشداً ليكون قائداً مستقبلياً إيجابياً فعالاً، وهو الذي ينتظر منه أن يكون صاحب دين لينتصر دين الله، وتكون به كلمة الله هي العليا، وتعم به الأخلاق الحميدة أرض الله، فتموت الضغائن، وتباد العداوات، ولا يبقى للكراهية موقع قدم في حياة الناس.

فإذا توضح ما ندعو إليه وتحدد معالمه، فإننا نحب أن نخرج على أنواع التطبيقات الدعوية التي نرى أنها سيكون لها أثر دعوي إيجابي على الجمهور المستهدف بالخطاب الدعوي. وليكن ما نرومه محدداً على الصورة الآتية:

1. إنشاء التطبيقات الدعوية التعليمية:

نرى أن المحتويات التي ستقوم عليها هذه التطبيقات ينبغي أن تكون متمثلة في تعليم الناس أمر دينهم، وتعليمهم ما لا يمكن للدين أن يفهم على الوجه المطلوب إلا به. ويتمثل ذلك في تعليم أساسيات الدين المحددة في الطهارة والوضوء، وأركان الإسلام والإيمان، ونطق الشهادتين والصلاة، والتمكين من قراءة الفاتحة قراءة صحيحة، وتعليم الزكاة والصيام والحج...

إن هذه أمثلة، وإلا فإن المجال فسيح واسع؛ فالإبداع يقتضي خيالاً متميزاً. ولكن قبل أن يشتد عود أهل الدعوة في هذا المجال الذي يكسب الخطاب الدعوي قوة وتميزاً، فإنه يتوجب التزام السير الحثيث القائم على التدرج والمحاكاة؛ فالتطبيقات كثيرة ومتعددة، وهي تسمح في أحيان كثيرة بأن تحاكي بعد تحويلها لما يخدم الدعوة بجعل محتواها يستجيب لما تتطلبه الدعوة إلى الله تعالى.

2. إنشاء الألعاب ذات المحتويات الدعوية:

إن إنتاج هذا النوع من التطبيقات يتطلب توظيف متخصصين في إبداع القصص القصيرة وفي إنتاج المسرحيات الهادفة. وهو أمر يفرض البحث عن هذه الفئة من الأدباء والمبدعين ومنتجي السيناريوهات وتوجيههم إلى الاشتغال على الإبداع في الموضوعات التي تخدم الدعوة. وهي خطوة أساس يقوم عليها إنتاج التطبيقات الدعوية الخاصة بالألعاب الإلكترونية؛ حيث يمثل المحتوى الدعوي المنتج مكوناً من المكونات التي يقوم عليها التطبيق الدعوي. وهي مكونات يستقر كل واحد منها في مرتبة معينة، فلا ينبغي له أن يتخلف عنها إلى غيرها، حتى يكون الإخراج مسلماً لا شية فيه، ويكون الإنتاج قاطعاً أشواطاً ليست بالهينة في درجات الجودة والتميز.

الفصل الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي تمكن من إعادة صياغة الإنسان صياغة إيجابية

المبحث الأول: شبكات التواصل الاجتماعي وتشكيل الإنسان

• المطلب الأول: شبكات التواصل الاجتماعي محاضنٌ مطروحة في الطريق

إذا كانت شبكات التواصل الاجتماعي واقعة في ملك جهات معلومة، فإن محتوياتها وموادها المنشورة فيها تقع في متناول الجميع، فتغدو كأنها ملك مشاع في أيدي الناس جميعاً. فكل من أراد منها مادة كان بمكنته وصوله إليها من غير حائل يحول بينه وبينها. ومن ثم، فإنها تصير كأنها مطروحة في الطريق تعرض محتوياتها على كل من هبَّ ودبَّ.

إن يسر الوصول إلى المواد المنشورة في شبكات التواصل الاجتماعي أمر مهم جداً لمن يريد طلباً للمعرفة، أو غوصاً في العلوم، أو إحاطة بمستجدات الحياة المعيشة. ومنه، فإن مواكبة ما ينشر فيها تمثل مورداً ثراً للمعلومات التي تأتي الباحث من كل فج عميق قبل أن يرتد إليه طرفه؛ حيث إن معينها لا ينضب، وصبيها لا يجف، وعطاءها دوماً يكون عطاء غير مجذوذ.

وإذا كانت أهمية هذه الشبكات تلوح من خلال هذه الخدمات المتعددة، فإن لها مخاطر لا تكاد تحصر. ويأتي على رأسها جميعاً كونها في متناول الجميع. فالناس ليسوا على قلب رجل واحد؛ إذ إن الجد الذي يطبع الباحثين الراغبين في العلم والمعرفة لا يطبع فئات كثيرة من مرتادي هذه الشبكات، فأهدافهم التي ينشدونها من ارتيادهم إياها أهداف شتى، ومقاصدهم التي يتطلعون إلى تحقيقها مقاصد لا تعد ولا تحصى. فمنهم من يرتادها لدنيا يصيبها، ومنهم من يسعى لآخرة يريدها، ومنهم من ليس في العير ولا في النفير؛ فهو ينعق مع كل ناعق، ويستجيب لكل صيحة، ويتبع كل من يلقي إليه بطعم، غير متبئٍ أهو طعم غث أم سمين.

وإذا كانت ميولات الناس شتى في الحياة؛ حيث تتعدد مقاصدهم وأهدافهم وتختلف طلباتهم، فإن شبكات التواصل الاجتماعي توفر لكل من يرتادها الأهداف

التي يريد، والمقاصد التي يصبو إلى تحقيقها. فهي تخاطب الشرائح كلها؛ صغيرها وكبيرها، ذكورها وإناثها، قويها وضعيفها، عالمها وجاهلها. فلا يمكن لمرتاد شبكات التواصل الاجتماعي أن يلج مساربها ومتاهاتها من غير أن يجد فيها ما يشده إليه، فيصير مبحراً في بحر لُجِّي إذا أخرج يده منه لم يكد يراها، فالمعلومات كثيرة، والمشارب مختلفة، والمقاصد متباينة.

ويلوح من بين تلك المخاطر التي تزخر بها شبكات التواصل الاجتماعي كونها تشتمل على الخير والشر؛ حيث إن المواد التي تعرض فيها لا يكاد يوجد فاصل بين الخير منها وبين رافع جريرته بكل شر مستطير. فتنتهي من مادة تظنها بانية للعقول، مصلحة للنفوس، راسمة لمعالم الطريق نحو بناء المجتمع وإصلاحه، وتطلع عليك مادة رديفة لها فتعرض عليك كل ما يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح، ويحدث الاختلالات والثلوم في صرح المجتمع من كل جانب.

إنك ترى أن الخير والشر متجاوران يمشيان جنباً إلى جنب، فيمدك الأول بما تجد فيه مؤهلات بناء وإصلاح، ويمدك الآخر بما إن وثقت فيه تجد فيه ثمرات نكدات تبديد الحياة وتفسد فيها بعد إصلاحها، وتجد صور الفضائح والردائل بأنواعها إلى جانب صور الستر والعفة والفضيلة، ويعرض عليك الفيديو الباني الذي يهدف إلى العودة بالمجتمع إلى سابق عهده، وإلى جنبه تجد رديفاً له يدعوك جهاراً نهاراً إلى ارتكاب الرذيلة واقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وإن نظرة ماسحة لما يغمر شبكات التواصل الاجتماعي من محتويات ومواد لتنبئ المرء الحصيف بأن نسبة الخير فيه أقل بكثير من نسبة الشر، وإن نسبة الخير فيه تحتاج إلى غربلة ونقد دائبين، مما يجعل المفيد الفعال منها في تناقص مستمر. فإذا أضيف إلى ذلك تميز روافد الشر الهادم بحسن الإخراج وتميز الإضاءة وجمالية العرض وطلاقة المتحدث والقدرة على دغدغة العواطف والأحاسيس وهز الأركان من كل جانب، فإن الفرق يكون بيناً جلياً بين نتاج الخير ونتاج الشر.

فإذا كانت الحال في هذه الشبكات على هذه الشاكلة، فإن قضاء وقت طويل أمامها، والتردد عليها باستمرار، والاستجابة لأساليب الجذب فيها، يرسخ في النفوس

ما يجول في فضاءاتها من ممارسات وتوجهات. وحين تجد التثبيت اللازم فيها، فإن بصماتها وملامحها المميزة تصبح من مكونات الشخصية المقبلة على تلك المحتويات، المدمنة على استهلاك ما فيها، فتدفع دفعاً حثيثاً نحو محاكاة ما استقر في دواخلها من غير أن تمتلك القدرة على التخلص منه إلا بقدرة قادر.

• **المطلب الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي** **محاضنٌ مغريّةٌ غيرٌ محايدة**

تتعدد صور الإغراءات في حياة الناس، وتتنوع خلفياتها ومقاصدها. وشبكات التواصل الاجتماعي تتخذ مجموعة لا حصر لها من الإغراءات التي تجعل الناس يقبلون عليها إقبالاً لافتاً، وينشدون إليها انشداداً لا يكاد يسمح لأحدهم بمغادرة محتوياتها وموادها إلا بشق الأنفس.

فمنهم من يجد ضالته في المعرفة المعروضة فيها، ومنهم من يجدها في الإخبار بالمستجدات التي يعيشها الناس في حياتهم، ومنهم من يبحث في ركام العبث الذي لا يجدي نفعاً، ولا يأتي بخير أينما وليت وجهك فيه. وكلُّ والمادة التي تغريه وتشده إليها.

وأقرب مثال إلى ما نحن بصدد الخوض فيه، ذلك الذي يتبدى لنا من خلال ارتباط الأطفال وبعض فئات الشباب بالألعاب التي تغزو هذه الشبكات من خلال تطبيقاتها المبتوثة فيها؛ حيث ترى الطفل قد انغمس فيها انغماساً، فلا ينتبه لما يجري بجانبه من أحداث، ولا يرى من دخل الغرفة التي هو فيها، ولا يسمع من يناديه. فيحق عليه أن يوصف بكونه يعيش عيشاً كاملاً في عالمه الافتراضي البعيد عن عالمه الحقيقي.

إن الطفل حينئذ يغدو مجرداً من إحساسه ومشاعره، مفارقاً لإنسانيته التي لا تقتصر على الوجود المادي، فلا تكتمل إلا حين يحكمها العقل ويغذيها السمع والبصر، بوصفها المداخل التي تربط الشخصية بالعالم الخارجي. ولذلك، فقد كانت مسؤولية توظيفها مسؤولية ثقيلة يوم لقاء الله تعالى، فقال رب العزة سبحانه بشأنها: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (36) ﴿الإسراء: 36﴾.

فالطفل يكون حقيقةً في سن طلب تحقيق التشبع من الأشياء، ولا سيما الأشياء المغرية الجديدة التي تأتي الألعاب على رأسها، فإذا أدخلت الألعاب الإلكترونية إلى واقعه الذي يحيط به الملل من كل جانب، فإنها تكون أحلى وألذ. وذلك شأن ما تمده به شبكات التواصل الاجتماعي وغيرها من مواقع الشبكة ومنصات وتطبيقاتها.

إن الطلب المؤسس على الإغراء لا يتحقق فيه التشبع بسرعة، لأن هيجان النفس تجاهه، وتطلعها إلى الإحاطة بكل صغيرة وكبيرة منه، يجعلها أسيرة بين برائثه ولو بعد حين، فيصير صاحبها يعيش الاستلاب والخضوع والاستجابة، فيفرط في السهر غير القائم على مسوغات مقبولة، استجابة لما تمده به شبكات التواصل الاجتماعي، فيقطع ساعات ليله في تتبع ما يعدّه ذو العقل الحصيف من ترهات حياة الناس.

وكذلك الشأن بالنسبة لأوقاته الأخرى، فبعد أن يقضي ليله كله وعيناه لم تكتحلا بنوم، يدخل في غيبوبة طويلة يقضي فيها جزءاً غير يسير من نهاره. وحين الاستيقاظ، تراه مولياً وجهه نحو هاتفه أو حاسوبه أو لوحه الإلكتروني، ليكمل ما بدأه من قبل، أو لیبداً مشواراً جديداً في متاهات غير قابلة للانتهاء.

فإذا كانت هذه صورة الطفل أو الشاب، فإنها صورة تنسحب على كثير من الناس، سواء أكانوا كهولاً أم شيوخاً، نساءً أم رجالاً. وهي صورة تنسحب على أغلب المجتمع؛ حيث تظهر رغبة الكل في أن يسجل حضوره فيها، فترى الجميع يلهث نحو تجميع أعداد المشاهدات وإحصاء علامات الإعجاب، ظناً من الجميع أن كل ذلك أموال يتم الحصول عليها من شبكات التواصل الاجتماعي.

ولما كان حب المال يسكن في النفوس، فإن اللهث وراءه يصير الوسيلة التي تتركب من أجل تحقيق ذلك الإغراء الذي تلقى به إدارات تلك الشبكات بوصفه طعماً يتتبع الفرد حركاته واهتزازاته بعينه اللتين تكادان تخرجان من محجريهما، بغية الحصول على فتات ضئيل مما يفضّل عن تلك المؤسسات.

إن المرونة النفسية تؤتي أكلها في هذا الجانب؛ حيث تظهر حقيقة الإنسان في علاقته بحب المال التي نطق بها القرآن الكريم، فقال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ

حُبًّا جَمًّا (20) ﴿ (الفجر: 20). فترتقي العلاقة بين الطرفين في سلم العواطف والأحاسيس، لتصير حباً مجمّعا⁽¹¹¹⁾ شديداً غير مألوف، وتغدو عشقاً يكون للإغراء نصيب كبير في صناعته.

والحق أن الإغراء المعروض على شبكات التواصل الاجتماعي ليس إغراءً مادياً فحسب؛ فهو إغراءات متعددة ومتنوعة بين النفسي والمادي والثقافي، وموزعة بين الحاضر والمستقبل. ولذلك، فإن المرء - أيا كان - في ظل عدم تحقق تحصيناته القوية الكافية التي تحول بينه وبين أن يلحقه أذى من حيث يريد نفعاً من هذه الشبكات، يكون مهدداً في كل وقت وحين، ولا سيما إذا كان يطلق الأمور على عواهنها، ويضع فيها الحبل على الغارب، فيدخل البحر الرقمي الذي يطلع عليه بما يريد وبما لا يريد، ويعرض عليه المحتويات التي يمكن أن يرغب فيها قبل أن يطلبها، كأن القائمين عليه تجار قد أحاطوا بمداخل النفوس جمعا، وأخذوا بالنواصي والأقدام فتصرفوا في أصحابها كما يشاؤون.

لقد كان هذا التمكن من لدن القائمين على هذه الشبكات مؤسسا على علم ودراسة ودُرْبَة؛ فهم ليسوا هواة يمارسون هواياتهم من أجل تحقيق المتعة العابرة، وهم ليسوا عابري سبيل يقضون أوقاتهم صحبة أناس قد لا تكون قد انعقدت بينهم أطراف الصداقة والتعارف ويقطعون أوقاتهم في ما لا ينفع. إنهم قوم جمعوا فأوعوا، وأدركوا حقائق النفوس ومداخلها، ورسموا المسارات المستقبلية للتحكم في مآلاتها، فوضعوا الملامح التي يريدون، وتنبؤوا بالطبائع التي سيكون عليها المستقبل. ولذلك، فقد استحضروا أدوار الإنسان المعاصر في صناعة الغد المنشود، فتدخلوا في تحديد مواصفاته المسعفة لهم في الوصول إلى ما يتطلعون إليه.

إن هذه التدخلات في رسم ملامح الإنسان المعاصر وتشكيل نفسيته من أجل إنتاج المستقبل بصورة معينة وبطبيعة محددة، لم تكن في وقت من الأوقات منطبعة بطابع البراءة وعدم الحياد. فالحرص على استغلال الإنسان والتدخل في بنائه بطريقة معينة

111. أشار الإمام أبو جعفر الطبري عندما وقف على قول الله تعالى: {وَتَجِيءُ السَّاعَةُ وَهُمْ لَا يُلْمُؤْنَ} (الفجر: 20) إلى أن "الجم" هو التجمّع. وهو مأخوذ من قولهم: "قد جمّ الماء في الحوض: إذا اجتَمَعَ". ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، 415/24.

محقة للأهداف والمقاصد المنشودة، والحيلولة بين الحياة الإنسانية وبين أن تواصل المسير بالطريقة الطبيعية المعهودة، ليكشف عن طبيعة النوايا غير السوية، وليبين عدم براءة العروض الرقمية التي أصبحت تستهوي الإنسان في كل وقت وحين.

• المطلب الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي تشكل النفسيات

بعد أن تبين لنا بوضوح أن شبكات التواصل الاجتماعي ليست حكرًا على أحد؛ فمحتوياتها ملك مشاع وهي مطروحة في الطريق، وتبين لنا أنها محاضن مغرية غير محايدة، نريد أن نميط اللثام عن جانب آخر مهم من الجوانب التي تتميز بالتأثير فيها، والتي تولي اهتماماً بالغاً لاستثمارها في صناعة الواقع الإنساني العام.

إن الجانب المقصود بالخطاب يتمثل في تدخل شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل نفسيات الأفراد وذهنياتهم. فالملاحظ أن هذه الشبكات تمتلك من الوسائل الشيء الكثير لتخريج النماذج البشرية التي يريد أصحابها؛ فهي لا تقتصر على نماذج معينة مصطبغة بصبغة خاصة، متصفة بمواصفات محددة، ولكنها تقصد، بالنظر إلى قوتها وتغطيتها المجال التواصلي كله، النَّفْسِيَّاتِ على اختلافها، سواء أكانت نفسيات ماثلة إلى الصلاح، أو نفسيات ماثلة عنه.

فإطالة مسحية على الواقع المعيش لتبين أن كثيراً من النماذج البشرية من اقتراب من الدين والصلاح بفعل هذه الشبكات، فصار إلى أحسن حال؛ خلقاً ومعاملة وحسن سَمَت. وكم منها من ابتعد بسبب تدخلها في صياغة نفسيته بفعل قوتها وتأثيرها، فصار إلى أخس الأوضاع؛ رذيلة وتهتكاً وانحرافاً وتطرفاً وابتعاداً عن جادة الصواب وانفراطاً عقد خُلق.

وإن نظرة متدبرة في خلفيات تلك التأثيرات التي تحدثها شبكات التواصل الاجتماعي في مرتاديه، لتكشف القناع عن كونها عائدة إلى أسباب رئيسة تحدث آثارها في الناس مهما كانت قوة مقاومتهم لتدخلات الآخرين في إحداث التغييرات في شخصياتهم. ولقد وجدنا تلك الأسباب تتأرجح بين كونها عائدة إلى ذات المرتبط بهذه الشبكات، وبين كونها عائدة إلى الشبكات في ذاتها. وهي في جملتها تنحصر في ما يلي:

أ. كثرة التردد والتكرار:

فإذا كان المرء من المرتبطين بمورد محدد من موارد شبكات التواصل الاجتماعي، أو كان مرتبطاً بها كلها على اختلافها وتنوعها؛ حيث لا يُرى في مشهد من مشاهد يقظته إلا وهو مشغّل جهازه لاستقبال ما هو مبعوث فيها، فإن تأثيرها في نفسيته وأخلاقه واعتقاده لا يتوقف عند حد. فهي تمده بمحتوياتها من غير تقشّف ولا تقيّد، مفسحة إليه المجال ليل نهار. وهذا يكون له تأثير شديد على نفسيته تبعاً للمواد التي يتلقّى منها ما يتلقاه.

ب. استرسال العرض ودوامه دون انقطاع أو توقف:

إن انفتاح شبكات التواصل الاجتماعي على الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومعتقداتهم دون انقطاع أو توقف له من التأثير على نفسياتهم ما لا حصر له. وإن استرسال العرض من لدن هذه الشبكات يزيد الطين بلة؛ فليبتعد المرء عنها كيفما شاء، وليفارق محتوياتها كيفما يريد، ولكنه كلما عاد إليها وجدها تنتظره بفارغ الصبر، مفتحة أبوابها، عارضة بين يديه متاعها، مرحبة به ترحيباً لا يجده في المواقف المختلفة في حياته.

فالعرض مستمر دائم طيلة أيام الأسبوع؛ ليل نهار، وبضغطة زر يلبّي الطلب من غير تلكؤ ولا تردد ولا تأفّف. وهو عرض يكون له من التأثير على تشكيل نفسية المتلقي ما لا يُتصوّر؛ حيث يحدث لديه غسل دماغ، أو ما يشبه غسل الدماغ. وإذا كان الارتباط موجهاً نحو مادة ذات خصوصيات واحدة، متميزة بخضوعها لاتجاه فكري أو خلقي أو رؤيوي معين، فإن انطباعها في ذهن المتلقي يكون يسيراً راسخاً مشكّلاً لنفسية ذات ملامح تعود إلى طبيعة المورد الذي يستقي منه المرء حاجياته.

ج. الحرص على جمالية العرض:

يسجل المتتبع الحصيف لما يعرض في شبكات التواصل الاجتماعي أن رفع المحتويات عليها أو نشرها فيها، لا يُقبلان إلا إذا كانت درجة جودتهما مقبولة من لدن مبرمجي هذه الشبكات؛ فالدرجات المقبولة تبدأ من أعلى درجات الجودة، وتمر من وسطاها، ثم تحط الرحال عند الدرجة المقبولة غير المحيلة على الابتذال. فالجدة

والجمالية والإثارة واستثمار الألوان والإضاءة والإخراج شروط لا تنازل عنها من لدن هذه الشبكات. وهو ما يضمن استمرار التعلق بهذه المحتويات؛ فكم من الناس من لا يهتم صلاح المحتوى، بقدر ما يهتم جانبه الجمالي فقط.

فتلحظ أن الاستفادة من الاشتراكات تؤتي أكلها الجم؛ ففي ساعات الإعلان الأولى عن النسخة الجديدة يبلغ عدد المشاهدات عشرات الملايين، تبعاً لموقع المحتوى في نفوس الناس. ومن الأمثلة القريبة التي تشدنا إليها، التطبيق الخاص باللعبتين المدعوتين بـ “Call of duty” و “Cs-go”. وهما لعبتان ناطقتان بلغات غير عربية، وتقومان على القتل وسفك الدماء، وتجعلان ممارسهما وكأنه في واقع عربي تماماً؛ حيث تكتب العلامات التجارية بالعربية، وأسماء الشوارع والأزقة بلسان عربي، فيرى المشاهد أنه في أجواء عربية تماماً؛ فإذا ساد اللعبة قتل وسفك دماء وتدمير وحرائق ونيران ودخان، فإنها ترسخ في الأذهان أن المشاهد لا غربة فيها، مادامت في بلاد عربية، وما دامت الشخصيات الفاعلة فيها حاملة للملامح العربية.

إن النفسيات تتشكل من خلال هذه المشاهد وأشباهها، وإن المواقف تبنى تجاه العرب والمسلمين انطلاقاً مما يرى رأي العين؛ فيرسخ في الأذهان أن كل دمار وخراب وفساد في الأرض هو من أفعالهم، حتى إذا ظهر في الواقع المعيش فعلٌ نابٍ عن الأخلاق الحميدة، أو مات إليهم الأيادي بكل بنان، فتصير التهم لصيقة بهم قبل تبين حقائق الأحداث الجارية في واقع الحياة. فهم المرشحون للأفعال المنحرفة، وهم أهل كل فساد في الأرض. وما كان ذلك إلا لأن النفسيات قد تشكلت تجاههم، والمواقف قد تأسست عنهم، فامتلأت القلوب بها، وتعكر صفو الأذهان بمشاهدة ما يربطها بأوطانهم. وما سبق إلى القلب عمره.

فمثل هذا الإجراء الذي تقدم عليه جهات معينة فتستغل شبكات التواصل الاجتماعي من أجل رسم ملامح سلبية للعرب والمسلمين والإضرار بهم يتيح الفرصة للمشاركة الموجهة، سواء من داخل صفوفهم أم من خارجها؛ فمن كان من داخل الصفوف فإنه يتخذ موقفاً سلبياً من الذات وما حام حولها. ولذلك، فإننا لا نستغرب لما نسمع بعض بني الجلدة يرمون إخوانهم وتاريخهم بما لا يليق، ويمجدون من فعل فيهم الأفاعيل من المستعمرين الذين دمروا البلاد وقتلوا العباد. ومن كان من

خارج تلك الصفوف، فإنه يظن ظن اعتقاد أن مواقفه المنحرفة من الإسلام والمسلمين ينبغي أن تكون كذلك، ما داموا على تلك الجادة التي يفسد راكبوها في الأرض ولا يصلحون.

إن هذا الأمر لا يزداد إلا رسوخاً في النفوس، وإن هذه المواقف السلبية لا تزداد إلا تحجراً فيها، ولا سيما حين تمنح شبكات التواصل الاجتماعي مرتاديها فرصة الارتباط بمادة واحدة من هذا النوع الطافح بالمواقف السلبية المؤسسة على الكراهية والحقن والسّم الزعاف، أو بمواد موجهة متشابهة نحو بناء هذه المواقف؛ حيث تتحقق الحيلولة بين المرء وبين الاطلاع على الآراء المخالفة. ومن ثم، فإنها تتحقق بينه وبين الرأي الصحيح السليم.

المبحث الثاني: شبكات التواصل الاجتماعي مؤهلة لصياغة الإنسان إيجابياً

• المطلب الأول: اختيار الإيجابي المعروض في شبكات التواصل الاجتماعي سبيل إلى البناء الإيجابي للإنسان

ذكرنا من قبل أن لكثرة الارتباط بشبكات التواصل الاجتماعي تأثيراً كبيراً في تشكيل النفسيات، وتبين لنا أن ثمرات ذلك التأثير تكون تبعاً لجنسه؛ فمن كان ارتباطه بالسيء من المحتويات ظهرت عليه المساوئ كلها، فاقصده إياه من كل فج عميق. ومن كان ارتباطه بالإيجابي منها جاءت ملامحه من جنس ما تشبّع به. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (58) ﴿الأعراف: 58﴾.

ولما كانت شبكات التواصل الاجتماعي تحبل بهذه الموارد المختلفة؛ خيراً وشرّاً، وكانت تجود على مستهلكي ما يروج فيها بعطائها المتباين المذاقات في كل حين، فإن المرء إذا ركن إلى الإيجابي من محتوياتها، فإنه يكون قد لجأ إلى الركن الشديد الذي تنقوى به أركان الصلاح فيه، وتصبح ملامح الخير في وجهه مشعّة؛ بهجة ونضارة.

فإذا طلع عليه مشهد من المشاهد المتطفلة غير السوية التي يُتعمد عرضها، يُعرض عنه إلى غيره؛ فلا يستهويه إغراء، ولا يشده إليه تهكّك، ولا يتتبع الرذائل وقد اتخذت من فيافي الاختلال الخلقي ومفازاته مراتع خصبة. ولذلك، فإنك كلما تفقدته لن تجده إلا في مواطن الخير التي تبني ولا تهدم، وتصلح ولا تفسد، وتدل طالبها على ما يحقق به إنسانيته ويخدم به مجتمعه.

إن تخير محتويات الصلاح في كل مرة، إذا كان سبيلاً دالة على خلق القائم به، فإنه يعد مادة بناء إيجابي سليم؛ حيث تزيد المرء قوة إلى قوته، وصلاًحاً إلى صلاحه، فيستقي منها ما ينفع ولا يضر. فلا تراه إلا مصطحباً لأقوال الدعاة، ولا تجده إلا متأبطاً لحكم الحكماء الإيجابيين، ولا تلفاه إلا متمسكاً بتوجيهات الراشدين.

فإذا تم ذلك كله مطبوعاً بطابع الكثرة، فإنه ما يلبث أن يصبح مورداً ثراً تتمثل به الأفكار والمعارف، ويُنطلق فيه من مستويات المحاكاة. وبفعل الدربة والمران وكثرة

المعاشرة يشتد عوده ويستوي على سوقه، وينطلق في أرض الله يزرع الخير ويرشد الناس إليه في كل مكان.

إن علاقة المرء بشبكات التواصل الاجتماعي في هذا الجانب تغدو شبيهة بعلاقة الآدمي، لما يولد، بوالديه اللذين يتدخلان في صياغة اعتقاده، مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: ”مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ“⁽¹¹²⁾. فالأطفال، لما يولدون- حسب عبارة ابن بطال في شرحه صحيح البخاري- يولدون ”على تلك الخلقه التي لم يظهر منها إيمان ولا كفر، لكن لما حملهم آبائهم على دينهم، ظهر منهم ما حملوهم عليه، من يهودية أو نصرانية“⁽¹¹³⁾.

فالملاحظ اليوم أن الشبكات أصبحت تقوم بأدوار الآباء والمربين، بعد أن فرط هؤلاء في وظائفهم التربوية التي يجب عليهم أن يقوموا بها؛ حيث وجدت الفضاء المكاني فارغاً من كل مسؤول أو مراقب، فقدمت محتوياتها المغرية بطرائقها التي تشد البصائر قبل الأبصار، فانساق الناس نحوها يلهثون بلا تريث ولا اتزان، فلا ينجو من تبعاتها إلا من كان راغباً في أن يكون ذا بناء إيجابي فيتشبث بكل إيجابي منها.

• المطلب الثاني: الارتباط الإيجابي الدائم بشبكات التواصل الاجتماعي يُكسب تمثل الصفات الخلقية الحميدة

ذكرنا أن الارتباط الإيجابي بمحتويات شبكات التواصل الاجتماعي سبيل موصلة إلى البناء الإيجابي للإنسان. وهذا الأمر يشمل كل جانب من جوانب شخصيته؛ علماً وخلقاً ومهارات. وفي جانب من هذه الجوانب، ينصرف إليه اهتمامنا في هذه الآونة، محدداً في تمثل الصفات الخلقية الحميدة، نجد المرتبط إيجابياً بشبكات التواصل الاجتماعي يحقق نقلة نوعية في مستوياته الخلقية، فينأى بنفسه عن كل القبائح والفواحش، ويفر بأخلاقه من الكلمة الخبيثة إلى الكلمة الطيبة، مهتدياً في ذلك كله

112. رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الضيف فمات، هـن يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَن يُعْرَضُ عَلَى الضيفِ الْإِسْلَامَ، رقم: 1359، 2/ 95. ومسلم في كتاب القدر، باب مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَكَمْ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَأَطْفَالِ الْمُشْلُوبِينَ، رقم: 2658، 4/ 2047.

113. شرح صحيح البخاري لابن بطال، 3/ 372.

بما انطبع في ذهنه مما أمدته به هذه الشبكات، وترجم إلى سلوك حياتي معيش؛ أقوالاً وأفعالاً، ومقتدياً بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه "لَمْ يَكُنْ فَاحِشاً وَلَا مُتَفَحِّشاً"⁽¹¹⁴⁾، وساعياً نحو أن يكون مشمولاً بصفات المؤمنين، مصداقاً لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حيث نفى عن المؤمن أن يكون صاحب أخلاق سيئة، فقال: "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ"⁽¹¹⁵⁾.

إن انصراف المرتبط بشبكات التواصل الاجتماعي عن محتويات مساوئ الأخلاق يكون مردوده إيجابياً دائماً؛ حيث تتحقق لديه به مجموعة استشرافات مستقبلية تحثه على التزام الأخلاق البانية ذات المردود الذي لا يقابل بمردود آخر إلا فاقه وعلاه. إنه البشرى النبوية التي زفها أبو الدرداء إلى كل ذي خلق حسن، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ"⁽¹¹⁶⁾. بل إن البشرى لتعظم لما يروي عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً"⁽¹¹⁷⁾.

وإذا كانت الصفات الخلقية الحميدة التي يمكن أن يكتسبها المرء من شبكات التواصل الاجتماعي لا تعد ولا تحصى، فإن مما يرتبط منها بموضوع الحد من الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني هو ما يمكننا حصره في الفقرات الآتية:

أ. التزام الصدق في القول:

الصدق قيمة ثمينة تبقي الحياة في وضعها الطبيعي الذي إذا اتخذت فيه أحكام ومواقف تخص ما يجري فيها من أحداث، فإنها تكون منسجمة مع الحقيقة. ولنتخيل مجتمعاً شاعت فيه قيمة الصدق، فتمثلها الصغير والكبير، فإن كثيراً من

114. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم: 3759، 28/5، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كَثْرَةِ حَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم: 4231، 4/1810.

115. رواه الترمذي في البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي اللَّعْنَةِ، رقم: 1977، 4/350، وأحمد 6/390.

116. رواه أبو داود في سننه، في كتاب الأدب، باب فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، رقم: 4799، 4/253، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، والترمذي في البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، رقم: 2002، 4/362، وأحمد، 45/509.

117. رواه الترمذي في سننه، في البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي مَغَالِيهِ الْأَخْلَاقِ، رقم: 2018، 4/370.

الخصال غير السوية تنهار وتباد؛ فلا كذب، ولا افتعال أقوال وأفعال تضر بالآخرين، ولا توجيه خطاب عام أو خاص تجاه فرد أو جماعة للنيل منه، ولا حقد ولا بغضاء ولا كراهية. فتكون الحياة نعيماً سرمدياً، ويكون العيش فيها رغداً وعطاء غير مجذوذ.

إن الاطلاع على شبكات التواصل الاجتماعي يبدي أن الصدق فيها نادر؛ فكم من صور شوّهت، وكم من أقوال وضعت وضعا؛ زوراً وبهتاناً، فتوجهت الإنسانية في هيجان، بعد أن تألبت قلوبها ضدّاً على جهة من الجهات للقضاء على الحياة في أرضها، فأصبحت الجهة المستهدفة أرضاً يباباً كأن لم تغن بالأمس.

ولكن الارتباط بالإيجابي منها يرسخ قيمة الصدق لدى الإنسان، فإذا نقل خبراً، فإنه لا يزيد فيه ولا ينقص منه، ولا يحرف ولا يبدل. فإذا كان الأمر كذلك، وتمثل المرء هذه القيمة ورسخت لديه رسوخاً إيجابياً، فإن أحداثاً سلبية كثيرة في المجتمع الإنساني لن تكون، وكم من إراقة دم لن تسقى بها الأرض.

ب. التحرر من التبعية:

تجهز التبعية للآخرين على كثير من حصون الشخصية، فلا تبقىها مستقلة، ولا تمنحها التميز بلامحها الخاصة. والملاحظ أن الخطابات في شبكات التواصل الاجتماعي تبدو في شق واسع منها محكومة بهذه الصفة؛ فمعاملة الخلان، ومناصرة أولى القراة الفكرية، تجعل المرء يصرح بما لا يعتقد فيه، أو بما يبذل فيه قصارى جهده لإرضاء من يعتزم مجاملته أو مناصرته.

والارتباط الإيجابي الدائم بشبكات التواصل الاجتماعي يمكّن المرء من التحرر من هذه التبعية المقيتة التي تجعله يقول ما لا يعتقد فيه، فيُظهر خلاف ما يبطن، ويعادي ما لا يدرك حقيقته، إبداء لودّ، قد يكون صادقاً وقد لا يكون، وإرضاء لمعسكر قد يكون على حق وقد يكون غير مالك من الحق ولو قيد أنملة.

لقد وصف القرآن الكريم هذه الروابط غير السوية ورسم مآلاتها غير المرغوب فيها، فقال سبحانه: ﴿وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21)﴾. (إبراهيم: 21). وبالنظر إلى أن

هذا المشهد سيتحقق حتماً، فقد عدلَ عَنِ الْمُضَارِعِ إِلَى الْمَاضِي- كما يوضح ذلك الشيخ الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير- ”لِلتَّنْبِيهِ عَلَى تَحْقِيقِ وَقُوعِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ“⁽¹¹⁸⁾، فقال: ”وبرزوا“، ولم يقل: ”ويبرزون“. وقد ”جِيءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِوَصْفِ حَالِ الْفِرْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمُجَادَلَةِ أَهْلِ الضَّلَالَةِ مَعَ قَادَتِهِمْ (...) وَالْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ تَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى تَذَارُكِ شَأْنِهِمْ قَبْلَ الْفَوَاتِ. فَالْمَقْصُودُ: التَّحْذِيرُ مِمَّا يُفْضِي إِلَى سُوءِ الْمَصِيرِ“⁽¹¹⁹⁾.

وتحمل الصورة الكلية في جانب من جوانبها الإحساس بالفاجعة بعد فوات الأوان؛ فالاتباع يصطرخون على ما قدموا من تبعية أفقدتهم كينونتهم في الدنيا. وها هي الآن تجعل مصيرهم محاطاً بالمآسي من كل جانب في الآخرة. ويقول الله تعالى بشأنها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: 167).

فإذا عرف المرتبط بشبكات التواصل الاجتماعي ما ينتظر من ينفق خطابه في السباب أو الفحش أو تأليب القلوب أو إثارة النعرات، استجابة لجهة من الجهات، أو تغليباً لطرف معتمد على طرف مظلوم، أو دخولاً في مناقشة لم يتجمع لديه ما تقوم عليه من أدلة وحجج، فإنه يعدل عن كل خطوة يخطوها المغرر بهم في هذا الباب.

ج. التحلي بخلق التبيين:

معظم ما يروج في الشائكة من أخبار وأقوال ومواقف يحتاج إلى تمحيص وتحقق وتقليب لأوجهه من أجل التبين فيه. وشبكات التواصل الاجتماعي تحديداً تحبل بالأقوال الزائفة والمواقف المنحرفة التي تستهدف جهات بالعداوة والبغضاء وتأليب القلوب تجاهها.

والمرء اللبيب لا يقبل ما يلقي إليه؛ غثاً وسميناً، صحيحاً وسقيماً، من غير تبين؛ فهو يصطحب معه جهاز الغريزة الذي ينقد الكلام ويكشف عن زائفه وعن صحيحه

118. التحرير والتنوير: ”تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد“، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، 13/ 215.

119. المرجع نفسه.

حتى لا يتبع كل ناعق، ولا يردد ما تناهى إلى سمعه من صيحات. فالأمر جد وقد تبني عليه مواقف وأحكام يظلم فيها قوم فيُقَصَّون ويبعدون، أو يسجنون ويعذبون، أو تزهد أرواحهم فنذهب سدى في ما ذهبت إليه أرواح الذاهبين ظلما وعدوانا.

إن الأمر ليس تشدداً في اتخاذ المواقف، وليس جموحاً في بناء الأحكام، ولكنه أمر شرعي صادر عن الله تعالى، فقد قال في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (6). (الحجرات: 6). وهو خطاب شرعي موجه إلى جماعة المسلمين، مؤسس على تنبيه يستهدف العقول ويوجهها نحو التريث وإعمال العقل وقراءة المؤشرات وتمحيص الأخبار، قبل اتخاذ أي قرار. فالدعوة فيه تدل "على ترك السكون إلى خبر الفاسق إلى أن يظهر صدقه" (120).

فإذا كان المرء مرتبطاً بشبكات التواصل الاجتماعي ارتباطاً إيجابياً وثيقاً دائماً، فإن ارتباطه يكون له مردود إيجابي عظيم؛ حيث ينمو لديه خلق التبين الذي يحول بينه وبين أن يردد ما نطق به غيره من غير تمحيص ولا تدقيق، أو أن ينساق مع الموجات التي توجهها الأيدي المغرضة من أجل إلحاق الأذى بجهات مخصوصة من الناس.

د. اجتناب الظلم بأنواعه:

كثيراً ما تطلع علينا من أقوال الناس، في شبكات التواصل الاجتماعي، أقوال منحرفة بعيدة عن التعامل الإنساني الرشيد، ظناً من أصحابها أنهم محررون من كل التبعات. وإذا كانوا كذلك في الحياة المعيشة، فإنهم غير ذلك في الحياة الأخروية؛ فكل ما يلفظ من أفواههم هنا سيسألون عنه هناك، لقول الله سبحانه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (18) ﴿ق: 18﴾. وكل ما يخطونه بأيديهم على الشابكة وعلى غيرها ستكون أيديهم شاهدة عليهم فيه، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (65) ﴿يس: 65﴾.

120. لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هواز بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 3، 3/ 439.

وقد يظن ظان أن الظلم لا يشمل ما يكتب ولا ما يلفظ، بدعوى أن المرء إنما يقول كلاماً. وهو ليس أفعلاً تمس الأجساد أو الأموال والممتلكات، فينسى أن التنبيه الإلهي الكريم يشمل كل اعتداء يمس الآخرين؛ فقد سلك المسلك نفسه قوم من قبل فقال الله تعالى عنهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65)﴾ (التوبة: 64-65).

بل إن رب العزة سبحانه كان قد أعلن في العباد جميعاً أنه قد حرم الظلم على نفسه وأمرهم ألا يتظالموا، فقد روى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا"⁽¹²¹⁾. وأصل الظلم- حسب ما يذكره ابن عبد البر في التمهيد- "وَضَعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ. وَمَنْ أَضَرَّ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَوْ يَمَنْ لَهُ ذِمَّةٌ فَقَدْ ظَلَمَهُ"⁽¹²²⁾.

فإذا رسخ هذا التوجه في نفس المرتبط بشبكات التواصل الاجتماعي ارتباطاً إيجابياً، فإن صور الظلم تصير في نفسه صوراً مهولة مفزعة، فيخاف تبعاتها الدنيوية والأخروية. ومن ثم، فإن الارتباط الإيجابي بشبكات التواصل الاجتماعي يحقق مردوده، فلا تجد فيها خطاباً منحرفاً، ولا تسمع فيها رِكْزاً لما يَصُكُّ الأذان بصليِّله، ولا لما يُعَكِّرُ صفو الحياة بخيِّله ورجِّله.

• المطلب الثالث: دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش نتيجة للاستعمال الإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي

إن اكتساب الصفات الحميدة الذي أشرنا إليه في الفقرات السابقة أمر واسع؛ فكل صفة من الصفات التي يمكن أن تسهم في بناء الشخصية بناء مسلماً لا شيء فيه،

121. رواه مسلم في كتاب الأَلْبَرِ وَالصَّلَاحِ وَالْأَدَابِ، باب تحريم الظُّلْم، رقم: 2577 / 4، 1994، والبيهقي في شعب الإيمان، معالجة كل ذنب بالتوبة، رقم: 6686، 9 / 300.

122. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ، 20 / 158.

تدخل في ما نرمي إليه. وإن شبكات التواصل الاجتماعي تدخل في تشكيلها جميعاً. وفي هذه الفقرات نحب أن نقلّص تعدد تلك الصفات واختلافها، كما نحب أن نصيّق فضاءها حتى تنحصر في صفة الميل نحو نبذ خطاب الكراهية والانشداد إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك.

إن رأس بناء هذه الصفة وتشكيلها في النفوس يتمثل في سلامة الصدر وعافية النفس من حب إيذاء الناس والحرص على ما يضرهم ولا ينفعهم. وهو أمر قريب غير مُستعص، ولا سيما إذا كان ارتباط المرء بالإيجابي من المبتوث في شبكات التواصل الاجتماعي، فيتزود به، ويغذّي به روحه في كل آونة، ويحاكيه حتى يستوي على سوقه فيه.

إن الأمر علمٌ وِلمٌ يقتضيان ترويضاً للنفس، كما يقتضيان التذكر بعد السقوط في الخطيئة، وتدريب النفس على أن تستسيغ التقدم بطلب الاعتذار من الجهة التي ترى أنها أخطأت في حقها؛ بالقول أو بالفعل. وهو ما يدخل في معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم، في ما رواه عنه أبو الدرداء، فقال: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ"⁽¹²³⁾. بل إن الأمر قدرة على التحكم في النفس حين استشعار الوقوع في الخطيئة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"⁽¹²⁴⁾.

فحينما تصير شبكات التواصل الاجتماعي مغذية للاستعدادات النفسية التي يكون المرء قد اكتسبها منها ومن غيرها، ممدّة لها في كل زيارة وفي كل تردد على

123. رواه الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، في المعجم الأوسط، باب الألف، من أشرف إبراھيم، رقم: 2663، 3/ 118، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، والبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخشروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، في شعب الإيمان، في ما بلغنا عن الصحابة، في معنى ما تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 10254، 13/ 236، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية بومبيي، الهند، ط 1، 1423هـ- 2003م.

124. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلّها له، هل يبيّن مظلمته، رقم: 2449، 3/ 129، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شأن الجشابي والقصاص، رقم: 2419، 4/ 613، وأحمد، 15/ 377.

صفحاتها وحساباتها ومواقعها، فإن عطاءها يصير عطاءً عجباً؛ ذلك، لأن ما نستهدف إصلاحه، متمثلاً في إزاحة خطاب الكراهية وإبعاده من الدواخل النفسية للإنسان، حين يجد مضاداته الحيوية القادمة إليه في كل حين من خلال المحتويات المتنوعة التي توجد بها هذه الشبكات فإنه لن يبقى من دَرَنِهِ شيء يذكر. وهو ما يجعل أثرها على الخطاب الدعوي واضحاً جلياً، فيُدحر ما يستهدف دحره، ويُعزّز ما يُراد تَعزِيزُه.

المبحث الثالث: شبكات التواصل الاجتماعي جسر واصل بين الدعاة وبين الجماهير

• المطلب الأول: إنجاح الخطاب الدعوي يستلزم الانعتاق من طابع التقليد في الدعوة

خضعت الحياة لتبدلات وتحولات كثيرة جداً، فأصبح ما كان يشد الألباب إليه شداً غير مؤثر البتة، وأمسى ما كان يستقر في القلوب استقراراً حسناً مدفوعاً بالأبواب. ومن ذلك، التحولات التي غدا الخطاب الدعوي يعرفها بسبب مستجدات الحياة وظهور ما لم يكن ظاهراً فيها من قبل.

ومما يرتبط بما نحن فيه، أن نجد الخطاب الدعوي الذي كان يؤدي على المنابر والكراسي العلمية في المساجد؛ فكان الجمهور محصوراً في من يرتاد المسجد ويحضر حلقة الدرس، قد فتحت له الأبواب، ومنحت له الإمكانيات التي تؤهله لأن يؤدي وظيفته، فيسمعه من لم يحضر حلقة الدرس، ومن لم يدخل المسجد قط.

ولكن رغم ما يُبسط للدعاة من إمكانيات جادت بها تحولات الحياة، تمكنهم من أداء وظيفتهم على الوجه المطلوب، إلا أن استثمارها من لدنهم ما زال لم يبلغ ما ينبغي أن يبلغه في توجيه الناس إلى الخير وحثهم على اجتناب الشر ما ظهر منه وما بطن. ويرد على رأس ذلك كله مكافحة خطاب الكراهية من أجل دحره ومحوه، وتعزيز التعايش الإنساني المشترك من أجل تثبيته ونشره. فالإحصاءات تشير إلى أن حضور الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي ما زال ضعيفاً مقارنة بغيره من المواقع التي تمتح من ثقافات أخرى؛ فالمواقع التنصيرية مثلاً تزيد على المواقع الإسلامية بنسبة 1200%، وتليها المواقع اليهودية⁽¹²⁵⁾.

إن الشر يتكثل، وإن خطاب الكراهية يجد مراتع خصبة يوصي أصحابها أشباههم بأن يجمعوا أمرهم وشركاءهم، من أجل تقديم المزيد من اللكمات للإنسانية ودفعها

125. أثير الإعلام في نشر الدعوة الإسلامية، لؤي عبد الحميد شنداخ، منشورات شبكة الألوكة، 26.
وهو متوفر على الرابط: <https://www.alukah.net/culture/0/99316> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/09.

للتنافر والتدابير⁽¹²⁶⁾. فقد وجدت على مواقع التواصل الاجتماعي قنوات وصفحات وحسابات توجه خطابها إلى الفئات الاجتماعية المختلفة من أجل تصيّد من اختلّت شروط التقصي لديه، وانحلت بنية الرغبة في التبئّن في ذهنه. وهو الأمر الذي لم يُبق الساحة فارغة من المناوئين الذين يستهدفون حصون الإنسانية ليل نهار، فسادت جماعات المكر والتربص والتوجيه نحو ما تتحقق به العداوة والبغضاء بين بني الإنسان، فأصبحت ممارسة الدعوة على هذه الشبكات فريضة واجبة⁽¹²⁷⁾. حسب عبارة عبد التواب محمد عثمان في بحثه الموسوم بأخلاقيات التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي في الكتاب والسنة.

إن الشر إذا تكتل وكان يريد، بتكتله، بالإنسانية مكرّاً، فإن واجب ممثلي الخطاب الدعوي أن يسلكوا المسلك نفسه، ولكن لتوجيه الإنسانية نحو الخير، وإذا كانت صيحات أهله تجوب الآفاق فتصم الآذان، فينادي بعضهم بعضاً، ويدل الواحد منهم الآخر على المداخل التي تحدث الثلوم في بنيان الإنسانية المتداعي من كل جنباته، بالرفع من صبيب الكراهية، تجاه مكوناتها وثقافتها وأديانها، فإن الواجب أن يحقق الدعاة التقارب بينهم من أجل إصلاح ما أفسد الناس، وإزاحة أكوام الكراهية التي تراكمت في القلوب فأصبحت تحجب سعة آفاق الأخوة الإنسانية، ما دام ما يوحد الإنسانية أكبر مما يفرق بينها، وما دام ما يجمعها أكثر مما يجعلها أوزاعاً مقسمة، وأطرافاً متناثرة ممزقة كل ممزق.

إنه لا يوجد جسر أرحب صدرّاً، وأكثر اتساعاً، لممارسة الخطاب الدعوي، من الشابكة، ومن شبكات التواصل الاجتماعي تحديداً. فهي التي تمنح الدعاة القدرة على

126. من نماذج الدعوة إلى التنسيق والتكتل من أجل تثبيت خطاب الكراهية، ما عرضه حامد عبد الصمد وهو يحاور صاحب قناة "كافر مغربي" في أول ظهور إعلامي له حول أسباب تركه للإسلام بعد أن كان عضواً في جماعات إسلامية! ويذكر مجموعة قواسم مشتركة بينهما، تدعوها إلى التعاون والتعاقد. وهي المتمثلة في التحاقهما بألمانيا سنة 1995، قادمين إليها من بلدين مختلفين: مصر والمغرب، وخروجهما معاً من دين الإسلام سنة 2006.

ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=NU2WSAukv64&ab_channel=Hamed.TV

تاريخ الاطلاع: 2020/09/09.

وتنظر أيضاً نماذج عن خطاب الكراهية الصادر عن كريستوف ديلوار، وكريستوف ديولا، خلال ندوة: "الإسلاميون موجودون بالفعل". ("Christophe Deloire et Christophe Dubois "Les islamistes sont déjà là").

ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=T3AgqOAnx0g&ab_channel=InaTalkShows

تاريخ الاطلاع: 2020/09/05.

127. أخلاقيات التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي في الكتاب والسنة، عبد التواب محمد عثمان المدرس بالأزهر، وقف جائزة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري، نظارة رئيس هيئة قضايا الدولة، مصر، 54-55.

أن يبلغوا ما يريدون من غير تكميم أفواه، أو مراقبة أقوال. فإذا كان الدعاة مؤهلين في ما ينبغي أن يحيطوا به من شروط؛ علماً وسمتاً، فإن شبكات التواصل الاجتماعي تغدو الجسر الواصل بينهم وبين الجماهير المختلفة؛ حيث يصل خطابهم إلى الملايين في كل مكان على سطح الأرض- كما يشير إلى ذلك لؤي عبد الحميد شنداخ، في بحثه الموسوم بأثر الإعلام في نشر الدعوة الإسلامية- ”على اعتبار أنها وسيلة من الوسائل الحية في هذا العصر، وأنها تحظى بقبول جيد، وانتشار كبير، وتفاعل إيجابي من الملايين الذين يقبلون عليها في أرجاء العالم“(128).

فإذا وجدت العزائم المخلصة في دعوتها، التي لا يهملها من الأمر شيء إلا أن ينشر دين الله وتنصر سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتلتزم، في ذلك، الأخلاق الحسنة الداعية إلى حب الخير لبني الإنسان، والرامية إلى إمطة الأذى عن طريقهم مما يعكر صفو حياتهم بالأحقاد والضغائن والكراهية القاتلة، فإن الأبواب تصير مشرعة، والقلوب تغدو مفتحة، والخطى تبدو محثوثة نحو الانضمام إلى صف دين الله الذي تسعد به الإنسانية أنى حلت، وتزاح عنها منغصاتها أنى وجدت.

وعالم الشابكة، وشبكات التواصل الاجتماعي تحديداً، يحبل بالشواهد التي تلوح فيها الأفواج وهي مقبلة على التزام المحجة البيضاء؛ فتلوح وهي آتية بقلوب مفعمة بالفرحة، مستبشرة بالانتماء إلى طريق الرشاد. وقد كان سبب دخولها الإسلام متابعتها ما يعرض في شبكات التواصل الاجتماعي على اختلافها، وليس زيارتها لبلاد المسلمين، ولا حضورها دروس الدعاة في حلقاتهم، وإنما كان الأمر بمشاهدة صورة على صفحات الفيسبوك، أو فيديو معروض في اليوتيوب، أو تعليق عابر مؤثر في حسابات تويتر أو الإنستغرام، فلم يُلَقِ له صاحبه بالاً، ولكن أثره كان عظيماً في نفوس من لم ينطبع ذهنه بالزَّان الذي يفوّت علينا كثيراً من الحقائق.

إن إنجاح الخطاب الدعوي لا يتحقق بالخطب الجوفاء، ولا يرى النور بالإرعاد والإزباد، ولكن يصير مرئياً رأي العين إذا جعله الدعاة أمانة يستحضر فيها رب

128. أثر الإعلام في نشر الدعوة الإسلامية، لؤي عبد الحميد شنداخ، منشورات شبكة الألوكة، 34.

العزة سبحانه ويبعد من حضرته الانشداد إلى الذات؛ فالأمر جد، والقول فيه أمانة، والحرص على المردود الإيجابي مقصد، والعودة بالإنسانية إلى تعزيز تعايشها الإنساني مسؤولية من أعظم المسؤوليات.

• المطلب الثاني: وجوب تمثّل الدعاة ما يؤثر على المقصودين بالخطاب الدعوي

لا يراد الخطاب الدعوي لذاته، ولا ينبغي أن يطلب من أجل تسجيل الإعجابات أو التعليقات على شبكات التواصل الاجتماعي، ولكنه ينبغي له أن يتماهى مع الشعور بالمسؤولية الملقاة على كواهل الدعاة من أجل إصلاح الفاسد في الحياة، والعودة بالإنسانية جمعاء إلى رشدّها؛ حيث يزاح التنافر، ويباد التدابر، وتسود الأخوة البانية التي تجعل كل واحد من الناس يشعر أنه على ثغرة لا ينبغي له أن يؤتى منها حتى لا يلحق الإنسانية الضرر.

فإذا ساد هذا الشعور النفوس، واهتم به الدعاة تحديداً، فأنئذ تكون الإنسانية قد فتحت الباب ووضعت رجلها في الركاب، بغية أن يتحقق المراد من خلقها؛ حيث كان خلقها لإعمار الأرض وتحقيق خلافة الله فيها، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)﴾ (البقرة: 30). ولن يكون ذلك بالحق والمقت والبغضاء والكراهية ونشر السم الزعاف بين الناس.

إن المرام من هذا الشعور أن تكون الإنسانية في وضع حسن مريح. ولكي لا يبقى هذا الخطاب حروفاً مخطوطة، أو عبارات ملفوظة، فإنه يتوجب أن تتحقق شروطه، حتى يصير مرئياً رأي العين، وتغدو ثمراته شاملة أرض الله كلها. وإن الذي يرد على رأس تلك الشروط كلها وجوب تمثّل الدعاة لثقافة المقصودين بالخطاب الدعوي، حتى لا يذهب الخطاب الدعوي هدرًا، ويضيع الجهد فيه سدى. ومن تلك الشروط ما نوره في الفقرات الآتية:

أ. اختيار الموضوعات المناسبة التي تدعو إليها أحوال الناس:

إذا كان المراد من الخطاب الدعوي أن يؤثر ويؤتي أكله كل حين، فإنه ينبغي أن يكون قريباً من المشكلات التي تعيشها الإنسانية، ولا سيما تلك التي تحول بينها وبين أن تنطبع بالطابع الإنساني الذي يجعل بني الإنسان مجتمعاً واحداً. وهي المتمثلة في سيادة التفكك بين مكوناتها وأطرافها، وفي انتشار شرارات البغضاء القاتلة في أديم سمائها؛ ذلك، لأن إصلاح العلاقات بين مكونات الإنسانية جمعاء يتأسس عليه إصلاح كل شيء؛ حيث ينمحي التربص، وتنصرف النفوس باهتمامها نحو البناء الإيجابي الذي يجعل صرحها الاجتماعي كالبنيان المرصوص.

فاختيار الموضوعات التي تحتاج إليها الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي يسهم إسهاماً سليماً في ترميم الثلوم المهدمة من حصون النفسيات التي تعاني معاناة واقعة في أحد اتجاهين؛ فإما أن يكون الاتجاه اتجاهاً مرضياً يدل على تمكن صفة السادية من نفس متلقي الخطاب، فتُشاهد مروّجة لخطاب الكراهية في كل المحافل، مثيرة في نفسيات متلقي خطابها ما يوجههم نحو ضحيتها، سواء أكانت فرداً أم جماعة. وإما أن يكون الاتجاه اتجاهاً مرتبطاً بالضحية التي يوجه نحوها خطاب الكراهية، فتعاني معاناة شديدة تتخذ صوراً مختلفة تتنوع بين العزل والإقصاء والتهميش والقطيعة، قبل أن تتطور علاقاتها بمستهدفاتها إلى اتخاذ أشكال أخرى من الاعتداء.

ولكن، يبدو أنه في الحالين معاً، يكون اختيار الموضوع الرامي إلى مناهضة الكراهية وتقديم علاجات مناسبة لها، هو بداية صناعة الحلول المناسبة للأزمة الإنسانية المرتبطة بهذا الأمر الشائك. ومن ثم، فإن الفئتين معا تجدان في الموضوع المختار ضالتهما؛ فإذا كانت الفئة ممارسة لخطاب الكراهية فإن المصلحين يجدون الفرصة لتوجيهها نحو الالتزام بما يخدم الإنسانية وما يعزز تعايشها الإنساني المشترك، فيكون الإصلاح والكراهية في اتجاهين متعاكسين، ولكن بفعل الإصرار ومواصلة المسير والحرص على بيان الحقائق والكشف عن القواسم المشتركة الجامعة بين بني الإنسانية تتوضح الرؤية لمن نزلت على عينيه الغشاوة. وإذا كانت الفئة ضحية، فإنها تجد الخلاص مما هي فيه من ضنك وشدة وتأليب قلوب. ومن ثم، فإن

الخطاب الدعوي الذي ينبغي أن يوجه إلى الفئة المتغترسة ينبغي أن يكون حاملاً ملامح مخالفة للملامح التي يتميز بها خطاب الفئة المستضعفة، بل إن الخطاب الذي يستعمل في مخاطبة فئة عامة لن يكون البتة هو الخطاب الذي يقصد به الأميون، والخطاب الذي يخصص للشباب ليس هو الخطاب الذي يوجه للشيوخ والكهول. وأننذ، يحق لنا القول بأن الخطاب الدعوي يستخدم استخداماً معبراً "عن الحاجات التي يدركها أعضاء الجمهور، ويسعون باستمرار إلى تحقيقها"⁽¹²⁹⁾. كما يعبر أحمد خميس خليل في بحثه الموسوم بمضامين الإعلام الشبكي وعلاقتها بالهوية الثقافية.

ب. اعتماد الإخراج الحسن:

للإخراج الحسن في شبكات التواصل الاجتماعي أثر كبير على نفسيات المتابعين. فقد صار ذلك مطلباً من المطالب التي تميل نحوها أنفسهم، وتعشقها عيونهم، وتنشد إليها أفئدتهم، حتى إننا لنراه مدخلاً مهماً من المداخل التي إذا استثمرت كان لها مردود جليل في الوصول إلى البغية المنشودة من موضوعنا هذا. فكم من الناس من يستهويه الإخراج، فيتابع ما يعرض عليه ويقبل عليه إقبال المتعلق المعجب. وحتى إذا وقع في العمل الذي بين يديه شيء مما يسبب له نقصاً أو يدفع المتلقين إلى الانتقاص من قدره، فإنه يسارع إلى جودة الإخراج ملتماً فيها ما قد يشفع له.

والحق، إن مادة تشتمل على محتوى عميق وقول دقيق صادر عن امرئٍ مشارٍ إليه بالبنان، مبدع في مجال تخصصه، تكون أهون قدراً، وأضعف شداً للأبصار، إذا لم تتمتع بإخراج مناسب، من مادة لا تبلغ قيمة محتواها معشاً قيمة ما اشتملت عليه رديفتها، ولكنها تتمتع بإخراج راق وإضاءة مناسبة وصوت مسموع.

فلو أن الدعاة أدركوا قيمة ما بحوزتهم، فسخروه مقروناً بشرط حسن الإخراج من أجل التأثير في تصورات الفئات المستهدفة بخطاباتهم، لكان لخطابهم الدعوي شأن آخر في صناعة العقول، فتميل عن خطاب الكراهية إلى الحرص على تعزيز التعايش الإنساني المشترك. ولا سيما إذا كان حامل الدعوة ممن يشار إليهم بالبنان؛

129. مضامين الإعلام الشبكي وعلاقتها بالهوية الثقافية (دراسة ميدانية للمجتمع الطلابي بالجامعات العراقية)، أحمد خميس خليل، مجلة علوم الإعلام والاتصال، السنة الثانية، العدد 3، ديسمبر 2019. وهو متوفر على الرابط: <http://diraset.com/node/130> - تاريخ الاطلاع: 2021/02/06.

قولاً وفعلًا. فإذا اجتمع حسن القول وصحة الفعل وجمالية العرض فإن البغية تتحقق، وإن الردود يكون له شأو غريب.

ج. الاجتهاد في التقاط عناصر قوة الإخراج:

هذه الفقرة لها ارتباط وثيق بالفقرة السابقة، فهي تختص بأمر قد تتضمنه الأولى وقد تندُّ عنه، إلا أننا أحببنا أن نخصها بالحديث حتى نعمق القول في جانب من جوانبها الأساسية. وهو المتعلق بصاحب الخطاب؛ فصاحب الخطاب له أثر بالغ على نجاح مهمته أو فشلها. وليس عبثاً أن نجد كتب النقد؛ قديماً وحديثاً، خصصت له حيزاً غير يسير من مظاهرها، بغية أن ترشد أرباب فن القول والمتعلقين به إلى أيسر الطرق في أدائه، وأكثرها مردوداً حين إلقائه.

إننا نميل إلى الرأي الذي يرى أصحابه أن المرء لا يُلام على قول لم يقله، ولكنه يتحمل مسؤوليته لما يَنْبَري له؛ فإن كان أدأؤه على الوجه المطلوب فهو له، وإن كان غير ذلك، فإنه يُرَدُّ عليه. ولذلك، فإن الأولين كانوا يتعوذون بالله من الفتن التي تنتاب القائل؛ تعالياً وسقوطاً، سلطةً وهذراً، عيًّا وحصرًا. ولقد عبر عن ذلك أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعبارته البليغة التي يعز على كثير من الناس أن يبلغوا شأوها، في استهلال كتابه البيان والتبيين، فقال: ”اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السّلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيِّ والحصر“⁽¹³⁰⁾.

فإذا أمن القائل هذه الفتن، وهمّ بالشروع في القول أو الكتابة، فإنهم لم يتركوه هملاً، يخوض في ما يريد دون مراقبة ولا توجيه، فقد أكدوا على الاهتمام بالإخراج ليلبغ القول درجات التميز؛ طلباً لعرض الحجة، والكشف عن جوانب الدلالة، من أجل أن تصغي إليه الأذان، وتميل إليه الأعناق⁽¹³¹⁾، قبل أن يتفوه به صاحبه، فقال أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين: ”إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه

130. نقلاً عن البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، 1/ 28.

131. نقلاً عن المرجع نفسه، 1/ 31.

ببالك، وتنوِّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلُّبها“⁽¹³²⁾.

فالكلام الذي يقابل به الجمهور ينبغي أن يولَّى اهتماماً خاصاً، لأن الجمهور يحس أن الاهتمام بالخطاب هو اهتمام به وإعلاء من شأنه. وإطالة على كثير من المواد التي تكتب أو تلقى على شبكات التواصل الاجتماعي، لتبين أن نسبة ليست يسيرة منها تلقى على عواهنها؛ لغة، ومحتوى، واستحضار متلقين.

وكما أن النقاد اهتموا بالمقبل على صناعة الكلام؛ خطابة وكتابة، حين عزمه على ذلك، فقد اهتموا بتوجيهه أثناء خوضه ذلك الغمار، فقال أبو هلال العسكري: ”واعمله ما دمتَ في شباب نشاطك؛ فإذا غَشِيكَ القُتور، وتحوَّنكَ الملألُ فأمسِك؛ فإنَّ الكثيرَ مع الملألِ قليل، والنفيسَ مع الضَّجَرِ خَسيس“⁽¹³³⁾.

إن ومضات القول التي تركها النقاد في هذا المضمار كثيرة جداً. وإنهم لم يرافقوا المبدعين وأهل فن القول جزءاً من الطريق ثم تركوهم لحالهم، ولكنهم قدموا لهم خدمات جليلة لتمكينهم من تحقيق الجودة المؤثرة على المتلقي وجعله مستجيباً لما يلقي عليه. ومما يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع موضوعنا ما نجده متمثلاً في إصرارهم على اجتناب العيوب التي تهوي بمردوديات القول، وتزري بمتاعب الإبداع من كل جانب. ومن ذلك ما يتمثل في ما رواه الجاحظ من قول القائل⁽¹³⁴⁾: (الطويل)

مَلِيٌّ بِبَهْرٍ وَالتِّفَاتِ وَسَعْلَةٍ *** وَمَسْحَةٍ عُثْنُونٍ وَقَتْلِ أَصَابِعِ

فهذا القول تجد فيه شبكات التواصل الاجتماعي ضالتها، ولا سيما منصة ”اليوتيوب“ منها. فالليوتيوب- كما نعلم- يمكنها أن تقدم خدمات عظيمة للدعاة بتوظيفها الصوت والصورة. إلا أن القول ليس ملقى على عواهنه؛ فالذي ننشده من هذه المنصة في هذه الآونة، هو ما تحققه من تأثير على المتلقي.

132. الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ، 1/ 133.

133. المرجع نفسه.

134. نقلاً عن البيان والتبيين للجاحظ، 1/ 28.

لقد تشكل محتوى "اليوتيوب" من الفيديوهات. وهي التي يظهر فيها المشتغل بالخطاب الدعوي في أغلب الأحيان ظهوراً واضحاً. ومن ثم، فإن امتلاكه لعناصر التأثير على المتلقين سيكون له مردود عظيم على توجيههم الخلفي. ويرد على رأس هذه العناصر ما تضمنه البيت السابق؛ فالانبهار بالحضور، والالتفات نحوهم، في كل مرة، بما يتجاوز توزيع النظرات عليهم توزيعاً معتدلاً، والاعتقالات على السعال المتكلف، والانشغال بمسح اللحية في كل مرة، واللهو بقتل الأصابع، كل ذلك يكون له تأثير على عرقلة تحقيق المراد من الخطاب الدعوي، فيدفع المتلقين إلى الانسحاب الذهني من متابعة ما يلقي، ويجعل الكلام ذاهباً سدى في كل واد.

كما أنهم نبهوا كثيراً على انعكاسات عيوب أخرى، مثل تكرير الكلمة الواحدة في كلام قصير، والإلغاز والتعمية، وما يفقد الكلام مائه وجزالته، بل إنهم حثوا على التزام الشروط الضرورية الخاصة بإدراج القصص في الحديث. وهو أمر يُحتاج إليه في الخطاب الدعوي كثيراً لما له من تأثير بالغ على الإلقاء والتلقي على السواء. فإذا دعت الضرورة إلى سَوْقِ خَبَرٍ واقتصاص كلام- كما ينبه أبو هلال العسكري على ذلك- فإنك "تحتاج إلى أن تتوَخَّى فيه الصدق، وتتحرَّى الحق؛ فإن الكلام حينئذ يملك ويحوجك إلى اتِّباعه والانقياد له" (135).

فإذا أردنا للخطاب الدعوي، في شبكات التواصل الاجتماعي، أن يؤدي مهمته الجليلة في إزاحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإنه يتوجب على المشتغل به أن يمتلك عناصر التأثير ويبرأ من العيوب التي تفوّت عليه فرصة تثبيت ما يريد تثبيته في النفوس.

د. اعتماد الكلمة الطيبة الهادئة المقنعة:

إن النفوس، مهما كان انتمائها ومهما كانت طبيعتها، لتنتشر بالكلمة الطيبة وتميل إليها، وإن ذلك ليعد المفتاح الأول الذي تفتح به الأبواب الموصدة، وتحت به الدواخل من أجل الإقبال على ما يلقي عليها. وليس عبثاً أن تمتدح الكلمة الطيبة في القرآن الكريم، فقال الله تعالى بشأنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

135. تنظر هذه التنبيهات في مظان النقد العربي. ومنها كتاب الصنائع للعسكري، 1/ 147-149-153.

كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) ﴿﴾ (إبراهيم: 24-25).

فإذا كانت النفوس تميل إلى حب الأشجار المثمرة، المعطاءة في كل حين، الوارفة
الظلال، الضاربة بجذورها في أرض غير سبخة، الملاحقة عنان السماء، فإنها تميل إلى
حب كل ما يشبهها. وليس غريباً أن يكون ذلك متمثلاً في الكلمة الطيبة.

وإذا كان المفسرون قد تواترت أقوالهم على أن المقصود بالكلمة الطيبة هو كلمة
الإسلام أو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أو المؤمن نفسه- كما روى
ابن عطية في المحرر الوجيز- فقد ذكر أن فرقة قالت: إنها المؤمن نفسه؛ إذ إن "الكلمة
الطيبة لا تقع إلا منه، فكأن الكلام كلمة طيبة وقائلها. وكأن المؤمن ثابت في الأرض
وأفعاله وأقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماء"⁽¹³⁶⁾، إلا أن هذه الأقوال لا
تجعل الباب موصداً في وجوهنا، فيبقى مفتوحاً على مصراعيه ليشمل كل كلام طيب،
ولا سيما ما يدخل السرور على النفوس ويبهجها. ومما يدل على صحة ما نذهب إليه
قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ صَدَقَةٌ"⁽¹³⁷⁾.

فإذا كان المشتغل بالخطاب الدعوي حريصاً على أن تكون كلماته طيبة هادئة
مقنعة، مفتشاً من خلالها عن المداخل المغلقة من نفسيات مخاطبيه، طارِقاً أبوابها
بدمائة أخلاقه، ورقة صوته، وعذوبة ألفاظه، ودقة خطابه، وحرصه على ما يروي
الغليل من المحتوى الإيجابي، فإن من يتلقى خطابه ما يلبث أن يتدبر طريقته
ويتحسس أهدافه، فلا يجدها إلا أهداف خير، ليتبين له في النهاية أن صاحب الخطاب
الدعوي حريص على مصلحته ومصلحة المجتمع الإنساني من بعده. حتى إنه إذا
دعاه إلى التزام ما يتعزز به التعايش الإنساني المشترك، والابتعاد عن كل ما يخدم
خطاب الكراهية، وجده كله آذاناً مصغية لما يقول، ملبية لما يدعو إليه.

136. المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، 3/ 335.

137. رواه البخاري في الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: 256هـ)، رقم: 422، 1/
152، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 3، 1409-1989. وقد صححه الألباني. ومن جملة ما
يجمع قولنا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا عَذْوَى وَلَا طَيِّزَةَ، وَتُغَيِّبِي
الْقَالَ" قَالُوا: وَمَا الْقَالَ؟ قَالَ: "كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ". رواه البخاري في كتاب الطب، باب لَا عَذْوَى، رقم: 5776، 7/ 139، وما رواه
عدي بن حاتم حيث قال: "ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّارَ فَأَعْرَضَ وَأَشَاحَ، ثُمَّ قَالَ: "اتَّقُوا النَّارَ" ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ
حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ كَأَنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: "اتَّقُوا النَّارَ وَتَوَ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ، فَيَكَلِمَ طَيِّبَةً". رواه مسلم في كتاب
الطَّسُوفِ، باب الْحَتِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا جَابَتْ مِنَ النَّارِ، رقم: 1016، 2/ 704.

• المطلب الثالث: توجية الخطاب الدعوي نحو نبذ الكراهية وتعزيز التعايش محققاً للوظيفة الأصلية لشبكات التواصل الاجتماعي

يحيل مفهوم شبكات التواصل الاجتماعي على المحاضن المختلفة التي تمكن الناس جميعاً من التواصل والتقارب وتحقيق الدفاء الإنساني بينهم؛ ذلك لأن معنى التواصل يتمثل في كونه "عملية نقل أو منح رسائل أو توصيلها، مثل الكلمات أو الأفكار، داخل، أو بين مجموعات من الناس"⁽¹³⁸⁾.

ولكن واقع حال هذه الشبكات لا يسلك هذه المسالك الإيجابية في كل حال، ولا يدعم أواصر القربى بين بني الإنسان في كل مشهد من المشاهد. فشيوع خطاب الكراهية فيها يعمر المكان، وصداه يتردد في كل صعيد. والأمر، حقيقة، ليس عجباً؛ ذلك لأن هذه الشبكات إنما هي ملتقى لروافد كثيرة تصب فيها كل ما جادت به المواقف الإنسانية والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات.

فمرد ما يرى ويسمع في تلك الشبكات إنما هو نتاج ما يروج في المجتمع الإنساني؛ حيث إن المجتمع فقد بوصلة السير على طريق الهدى والصلاح والأخلاق الفاضلة إلا لدى من رحم ربك. فالكلام النابي والجهر بالسوء يقطعان الطرقات، والتسلط اللفظي والإكراه البدني يعمران الأماكن والفضاءات، والاعتداء بأنواعه المختلفة يرى رأي العين في كل صعيد، ولا رغبة جدية في تغيير الأوضاع نحو الأحسن تتراءى إلى الأبصار ولو من بعيد. فإذا سمع صدى ما يجري في المجتمع في كلمات فجأة عابرة، أو طلع على المتابعين مشهد في قناة بنيت لهذا الغرض بناء عن سبق إصرار وترصد، فإن ذلك لا يمثل إلا حصاداً لما زرع في التربة الإنسانية من قبل.

إن وقفة عابرة على مرجعيتنا الشرعية لتبدي أن كل اعتداء له ثمن، وأن كل حسد وكراهية توجب العقوبة التي لم تكن متوقعة ولا خاطرة على بال. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

”أَتَذَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟“

138. dictionary of mass communication and media research, a guide for students, scholars and professionals, David Demers, by Marquette Books, Printed in the United States of America, 2005, 57.

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ،

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُفْلِسُ مَنْ أُمِيتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"⁽¹³⁹⁾.

لقد وقف شراح الحديث النبوي على هذا الحديث فأجمعوا على أن الحديث النبوي ينصرف نحو تحديد مفهوم جديد لحقيقة المفلس، مؤسساً أمره فيه على أحكام الشرع في التعامل مع الآخرين؛ فالذي "يَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا"، لن يكون بمنجاة من محاسبة دقيقة تسترد بها حقوق المظلومين من حسنات الظالمين؛ حيث تكون أبواب العمل الذي تعوض به الخسارات موصدة، وتكون النفوس متلهفة للحصول على حسنات تنجيهها من المصير الأبدي الخطير.

وإذا كان الحديث النبوي واضحاً جلياً في تحديد كيفية استرداد ما لحق المظلومين من الظالمين، فإن الشراح- جزاهم الله خير الجزاء- قد أثاروا كثيراً من المداخل التي قد تستعصي على الفهم، تبعاً للسياق الذي وردت فيه. ومن ذلك ما يذكره النووي في شرحه صحيح مسلم، موضحاً الخسارة الكبرى التي يلاقيها ممارس الظلم؛ شتماً وقذفاً وأكلاً لأموال الناس واعتداء عليهم بضربهم وسفك دمائهم- وهي مراحل ترتقي من القول إلى الفعل فيقطعها خطاب الكراهية جميعاً- فيقول بعد إزاحته لمفهوم الإفلاس السائد بين الناس: "وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْمُفْلِسِ- هَذَا الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ- فَهُوَ الْهَالِكُ الْهَلَاكَ التَّامَّ وَالْمَعْدُومُ الْإِعْدَامَ الْمُقَطَّعَ فَنُؤَخَذُ حَسَنَاتُهُ لِغُرْمَائِهِ فَإِذَا فَرَعَتْ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَوُضِعَ عَلَيْهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَتَمَّتْ خَسَارَتُهُ وَهَلَكَهُ وَإِفْلَاسُهُ"⁽¹⁴⁰⁾.

139. رواه مسلم في كتاب الْبِرِّ وَالصَّلَوةِ وَالْأَذْيَابِ، باب تَحْرِيمِ الطَّلَمِ، 2581، 4/ 1997، والترمذي في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالزَّمَانِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب مَا جَاءَ فِي شَأْنِ الْجِسَابِ وَالْقَضَا، 613، 4/ 2418، وأحمد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، في مسنده، 399/ 13، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرين، إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421هـ- 2001م.

140. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، 135-136.

إنها لخسارة كبرى، وإنها لخزي وندامة، ورؤية ذلك كله رأي العين وجود بها الحديث؛ حيث تصير الألفاظ والكلمات والاعتداءات والإكراهات البدنية مقابلة للحسنات التي يكون قد جمعها المرء من هنا وهناك؛ فيكون قد ركب مراكب الخير بأنواعها؛ صلاةً وصياماً وزكاةً وأعمال بر مختلفة، ولكنها تصير لقوم آخرين حين القصاص، بعد أن يكون قد ”جَمَعَ بَيْنَ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ وَهَذِهِ السَّيِّئَاتِ (فَيَقْعُدُ) أَيِ الْمُفْلِسِ (فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ) أَيِ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ قِصَاصاً“⁽¹⁴¹⁾، كما يشير إلى ذلك المباركفوري في تحفة الأحوذى.

ولكي تتوضح حقيقة عواقب الإيذاء أكثر، فإننا نحب أن نورد إلى جانب الحديث المذكور سلفاً حديثاً آخر تظهر فيه امرأتان بعبادتيهما المتأرجحتين بين الاجتهاد والاقتصاد؛ ولكن المجتهدة منهما كانت تؤذي الجيران وتتولاهم بالشر والنكايه، فكان مصيرها نيراناً ملتهبة. وأما المقتصدة، فقد كانت تتعامل مع الجيران تعاملًا حسنًا؛ فتحفظ لهم حرماهم وترعى حقوق الجوار بينها وبينهم. وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

”قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا،

قَالَ: ”هِيَ فِي النَّارِ“،

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ قَلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَنْثَوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: ”هِيَ فِي الْجَنَّةِ“⁽¹⁴²⁾.

إن أثر العبادة لم يعد له شأن في تحديد المصير الأخروي؛ حيث المتحكم أكثر من غيره إنما هو معاملة الآخرين؛ فإذا كانت معاملة حسنة زُكَّتْ ما جاء به المرء من عبادة وقربات، وإذا كانت معاملة سيئة لم يلتفت لذلك كله، فأزرت به جميعاً، وهوت بصاحبها في الجحيم.

141. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم

المباركفوري (المتوفى: 1353هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، 7/ 87.

142. رواه أحمد، 421/ 15.

فالحديثان النبويان الشريفان في صورتيهما السالفتين يقربان المسافة بين الحكمين فيهما وبين ما ينتظر ممارس خطاب الكراهية في الدار الآخرة؛ فكل الممارسات المشينة التي تضمنها الحديثان الشريفان تمثل مستوى من مستويات خطاب الكراهية. ومن ثم، فإن الأحكام المعلنة فيهما تكون من نصيب من سلك شبههما في حياتنا المعاصرة.

إن الأوضاع السلبية التي يظهر منها توجيه الكراهية والبغضاء نحو جهات معينة، قبل أن تصير كيداً وفعلاً مادياً يكاد يهوي بالحياة الإنسانية، مستفحلة في الواقعين؛ الافتراضي والمعيش. وإذا كانت خصوبة الشرور تبدو ثمرة علقماً وسمّاً زعافاً في كل حين، فإن تدخل الخطاب الدعوي من أجل إصلاحها يفرض عليه جمع قُضه وقَضِيضه وتسخيرَه لتتبع أصولها من أجل اجتثاثها، حتى يَشيع التواصل الإيجابي بين بني الإنسان، وتؤدي شبكات التواصل الاجتماعي الدور الذي وُجدت من أجله أول مرة.

وإلقاء نظرة عابرة على شبكات التواصل الاجتماعي على اختلافها تبين أن الخطاب الدعوي ليس على نمط واحد؛ فأنماطه نراها طرائق قديما، ونرى ضروب المسالك فيه ضروباً شتى. فمنه المتميز باللين والرأفة والرحمة في تبليغ دين الله؛ التزاماً بالصفات الأساس التي ينماز بها الإسلام وتمثلاً لها، فيظهر أصحابه وقد انطبعت دعوتهم بالوقار والسكينة وحسن السمات. ومنه المتميز بالغلظة والفظاظة؛ أصواتاً، وإشارات، وتجهمات. والعجب أن يشغل الداعية في نصرته كلام جميل بكلام غير جميل. فيوظف الفظاظة وهو منهي عنها، لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)﴾ (آل عمران: 159). ويرفع صوته متجاوزاً الحدود المقبولة في الدعوة وهو المدعو إلى الزورار عن ذلك، لقوله سبحانه: ﴿وَاعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)﴾ (لقمان: 19). وتبدو نظراته شزراً، ويظهر وجهه عبوساً قمطريراً. وهي صفات لا يوصف بها إلا من كان على غير هدى، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)﴾ (القلم: 51-52).

إن هذه الملامح تظهر واضحة والخطاب الدعوي الممارس من لدن هذه الفئة موجه نحو المسلمين، فيلقى عليهم كما تلقى الصواعق المرسله، وهم أحوج إلى الكلمة الطيبة التي تلين القلوب وتقرب البعيد وتبني مستقبلاً محموداً لبني الإسلام. وأما إذا كان مقصوداً بالخطاب الدعوي من لم يكن من المسلمين في يوم من الأيام، فإنك تسمع فيه ما لا يليق أن يصدر عن مؤمن؛ دعاء وسباباً وشتماً ووعداً ووعيداً.

والمفارقة الغريبة في المشهد كله، أن الداعية حالها يكون مستقراً في أوطانهم، مطمئناً بين ظهرانيهم، مستفيداً من نعم الله لديهم. وكل ذلك منهي عنه في دين الله الذي تمارس الدعوة من أجل نشره؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **”لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ“** (143).

إن أسس الدعوة إلى الله أسس بانية، وأعلاها قدراً مما يستقر في الذروة والسنام حسن الخلق الذي وصف به رب العزة سبحانه نبي الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)﴾** (القلم: 4). وهو أس يتجلى بوضوح مما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال: **”إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وَالْأَطْفَهُمْ بِأَهْلِهِ“** (144). فيكون له أثر بالغ في إكساب المؤمن درجة الكمال في الإيمان. بل إنه يكون سبباً في دخول المؤمنين الجنة برحمة الله، كما يكون سبباً في دخولهم النار؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

”سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: ”تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ“، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسُ النَّارَ، فَقَالَ: ”الْفَمُ وَالْفَرْجُ“ (145).

ومن أطف الصور التي تضمنتها حياة المسلمين من إبداء اللين والرحمة والحب للآخرين، أن يوجهوا جميعاً إلى تصحيح سلوك غير لائق مع من يحتاج إلى حسن

143. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في شُكْرِ الْمُعْزُوفِ، رقم: 4811 / 4 / 255، والترمذي في البِرِّ وَالصَّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الشُّكْرِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، رقم: 1954 / 4 / 339، وأحمد، 13 / 15.

144. رواه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في اشتغال الإيمان وَزِيَادَتِهِ وَنُقْضَائِهِ، رقم: 2612 / 5 / 9، والبيهقي في شعب الإيمان، باب حسن الخلق، رقم: 7615 / 10 / 355، وأحمد، 213 / 41.

145. رواه الترمذي في البر والصلة باب ما جاء في حُسْنِ الْخُلُقِ، رقم: 2004 / 4 / 363، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذُكْرِ الدُّنْيَا، رقم: 4246 / 2 / 1418.

الخلق من كبار السن ومن الضعفاء؛ فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله:
”جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوسَّعُوا لَهُ، فَقَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

”لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا“⁽¹⁴⁶⁾.

فeced مقارنة بين هذه الدعوة في شرع الله، وبين ما تحبل به شبكات التواصل الاجتماعي من خطاب للكراهية لا يميز صاحبه بين شيخ كبير ولا بين طفل صغير، ولا يحترم امرأة ولا رجلاً، ليبيد الفرق واضحاً جلياً بين ما يمتح منه الخطاب الدعوي الإيجابي، وبين ما يغرف منه الخطاب الرائج من مستنقعات القطيعة الآسنة في كثير من المشاهد في شبكات التواصل الاجتماعي. وهي فرصة مواتية للتدخل من أجل إصلاح ما أفسد الناس، وإعادة بناء المعجم الرائج على التعايش الإنساني وإزاحة خطاب الكراهية من المشاهد كلها.

لقد أصبحت الحقيقة واضحة جلية؛ حيث إن جمال الأخلاق الذي يصبغ الحياة بالجمال، والمعاملات مع الناس بالرحمة والبر والخير- كما يعبر عن ذلك الشيخ محمد الغزالي في كتابه خلق المسلم- ”هو المقصد الذي جاء به الإسلام ولقي في سبيله النبي صلى الله عليه وسلم كل تلك العذابات والأخطار، وفُرِضَتْ لأجله الفروض، وسُنَّتْ لأجله السنن“⁽¹⁴⁷⁾. وهو الأمر الذي حين يقيم الخطاب الدعوي أمره عليه، في شبكات التواصل الاجتماعي وفي غيرها، مع التركيز على نبذ الكراهية وتحقيق التعايش الإنساني، فأنئذ يصير خطاباً فاعلاً. وإذا أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي مغمورة في مياهه الطاهرة، فإنها حينئذ تصبح معبرة عن تسميتها التي وضعت لها أول مرة؛ حيث تحقق التواصل الإيجابي بين الناس، وتدحر كل الخطابات التي تعكر صفو الحياة وتحدث القطيعة بين بني الإنسان.

146. رواه الترمذي في البر والصلوة، باب ما جاء في رَحْمَةِ الضَّعِيفَيْنِ، رقم: 321 / 4، 1919.

والبيهقي في شعب الإيمان في رحمة الصغير وتوقير الكبير، رقم: 10476، 13 / 355.

147. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان، القاهرة، 1408هـ- 1978م، 7.

الباب الثاني

الآليات الأساسية لتفعيل الخطاب
الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي

الفصل الأول: آليات تواصلية

المبحث الأول: توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي

تستهدف الآليات الأساسية لتفعيل الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي من أجل الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك مجموعة من المقاصد التي يصبو إليها العمل الدعوي، رغبة في أن ينتقل من مستوياته المعروفة إلى مستويات أرقى وأجل وأكثر مردوداً. وهي المتمثلة في الابتكار والإبداع، وتحسين الأداء وسرعة الاستجابة، والقدرة على الإقناع.

ويخضع تحقيق هذه المقاصد جميعها للقواعد التي تسير عليها شبكات التواصل الاجتماعي على اختلافها؛ فإذا استجاب العمل الدعوي لها فإن مردودها عليه يكون أعظم قدراً وأكثر فائدة، وإذا لم يكن، فإن الخلل ينتابها من كل جانب فتزور عن تحقيق المراد.

ونحب أن نقف على بعض الشذرات التي تمثل شواهد على ما قد يتغيب ذكره، بالنظر إلى الظروف المحيطة بإنجاز هذا البحث. وليكن ما نريده محدداً في القواعد التي يتعامل بها "اليوتيوب":

يوظف "اليوتيوب" طريقة خاصة في نشر الفيديوهات وظهرها وعرضها على المشاهدين والمتابعين. وهي طريقة توظف الألغوريثيمات الآلية ولا توظف النشر اليدوي المرتبط بتدخل العنصر البشري. فتتلخص طريقته في ثلاثة عوامل تتحكم في كم ظهور الفيديو ونشره وعرضه. وهي التي نقف عليها في الآتي:

1. معدل النقر ومرات الظهور: Impressions click-through rate.
2. مدة المشاهدة Watch time. والمقصود به الوقت الذي يقضى في مشاهدة الفيديو بالدقائق، وليس المقصود به النسبة المشاهدة من حجم الفيديو؟
3. تفاعل الجمهور المتابع مع الفيديو. وهو ما يتمثل في الإعجابات والمشاركات والتعليقات. وهي الأمور التي يطلبها المشتغلون على اليوتيوب، فتراهم يصرون عليها إصراراً واضحاً في كل حين.

وقد يقول قائل فما دخل ظهور الفيديوهات في توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي؟ وهو أمر يدفع الذهن لطرحه البون الشاسع بين ظهور الفيديوهات وبين الخطاب الدعوي بأهدافه وظلاله المحيطة به؛ فالمخاطب يحس بذلك كله، فلا تتبدى له العلاقة الرابطة بين الطرفين بوضوح وجلاء.

إن الألغوريمات التي يوظفها ”اليوتيوب“ لنشر الفيديو تشتغل بطريقة آلية قائمة على كثرة العرض والمشاهدة وتسجيل الإعجاب، فإذا تحقق ذلك كله، فإن الألغوريمات تتدخل لإيصال المنتج إلى الجمهور المتابع. ونحن إذا لم نهتم لأمر الأرباح التي تدرها الإعجابات والمشاركات والتعليقات، فإننا نهتم لتدخل ”اليوتيوب“ بآلياته لنشر الفيديو الدعوي الذي يستفيد من توسيع الفئات المشاركة في القناة.

ويحتاج توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب لتوفر مجموعة عناصر، نذكرها على الصورة الآتية:

أ. اختيار العنوان والحرص على إقناع المشاهدين بمشاهدته، ويصر المهتمون بشأن ”اليوتيوب“ والشبكات الاجتماعية على اختلافها على استعمال عبارات محددة لشد المتابعين إلى المنتج قبل فتحه، مثل:

• **استعمال عبارة كيف يمكنك أن تفعل كذا... how to،** والحق أن الباحث في الشابكة حين يعتمد هذا السؤال في بحثه فإنه يختصر الطريق الموصلة إلى البغية، كما أن المنتج الدعوي إذا اعتمده في بنائه أول مرة، فإن حظه يكون موفوراً ليظهر للمتابعين، فيقال مثلاً: كيف تكون مجاب الدعوة؟ فيقيم الداعية محتواه الدعوي على حديث النبي صلى الله عليه وسلم، في ما يرويه عنه ابن عباس رضي الله عنه، ”قَالَ: تَلَيْتَ هَذِهِ الْآيَةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (البقرة: 168)، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ،

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”يَا سَعْدُ أَطْبَ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْدِفُ اللَّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُنْقَبِلُ مِنْهُ

عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالْأَنَارُ أَوْلَى بِهِ“ (148).

أو كيف تبلغ مبالغ الأنبياء والصديقين والشهداء؟ فيعرض في منتوجه الدعوي قول النبي صلى الله عليه وسلم:

”إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى“.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ،

قَالَ: ”هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللَّهِ إِنْ وُجُوهُهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ“ وَقَرَأَ هَذِهِ آيَةَ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: 62)“ (149).

• **واستعمال عبارة: ”كيف وصلت إلى تحقيق كذا“**، فينطلق الداعية في بناء خطابه الدعوي مورداً الأسباب التي أوصلت المسلمين إلى ما وصلوا إليه في دهورهم الخالية؛ فخلال ثلاث وعشرين سنة استطاعوا أن يصيروا سادة العالم بعد أن كانوا في الحضيض فلا يُؤَبَّه بهم حين يقومون أمام الأمم، وخلالها أصبحوا أغنياء مُوسرين بعد أن كانوا يرزحون تحت نير الفقر والبؤس وشظف العيش، وخلالها تفتتت معارفهم فأقبلوا على العلم والمعرفة من كل جوانبها، فغدوا أساتذة العالم ينشرون العلم بين الأمم ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور.

• **واستعمال أسلوب التفضيل (Preference style)**، فيعرض الداعية المحتويات التي تحيل على المصائر التي يكون فيها المؤمن في أرفع الأوضاع وأرقاها في الدنيا وفي الآخرة. ومن أمثلة ذلك، أن يتخذ لمنتوجه الدعوي عنواناً على شاكلة العبارة الآتية: ”أغنى الأغنياء يوم القيامة“، فيقيم المحتوى على قول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، فقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

148. رواه الطبراني في الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد، رقم: 6495، 310/6، والبيهقي في شعب الإيمان، قبض اليد عن الأموال المحرمة، رقم: 5130، 363/7.

149. رواه أبو داود في كتاب البيوع، باب في الرهن، رقم: 3527، 288/3، والبيهقي في شعب الإيمان، في كتاب حقوق الأولاد والأهلين، باب قصة إبراهيم في المعانقة، رقم: 8585، 315/11.

”مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ“ (150).

ب. اختيار صورة إشهارية معبرة للفيديو، ويشترط فيها أن تكون صورة مستقلة عن الفيديو، فتكون لصاحب الفيديو أو لشخص آخر، أو لمظهر معبر لأفت، وتتضمن عنوان الفيديو بخط بارز واضح مقروء جميل. وتوظف فيها التقاطات الكاميرا من مواقع مختلفة، وتعرض بطريقة تهيمن عليها الحركية من كل جانب، وتشيع فيها الإضاءة الكافية في كل الأطراف.

ج. تحسين ظهور الفيديو في نتائج البحث على “جوجل seo”، ويشترط فيه أن تعتمد في العنوان بعض الكلمات المفاتيح التي تجعل عملية البحث تتوجه نحو العنوان من أجل اختياره. ومن أجل الرفع من تحسين ظهور الفيديو بصورة جيدة في نتائج البحث، تُشترط تعبئة صندوق الوصف بالكلمات المفاتيح التي مكّنت فيديوهات ناجحة من الظهور في النتائج الأولى من البحث. وذلك باستعمال موقع “tubebuddy”.

د. تخصيص عشر ثوان، أو خمس عشرة ثانية للتشويق من أجل أن يشاهد الفيديو مشاهدة كاملة؛ فكثيراً ما كان عنصر التشويق مثيراً للنفسيات، دافعاً إياها نحو الإقبال على أمر يراود لها أن تتوجه إليه باهتمام؛ فعشر ثوان، أو خمس عشرة ثانية، ليست بالأمر الكثير، ولكنها تلخّص أهم المضامين التي يحتويها المنتج الدعوي. وهو الذي يُثيرُ شهية المتابعين للإقبال على مشاهدة الفيديو من مبدئه حتى منتهاه، فتعرض الأفكار، وتصحح المفاهيم، ويثبت الصحيح ويزاح المختل، ويصبح أمر الدين الإسلامي واضحاً جلياً في العقول والأذهان.

ه. رفع فيديوهين أو أكثر في كل أسبوع، ولا سيما في البدايات؛ حيث يتحقق التتبع من لدن الجمهور، ويسجل الإقبال على المنتج الدعوي، وتلاحظ حدة الانتظار. وهي كلها أمور نفسية تمكن الخطاب الدعوي من أن يستقر في مستقرات إيجابية

150. رواه مسلم في كتاب الذُّخْرِ وَالْذُّعَاءِ وَالنُّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ، بَابُ قُضْلِ النَّهْلِيلِ وَالنَّشِيْبِ وَالذُّعَاءِ، رقم: 2692، 4/ 2071. وأبو داود في كتاب الأدب، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أُمِنَ، رقم: 5091، 4/ 324، والترمذي في الدعوات، رقم: 3469، 5/ 513، وأحمد، 14/ 429.

متميزة تجعله خطاباً مطبوعاً بالحدة والجدية، موسوماً بالحرص على نشر المعرفة الإيجابية الصحيحة، حاثاً متابعيه إلى الإقبال عليه في كل حين.

إن هذه الإجراءات حينما تتضافر ليستفيد منها العمل الدعوي، فإنها ترتقي به ارتقاءً يقل نظيره بين الممارسات الدعوية المعهودة؛ حيث إنها تطرق المغالق البعيدة فتفتحها وتستقر في النفوس والأذهان مستقراً محموداً. فإذا كان المحتوى الدعوي أمراً فإن المخاطبين يأتمرون، وإذا كان نهياً فإنهم ينتهون، وإذا كان مطلبه إصلاحاً وبناءً ورأياً للصدوع، فإن المجتمع يحث خطاه ليأتي منه ما يتحقق به هذا المراد الجل، فترى خطاب الكراهية، بعد ذلك، مولياً الأدبار، وتشاهد تعزيز التعايش الإنساني مقبلاً للاستقرار في المصاف الأولى من حياة الناس.

• المطلب الأول: توظيف البريد الإلكتروني

الهدف من توظيف البريد الإلكتروني في توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي هو الوصول إلى إيميلات الفئات المستهدفة المفعلة، من أجل تبليغ دين الله للعالمين؛ فالناس في علاقتهم بالدين الإسلامي فئات مختلفة، فمنهم الباحث عن الحقيقة الذي يسلك مسالك البحث الضروري في ذلك، حتى يقف على حقيقة الدين الإسلامي الحنيف بتوفيق الله تعالى ثم ببذله الجهد الواجب من أجل ذلك. ومنهم من ييسر الله له من يدعو إلى الدين ويعرض عليه ما يلزم ليصبح من المسلمين. ومنهم من يأكل كما تأكل الأنعام، فيقطع أيامه ولياليه في البحث عن الملذات وقضاء الشهوات، فينسيه كل يوم ما قبله، وتدفعه تلبية نزواته العابرة إلى طلب المزيد وحث الخطي نحو اقتراف ما تدعو إليه ظروف الحياة.

وهذه الفئة الأخيرة هي الفئة التي تعمر المكان، وهي صاحبة الحضور العارم الذي يكاد يكتسح ما يعمره الناس من العالم. وهي الفئة التي تدفعنا إلى توجيه الخطاب الدعوي نحوها، فيبلغ الدين، وتتوضح الحقائق، ويُدل الناس على طريق الرشاد.

وقد يعترض معترض فيقول إن مثل هذا التصرف يدخل في باب تدخل الناس في ما لا يعينهم؛ فللآخرين حريتهم في الاعتقاد، ولهم قناعاتهم التي تكفل لهم حقوقهم المدنية ممارستها في الحياة. ونحن لا اعترض لدينا على هذا القول، فقد علمنا القرآن

الكريم أن نقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ (الكافرون: 6)، كما علمنا أن نؤمن بمقصد قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)﴾ (البقرة: 256).

إننا حينما ندعو غيرنا لدين الله تعالى، فإننا لا نجبره على الإيمان به والتمسك بأوامره واجتناب نواهيه، ولكننا نفعل ذلك بتقريب حقيقة الدين منه ومن غيره، فطالما تدخلت أياد مأكرة فشككت في ذهنه صورة يعتريها التشويه من كل جانب، فاقنع بها واعتقد أنها الحقيقة. ولذلك، فقد كان لازماً على الخطاب الدعوي أن يؤدي ما عليه في هذا الباب، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كان يوجه رُسُلَه ورسائله إلى ملوك الدول وحكامها وقياسرتها وأكاسرتها وشيوخ القبائل، وإبراء للذمة بعد أن صارت أصوات المسلمين الجدد من الأمم الأخرى اليوم تصل إلينا، فيقول أصحابها: لِمَ لَمْ نَبْلَغْ بهذا منذ آحاد بعيدة فيكون لنا شأن آخر في حياتنا؛ أجوراً ودعوة ونصرة دين.

والوسيلة التي تسعفنا لأداء هذا الدور اليوم هي البريد الإلكتروني الذي يعد فتحاً عظيماً في هذا الباب؛ فهو يمكننا من تبليغ ما نريد لمن نستهدفه بخطابنا من غير أن يطَّلَع عليه أحدٌ غيره؛ فيبقى محتوى الخطاب الدعوي سراً بيننا، كما يمكننا من اقتحام الجهات التي تعذر علينا اقتحامها في الواقع لسبب من الأسباب. فإذا تعددت الجهات التي نطرق أبوابها عبر البريد الإلكتروني، فإن ذلك يفتح الباب على مصراعيه من أجل توسيع فئات المدعويين، فإذا استجابوا جميعاً لما ندعوهم إليه، فذلك فتح عظيم يمن الله تعالى به على من يشاء، وإذا تعذر ذلك فلم يستجب منهم سوى عدد محدود، فإننا نعيد الكرة مرات عديدة حتى يستجيب المدعوون، مقتفين في ذلك آثار المشتغلين بالتجارة الإلكترونية اليوم؛ حيث لا يَكُون ولا يَمْلُون من الاتصال ومعاودته من غير توقف حتى يستجيب الزبون.

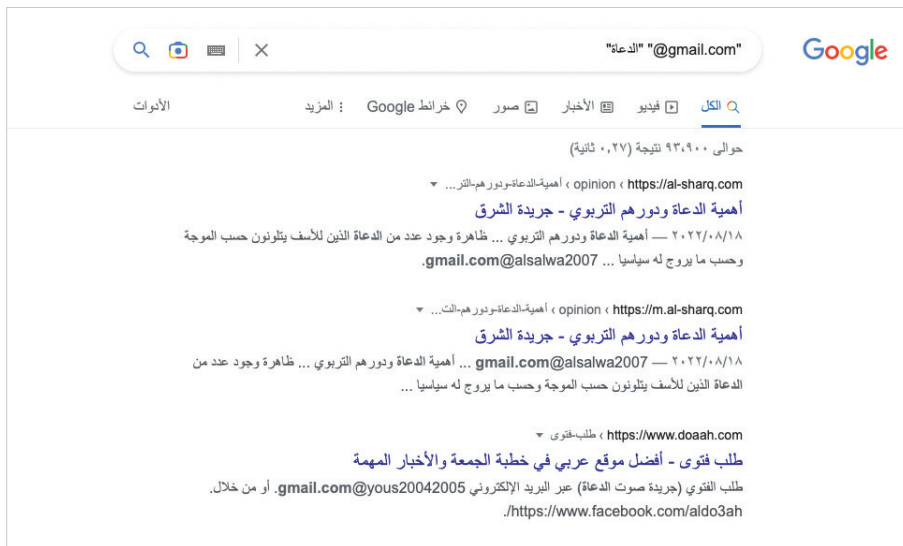
وطريقةُ توظيف البريد الإلكتروني طلباً لتوسيع الفئات المستهدفة طريقة يسيرة، فلا مصاعب فيها ولا مشكلات؛ حيث نبدأ بالدخول إلى "جوجل"، ونُدخل اسم الفئة التي نريد أن نصل إلى إيميلاتها وجعله بين مزدوجتين، وإتباعه بـ gmail.com@، وجعله بين مزدوجتين أيضاً، فتظهر البيانات كلها.

ولتقليل العدد الضخم يمكن التحكم في ذلك بالدخول إلى الإعدادات وحصر العدد بين عشر نتائج إلى 100 نتيجة، ثم فتح الصفحة الثانية والثالثة وهكذا.

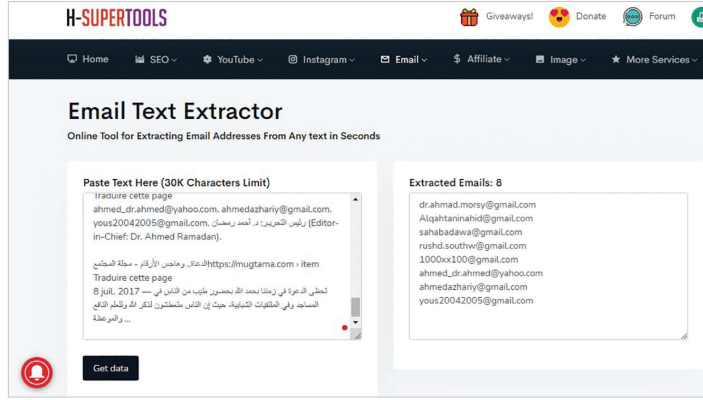
وبعد ذلك ندخل إلى موقع يعرف بـ "H-SUPERTOOLS". وهو موقع مجاني يساعدنا على استخراج هذه الإيميلات من النتائج التي حصلنا عليها من "جوجل".

وإذا شئنا أن يشمل البحث فئات أخرى من الحسابات المنشأة على "ياهو" "YAHOO"، مثلاً، فإنه يجب علينا أن نضيف كلمة "OR"، وبعدها "ياهو" "YAHOO" إلى قائمة البحث، ثم نحذف المزدوجتين عن اسم الفئة، فنحصل على النتائج الخاصة بها.

وهذه صورة موضحة لهذه العملية التي اتخذنا فيها الفئة المبحوث عن إيميلاتها محددة في فئة الدعاة:



ولكي يقتصر البحث على نتائج الإيميلات المفعلّة فقط، فإنه يتوجب علينا أن نذهب بالنتائج المتوصل إليها قبل إلى نافذة "Bulk validation tool"، من موقع: "H-SUPERTOOLS" نفسه. والصورة الآتية تبين ذلك بوضوح:



إن هذه الطريقة لا تقتصر على استخراج الإيميلات بصفة عامة، ولكنها يمكننا من أن نحدد الفئة المستهدفة جغرافياً، فإذا أردنا أن نحدد إيميلات فئة خاصة في مدينة محددة أو دولة معينة، فإننا نضيف المدينة أو الدولة إلى قائمة البحث من غير إضافة المزدوجتين، لنحصل على النتائج الخاصة بها.

وأما إذا أردنا تحديد الفئة المستهدفة على موقع من مواقع التواصل الاجتماعي، فإننا نعتمد إحدى طريقتين، نذكرهما على الصورة الآتية:

- **الطريقة الأولى:** تتحدد في إضافة اسم الموقع: "الفيسبوك" أو "تويتر" أو "الإنستغرام" أو "لنكدان LinkedIn"، مثلاً، فنحصل على الحسابات التي يشتمل عليها.

- **الطريقة الثانية:** تتمثل في الدخول إلى موقع: "X-Ray: recruitin.net" وتحديد الجهة الجغرافية التي نريد للخطاب الدعوي أن يستهدفها؛ مدينة أو دولة، ثم تحديد اسم الفئة التي نقصدها، ثم الضغط على الزر المخصص للبحث عن حسابات المشتركين في الموقع الاجتماعي المبحوث فيه. وبعد نسخ الرابط، نلصقه في المكان المخصص للعناوين من صفحة "جوجل". وبعد ظهور لائحة النتائج، نضيف إلى جانب كلمة "profiles" من الرابط الخاص بها امتداد ما نريد البحث عنه، مثل "gmail.com@"، أو "yahoo.com"، ثم ندخل على مفتاح الإعدادات فنبحث عن نتائج كل صفحة محصورة بين 10 و100، فنبحث عنها في المدينة أو الدولة التي نريد. وبعد ذلك نحفظ النتائج المتوصل إليها، وننسخها، ثم نذهب

بها إلى موقع: "eel.surf7.net.my"، من أجل أن يمدنا بحسابات الصفحات الخاصة بالنتائج المتوصل إليها. ثم نلصقها في المكان المخصص للّصق، وبعد ذلك نأتي إلى الزر الذي يحمل اسم الفاصل separator، فنضغط على خط جديد: New line، ثم نضغط على الزر المخصص للاستخراج: extract، فنحصل على الحسابات المرتبطة بالصفحات. والصورة الآتية تبين هذه التفاصيل:

How to use?

Copy any text from anywhere and paste it into the "Input Window". Click the "Extract" button. If the text contains any email addresses, they will appear in the "Output Window".

Email Extractor Life 1.8.1 Copyright © Surf7.net

Input Window

Paste your input in above textarea

Output Window

none

Your output will be displayed in above textarea

Extract **Reset** [Need help?](#)

No. of addresses detected: 0

Output Option

Separator: New Line ☐ Sort Alphabetically ☒ To Lowercase?

Group: Addresses (groups will be separated by new paragraph)

Filter Option

Only extract address containing this string:

Type of address to extract: Email

This amazing free tool is made possible by [Surf7.net](#)

Other useful links from Surf7.net:

Penang Web Design, Malaysia E-commerce, Malaysia Web Hosting, Domain Registration, Streamyx, Unifi, Bulk SMS Marketing, MailBlast Email Marketing, Digital Certificate, BizBasic Penang Web Design Packages, Penang Travel Guide, Malaysia Ecommerce Directory, Malaysia Business Directory

ولكي نقوم بتصفية الحسابات المفصلة وتمييزها عن التي لم تعد كذلك، فإنه ينبغي أن نرجع بها إلى موقع "H-SUPERTOOLS"، فهو يقوم بفلتر المفعل من غيره، أو نعود بها إلى موقع "leopathu.com/verify-email"، ثم نضغط على زر التحقق من البريد الإلكتروني "verify email" لكي تفتح الصفحة التي تنسخ فيها الإيميلات المراد التحقق منها. وبعد ذلك نضغط على زر التحقق من صحة الحساب "validate" لنحصل على النتائج كلها. والصورة المرفقة أسفله توضح هذا الأمر:

HOME VERIFY EMAIL EXTRACT EMAIL HIRE ME CONTACT

Bulk Email Validation

Need more accurate results? Got a big list to verify?
Click the banner below to go to our recommended premium top 10 bulk email verification services.

FTI : I will not share your data to anyone and I will not use your data for my personal. This tool save your data as temporarily in my server, it will remove automatically after 6hrs. Enjoy without any hesitation :)

Enter email ids in the below fields and make sure each mail ids in separate line.

Share it to your Friends

Facebook LinkedIn Twitter

Upload File

Choisir un fichier Aucun fichier choisi

Upload csv, txt format files only. Ensure all email addresses on first column csv and each on separate line in txt file

Validate

Share it to your Friends

Facebook LinkedIn Twitter

فالخطاب الدعوي حينما يستهدف الجهات التي يريد استهدافها بتبليغ مضامينه وقضاياه، باعتماد هذه الطرائق الحديثة التي جادت بها التقنية والعلم الحديث، فإنه يصير منتقلاً من طور تقليدي كان التبليغ فيه مقصوراً على التواصل الشفوي والاقتراب الجسدي، إلى طور آخر جديد، تصل فيه المعلومة قبل أن يترد إلى المرء طرفه، مهما كانت الظروف، ومهما كانت الحواجز والحوائل، فيتحكم في توسيع الفئات التي يستهدفها، ويتحكم في الطرائق التي يريد أن يبلغها بها ما يريد تبليغه. إن فوائد توظيف البريد الإلكتروني في توسيع الفئات المستهدفة فوائد جمة؛ فهو يساعد على الوصول إلى من يريد الخطاب الدعوي أن يصل إليه، ويسهم في تفعيله والانتقال به من مستوياته التقليدية إلى مستويات تساير العصر، ويجعل عطائه وافرة غير مجذوة، ويمكنه من الاستقرار في نفوس المتابعين استقراراً حسناً، فيقبل عليه الناس بوجوههم وأفئدتهم ولا يولّون عنه الأدبار.

• **المطلب الثاني: إنشاء المواقع الإلكترونية الدعوية الاحترافية**

تسهم المواقع الدعوية الإسلامية في تفعيل الخطاب الدعوي بصورة متميزة جداً، ولاسيما إذا أحسن بناؤها وتوظيفها بطريقة احترافية تستحضر فيها الخلفيات والمقاصد والشروط المحيطة بالدعوة وأهلها.

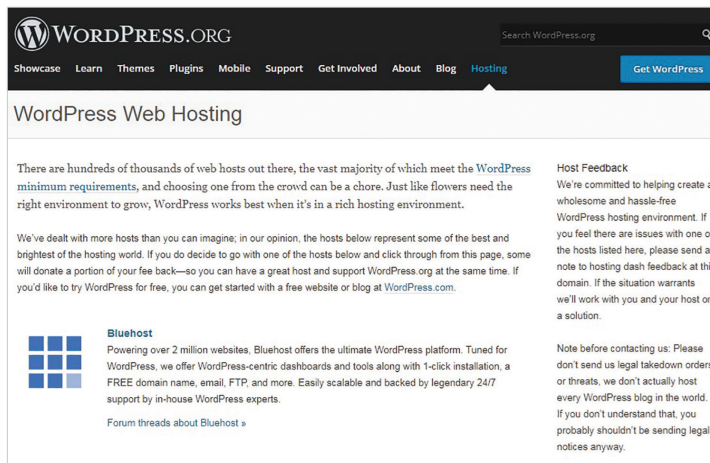
ولكي نطرق ما يهمننا بهذا الخصوص، فإننا نذكرُ بأننا أعلنّا في مواطن مختلفة من هذا البحث أننا لن نصدّ الباب في وجوهنا، فنرغب عن الاستفادة من الشبكة كلها؛ طلباً لتفعيل الخطاب الدعوي. وقد يكون ما نحن بصدد الخوض فيه في هذه الآونة داخلاً في هذا الباب.

إننا نحتاج لإنشاء موقع إلكتروني القيام بأربعة إجراءات، نذكرها كما يلي:

1. تسجيل استضافة للموقع:

بدون وجود الاستضافة لا يكون للموقع وجود على الإنترنت. والاستضافة تضمن للموقع السرعة اللازمة والأمن الضروري. ومن أهم مواقع الاستضافة ما تقدمه شركة “bluehost”، إلى جانب ما يمكن أن تقدمه شركات أخرى ومواقع أخرى.

فبدخولنا على موقع “الورد بريس WordPress.org”، فإننا نجد تنبيه القائمين عليه على كون “البلوهوست bluehost” يستضيف ما يزيد على مليوني موقع في العالم، محققاً بذلك المرتبة الأولى مقارنة بمواقع الاستضافات الأخرى. وما ذلك، إلا لتمييزه بالسرعة والأمان. والصورة الآتية توضح ذلك بجلاء:



وبعد دخولنا على موقع “البلوهوست bluehost”، تظهر أمامنا مجموعة خيارات لباقات الاستضافة بأثمنة محددة، تتفاوت في ما بينها من حيث الخدمات التي تقدمها لمنشئ الموقع. فنختار اسم النطاق، وليكن ذلك كما هو مبين في الصورة الآتية:

و حين اختيارنا لما نريد من هذه الخيارات، وبعد الضغط على زر “تحديد select”، فإن الموقع يمر بنا إلى الخطوة الثانية المتمثلة في تحديد النطاق. وهي الخطوة التي سنتولى توضيحها في الفقرات الآتية:

Bring your website to life.

Shared hosting is the easiest, most economical way to get your website connected to the Internet so you can start building it.

12 months 24 months 36 months

BASIC	PLUS	Recommended	PRO
When you need just one site.	For those running multiple sites.	CHOICE PLUS With added privacy and security features.	Get more power with optimized web resources.
\$2.95/mo* Normally \$8.99 36/mo term	\$5.45/mo* Normally \$11.99 36/mo term	\$5.45/mo* Normally \$16.99 36/mo term	\$13.95/mo* Regularly \$26.99 36/mo term
Select	Select	Select	Select

2. اختيار نطاق مجاني:

تتعدد النطاقات تعدداً لافتاً، فنجد “google.com”، و “facebook.com”... إلخ. وبدون وجود النطاق، لا يمكن للزوار زيارة الموقع الإلكتروني. فإذا كانت استضافتنا في موقع “البلوهوست bluehost” المذكور قبل، فإن واجهة تظهر لنا فيه على الصورة الآتية:

bluehost

Next we'll set up your domain.

Your domain will be your website's address.
You can create a new domain, use one you already own, or make one later.

Create a new domain

 .com

Search available domains

Next

Use a domain you own

Enter your existing domain name

Next

وبعد تحديد النطاق، ندخل البيانات الخاصة لإتمام عملية إنشاء الحساب على الموقع، ثم نتابع العمليات التي بعدها، ونصادق على الرسالة المتوصل بها من لدن إدارة الموقع في علبة الرسائل. وبذلك نكون قد حصلنا على الاستضافة والنطاق.

3. تحميل ”الورد بريس“:

ولما كانت خدمات ”الورد بريس“ مجانية، فإن التكاليف الإجمالية الخاصة ببناء الموقع تنخفض انخفاضاً كبيراً. وهذا التحميل ليس بالأمر العسير، فهو خطوة من الخطوات التي تأتي بعد الحصول على الاستضافة وتحديد النطاق.

4. تصميم الموقع:

الذي يجعل تكاليف الموقع مرتفعة هو تكاليف البرمجة والتصميم. والخطاب الدعوي القائم على التنسيق بين المهتمين به لن يعجزه ذلك، ولا سيما أن مردود الموقع حين يكون مصمماً بطريقة احترافية يكون متحققاً بوجه مُرضٍ، كما يكون وسيلة جذب للمستهدفين بالخطاب الدعوي.

وينبغي أن نعلم أن الموقع سيظهر على الحواسيب كما سيظهر على الهواتف. ولذلك، فإن بناءه ينبغي أن يستحضر هذا الأمر استحضاراً واجباً. ومن ذلك، تنظيف واجهة الموقع من الإضافات ”plugins“ غير الضرورية. فهي تجعل مظهر الموقع غير منسجم مع مساحة الجهاز سواء أكان هاتفاً أم حاسوباً.

وسنقف في الفقرات الآتية على الجوانب الأساسية التي لا ينبغي إغافلها خلال تصميم الموقع؛ فقد تكون لإهمالها انعكاسات مستقبلية على الموقع وعلى محتوياته كلها:

أ. تحميل شهادة حماية الموقع SSL:

ما دام الموقع دعوياً، وما دامت محتوياته تحتاج إلى الحماية من عبث العابثين؛ فكم من جهة لا تحب أن يزدهر الخطاب الدعوي، وكم من قلب لا يروقه أن يسمع صوت الشرع في الحياة. ومن ثم، فإنه يحتاج إلى حماية تتمثل في إضافة قفل الأمان. وهو أمر يحوجنا إلى العودة إلى موقع ”البلوهوست bluehost“ مرة أخرى، والضغط

على نافذة بحث متقدم: "Advanced"، فنقوم بالبحث عن ssl، ونضغط على نافذة الإضافات "plugins" من أجل طلب قفل الأمان، ثم نثبتته، ليصير الموقع آمناً.

ب. تحميل مظهر الموقع Theme:

هناك طريقتان لإخراج مظهر الموقع؛ فإما أن نعتمد القوالب الجاهزة، وإما أن نعتمد طريقة البناء والإنشاء. وما دامت القوالب معروضة عرضاً مجانياً مبراً من الحقوق، قابلاً للتعديل والتغيير، فإننا نفضل اختيار ما يتلاءم مع مرادنا منها.

ندخل إلى موقعنا الجديد قيد الإنشاء، ونضغط على زر نافذة المظهر الخارجي: "appearance"، ونختار منها "Themes". ومنه نُجري البحث عن موقع "ASTRA"، ونحمل منه القالب الذي نريد، ولنحرص على أن يكون مجانياً مبراً من الحقوق.

ج. إضافة الشعار Logo:

نفتح نافذة التعديل: "Customize"، ونضغط على زر الرأسيات "headers"، ثم على هوية الموقع: "site identity". وبعد ذلك ندخل على موقع "canva.com" - وهو موقع لا يشترط على الراغب في الاستفادة من محتوياته سوى أن يسجل فيه - فنختار واحداً من الأنواع العديدة من الشعارات، ونعدّله إلى الصورة التي نريد، ونحمّله عبر موقع "remove.bg"، ونثبتّه على موقعنا الجديد.

د. تعديل تصميم الموقع the website design:

ندخل إلى الموقع عبر نافذة التحرير: "Edit with Elementor"، فيصبح بإمكاننا التصرف في المظهر الخارجي كله؛ وضعاً وحجماً ولوناً وخلفية، بل إنه يمكننا أن نتصرف في أسماء الرأسيات المنسدلة؛ فنأتي بنوافذ جديدة، ونحذف ما كان مثبتاً منها. ونضيف نافذة الاتصال مع إدارة الموقع: "contact us"، كما نضيف فيديوهات ومحتويات دعوية متميزة، نثال إعجاب المتابعين، وتسهم في تفعيل الخطاب الدعوي على الصورة المنشودة من استثمار خدمات الشابكة.

• المطلب الثالث: إنشاء القنوات الناجحة على “اليوتيوب”:

يذكر المختصون أن إنشاء قناة إلكترونية على “اليوتيوب” أمر يسير على كل من يعرف الأبجديات الأولى للتعامل مع ما يقتضيه هذا الأمر، ولكن المشكل العويص الذي يواجه منشئي القنوات يتمثل في الكيفية التي تصير بها القناة قناة ناجحة. ونجاحها بالنسبة إلينا يتحدد أساساً في إقبال الجمهور المتحمس لدعوة الإسلام إقبالاً متميزاً، فلا يهمنا من ذلك درهم ولا دينار. ومن ثم، فإنهم يلحون على الانتباه إلى ركائز أربع، نوردها على الصورة الآتية:

• الركيزة الأولى: إرفاق العبارة الدلالية التي يتكون منها عنوان الفيديو بهاشتاج

تهتم هذه الركيزة بظهور نتائج البحث في المصاف الأولى. ومقارنة خاطفة بين البحث عن كلمة مفتاحية بإضافة “هاشتاج”، والكلمة المفتاحية نفسها من غير إدخال “الهاشتاج”، تبين أن الفرق في نتائج البحث يبدو واضحاً؛ حيث إن الأولى تظهر نتائج البحث عنها في المصاف المتقدمة، إن لم تكن في الصف الأول من تلك النتائج، بينما تستقر نتائج البحث عن الثانية في مراتب متدنية، إن لم تكن مهددة بعدم الظهور أصلاً.

وقد يتساءل بعض المهتمين عن الطريقة التي بواسطتها تتم إضافة “الهاشتاج”؛ ذلك، لأنها ذات خصوصية تحوّل بين كثير من الناس وبين أن يصلوا إليها. ولذلك، فإننا نقول إن إضافة “الهاشتاج” تقتضي الدخول إلى الفيديو، ثم إلى نافذة “edit video”، ومن خلاله يتم الدخول إلى صندوق الوصف لإضافتها في ثلاثة مواقع منفصلة.

ويتوقف مردود إرفاق “الهاشتاج” بعنوان الفيديو على أن كل شخص يقوم بالبحث مستعملاً “الهاشتاج” سيظهر الفيديو على رأس نتائج البحث الذي قام به، سواء أكان طالباً له أم لم يكن. فكأن الفيديو يعرض ذاته على المتابع، ويوصل محتواه إلى الفئة التي تستعمل “الهاشتاج” في بحثها. وهي فئة واسعة معتبرة.

• الركيزة الثانية: الاجتهاد في إيجاد أفكار جديدة للفيديوهات

تفرض هذه الركيزة على المهتمين بالخطاب الدعوي أن يتوجهوا باهتمامهم إلى الاقتداء بتجارب الناجحين في نشر فيديوهاتهم. فكم من تجربة ناجحة فتقت الأفكار، ورسمت المسالك، ووضعت المعالم نحو تحقيق البغية التي كانت تُرى من قبل في حكم المستحيل.

ولكي يصل الدعاة إلى هذا المراد، فإنه يلزمهم القيام بعمليات بحث في "اليوتيوب" باعتماد كلمة الرصد (nich)، ثم القيام بفلترتها لكي تظهر القنوات الأكثر ظهوراً والتي تستفيد من الأعداد الكبيرة من المشتركين، ثم تُتَبَّع الفيديوهات المستقرة في الترتيبات المتقدمة. وبناء عليه تُحاكي أفكار الناجحين في إيجاد أفكار جديدة.

• الركيزة الثالثة: تنزيل الفيديوهات يومياً

لقد أشرنا في الفقرات السالفة إلى أن تنزيل الفيديوهات يومياً يكون له مردود جليل على اكتساب القناة قوتها بين القنوات وتسجيل حضورها في أذهان المتابعين؛ فالمتابعون للقناة يترقبون الفيديوهات القادمة التي ستعرض في القادم من الأيام وإن لم يعلن عن موضوعاتها، فتنمو بذلك أعداد المشتركين والمتابعين يومياً. وتبعاً لقيمة ما ينشر، فإن هؤلاء يحرصون على تقاسمه مع أناس آخرين.

إن هذا الارتباط الذي ينشأ بين فئات المشتركين والمتابعين وبين الإنتاجات التي تنشر على القناة، تنشأ من خلاله روابط نفسية قوية تدفع أصحابها إلى التمسك بالقناة وبمدبريها وبالمحتويات التي تنشر عليها، فيكون الإعجاب مبرراً من كل تملق أو مجاملة، ويكون دالاً على الثقة في ما يعرض من محتويات، ويكون التعليق إيجابياً في كل حين. والخطاب الدعوي لا يرجو أكثر من هذا؛ فالتفاعل الإيجابي بين الناس وبين محتوياته هو ما ينتج عنه توطيد الأواصر مع دين الله تعالى. وحين تتحقق هذه البغية، فإن النتيجة المتطلع إليها، متمثلة في دخول الناس أفواجا إلى الدين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة لديهم عنه، والتمسك بالصحيح وترك الفاسد، ستتحقق حتماً دون كبير عناء.

• الركيزة الرابعة: إدراج الكود الموجود في صندوق الوصف إلى جانب رابط الفيديو

ووظيفة هذا الكود تتحدد في أن عملية البحث التي يقوم بها المتابعون أو غيرهم ممن يقومون بالبحث في الإنترنت، تظهر بين أيديهم إعلاناً يتضمن عدم إمكان الدخول إلى الفيديو إلا بعد الاشتراك في القناة. وهو إجراء يجعل القناة تستفيد من مشتركين حقيقيين وليسوا وهميين.

• الركيزة الخامسة: الاستجابة لما يطلبه المتابعون

وهو أمر يجعل المتابعين يشعرون بدفع التواصل بينهم وبين صاحب القناة؛ فاقتراحاتهم لا تذهب سدى، وطلباتهم تجد الأذان التي تصغي إليها فلا توضع في مهب الريح. والواقع أن كثيراً من تدخلات المتابعين تكون مفيدة جداً إذا كانت نابعة من تفاعل مطبوع بالجدية، فينطبق على أصحابها ما ورد في الحديث النبوي الشريف، في ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: **”الْمُؤْمِنُ مِرَّةً الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكْفُ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ“**⁽¹⁵¹⁾. وبذلك يتحقق أحسن منتج وأجود ما يصبو إليه مديرو القناة.

• الركيزة السادسة: استثمار خدمات المواقع الرابطة بين ”اليوتيوب“ و”الفيسبوك“

وإذا كانت المواقع المؤدية لهذا الدور كثيرة كثرة لافتة، فإننا نحب أن نصرف اهتمامنا لموقعين اثنين منها، نراهما ذوي شأو عظيم، وهما الموقعان اللذان نعرضهما على الصورة الآتية:

1. موقع cutshare.net:

إن لهذا الموقع خدمات جليلة على القنوات؛ فهو موقع يمكن من نشر فيديوهات ”اليوتيوب“ على ”الفيسبوك“. وإذا كانت طرائق النشر المعهودة لا تمكن القناة من الاستفادة من زيارة المتابعين والمشاهدين على ”الفيسبوك“، فلا تحتسب الإعجابات ولا المشاهدات، فإن الموقع يسمح بذلك كله؛ فكلما شاهد أحد الزوار محتوى من

151. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ”في النصيحة والحيطة“، رقم: 4918، 4/ 280، والبيهقي في شعب الإيمان، في التعاون على البر والتقوى، رقم: 7239، 10/ 107.

محتويات القناة المنشور على ”الفيسبوك“، إلا واحتسب باعتباره مشاهدة لذلك المحتوى وهو معروض على القناة.

والموقع، إلى جانب ما ذكر، يسمح بتقديم إحصاءات الدخول إلى القناة. وكل من رغب في الانضمام إلى المجموعة المنتمية إليه على ”الفيسبوك“، فإن إدارته تسمح بذلك دون مقابل⁽¹⁵²⁾، كما تسمح بنشر الفيديوهات والمنتجات الدعوية ضمن المجموعة فيشاهد المنتج وتتوسع الفئة المستهدفة.

2. موقع picsee:

إن هذا الموقع شبيه بالموقع السابق. وله مميزات تجعله يحتفظ لنفسه بدرجات متقدمة بالمقارنة مع المواقع الأخرى. وهي التي نذكرها على الصورة الآتية:

1. الموقع داعم للغة العربية.
2. الموقع مجاني بالكامل ولا يحتاج إلى أي اشتراكات.
3. الموقع آمن تماماً ولا يخالف أيأ من سياسات ”اليوتيوب“.
4. المشاهدات التي تأتي من الموقع هي مشاهدات حقيقية.
5. الموقع يصلح العمل به على جميع مواقع شبكات التواصل الاجتماعي.
6. الموقع لا يسبب حظراً لحسابك على ”الفيسبوك“.
7. يمكن من مشاركة المتابعين بالتعليقات التي تفتح باب الاستشارات والأسئلة والأجوبة وهي مداخل الدعوة إلى الله تعالى.

إن الركائز المذكورة قبل تعد مداخل أساسية لجعل القناة الدعوية ناجحة في أداء رسالتها؛ فإذا كانت كل ركيزة تسهم من جانبها في توسيع الفئة المستهدفة بالخطاب، وتمكن من شد انتباه المتابعين لمتابعة المحتويات مرات عديدة حتى يثبت المحتوى في الأذهان، وتُتمثل المضامين بغية أن تُنزل على أرض الواقع، وتُتيح الفرصة للمهتمين بالتقدم بأسئلتهم واستفساراتهم إلى إدارة القناة، فيسود الحوار وتمد جسور التواصل، فإنها تكون قد حققت المراد، وأدت ما عليها من خدمات ووظائف.

152. ينظر الرابط: <https://www.facebook.com/groups/cutshare.net> - تاريخ الاطلاع: 2021/01/27.

• المطلب الرابع: إنشاء المجموعات التواصلية على شبكات التواصل الاجتماعي

لن نستطيع الإحاطة بشبكات التواصل الاجتماعي كلها بخصوص إنشاء المجموعات التواصلية عليها. ولذلك، فإننا سنقصر عرضنا المتعلق بها على "الفيسبوك" و"الواتساب"، بالنظر إلى وضوح الأمر فيهما معاً.

إن الهدف من إنشاء هذه المجموعات هو الوصول إلى جمهور المتابعين الذي نريده أن يتسع ليشمل أكبر عدد منهم؛ فأن توصل فكرتك وتصحح ما هو مركز في الأذهان وتحث العزائم على الإقبال على دين الله تعالى، فإن ذلك يعد أمراً ذا بال. ولكي يتبين لنا ذلك بوضوح وجلاء، فسنعقد على إنشاء مجموعة تواصلية على "الفيسبوك"، ثم نردفه بإنشاء مجموعة على "الواتساب"، منطلقين في ذلك من عرض أنواع هذه المجموعات، ومعرّجين على كيفية إنشائها، وحاطين الرحال عند إدارتها بغية تحقيق مردودياتها وفوائدها.

أولاً: إنشاء مجموعات تواصلية على "الفيسبوك"

لقد صنفت إدارة "الفيسبوك" المجموعات التواصلية التي يمكن أن تنشأ على موقعها إلى ثلاثة أنواع، نوردها على الصورة الآتية:

1. مجموعات عامة يتمكن الباحث عنها من الوصول إليها عبر محركات البحث على "الفيسبوك"، كما يتمكن من مشاهدة المنشورات على صفحاتها والاطلاع على الأعضاء المنتمين إليها.

2. مجموعات مغلقة يتمكن الباحث عنها من الوصول إليها، كما يتمكن من الاطلاع على هويات الأعضاء المنتمين إليها، إلا أنه لا يتمكن، قبل اشتراكه في المجموعة، من الوصول إلى المنشورات التي تنشر عليها.

3. مجموعات تعتمد السرية، فلا يسمح محرك البحث على "الفيسبوك" بالوصول إليها، كما لا يمكن لمن أراد الانخراط فيها أن يحظى طلبه بالقبول. وهي من خلال هذا تتميز عن سابقتها بكونها لا تهدف إلى توسيع ذاتها بقبول انخراط أعضاء جدد فيها، إلا أن يكون الأمر بموافقة من يديرها.

ونحن، بهذا الخصوص، لن نهتم بالنوع الثالث من هذه المجموعات؛ فنحن نسعى إلى توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي، وهذا النوع يحُول بيننا وبين الوصول إلى ما نريد.

إن أمر إنشاء مجموعات على "الفيس بوك"، تقدر قيمته بما يدره على الدعوة إلى الله من مردوديات جليّة. ولذلك، فإن السعي إلى الوصول إليه يعد من الأمور الواجبة على المشتغلين بالدعوة والمشرّفين عليها. وهو أمر يقتضي تتبع مراحل وخطوات؛ فبعد تسجيل الدخول إلى حساب "الفيس بوك"، نضغط على السهم المتجه إلى الأسفل على يسار الصفحة، ثم نضغط على الزر الخاص بإنشاء مجموعة، فنسميها ونضيف الأعضاء المنضوين تحتها. وهي الإجراءات التي بواسطتها يكون قد تم إنشاء المجموعة.

إن إنشاء المجموعة لا يعد كل شيء، ولكنه يمثل خطوة أساساً من الخطوات التي ينبغي إنجازها، إلا أن الأهم يتمثل في إدارتها والحرص على تحقيق التفاعل بين أعضائها. وهو أمر لا يتحقق إلا بتتبع كل شاذة وفازة من مستجداتها. وهي الجوانب التي نحب أن نقف عليها في الفقرات الآتية:

- الاهتمام بالإشعارات الواردة على صفحة المجموعة وتتبعها:

تتنوع الإشعارات الواردة على المجموعة إلى نوعين اثنين؛ أولهما يتعلق بما يدور بين أعضاء المجموعة من حوارات ومناقشات. وثانيهما يتمثل في الطلبات التي ترد على المجموعة بغية الانضمام إليها من لدن أعضاء جدد. والنوعان معا أساسيان بالنسبة للخطاب الدعوي؛ فالأول تعرض به حقيقة الإسلام على من يجهلها من الأعضاء، وتصحح الأفكار المركوزة في أذهانهم بخصوص المواقف السلبية منه ومن المسلمين جميعاً. والثاني تتحقق به رغبتنا في توسيع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي؛ فيكون هذا رافداً من روافدها التي يدخل بها الناس في دين الله أفواجاً، ويخرجون بها من الظلمات إلى النور.

- رصد تفاعلات الأعضاء وتمييز المتألقين منهم:

إن الحرص على توسيع الفئات المستهدفة الذي يستشف منه الجانب الكمي، لا ينبغي بأي حال أن ينسبنا أن الكيف هو أولى وأهم، مصداقاً لقول النبي صلى

الله عليه وسلم: ”الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ“⁽¹⁵³⁾. ومن خلال تفاعلات الأعضاء، يتبين المتألقون منهم، ويظهر المتحمسون إلى خدمة الدعوة، وترسم ملامح من سيكونون من الرواحل التي ستحمل الدعوة ولا تحتاج من الدعوة أن تحملها. فمن كانت مواصفاتهم على هذه الشاكلة، فإنهم هم الذين يعول عليهم في حمل أثقال الدعوة وتحمل متاعها.

- اقتراح موضوعات لمناقشتها من لدن أعضاء المجموعة:

ينبغي لمن يدير المجموعة ألا يتركها من غير وقود يحركها في كل مرة، فينبغي له أن يتفقدتها حيناً بعد حين من أجل إثارة ما بدواخلها وبناء مواقفها مما يجري في واقع الحياة بناءً رشداً؛ فلا تطرّف ولا استهتار. وبهذا الخصوص، ينبغي للموضوعات المعروضة للمناقشة أن تلامس قضايا الفئات المستضعفة المستهدفة بخطاب الكراهية التي تتوجه نحوها الفئات المغرضة بتأليب القلوب عليها وتأجيج المواقف السلبية تجاهها.

- وضع برنامج أسبوعي للمشاركات في المجموعة:

إذا كانت المجموعة كثيرة العدد، فإن برمجة دروس ومحاضرات وعقد ندوات تلقى فيها، ستكون فتحاً عظيماً على الدعوة، فما كان يعرف باللقاءات الأسبوعية الخاصة التي لا يجاوز عددها الستة أفراد، يمكن للمجموعة أن تستوعبه استيعاباً، وأن تلقى فيها المواد الدعوية فتتلقاها تلك الأعداد الغفيرة تلقياً لا يسمح للغرباء بالاطلاع عليها، ولا يمكن المتربصين من معرفة ما يجري داخله. فالفضاء الذي كان غرفة بجدرانها الأربعة قد أصبح مع شبكات التواصل الاجتماعي فضاءً افتراضياً يضمن السرية ويحقق البغية ويوسع الفئة المستهدفة.

والواجب آنئذ، أن تتفطن إدارة المجموعة إلى وجوب تقديم المتألقين المتميزين المرشحين لأن يكونوا رواحل، فإذا كان بعض من يديرون المجموعة يلقون بدروسهم ومواعظهم ومحاضراتهم، فإن الواجب أن يتولى إلقاء تلك المواد من توسّمت فيه إدارة المجموعة خيراً، ولاحت لها بشائر القيادة من خلال تفاعلاته.

153. رواه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالموءة وتترك العجز والاستعانة بالله وتؤيوض المقادير لله، رقم: 2664، وابن ماجة في الإيمان فضائل الصحابة والعلم، باب في القدر، رقم: 79، 31/1، وأحمد، 14/395، 2052/4.

ثانياً: إنشاء مجموعات تواصلية على "الواتساب"

لا يمكن إنكار هيمنة "الواتساب" على طرائق الاتصال بين الناس اليوم؛ فقد صار مستخدماً بشكل لافت لمجموعة أسباب، منها مجانيته التي تسمح بالاتصال أو بإرسال الرسائل ولو بين شخصين من دولتين مختلفتين في العالم كله؛ فبعد أن كان الهاتف يكلف صاحبه أموالاً طائلة ليؤدي مهماته التواصلية، ولا سيما إذا كان مستعملاً في الاتصال بين شخصين من قطرين مختلفين، فإن "الواتساب" أصبح يؤدي هذه المهمات المختلفة وزيادة.

وإذا كان أمر "الواتساب" معروفاً بين الناس كلهم، فإن الذي يهمنا منه الآن يتحدد في كيفية توظيفه في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك. ولذلك، فإننا سننطلق في معالجة هذا الأمر من الحديث عن كيفية إنشاء مجموعة على "الواتساب"، ثم نردفه بالكيفية التي يمكن للخطاب الدعوي أن يستفيد بها من خدمات هذا التطبيق الذي جادت به التقنيات الحديثة على الإنسانية جمعاء.

إن أول خطوة تتمثل في فتح تطبيق "الواتساب" واختيار الشاشة الخاصة بالدرشات في أعلى شاشة الهاتف، ثم اختيار "مجموعة جديدة" ومنحها اسماً خاصاً. وبعد ذلك تضاف أسماء الأشخاص إلى المجموعة من خلال علامة الزائد (+). وعلى هذه الطريقة يسير أمر إضافة كل عضو جديد إلى المجموعة.

وأما إذا أراد مدير المجموعة حذف اسم عضو من الأعضاء، فإنه يدخل إلى المجموعة بالطريقة نفسها، ثم يختار الاسم فيضغط على عبارة "حذف المشارك من المجموعة". ويمنح هذا التطبيق إمكان تغيير أيقونة المجموعة. وهو أمر يتم بالدخول إلى معلومات المجموعة، ثم الضغط على الصورة الحالية، واختيار صورة جديدة تكون مخزنة في الحاسوب أو في الهاتف، أو يتم التقاطها بواسطة الكاميرا، أو إيرادها من الشبكة.

وكما يقدم التطبيق هذه الخدمات، فإنه يقدم خدمة تحديد موقع أي شخص مسجل فيه عبر خرائط "جوجل"، وإرسالها عبر "الواتساب". وهذا الأمر يُحتاج

إليه حين زيارة شخص وعدم معرفة مكانه أو سكنه. فبعد أن كان المكان أو محل السكنى يُعرفان عن طريق سؤال المارة، فقد حل "الواتساب" هذه المشكلة.

ولكي يستثمر إنشاء المجموعات على "الواتساب" في تفعيل الخطاب الدعوي، فإنه يتوجب التزام هذه الخطوات حين الإنشاء، ثم تنتقى جهات الاتصال التي يرغب في ممارسة الدعوة معها. ويكون محبباً في هذا الشأن أن يُعتمد مبدأ العمل مع الأقران، فتنشأ مجموعات مختلفة المستويات؛ مجموعات للمبتدئين، وأخرى لمن قطعوا أشواطاً تتراوح بين المستوى المتوسط والمستوى الذي بعده - وهو المستوى الذي يوصف بكونه لا بأس به - ومجموعات تضم من ارتقوا في سلم الدعوة ارتقاء جعلهم في الصفوف المتقدمة.

إن الإشراف على المجموعات دائماً يسند لمن تعمق في العمل الدعوي فصارت له خبرة كافية بشروطه وقواعده وما يحيط به مما يلزمه بفقهِ الواقع واستشراف مستقبل التفاعلات المحلية والدولية. فإذا تكلم طبعت كلامه الفطنة والروية، وإذا وجه حملت توجيهاته ملامح الحكمة والتبصّر، وإذا رغب في ترسيخ خلق أو قواعد دين كان سمته ينطق بها جميعاً وسيرته تشهد له بالألأ انفصام بينه وبين ما يدعو إليه.

المبحث الثاني: استثمار الخطاب الدعوي خدمات الترجمة إلى اللغات المختلفة

• المطلب الأول: فِرَق الترجمة الدعوية رواجلٌ للعبور إلى الثقافات المختلفة

لا بد لتحقيق الاستثمار الإيجابي من التنسيق بين الدعاة في أمور الدعوة؛ حيث تقسم المهام بينهم، ويتولى كل واحد منهم ما يحسنه؛ فلا يقتحم ما لا علم له بمداخله ومخارجه، ولا يتولى عما يحسن معالجته وعرضه وتقريبه إلى الأذهان والقلوب ليظهر الدين دوماً بمظهر الكمال الذي يحث عزائم المدعويين على التشبث به، والحرص على إقامة صروحه، والعض عليه بالنواجذ في كل حال.

ومن مقتضيات التنسيق في سياق حديثنا عن الآليات الأساسية لتفعيل الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي من أجل الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك أن تستثمر خدمات الترجمة إلى اللغات الأخرى كما عرفناها في المباحث السالفة، فضلاً عن أن تولي الموارد البشرية المتخصصة في هذا الجانب ما تستحقه من التوظيف والاهتمام؛ فالإنجازات التقنية الخاضعة لفعل الآلة لا تكون بالغةً مبلغ الكمال من الدقة المرجوة والتميز المطلوب. ولذلك، فلا بد من توظيف العنصر البشري المتخصص لإكمال هذه المهام الجسام وتنقيحها ووضع اللمسات الأخيرة اللازمة لها.

ونحب أن نقف على ما يتعلق بالموارد البشرية التي ندعو إلى توظيفها واستثمار جهودها في النقطتين الآتيتين:

1. تشكيل فِرَق الترجمة الدعوية:

يقوم هذا الأمر على انتقاء متخصصين في الترجمة، يكون لهم اطلاع كاف على أمور الدين، أو يكونون على الأقل قد حازوا على الضروري من أمور الدين مما لا يسع المسلم جهله منه. فيكلف المتميزون منهم بالإشراف على مجموعات منتقاة؛ فكل واحد يشرف على خمسة أفراد، ينتظر منهم أن يكونوا، في ظرف زمني محدد، خلفاً

له، فيخضعون لبرنامج تكويني في لغات عالمية معلومة، حسب رغبة كل واحد منهم في اللغات التي يريد.

إن البرنامج التكويني الذي ينبغي أن تخضع له هذه الفرق، ينبغي أن يكون برنامجاً قائماً على ثلاث ركائز تتشكل أولها مما يقتضيه الدين من أساسيات وامتدادات لا يغفل فيها فقه الواقع وشروطه وتدخلات صانعيه. وتنبني ثانيها على ما يستوجبه الاشتغال على الترجمة الدعوية التي تعد عندنا ترجمة تخصصية؛ فهي دين بوجه من الأوجه، أو هي أداة تتحقق بها خدمة الدين على الأقل. وتتأسس ثالثها على العلم بفقه الأولويات وما يتطلبه من تقديم ثقافة على ثقافة في مجال الترجمة الدعوية.

إن هذه الركائز هي ما نحب عرضه من خلال ما تتضمنه النقطة الثانية من هذا المطلب، وليكن ذلك على الصورة الآتية:

2. مواصفات فرق الترجمة الدعوية:

- الصفة الأولى: التمثل العميق لمقتضيات الرؤية الشرعية

فالمشتغل بالترجمة الدعوية لا ينتظر منه أن يكون على شاكلة كثير من المشتغلين بالترجمات السائدة في ساحات المثقفين؛ ذلك لأن المشتغل بالترجمة المعهودة قد يكون متحرراً من كثير مما نصر على المشتغل بالترجمة الدعوية أن يتمسك به تمسكاً، وأن يعرض عليه بالنواجذ عضاً؛ حيث إن الأول يكفيه أن يجيد اللغة التي يترجم منها أو إليها، وأن يتمكن مما تتميز به الثقافتان العائدة إليهما اللغتان. ولكن صاحبنا يشترط فيه هذا وزيادة. والزيادة تتمثل في أنه لا مناص له من أن يكون صاحب علم شرعي؛ قولاً وعملاً، وأن تخوّل له حيازته له التعامل مع القضايا المطروحة تعامللاً لا يندب به عن الدين، ولا يتجاوز به إلى ما ليس مقبولاً من الدين، فيُقدّم أو يُحجم وهو على بينة من أمره حين إقدامه أو إحجامه.

إن العلم الشرعي الذي ينبغي أن يتمكن منه المشتغل بترجمتنا الدعوية علم يتجاوز المسطور في الأوراق إلى التمثل والتنزيل على أرض الواقع. فلا طائل من علم يبقى في مستوياته النظرية وإن كان قناطير مقنطرة من المعلومات وأكواماً

ضخمة من المعارف؛ ذلك لأن التمثل الذي يعد من مقتضيات الإحاطة بهذا العلم ينبغي أن تنطبع من خلاله أخلاق المترجم بمواصفات خاصة ويتميز سمته في الحياة بملامح منسجمة مع أصول هذا العلم ورؤيته، ولأن التنزيل على أرض الواقع يفرض أن يحيل المشتغل بالترجمة الدعوية من خلال أقواله وتعابيره على أخلاقه السامية ومرجعياته الرفيعة المتميزة عما عداها.

وقد يقول قائل إن اللغة تعرض مكوناتها بين يدي المترجم فيتصرف فيها كما يشاء، فلا فرق في هذا المضمار بين مشتغل بالترجمة السائدة وبين مشتغل اهتم بالترجمة الدعوية. ونحن نقول إن المظهر العام للترجمة قد يحيل على ما ذكر قبل، ولكن تدخل بعض العناصر السياقية التي تفرض المرجعية الإيمانية أن يتميز التعبير فيها في الترجمة الدعوية عن التعبير المتحرر من كل مقتضياتها، هو ما يجعل خطابنا ذا مغزى ومقصد.

ولنقف على بعض المواقف التي تغص بها الحياة إلا أنها غير مقبولة في الرؤية الشرعية التي ينبغي أن تمثل البوصلة الموجهة للمترجم الدعوي وعمله. ومن ذلك مواقف العلاقات العاطفية غير الشرعية، مثل العلاقة التي سعت امرأة العزيز أن تبنيها مع نبي الله يوسف عليه السلام؛ فإذا أراد المشتغل بالترجمة الدعوية أن يعبر عن ذلك، فإنه يتوجب عليه أن يخطو بعباراته خطوات تجعله ناطقاً بالسهل الممتنع، وتحرره من الوقوع في ألغام العبارات الغليظة التي تخدش المشاعر، وترفع الحياء، وتحول بين القصة وبين أن تلقى بين أيدي من تربطنا بهم علاقة تقدير واحترام⁽¹⁵⁴⁾.

- الصفة الثانية: التميز الدقيق في مجال الاشتغال

لقد أشرنا من قبل إلى أن الشابكة تشتمل على كثير من المواقع المختصة بالترجمة الفورية. وهي أدوات مساعدة وخدماتها ميسرة للوصول إلى المراد، ولكنها ليست كل شيء. ولذلك، فإن تحقيق الكفاية اللازمة من لدن أفراد فرق الترجمة يعد شرط

154. يدعى المعترض على ما نذهب إليه، كما يدعى المشتغل بالترجمة الدعوية، إلى الانتباه إلى تميز العبارة التي استعملت في القرآن الكريم للتعبير عن هذه العلاقة، متمثلة في عبارة "هبت لك"، من قوله تعالى: (وَوَافِدَتْهُ الْيَبْيُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ) (يوسف: 23)؛ بحيث إن ضلال الدلالة قد صرفت ذهن المتلقي إلى استحضار ما تريده امرأة العزيز؛ فالرغبة جامحة، والوقوع في المحذور على الأبواب، ولكن التعبير عن ذلك قد تحقق بعبارة خفيفة الحدة، قريبة المأخذ، معبرة عن المقصد؛ فيتعبد بها في الصلوات وفي غير الصلوات، وتقرأ أمام الأبناء والأمهات وأوليي القدر والاحترام من الناس.

وجوب لتؤتي الترجمة الدعوية أكلها؛ حيث إن اختلاف السياقات يجعل التدخل البشري ضرورياً لتكون الترجمة صحيحة سليمة بعيدة عما تدفع به الأدوات التقنية التي لا تميز بين سياق وآخر.

إن هذه الصفة تفرض على المشتغل بالترجمة الدعوية أن يكون ملماً على الوجه المطلوب بالثقافة التي يريد الترجمة إليها؛ فيحيط بمداخلها ومخارجها جمعاً، ويعرف الصغيرة والكبيرة من أمورها. فالأمر الذي يشتغل به ترجمة ليست كالترجمات، فهي دين أو وسيلة من الوسائل التي ينقل بها الدين وتتوضح حقيقته، وتكشف بها الغشاوة عن العيون، وتخرج بها القلوب من الأكنة التي تحيط بها، وتصل حتى يزاح عنها الرآن الذي انطبع عليها بفعل النُكت التي تراكت عليها بسبب المخالفات والسقطات والهفات التي اقترفها أصحابها عبر عقود متواليات.

وتفرض هذه الصفة، من جانب آخر، على المشتغل بالترجمة الدعوية أن يهتم بترجمة المحتويات الدعوية، وأن يحيط بالمصطلحات الرائجة فيها، وأن يكون صاحب بحث دائم في ما يقرب الهوة بين المعجم المعتمد في مرجعياتها؛ قرآناً وسنة، وبين المفاهيم الجديدة المعتمدة لدى أصحاب الثقافات المقصودة بترجمته.

- الصفة الثالثة: العلم بفقه الأولويات وما يتطلبه من تقديم ثقافة على أخرى في مجال الترجمة الدعوية

اختلاف الثقافات اختلاف بين، وتباين درجات أهميتها تباين واضح جلي. ومن ثم، فإن تعامل المشتغل بالترجمة الدعوية ينبغي أن يكون تعاملاً يستحضر أهميتها على الدعوة إلى الله، وينظر إلى مردودياتها على الدين كله. فالثقافة القريبة من التوحيد أولى من الثقافة الوثنية أو الصنمية أو الملحدة. كما أن الثقافة التي تعاني من الفراغ الروحي أولى من غيرها؛ حيث إن قلوب أصحابها لا تحتاج إلا إلى إشارة خفيفة لتستجيب، أو إلى تنبيه عابر يعرض الفروق بين أن يعبد المرء خالقه وبين ألا يعبد أحداً.

ومن جانب آخر، فإن الثقافة التي تكون قوتها في خدمة الإسلام لو أسلمت، تكون أولى من غيرها في ما يتعلق بمد جسور التواصل بينها وبين الثقافة الإسلامية. فكل من

يرجى منه خير لصالح الإسلام والمسلمين ينبغي أن يحظى بمراتب الأولوية في إيصال الخطاب الدعوي إليه. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ومن جانب ثالث، فإن فرق الترجمة الدعوية ينبغي لها التوجه إلى الثقافات التي يحتاج أهلها لما يسدُّون به رمقَ عيشهم، من أجل تقريب المفاهيم الدينية إليهم، فيكون الاهتمام بالترجمة إلى تلك الثقافات أولى من الاهتمام بالترجمة إلى ثقافة يوجد من أهلها من يعتقد أن كل حديث عن الإسلام بدياره هو أمر مهَّد لتثقافته، فتتبدد الجهود سدى، وتقضى الأعمار في ما لا طائل من ورائه، ولا سيما حين يكون من هذه الفئة الواقفة لدين الله بالمرصاد من يلغو بقوله وفعله فيصرف الأذان عن أن تسمع ما يلقي إليها، ويدفع الأفتدة عن أن تتدبر في ما تدعى إليه.

إننا حين نمنح الأولوية لهذه الثقافة على حساب غيرها مما كانت تلك صفته، فإننا إنما نلح على الاهتمام بدرجة التوجه التي ينبغي أن يتم بها العمل، ولا نتحدث عن تعطيل العمل عند إحداهما؛ إذ إن في كل منهما خير يرجى إذا فتح الله القلوب وشرح الصدور للدخول في دينه.

فالذي نرمي إليه من خلال هذه الصفة يتمثل في أن يكون المشتغل بالترجمة الدعوية ذا رؤية منسجمة مع ما تقتضيه الدعوة وما يتطلبه الدين؛ فهو داعية متمكن من الترجمة وليس على شاكلة من يسخر الترجمة لأغراض أخرى قد يكون من مآلاتها الوصول إلى ”الخبز“ أو إلى ما يسد به رمق العيش. فالترجمة لديه وسيلة يحكمها استشعار المسؤولية والأمانة. وهو الشرط الأساس الذي إذا توفر لفرق الترجمة الدعوية بعد تشكلها تكون قد فتحت الباب ووضعت رجلها في الركاب.

• المطلب الثاني: الانطلاق بالترجمة الدعوية من التحقق إلى الاستثمار

بعد تشكيل فرق الترجمة الدعوية وإرساء قواعد الاشتغال التي ينبغي لها أن تسير عليها باعتبارها معالم هادية على الطريق، تأتي المرحلة التي تنصبُّ فيها الجهود كلها، وتتوجه إليها الأنظار جميعها؛ فهي المرحلة التي يرجى للخطاب الدعوي أن يستفيد منها ويقطف الثمرة التي كان ينتظرها منذ عمليات الانطلاق

الأولى في هذا الدرب الطويل. وهي المتمثلة في استثمار تلك الجهود كلها حتى لا تضيع سدى، وتحقيق المردوديات التي كانت تنتظر منذ أمد بعيد.

إن الدعوة ليست مستقرة في أبراجها العاجية استقراراً يجعلها في موقع من ينتظر أن تصل إليه النتائج والثمرات على طبق من ذهب وهو قابض يديه عن كل بَطْشٍ، محجّم حركته عن كل تدافع وترقب وانفتاح على الأفق الواسع القادر على أن يطلّع عليه بالاحتمالات كلها. ولذلك، فإن الدعوة اقتحام للفضاء ولن يعمره؛ فتستثمر المداخل كلها والتقنيات جميعها، مثل الانضمام إلى مجموعات الحوار، وإلى منصات المناظرات، ومثل طَرَق أبواب كل من ظهر على شبكات التواصل الاجتماعي وقد شغّل ضوءه الأخضر الدال على فتحه حسابه أو صفحته أو قنواته، فلكي تكون الدعوة ناجحة، فإنه ينبغي للمشغلين بها ألا يستقروا في المواقع المتأخرة، وألا يسمحوا للشعور بكون القيادة لا تكون إلا من نصيب قوم آخرين، حتى لا يَسْتَتِبَّ الوَهْن في أذهانهم ومشاعرهم، فيخلدون إلى الأرض وتقضى الأمور ولا يستشارون.

وإذا كان أمر الدعوة على هذه الصورة، فإن الترجمة تمثل مركباً مهماً من مراكبها، ولا سيما حينما يتعلق الأمر بعلاقة الذات بالآخر، فيكون من أوجب الواجبات أن نوصل ما عندنا إلى من يجهله، وأن نصح تصوره عنا بلغته التي يفهمها، وأن نردم الهوة الفاصلة بيننا وبينه فنتواصل معه ونحن في موقع قوة.

إن هذين الركنين إذا تحققا، فإن الخطاب الدعوي يكون قد قطع أشواطاً ليست بالهينة في أدائه وظيفته في نشر الدين والذِّبُّ عنه. فإذا وظف ذلك كله باستثمار الشبكية، واستثمرت منها شبكات التواصل الاجتماعي التي قربت البعيد، وطوت المسافات، فإن اقتحام الدعوة للمدعويين لن يحمل الدعاة كبير عناء. ولا سيما حين لا يفرض عليهم الرحيل إلى ديار القوم، ولا يتوجب عليهم ركوب المخاطر وقطع المفاوز والفلوات، فيرى الداعية موجهاً خطابه من بيته أو من المركز الدعوي الذي يشتغل فيه، وهو لم يقم من مقامه، ولم يغير جلسته، وتكون دعوته قد طرقت الأسماع، وتسربت إلى القلوب والأذهان بما تقدمه الشبكية وبناتها من خدمة جليلة لكل من أراد أن يستفيد منها.

إن استثمار الخطاب الدعوي خدمات الترجمة إلى اللغات المختلفة لكي يؤتي أكله في كل حين بإذن ربه، ينبغي ألا تلقى الكلمات فيه على عواهنها، وتطلق المواعظ المعرفة بدين الله تعالى، ولكن بعد الجهود المضنية تَنفُصُ المجالس فيرجع كل واحد إلى حياته العادية التي كان يعيشها من قبل، فتكون المشقات قد تحملها من تحملها، ويكون العرق قد تصبب من كل جبين، ولكن المردود حين نتحسَّسه لا نكاد نلوي منه على شيء. ولذلك، فإننا نقترح على المشتغلين بالخطاب الدعوي أن يولوا جانبي التَّخْلِية والتَّحْلِيَّة ما يستحقانه في الممارسات الدعوية. وهما المدخلان المتعلقان بشخصية من يكون مستهدفاً بالدعوة؛ فلا بد من تخليتها من كل الشوائب والأدران التي كانت لها مراتعُ خصبة فيها، ثم تحليلتها بما ينشده دين الله تعالى من حياة الناس جميعاً.

ولكي يتحقق من هذين المدخلين ما نريده للخطاب الدعوي، فإننا نقترح على المشتغلين به الإجراءات الآتية:

1. الاستناد إلى شهادات الموضوعيين من أهل الثقافات الأخرى من الإسلام والمسلمين:

أحببنا أن نستند إلى هذا الإجراء بغية تحقيق الألفة بين أهل الثقافات الأخرى وبين ما ندعوههم إليه عبر ما قد ألفوه من ثقافتهم وما عهدوه لدى بني جلدتهم من المفكرين والمثقفين الموضوعيين منهم.

فإذا لانت القلوب وأقبلت الأفئدة، فإننا ننتقل إلى تقديم أطباق شهية من الجيد المؤثر المفيد من تاريخنا وثقافتنا ومواقف آبائنا وأجدادنا ممن خدموا الإسلام بخدمة الإنسانية، ولاسيما أن تاريخنا مليء بخدمة بني الإنسان في الأصقاع كلها، وطالما سطر صانعوه صفحات عَزَّ استفادات الإنسانية منها استفادة جلية، فما تلبث الصور المصطنعة عنهم، المركوزة في أذهانهم، أن تتكشف وتتلشى وتخلفها صور الحقيقة الضائعة بينهم بفعل من بذل الجهود المضنية لرسم تلك وتثبيتها وإزاحة هذه وإبعادها.

والذي يتراءى لنا من بعيد، هو أن الترجمة الدعوية لو تدخلت وهي متمسكة بهذه

الرؤية الناضجة لكان لها شأو عظيم ومردود على الإسلام والمسلمين جسيم، فترى الناس يدخلون في دين الله أفواجا، مقبلين على التماس الحقيقة كاملة، مكذبين لمن بنى تاريخهم بناءً مغرضاً.

2. تصحيح المتداول بين أهل الثقافات الأخرى عن الإسلام:

الترجمة مدخل أساس للوصول إلى عقول المخاطبين غير الناطقين باللغة العربية؛ فهي الوسيلة التي تجعل المشتغل بها اشتغالا دعوياً جسراً واصلًا بين الثقافة العربية الإسلامية وبين غيرها من الثقافات. وإلا فإن الداعية، حين يكون مجرداً منها، يبقى على شاكلة الدعاة المجردين من حيازة الألسن التي تمكنهم من التواصل مع الآخر من غير العرب. ومن ثم، فإنها تمثل الوسيلة الأكثر أهمية لخدمة دعوة الله تعالى مع هذه الفئة، ولا سيما حين يكون الإلقاء صادراً عن الداعية، ويكون الطرف الآخر مستقبلاً ومتلقياً.

وما يهمننا ونحن في هذه الخطوة، هو ذاك الجانب الذي أنزل الغشاوة على العيون بفعل تدخلات المغرضين المختلفي الانتماءات والأصول والمرجعيات والمعتقدات؛ ذلك، لأن هؤلاء قد يسود بينهم الاختلاف حول مجموعة من المسائل والقضايا، فتراهم متفرقين بعد أن أغرى الله بينهم العداوة والبغضاء، متشاحنين إلى حد إزهاق الأرواح وسفك الدماء وجعل الأرض يباباً خراباً، إلا أنهم حين يتعلق الأمر بالإسلام ودعوته، فإن بعضهم يلتف إلى بعض، وتدعو أممهم أطرافها ومواليها، بألا يتخلف أحدهم عن أن يفعل ما ينبغي أن يفعله، داعية إلى كراهيته وبغض المعتقدين فيه، حاثّة العزائم من كل جانب، مؤججة الرّكب والرّجل وما حام حولهما؛ فالعدو مشترك، والمآل واحد، ولا سيما إذا كتب لدين الله الظهور واستتبّت له القيادة والتسيير.

فالغشاوة المسدلة على العيون لكيلا ترى الحقيقة كما هي إنما كانت بفعل أيادي المكر والخديعة والأمر الذي دبّر بليل. وهنا تأتي الفرصة سانحة للخطاب الدعوي ليستثمر ما حققه من شروط ضرورية في جانب الترجمة؛ فإذا كان قائلهم من قبل يصيح في قومه- وقد نسمعه نحن وقد لا نسمعه- فتمر دعواته إلى قلوب بني جلدته من غير أن يجد من يقف في وجهها ويقول: لا للكذب، ولا للبهتان، فإن الأمر قد

تغير كثيراً، وسيكون للترجمة أثرها البالغ لأداء هذه المهمة الجليّة، ولا سيما حين تتخذ الشبكة وشبكات التواصل الاجتماعي مراكب للوصول إلى المغرّر بهم. فالقائم بالترجمة الدعوية هو من يمتلك القدرة على أن يكشف زور الدعاوى والأقاويل أمام من استهدفوا بها، ويعرض حقيقة الإسلام المفترى عليه بينهم كما هي، فتسفر عن وجهها الزكي كما يسفر الصبح لذي عينين.

3. تتبع النتائج:

إن التخلية والتحلية اللتين ندعو القائمين بالترجمة الدعوية إلى أن يولوهما ما تستحقانه من اهتمام؛ إذ إن الأمر دين ودعوة، ليستا كلاماً يتردد فحسب، ولكنهما إنجازان عظيمان تُفتح بهما القلوب قبل أن تفتح البلدان، ويُطهر بهما الإنسان قبل أن يلتفت إلى الأماكن ودواخل من يعمرها كالبيت الخرب.

فالترجمة الدعوية من هذا الجانب تعد وسيلة دينية واجبة. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما هو مأثور عن أئمة المسلمين. وكل حرص من القائمين بالدعوة العقدية على تحقيق هذا المراد يورثهم أجوراً وافرة عند الله تعالى، مصداقاً لما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي كرم الله وجهه لما أعطاه الراية يوم فتح خيبر:

”قَوَالِلِهِ لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ“⁽¹⁵⁵⁾.

ولكي يؤتي الأمر أكله كل حين بإذن ربه، فإن تتبع نتائجه يكون من أوجب الواجبات؛ فلا قيمة لعمل تتوقف مردودياته، ولا أهمية لجهد يُبذل ثم تولى عن تتبعه الأدبار.

4. التقويم والمراجعة:

تعد هذه الخطوة من أجل الخطوات التي ينبغي أن يهتم بها المشتغلون بالترجمة الدعوية اهتماماً لافتاً؛ ذلك لأنها تمثل بوصلة المراقبة التفقدية والمراجعة التعهّدية. فقد تبدو النتائج متحققة إلى حد بعيد، فيفرح المؤمنون بنصر الله تعالى، ولكنهم إذا

155. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنُّبُوءَةِ، وَأَلَّا يَتَّبِعُوا بَعْضَهُمْ بَعْضاً أَزْوَاجاً مِنْ دُونِ اللَّهِ، رقم: 2942، 4/ 47، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم: 2406، 4/ 1872.

انقلبوا إلى أهلهم ونسوا الواجبات التي تضمن استمرار النتائج في أحسن صورها، فإن كل شيء يعود إلى سابق عهده، فيبدو ما بذلت فيه الجهود، وأنفقت على تحقيقه الأموال والنقود، على غير الهيئة التي أثلجت الصدور وفَتَّتْ أكنانَ المشاعر أول مرة.

إن أحسن طريقة لتقويم العمل تقوم على الانتقال بالفئة المستهدفة التي استبشر المسلمون باقترابها من الدين، أو بإبدائها تعاطفها مع أهله إلى الفعل والممارسة. ولتكن البداية من توجيهها نحو الأعمال الإنسانية التي تبدي في كثير من الأحيان ميلها إليها، ولكن بتنبئها إلى الفروق البينة بين أحوالها المختلفة التي تتلخص في حالين اثنين، نوردهما على الصورة الآتية:

- أولهما أن تكون تلك الأعمال والتطوعات استجابة لأمر الله تعالى وأمر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. وأنَّذ ستكون لها أجور لا تحصى ودرجات رفيعة في الجنة لا تستقصى.

- وثانيهما هو المتمثل في ألا تكون تلك الأعمال والتطوعات مرتبطة بدين الله سبحانه، كأن تكون صادرة عن تعاطف إنساني عام. وفي هذه الحال، ينبغي أن ينبؤوا بأن مردوديات أعمالهم لن تجاوز ما هو دنيوي، ولن تمتد إلى صناعة المستقبل البعيد الذي يتطلع المؤمنون إلى بنائه بجعل الأعمال الدنيوية كلها جسراً وصول للاستقرار في روضات الجنات.

فالعامل سيكون متحققاً من لدن الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي حتماً، ولكن الواجب أن يتم ربطه بتصحيح النيّات وتوجيهها نحو الله تعالى، مصداقاً لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

”إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ“⁽¹⁵⁶⁾.

156. رواه البخاري في بدء الوُحْي، رقم: 1، 6 / 1، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ“، وَأَنَّهُ يَذْكَرُ فِيهِ الْعَزْوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، رقم: 1907، 3 / 1515، وأبو داود، في كتاب الطلاق، باب فيما غَنِيَ بِهِ الطَّلَاقُ وَالنِّيَّاتُ، رقم: 2201، 2 / 262. واللفظ لأبي داود.

لقد تواتر لدى كثير من الأسلاف قولهم: خير دليل على حسن الفهم هو حسن التطبيق. ونحن في خطوة التقويم التي نحن بصدد عرضها ومناقشتها، نحب أن نبين أن العلم المتمثل في تصحيح الأفكار وبيان الحقائق، لا يكون له مردود يذكر ما لم يترجم إلى عمل مرئي رأي العين. وهذا هو الجانب الذي نريد للترجمة الدعوية وأخواتها مما يسهم في صناعة المستقبل الإنساني صناعة إيجابية باستثمار خدمات الشبكة وشبكات التواصل الاجتماعي أن تؤديه على الوجه المطلوب.

فإذا تشكل التصور وتوضحت الرؤية وانتقل ذلك كله من طور التنظير والتعاطف والتعبير عن المواقف الإيجابية، إلى طور التفعيل والعمل المطبوع بالجد والتميز، فإن كل ما نصبو إلى تحقيقه لبني الإنسان يصير نتيجة ملحوظة مشاهدة، بما في ذلك السعي نحو دحر خطاب الكراهية ودفعه، والعمل على تعزيز التعايش الإنساني المشترك ونشر روحه بين الناس.

المبحث الثالث: استثمار الخطاب الدعوي خدمات التطبيقات الدعوية الإيجابية

• المطلب الأول: تلبية طلبات المتابعين استباقياً

تتنوع الفئات المستهدفة بالخطاب الدعوي تنوعاً لافتاً، من حيث المشارب والمستويات المعرفية والانتماءات العرقية واللغوية والرؤيوية؛ فكل نوع من هذه الأنواع هو في الحقيقة فئة مستقلة بذاتها، فمن كانت معرفته متواضعة ليس هو من كان ممن قطعوا أشواطاً ليست بالهينة في أسلاك الدراسة، فحاز نصيباً موفوراً من العلم والمعرفة.

ومن كان انتماءه العرقي إلى جهة قامت روابطها التاريخية مع المسلمين على العداء والصراع والشنآن، فإنه لن يكون على شاكلة من كانت علاقات قومه بالمسلمين علاقات مودة وسلم ودفع بالتي هي أحسن.

ومن كانت لغته العربية؛ حيث يتكلمها بطلاقة، ولا يجد في التواصل بها عنثاً ولا مشقة، ليس هو من كانت لغته الإنجليزية أو الفرنسية أو اليابانية أو الصينية، أو غيرها. ومن يجيد من هؤلاء اللغة الإنجليزية الممثلة للغة التواصل اليوم ليس هو من لا يجيد إلا لغته الأم.

والذي أصيب بعامة في جهاز نطقه فتراه لا يعتمد في تواصله إلا الإشارة بيديه ليس هو من الله تعالى عليه بنعمه التي تمكنه من التعبير عن حاجته بلغة يُبين بها عما يريد.

إن هذا التنوع الكبير في الفئات المستهدفة، يقتضي تسخير القرض والقضيض في هذا الجانب المتمثل في إنتاج التطبيقات الدعوية واستثمارها. فالأمر جد يربط الدعاة بفئات عالمية مختلفة. ومن ثم، فإن تلبية طلبات المتابعين لا تتحقق بالكلام والتفاعل الخطابي، ولكنها تتحقق في هذا الجانب من خلال إنتاج التطبيقات التي تزخر بخدمات الخطاب الدعوي؛ فتبين الحقائق، وتوضح الأهداف، وتصحح الأغاليط، ولاسيما في ما يتعلق بتنقيح النفوس من خطاب الكراهية الذي يكاد يعصف بمجتمعات العالم في كل مكان.

1. تسخير الموارد البشرية المؤهلة لاستثمار التطبيقات الدعوية:

ولكي يُرى هذا الأمر رأي العين ويصير واقعاً معيشاً في حياة الناس، فلا بد من أن تنبهي له ثلاث طوائف يكون لها باع طويل في الإنتاج الدعوي، ويكون لها تميز في استعمال لغات البرمجة، وتكون قادرة على ترجمة المحتويات ترجمة سليمة تفي بالغرض وتحقق المطلوب. وهي التي نريد أن نوضح أمرها على الصورة الآتية:

- الطائفة الأولى: طائفة منتجي المحتويات الدعوية الصالحة لأن تكون مواداً للتطبيقات الدعوية

إن أمر هذه الطائفة لا ينحصر في حيازة المعلومات الدينية الكثيرة، ولا يتوقف عند القدرة على إلقاء المواعظ الطويلة ولا المحاضرات والدروس التي تستغرق أزمناً مديدة، ولكنه يرتبط بخصائص محددة يتميز بها منتج المحتوى الدعوي. وهي المتمثلة في الآتي:

- القدرة على تلخيص الأفكار الواسعة في عبارات معبرة عن المراد معدودة الألفاظ.
- القدرة على التوجه بالمستهدف بالخطاب الدعوي نحو تصحيح الأخطاء المركوزة في ذهنه عن الإسلام والمسلمين.
- القدرة على ملامسة الدواخل النفسية للمخاطب التي تنصرف به إلى معاداة بني الإنسان، وعرضها على ما يزرع به الدين الإسلامي من ترغيب في التسامح والمحبة والتواد بين الناس، بألفاظ معدودات.
- القدرة على عرض المراد من الخطاب الدعوي في ما يعرف بالاختيار من متعدد؛ فيطرح السؤال، ويُردفه بمجموعة إجابات متقاربة الألفاظ، إلا أن الصواب يكون متمثلاً في واحد منها فقط.

- الطائفة الثانية: طائفة التقنيين المتخصصين في لغات البرمجة

ومن ذلك أن تنتقى طائفة من التقنيين المتخصصين في لغات البرمجة، سواء أكانوا مطورين للبرامج الإلكترونية أم متخصصين في البيانات الكبرى Big data، فتقوم بما يلزمها في بناء التطبيقات الدعوية التي تكون الطائفة الأولى قد أنتجتها،

وأودعتها المواد الدعوية المختلفة، وتوجهت بها لأن تبدو أسساً صلبة في مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

- الطائفة الثالثة: طائفة المترجمين

لقد أفضنا في الحديث عن طائفة المترجمين في المباحث السالفة. وقد تبين لنا أن دورها على العمل الدعوي دوراً عظيماً جداً. وإذا بقي من أمرها شيء يخص هذا السياق، فإنه لن يكون بعيداً عن توجيهها للتفاعل مع من يشتغلون معها في هذا الأمر من الطوائف الأخرى.

إن هذه الطوائف لا تشغل الواحدة منها بمعزل عما تشغل فيه الطائفتان الأخريان؛ فينبغي أن تكون متخصصة في مجالها، آخذة من فنون الطائفتين الأخريين بطرف. كما ينبغي أن يكون التنسيق بينها جميعاً قائماً على قدم وساق؛ فلا جديد يبقى حكراً على إحداها، ولا إنجاز تقوم به إحدى الطوائف والأخريان تجهلانه ولا تحيطان به جمعاً.

2. تلبية طلبات المتابعين والإجابة عن استفساراتهم المتوقعة:

لا مناص للخطاب الدعوي لكي يصبح مفعلاً من أن يتمثل القائمون به القواعد التي يقوم عليها التفكير الاستباقي، ولا مندوحة له لكي يظفر ببغيته في هذا الشأن من أن يستحضر ما يشغل ذهن المتلقي من انشغالات تؤرقه حين البحث عن إجابات تبديد الغموض الطافح عليها، وتنير طريقه حين طلبه عرض الحقائق على الوجه الصحيح. وقد يقول قائل كيف يمكنني أن أتنبأ بما يحتاج إليه المستهدف بالخطاب الدعوي، حتى أقدم له إجابات عن انشغالاته الذهنية؟

إن الصفات التي يتميز بها الداعية ليست هي الصفات التي يتميز بها غيره. ولذلك، فإنه ينبغي له أن يعتقد في ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ"⁽¹⁵⁷⁾. وتحيل كلمة الفراسة على أعمال العقل لاستكناه دواخل الناس.

157. رواه الترمذي في تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن سوزة الجذر، رقم: 3127، 5/ 298، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم: 7843، 8/ 23.

وقد ميز المهتمون بالفراسة بين مدخلين تتحقق بهما، فقد قال عنهما المباركفوري في تحفة الأحوذى ما صورته:

”أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات وإصابة الحُدى والنظر والظن والتثبت. والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلق“⁽¹⁵⁸⁾.

فكما ينتظر من الداعية أن يكون قادراً على استكناه دواخل رواد المساجد، وأن يكون مؤهلاً لمعرفة مقصود أحد المصلين من إقدامه عليه وتوجهه إليه بالسؤال، فإنه ينتظر منه، من خلال اطلاعه الواسع وتتبعه لما يجري في الساحة المحلية والدولية، أن يكون قادراً على معرفة ما يشغل الأذهان من قضايا، وما ينتابها من إحساسات وانشغالات.

ولنا في ما احتفظت لنا به السنة النبوية خير شاهد على ما نذهب إليه؛ ففي يوم الفتح، لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ”بالمسجد يُجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى، اقترب منه (فضالة بن عمير) يريد أن يجد له فرصة ليقته. فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم نظرة عرف بها طويته، إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به، لم يجد في نفسه على الرجل، بل استدعاه، ثم سأله:

”ماذا كنت تحدث به نفسك؟“.

قال: لا شيء! كنت أذكر الله!! فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

”أستغفر الله“⁽¹⁵⁹⁾.

3. وجوب محاكاة تطبيقات مسهمة في تفعيل الخطاب الدعوي:

هناك مجموعة من التطبيقات الدعوية التي رسمت الطريق لمن يريد اقتحام العقبة في تفعيل هذا الخطاب. ومحاكاتها في الوقت الراهن تعد من أوجب الواجبات. ونحب أن نعرض بعض ما تتميز به هذه التطبيقات في الفقرات الآتية:

158. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: 1353هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 8/ 441.

159. فقه السيرة، محمد الغزالي السقا (المتوفى: 1416هـ)، دار القلم، دمشق، ط 1، 1427هـ، 383.

- تطبيق "القرآن الكريم":

التطبيق المسمى بهذا الاسم هو تطبيقات عديدة. ولكننا سنهتم بما يتميز به واحد منها. وهو الحامل لشارة: "ختمة في كل شهر"، فيعرض فيه المصحف الشريف عرضاً يظهر الأجزاء والأحزاب والأنصاف والأرباع والأثمان، كما يُعرض فهرس خاص بالسور، ويُمنح فيه إمكانُ الإغلاق ثم العودة.

وإلى جانب هذا، فإن التطبيق يتضمن قسماً يخص الأذكار ويحدد الأوراد السابقة والسور الليلية، مثل "الملك" و"الواقعة" و"يس"، والسور الأسبوعية كسورة "الكهف"، كما يمنح مستعمله إمكان تحديد وقت الورد وتغيير اللغات المعتمدة.

- تطبيق "ملاتك":

تحدد في هذا التطبيق اللغة المستعملة، ويحدد فيه وقت الأذان حسب المنطقة التي تريد، وتعرض فيه صيغ الأذان المختلفة، فتتنوع إلى مشرقية ومغربية وأذان مكّي.

- تطبيق "حقيبة المائم":

هذا التطبيق يتضمن نوافذ عديدة كلها تتعلق بتنظيم حياة المسلم في رمضان. ومن ذلك نافذة أنت ورمضان، ونافذة ثانية تتعلق بالصحة في رمضان، وثالثة تهتم بفتاوى رمضان. ومنها نافذة خاصة بالمرأة والفتاوى المتعلقة بأحوالها.

- تطبيق "جامع الكتب التسعة":

يتضمن هذا التطبيق الكتب التسعة الخاصة بالحديث النبوي الشريف، وهي: "صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم"، و"سنن أبي داود"، و"سنن الترمذي"، و"سنن النسائي"، و"سنن ابن ماجه"، و"موطأ الإمام مالك"، و"سنن الدارمي"، و"مسند أحمد".

إن هذه التطبيقات تعد معالم هادية في طريق الدعوة؛ فطالما تَفَعَّلَ بها الخطاب الدعوي كثيراً، وطالما استفاد منها المقبلون على الدين الإسلامي استفادة جمة، فإذا اتخذها الدعاة المعاصرون المقبلون على استثمار شبكات التواصل الاجتماعي وما حام حولها منارات هدى لمحاكاتها، وبذلوا الجهد في وضع تطبيقات شبيهة بها، تقدم

خدمات أخرى تتعلق بتصحيح السلوك المرتبط بخطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، وتيسر الوصول إلى ما يطلبه المتابعون بخصوصه، فإن ذلك يعد إجراءً جليلاً يفَعَل به الخطاب الدعوي، وتُنْتَشِل به الإنسانية مما هي فيه.

• المطلب الثاني: تجديد المعلومات تبعاً لطبيعة المستجدات

يتميز الدين الإسلامي بكونه صالحاً لكل زمان ومكان، ويختص، في مقارنته بغيره، من الأديان بكونه مسائراً للمستجدات التي يعيشها الناس في كل الأحيان؛ فرحابة التشريع فيه، ومرونة الاستدلال والحجاج المعتمدة من لدنه في توجيه القضايا المستجدة، تمكنه من أن يساير الحياة ويتعايش مع ما تطرحه من أمور ناتجة عن التفاعلات الاجتماعية والثقافية والسياسية السائدة فيها.

وهذا التميز في باب إبداع الحلول لما استجد من الأحوال يجد مرتعاً خصباً في مجال استثمار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي. وإذا كنا ننصرف بانتقاداتنا في كثير من الأحيان نحو ما تضعه جهات عالمية مختلفة من مخططات طلباً لتشكيل العقلية، وتوظيفها في الحصول على مردوديات نفسية ومعنوية ومادية، فإن الأولى أن نسلk المسالك نفسها من أجل إصلاح الأوضاع وتحرير الإنسانية من النظرات الشّرُور وإخراجها من ظلمات الحقد والكراهية والضعينة.

لقد وضعت الجهات العالمية المشار إليها قبل مخططاتها، ودرست المداخل النفسية والمسالك الموصلة إلى استقطاب أصحابها واستغلالهم وتوجيههم نحو ما تريد الوصول إليه، فاستطاعت بذلك التحكم في الذهنيات السائدة، كما استطاعت تشكيل النماذج العقلية التي تنشدها بمواصفات محددة لا تند إدحاها عما ترصده لها من أهداف ولو قيد أنملة، ولا تزيغ عما توجهها إليه من مقاصد ولو بمقدار.

إن المتتبع لما يشاهد اليوم اللهث المتأجج نحو اقتناء الألعاب التي طارت شهرتها في الآفاق، مثل لعبة “free fire”، و”fortnite”، وغيرهما، ليلحظ أن الأمر ليس مطبوعاً بالبراءة التي كانت تنطبع بها الألعاب في الأيام الخالية؛ حيث إنك لتشهد حدة التعلق بها إلى درجة الإدمان، وتلحظ الحركات غير العادية التي تصدر من

مستهلكيها أثناء مشيهم وجلوسهم وقيامهم، وترقب تعلقهم بها إلى الدرجة التي لا ينفد شحن إلا والعيون منصرفة إلى شحن آخر، طلباً لمواصلة المسير وعبور الأوقات وتقطيعها إرباً إرباً، فلا يدري المستهلك أهو في ليل أم في نهار. فلا جد يبقى، ولا طلب علم يتحقق، ولا تفاعل مع قضايا الحياة يكون؛ فكل ما يعرفه المستهلك إنما هو ما يوجد عليه به عالمه الافتراضي.

فإذا كان التحكم في الواقع وفي من يعمره من لدن هذه الجهات بالغاً مبالغه هذه، فإننا نتساءل عن العوامل التي تدفع الخطاب الدعوي عن أن يسلك المسالك نفسها، ويحاكي الطرائق ذاتها، بعيداً عن ركوب المراكب الضارة التي تفقد الإنسان إنسانيته، وتصرفه عن أن يعيش حياته عيشاً طبيعياً كما كان يعيش بنو الإنسان من قبل؛ ذلك لأن الفروق بين تطلعاته وتطلعات غيره فروق واضحة جلية، وأن ما ينشده للإنسانية جمعاء ليس على شاكلة ما ينشده الآخرون لها.

إن حمولة الخطاب الدعوي لن تكون إلا ماثحة من رحمة الدين الإسلامي التي تتميز بالحرص على إصلاح الناس وإصلاح معاشهم ومآلهم. ومن ثم، فإن ما ندعو الخطاب الدعوي إلى التزامه بهذا الخصوص، يتمثل في استثمار ما يطلع به الواقع علينا من إنجازات واختراعات وإعادة بناء محتوياتها بناء يتوافق مع ما ينشده الدين الإسلامي للناس جميعاً، ولا سيما بتوجيههم نحو التخفيف من غلواء الأحقاد والكراهية عبر تصحيح السلوك.

فإذا كانت التطبيقات السائدة المنتشرة بين الناس تشق مساراً خاصاً يتميز بالقتل والإضرار وسفك الدماء، فإن بناء التطبيقات التي تسهم في تفعيل الخطاب الدعوي ينبغي أن يكون بناءً متوافقاً مع الرؤية التي تحكمه؛ فرويته الدينية رؤية رحمة وعدل ودمائة أخلاق، وما ينشده للمجتمع الإنساني هو ما يعصمه من السقوط في مطبات تشكيل النفسانيات غير السوية وبناء المستقبل غير المحمود.

فاستثمار التطبيقات المختلفة، ولا سيما ما يكون له أثر بئٍ في تشكيل النفوس والأذهان، متمثلاً في التطبيقات التعليمية وتطبيقات الألعاب، يكون خطوة متميزة على المسار الصحيح في بناء الأجيال من الأطفال والمراهقين والشباب، وفي توجيههم

نحو نبذ ما يعكر صفو الحياة؛ حيث تمرر فيه الأفكار البانية، وتوجه النفسيات نحو التزام الأخلاق الفاضلة، وترصُّ لِبَنَاتُ المجتمع السليم المعافى من الحقد والغل والكراهية.

• **المطلب الثالث: استثمار خدمات التطبيقات الدعوية في إزاحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش**

من المداخل الأساسية التي يفعل بها الخطاب الدعوي استثمار خدمات التطبيقات الدعوية في إزاحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، ولا سيما حين تستثمر بطريقة مخصوصة، تقوم على ما يهم الخطاب الدعوي ولا تنشغل بما يوجد في التطبيقات الرائجة على الشبكة التي تهتم بأمور أخرى وقضايا أخرى.

إن من ملامح ذاك الاستثمار أن تبني محتويات التطبيقات بناء يعالج المسائل التي تزيح الكراهية وتعزز التعايش بين بني الإنسان؛ فترصد القضايا المثيرة التي تحرك الضغائن، وتثير النعرات. وترصد إلى جانبها المشاهد الإنسانية الدالة على وجود نماذج بشرية عبر التاريخ كانت مستقرة في المواقع التي تجعل خطاب الكراهية مسوِّغاً إذا صدر عنها، ولكنها كظمت غيظها، وعفت عمن ظلمها، طلباً لتحقيق التعايش الإنساني المشترك، حتى تكون نماذج مشجعة لمن نطلب تحريره من خطاب الكراهية؛ ذلك، لأن كثيراً من الناس لا يستجيبون لما يدعون إليه إلا إذا تقدمهم غيرهم في الاستجابة إليه.

إننا إذا سألنا الخطاب الدعوي عن هذه النماذج الإنسانية نراه يمدنا بطائفة منها غير مبتعدة عن الرؤية التي تحكمه؛ فأغلب من كان متمسكاً بالتسامح عبر التاريخ كان من أهلها. فمن حيث طرقت الخطاب الدعوي وأنت تطلب إمدادك بهذه النماذج وضع بين يديك ما يكفيك منها، فتراها ترد عليك تترى. ولعل أجلاً وأعلاها ما قابل به رسول الله صلى الله عليه وسلم كفار قريش يوم فتح مكة. فبعد أن فعلوا فيه، وفي المستجيبين لدعوته، ما فعلوا؛ تعذيباً وتنكيلاً وحصاراً وإخراجاً وطرداً، وبعد أن تبادل الطرفان المواقع، وصار القوي ضعيفاً والمستضعف قوياً، كان الانتقام مسوِّغاً إقامة للعدل وردّاً للاعتبار. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

فالعجب العُجاب الذي يهز الأركان الداخلية للإنسان أن يجد المرء من فُعل به كلُّ ما ذكر، يتوجه إلى مقتري الجرائم وسَدَنَة تدبيرها والقائمين عليها، فيقول⁽¹⁶⁰⁾:

ما ترون أني فاعل بكم؟

فيقولون: ابن كريم ابن أخ كريم.

فيقول: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إن التطبيقات الدعوية إذا اتخذت مثل هذا الشاهد من محتوياتها وموادها، فإنها تؤدي دورها القائم على التربية بالنظير؛ فما يدعى إليه المستهدف بالخطاب الدعوي لا يبدو بذلك المظهر الذي يتحمل فيه المرء ما لا طاقة له به؛ فهو ليس أمراً عسيراً بعيد المنال، ولكنه أمر استجاب له قوم آخرون، ولبوا الدعوة إليه برحابة صدر ولين نفس منذ أمد بعيد.

ولذلك، فبقدر ارتباط المتابعين للخطاب الدعوي بهذه التطبيقات ذات المحتويات المتميزة بمكافحتها لخطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني تكون مردوديات تثبيت هذا التوجه في نفسياتهم، فيصير الأمر ثقافة معبرة عن توجه في الحياة.

ومن جانب آخر، فإن بناء محتويات تلك التطبيقات الدعوية المستثمرة، يحتاج إلى التدرج في رصف لبناته ومكوناته، فيكون بناءً ارتقائياً ينشد التطور في صناعة النفسية المنشودة؛ فيتم الانتقال من مستويات غير مرغوب فيها، تكون الأحقاد مستشرية فيها، ويكون خطاب الكراهية مستحوذاً عليها، إلى مستويات يكون فيها التزام الحياد هو الصفة المطلوبة التي توجه نحوها تلك المحتويات.

وبعد أن تكون المحتويات قد تضمنت ما يمثل المستويين الأول والثاني؛ سواء ما تعلق منها بتصحيح الرؤية تجاه بني الإنسان، أم ما خص منها الارتقاء بالمتابع إلى مستويات التزام الحياد، فإن التطبيق ينبغي أن يرتقي بمستعمله إلى مستوى تنشُد مضامينه محو خطاب الكراهية ودحرها إلى الأبد، وذلك بالتركيز على مطهرات القلوب من الأدران والأحقاد والضغائن والمواقف غير السوية، باستجلابها من القرآن الكريم والسنة النبوية، ودعمها بالرقائق المناسبة في هذا الباب.

160. ينظر: تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، دار التراث، بيروت، ط 2، 1387هـ، 3/ 61.

وأما الصيغ التي ينبغي اعتمادها في هذا الاستثمار، فإنها لا تتجاوز الصيغ المألوفة التي تتنوع بين الأسئلة والألغاز؛ فما كان أسئلة منها، فإنه يتجلى من خلال الأسئلة المغلقة التي يكون الجواب عنها بكلمة "لا"، أو بكلمة "نعم"، والأسئلة المفتوحة التي تتطلب أن يعبر المتابع عن رأيه، شريطة ألا يحوجه السؤال إلى كتابة نص طويل. ولذلك، فإن الجواب ينبغي أن يبرمج على عدد محدود من الكلمات، والاختيار من متعدد، فيطرح السؤال، وتعرض إلى جانبه أجوبة مختلفة متقاربة الصياغات، ولكنها مختلفة من حيث الدلالة، ولا يمثل الجواب الصحيح منها سوى واحد فقط.

وأما ما كان من الألغاز، فإنه يتطلب خبرة في صياغته وبنائه؛ فليس كل لغز يعد نافعا في هذا الباب، ولكن المرغوب فيه أن يتضمن اللغز جواباً يأتي به المتابع، فيدفعه إلى التزام ما يصرح به، فينتقل به من مستوى التنظير إلى مستوى الفعل والممارسة.

الفصل الثاني: آليات تأهيلية

المبحث الأول: تفتُّح الدعاة على استعمالات شبكات التواصل الاجتماعي

• المطلب الأول: عقد دورات تكوينية لفائدة الدعاة

لقد غدت الدورات التكوينية تنعقد في مجالات مختلفة، وغدت المهارات بسببها تنمو لدى طالبيها وتتطور تطوراً لافتاً؛ فكثيراً ما نقف على حال أناس لم يعرف عنهم أنهم تابعوا دراستهم في مجال من المجالات، إلا أنهم أصبحوا يبرعون فيه كثيراً، فأحاطوا بأموره جمعاً، وعرفوا مداخله ومخارجه معرفة تامة، حتى إنك لا تميز بينهم وبين من قطع في ذلك الحقل المعرفي أشواطاً بعيدة؛ تنظيراً وممارسة.

والدورات التكوينية لم يعد أمرها مستثقلاً ولا متعذراً؛ فزيارة إلى الشبكات المختلفة، مثل "جوجل" و"الفيسبوك" و"اليوتيوب" وغيرها، تمكن المرء من اختيار ما يريد منها، وتعرض بين يديه برامجها، وتدله على النتائج التي يحققها منها إذا التزم خطواتها وشروطها.

والخطاب الدعوي لكي يعيش التفعيل على الوجه الصحيح، ويستثمر خدمات شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة، لا مندوحة له من محاكاة بناء الدورات التكوينية التي ينظمها المختصون في المجالات المختلفة؛ فكما أشرنا في مواطن عديدة من هذا البحث، فنبهنا على وجوب محاكاة الخطاب الدعوي للمسالك التي يركبها المشتغلون بالتجارة الإلكترونية، فيسارعون إلى الزبون ويبدعون الطرائق المختلفة من أجل الاستحواذ على مشاعره والوصول إلى جيبه، فإننا ننبه على وجوب محاكاة الخطاب الدعوي المختصين في عقد الدورات التكوينية في أساليبهم وطرائقهم، وبناء برامجها والتصريح بنتائجها، من أجل الأخذ بأيدي الدعاة ليحققوا ما ينتظره المجتمع منهم.

إن أمر المحاكاة يفرض على القائم به أن يتتبع المسار الذي سلكه المحاكى، ويرصد منه المعالم التي تهديه إلى بغيته من غير أن يقع في التقليد الأعمى الذي يجعله يلتزم ما جادت به قريحة سابقه الشَّبر بالشَّبر، والقِدَّة بالقِدَّة، ويوقع في ذلك كله الحافر على الحافر. ومن ثم، فإن أمر المحاكاة إذا التُزمت شروط الجد فيه، واتُّخذ مرحلة

من المراحل التي يُنشد من خلالها الاستقلال عن الآخرين؛ طلباً لطبع الذات بطابعها المميز، فإنه لا ضير فيه. ومنه نقول إن الخطاب الدعوي إذا اعتمد نماذج من الدورات المعروضة على "الفيسبوك"⁽¹⁶¹⁾، أو على "جوجل"⁽¹⁶²⁾، من أجل الاستفادة منها، ومن أجل محاكاتها في بناء دورات تكوينية خاصة به، فإنه يكون قد اهتدى إلى الطريق السليم الموصل إلى البغية والهدف.

إننا نرى أن عقد الدورات التكوينية لفائدة الدعاة يجب أن يتميز بمجموعة مميزات تفصله عن غيره؛ فالدعوة ليست تجارة ولا صفقاً بالأسواق، وليست مهارة حياتية عابرة تنتهي مهمتها بانتهاء إقبال الناس عليها، ولكنها عطاء سرمدى وإصلاح دائم للمجتمع، ومردود تجاري أخروي لا يبور؛ حيث لا يناظره مردود دنيوي في أي مستوى من مستوياته. ولذلك، فإننا نرى أن نعرض ما يتميز به عقد الدورات التكوينية لفائدة الدعاة في الآتي:

أولاً: تنظيم الدورات التكوينية

لما كان موضوعنا يتخذ شبكات التواصل الاجتماعي منطلقاً في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإن عقد الدورات التكوينية لفائدة الدعاة ينبغي له أن يبقى ملتزماً بالحدود التي يفرضها ذلك النطاق. وهو نطاق واسع رغم كونه يلخص في بضع كلمات.

ونحن نروم التعامل مع ذلك النطاق تعامللاً تدرجياً، يمكن الدعاة من تنمية مهاراتهم في الاستفادة منه؛ فنبدأ بالسَّير بسَّير ضُعفائهم، ونرتقي مع من اشتد عوده واستوى على سُوْقه، ونطلب الذروة والسنام مع السابقين منهم بإحسان في هذا الميدان. وليكن ما نرومه محدداً على الصورة الآتية:

- دورات تكوينية في كيفية استخدام شبكات التواصل الاجتماعي:

من الدعاة ثلة وافرة العدد لم تعرف إلى الشابكة طريقاً، ولم تعرف مناصاتها ولا مواقع شبكات التواصل الاجتماعي منها. ولذلك، فهي طائفة يستعصي على الخطاب

161. ينظر الرابط: <http://bit.ly/3luAX7B> - تاريخ الاطلاع: 2021/03/15.

162. ينظر الرابط: <http://learndigital.withgoogle.com/maharatgoogle/courses> - تاريخ الاطلاع: 2021/03/15.

الدعوي معها أن يجد طريقه إلى التفعيل، ولاسيما أن تفعيل الخطاب الدعوي الذي ننشده تفعيلٌ يتخذ شبكات التواصل الاجتماعي قاعدةً للانطلاق.

فهذه الطائفة تحتاج منا عقد دورات تكوينية لفائدتها من أجل إقدارها على استخدام هذه الشبكات، وإفهامها أنها شبكات متنوعة، لكل واحدة منها خصائص مميزة، ولكل واحدة منها خدمات قد لا يؤديها غيرها.

- دورات تكوينية في كيفية استثمار خدمات شبكات التواصل الاجتماعي:

من الدعاة طائفة ثانية تفقه كثيراً مما يتعلق بالشابكة وبشبكات التواصل الاجتماعي، فتعرف كيفية استعمالها، وتعرف مداخلها ومخارجها، وتعرف المعلوم منها بالضرورة؛ فهي طائفة قد حققت نصيباً وافراً من المعلومات التي تمكنها من التعامل بما تقتضيه هذه التقنيات الجديدة، إلا أنها بقيت في المحطات الأولى من ذلك. والواجب مع هذه الفئة من الدعاة يفرض أن تعقد لفائدتهم دورات تكوينية تتميز عن سابقتها المخصصة للفئة الأولى بكونها لا تهتم بتعليم الدعاة كيفية التعامل مع الشابكة ومع شبكات التواصل الاجتماعي، ولكنها ترصد امتداداتها التي ينبغي للدعاة أن يعرفوها؛ فإذا كان الداعية يعرف تقنيات الدخول إلى "الفيسبوك"، فيتجول فيها كيف يشاء، وينشر إعلاناته ويرد على دعوات غيره، ويتقن التعامل مع "اليوتيوب" فيفتح الفيديوهات ويختار منها ما يريد، ويقدم ويؤخر، ويقدر على وضع أخباره ومستجداته على "تويتر" و"الإنستغرام" وغيرها، فإن الواجب أن يُنتقل به إلى مستويات أعلى تمكنه من استثمار امتدادات ما عرف، فيميز بين النشر العام والنشر الخاص، ويدرك الآليات التي تمكنه من الوصول إلى إيميلات الفئات التي يستهدفها بخطابه، ويعرف الطرائق التي تخفف المشقات وتبعد العنت.

ثانياً: تتبع مستوى التقدم في امتلاك المهارات

يعد تتبع مستوى التقدم في امتلاك المهارات ومراقبة مستوى التطور الذي يقطعه الدعاة أمراً أساسياً لضمان تحقق المردوديات المنتظرة. فالتتبع مهماز للنفوس من أجل أن تُؤلَّى ما كُلِّفَ به قدره من الاهتمام. ولحكمة بالغة أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى كلف من يتتبع أعمالنا ويحصى لنا، حتى إذا وقفنا بين يديه سبحانه

وجدنا ما اقترفته أيدينا، سواء أكان خيراً أم شراً، معروضاً عرضاً لا يترك شاذة ولا فاذة، ولا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فلولا الخوف من ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً، ويجعل السماوات مفطرة الأديم، ما كان لكثير من الناس أن يَرَعَوْا عن أفعالهم، وما كان لهم أن يعدلوا عن الوقوع في الانحرافات وفي السقطات إلا رغبة في النجاة من ذلك اليوم العصيب الذي تكشف فيه الحقائق، وتتوضح فيه الدواخل، ويحاسب فيه المرء عن نواياه.

وما أظن أن ما يتطلبه عقد الدورات التكوينية لفائدة الدعاة يكون بعيداً عن هذه المشاهد التي ينتجها التتبع، وإن كان بين الحاليين بَوْنٌ شاسع؛ فالمحاسبة والمراقبة من لدن الناس لا تساويان شيئاً حينما تقارنان بمثيلتيهما أمام الله تعالى.

وإذا كانت مآلات التتبع تتحدد في مثل هذا، فإن له مآلات أخرى تتمثل في رصد مواطن القوة من أجل دعمها وتطويرها ورصد مواطن الضعف من أجل إيلائها ما تستحق من العناية من أجل ردم الثغرات فيها؛ ذلك، لأن المرء لما يملكه الإحساس بأن جهة أخرى ترصد ما يقوم به، وتتابع تطورات أعماله فتسجّل التحولات التي تعرفها والانتقالات التي تعيشها من مستوى إلى مستوى، فإنه يُولي ما كُلف به اهتماماً خاصاً، يحرص فيه على الاجتهاد والمثابرة والتميز.

ثالثاً: تنظيم التقويم والتغذية الراجعة

التقويم تطبيقي، والتطبيق هو أفضل معيار لحسن الفهم. فقد يدعي مدع أنه قد أحاط بأمر ذهني جمعاً، فيُسأل عن مستوى فهمه، فيجيب أنه أحاط بكل صغيرة وكبيرة من الأمر كله، ولكن الثقة في ما يقوله لا ينبغي أن تبنى على تصريحاته، وإنما تبنى على تطبيقاته وممارساته.

ولنا في مثل هذا الموقف شاهد من شواهد الحياة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَدَّ وَقَالَ: "إِرْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"،

فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

”إِرجِعْ فَصَلَ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ“ ثلاثاً،

فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي،

فَقَالَ: ”إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعاً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِماً، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِداً، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا“⁽¹⁶³⁾.

فالذي يقوم عليه الأمر كله هو حسن التطبيق؛ فالرجل الذي صلى وادعى أنه قام بما يجب من الصلاة، لم يلتفت إلى حركاته ولا إلى سكناته، وإنما الذي احتكم إليه من ذلك كله، إنما هو التطبيق والممارسة وليس الأقوال والظنون.

وكذلك الشأن بالنسبة للدعاة، فالمعيار الذي نقيم عليه أمرنا في الحكم للدورات التكوينية بالنجاح أو بغيره يتحدد في تمثُّل الداعية للأفكار التي وردت في برنامج الدورة، سواء أكان الأمر يتعلق بكيفيات استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، أم بكيفية استثمار خدماتها، أم باستعمالها استعمالاً إبداعياً متميزاً. فإذا تحقق التمثُّل الإيجابي لما نريد فإن الدورة تكون قد حققت ما نصبو إليه، وإن لم يتحقق ذلك، فالواجب أن نعيد الكرَّة حتى نصل إلى البغية المنشودة والهدف المرصود.

• المطلب الثاني: تقوية التنسيق بين الدعاة

وتبادل التجارب والخبرات بينهم

قد يكون التنسيق قائماً بين الدعاة في بعض المواطن، وقد يكون عطاؤه ظاهراً في بعض المشاهد والسيقات، ولكن ما نراه من ذلك اليوم لم يبلغ معشار ما نرومه له وما نتطلع إلى تحقيقه من مردوديات. فالتنسيق ليس كلاماً يلقي على عواهنه، وهو ليس ادعاء يقتصر على المظاهر السطحية التي تلتقطها العيون من خلال تبادل التحيات والمصافحات والعناق. فتلك مظاهر من المودة وتجليات من المحبة التي ينبغي لها أن تلتزم، ولكنها لا تمثل كل شيء.

163. رواه البخاري في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يُجْهَرُ فيها وما يُدْفَعُ، رقم: 757 / 1، 152، ومسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ، وَلَا أَمَكَّنْهُ تَعَلَّمَهَا، قَرَأَ مَا تيسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، رقم: 397 / 1، 297، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب صلاة مَنْ لَا يَقِيْمُ صَلَاتَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، رقم: 856 / 1، 226، والترمذي في أبواب الصلاة، مَا جَاءَ فِي وَصْفِ الصَّلَاةِ، رقم: 103 / 2.

ومن ثم، فإن التنسيق الذي ننشده ونحن منطلقون من موضوعنا الذي يوجهنا نحو رصد الأدوار التي يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن تؤديها في تفعيل الخطاب الدعوي لمكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش، هو تنسيق يتجاوز الحدود التواصلية التي تكون مؤشرات على التقارب والتواد، فلا يحط رحاله إلا في مواقع تتوجه نحوها جهود الأطراف كلها، وتوضع فيها الخطط المستشرفة للمستقبل لتنجز من خلال إسهام الجميع الذي توزع فيه الأدوار، فيكون كل طرف على ثغرة من الثغرات التي لا ينبغي له أن يؤتي منها⁽¹⁶⁴⁾.

ولما كانت تلك المواقع كثيرة، وكانت التطلعات عديدة، فإن الجهات الدعوية يلزمها التنسيق على أكثر من مستوى، كما يلزمها التشبث بالعمل الجماعي على أكثر من صعيد. ولكي نقصد في المشي ونحدد المقاصد المنشودة، فإننا نحب أن نقف على بعض الجوانب التي إذا اهتم بها الخطاب الدعوي من خلال شبكات التواصل الاجتماعي فإن آثارها تكون بالغة الأهمية على الفرد والمجتمع. وليكن ذلك على الصورة الآتية:

• إقدار الدعاة على رصد الظواهر غير المتفقة مع الوضع الإنساني السليم:

هناك ظواهر أصبحت تكتسح شبكات التواصل الاجتماعي، فأنشئت لها مواقع ومنصات ومدونات، وأصبحت تعقد من أجلها ندوات ومحاضرات ولقاءات بين ممثليها عبر الوسائط الرقمية المختلفة. فأصبحت هذه الظواهر مهددة لتماسك المجتمع، مقووضة لأسسه ودعائمه، قاصدة في سيرها نحو القيم التي تحكمه من أجل تفكيكها وإبطال أدوارها في المستقبل.

ومن تلك الظواهر التي صارت تحت خطاها في إصرار وتؤدة من أجل الوصول إلى أهدافها المنشودة، ظاهرة الإلحاد والمروق من الدين. وقد تنصرف بعض الأذهان إلى أن هذه الظاهرة لا رابط بينها وبين موضوعنا؛ فالظاهرة تنشأ هدماً وبناءً في ما يتعلق بالمعتقد، فهي تستهدف هدم ما هو قائم وبناء نماذج عقدية عليها تمكناها من

164. ندعو إلى الاستفادة في تجميع العناصر الضرورية للتنسيق بين الدعاة، ولا سيما في مشروعهم الجديد الذي يتوق إلى استثمار شبكات التواصل الاجتماعي، مما أورده الأستاذ المفضل فلواتي في كتابه: "منطلقات أساسية في الفقه الدعوي"، سلسلة: "نظرات في فقه الدعوة"، مطبعة أنفو برانت، فاس، 2002م.

التحرر من العقائد القائمة على وجه الأرض، ولا سيما ما كان منها ديناً سماوياً، والموضوع الذي نخوض فيه موضوع حددت أطرافه منذ البدايات الأولى، فكانت على صورة الأثافي التي لا ينبغي لواحدة منها أن تتخلف عن أداء دورها، متمثلة في شبكات التواصل الاجتماعي، والخطاب الدعوي، ومكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك. وهي مكونات لا يتصل أحدها بموضوع الإلحاد من أي زاوية من زواياه، ولا من أي ركن من أركانه.

والواقع، إن هذه الرؤية قاصرة عن الإحاطة بالأمر جمعاً؛ فهي ترى من المكونات مظاهرها الخارجية وتغفل عما كان من بواطنها. إنها تنسى أن الإلحاد ليس شيئاً آخر غير كراهية الدين ومعاداة أهله والسخرية مما آمنوا به. وهو ما يدفعها إلى رص صفوفها، وتنظيم جيوشها، وتسليط الأضواء عليها، من أجل أداء أدوارها أداء لا يبغي من الإيمان بالله على وجه الأرض شيئاً.

إن كراهية الدين لدى هذه التلة من الناس كراهية متجذرة عبر التاريخ. وقد نطق بها القرآن الكريم في سياقات مختلفة، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)﴾ (القلم: 51-52)، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41)﴾ (الفرقان: 41)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33)﴾ (المطففين: 29-33).

وإذا توضح هذا الأمر كما يتوضح الصبح لذي عيين، فأفحم القائل، فإن جهات أخرى يمكن أن تنبري لمداغة ما نقرره في هذه السطور، فتدعي أن حرية الاعتقاد قد قررتها الجهات العليا في العالم، وصارت من مبادئها الأساسية التي لا ينبغي أن يزيغ عنها إلا مخالف للأعراف الإنسانية. ومن ثم فإن الإلحاد ما هو إلا موقف من الاعتقاد يبنني على السلب بدل أن يقوم على الإيجاب؛ فكما أنه كان من حق طائفة من الناس أن تؤمن بالله تعالى، فإن من حق طائفة أخرى أن تتخذ منه مكاناً قصياً.

إن الخطأ الفادح الذي يغفل كثير من الناس عن تصحيحه يتمثل في وصفهم الكافر أو الملحد بكونه لم يعد معتقداً في وجود إله. والحق غير هذا، فالملحد حينما يبتعد عن الله تعالى فيولي عنه وجهه، فإنه ينصب إلهاً آخر، فيطيعه، ويستجيب لما يأمره به ويوجهه إليه. إنه الهوى ولا شيء غيره. فموطن الإيمان من النفس، حين الإعلان عن الكفر والإلحاد، لم يعد فارغاً من كل إيمان، ولكن صاحبه يكون قد استبدل إلهاً بآله ومعبوداً بمعبود.

لقد نطق القرآن الكريم بهذا، فقال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) ﴿﴾ (الفرقان: 41-44). فكل من كان في طاعة الهوى في دينه- حسب عبارة الزمخشري في الكشاف- ”يتبعه في كل ما يأتي ويذر، لا يتبصر دليلاً ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه“⁽¹⁶⁵⁾.

ولقد وردت الشواهد تترى بأن القوم لم يكونوا على شيء؛ حيث كان الرجل من المشركين ”يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبد، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه“⁽¹⁶⁶⁾. ولذلك، فإن القرآن الكريم توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالألّا يتأسف على من كانت هذه صفته، فأمره بأن يدعهم لرأيهم، ولا يحسب أنهم على ما يجب من التحصيل والعقل⁽¹⁶⁷⁾.

إن وجود الظاهرة على شبكات التواصل الاجتماعي وجود يستفحل يوماً بعد يوم، وإن انعكاساته على مستعملي هذه الشبكات، في ظل اجتهد جهات أخرى في محاصرة الدين وتجفيف منابعه، صارت واضحة جلية. ولذلك، فإن التنسيق بين الدعاة ينبغي أن يكون على قدم وساق من أجل الوقوف في وجهها، ومحاصرتها، والتخفيف من غلواء كراهية الدين التي تدعو إليها.

وإلى جانب هذه الظاهرة الخطرة، هناك ظاهرة أخرى لا تقل خطورة عنها. إنها المتمثلة في الإدمان على المخدرات. وهي ظاهرة تقوم على كراهية الوضع السوي في

165. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 3/ 282.

166. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 19/ 274.

167. المحرر الوجيز، ابن عطية، 4/ 211.

المجتمع؛ فاعتماد العقل في السير، والتزام قواعده المتفق عليها في السلوك، كل ذلك أصبح مرفوضاً من لدن هؤلاء، ولا سيما بعد أن استتب الأمر لتوجهات فلسفية في الواقع؛ فصارت الدعوات ترفع جهاراً نهاراً نحو التقليل من حدة الشعور بمخاطر ما يذهب العقل ويقتل المروءة ويضيع الانضباط.

ومن ثم، فإن الواجب على المشتغلين بالخطاب الدعوي أن يولوا اهتماماً لهذه الظاهرة الشاذة التي تذهب بالعقل الجمعي للمجتمع فلا تبقى في رشده، وتثير العداوات والمشاجرات التي يكون أساسها الاستجابة للنزوات النفسية الخاصة. والكراهية إذا لم تكن واضحة كما في سابقتها، فإنها تعمل في خفاء، فيصير المتعاطي للمخدرات منبوذاً ممجوجاً مدفوعاً من القلوب، كما يصير المجتمع في عينيه على الشاكلة نفسها.

ومن أخطر ما يذكر في هذا السياق ظاهرة الشذوذ المنظم التي تقوم على كراهية المؤسسات الاجتماعية التي تنظم الحياة وتربط بين الأطراف التي خلق الله بعضها لبعض، فجعل الرابطة بينها رابطة تقوم على المودة والرحمة، وغرس في قلوبها الفطرة التي تجعلها تحرص على بناء الأسرة والاعتناء بالأولاد والكد والاجتهاد من أجل أن يعبر هذا المحضن إلى ضفة النجاة بسلام.

والظاهرة حقيقة ليست وليدة اليوم، وليست من مستحدثات الحاضر ولا مما جادت به الموضة؛ فقد وجدت منذ آمام بعيدة. وقد أورد القرآن الكريم ذكرها حين ذكر قوم لوط في معرض اعتراض نبيهم عليهم، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166)﴾ (الشعراء: 165-166).

ولما كان الانغماس في الرذيلة قد تحقق لدى القوم المنحرفين، فقد ردوا عليه رداً منكراً، وتوعدهو بأن يخرجوه من موطنه الذي عاش فيه ردحا غير يسير من الزمن إن لم يتركهم وشأنهم، فحكى الله تعالى قولهم، فقال عز وجل: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169)﴾ (الشعراء: 167-169).

فتاريخية الظاهرة لتبين أنها تنتعش كلما تحققت شروطها من فسق وفجور

وابتعاد عن الدين. واليوم نراها أشد وأعتى؛ فمن كان من أهلها قديماً كانوا أهل قرية واحدة في العالم كله. ولكنهم أصبحوا في أيامنا هذه منضوين ضمن جمعيات ومؤسسات، وتحميمهم تحصينات قانونية وتشريعات تصدرها الدول حيناً بعد حين، وينشرون ما يريدون نشره في مواقعهم وصفحاتهم على شبكات التواصل الاجتماعي التي لا تجد حرجاً في ذلك.

ولذلك، فإن التنسيق بين الدعاة لمجابهة الظاهرة التي أصبحت تغزو العالم عامة، والبلاد الإسلامية خاصة، يعد من أوجب الواجبات لتطهير البلاد والعباد من الرذائل ومن خلفياتها التي تنأى بنفسها عن سبل العفة والأخلاق الفاضلة والمحافظة على القيم.

• إقدار الدعاة على تسخير شبكات التواصل الاجتماعي في اقتحام البؤر الأشد عتياً:

من القضايا الملحة التي تحتم على الدعاة التفتح على شبكات التواصل الاجتماعي من أجل مكافحة خطاب الكراهية التوجه نحو البؤر التي ينتعش فيها هذا الخطاب، ويعلو فيها صوته، وترى انعكاساته رأي العين على المستضعفين من الناس، كقبيلة الروهينجا في إقليم أراكان (مقاطعة راخين)، وشعب الإيكور (في إقليم شينجيانج).

وقد يظن ظان أن الدعوة إلى اقتحام هذه البؤر الأشد عتياً على المستضعفين سيكون لها انعكاس وخيم، فتشدد وطأة الجابرة على من هم تحت أيديهم، على الصورة التي رأيناها منهم في سنوات ليست منا ببعيدة. وهل من وطأة أشد عليهم مما هم فيه؟! ولقد تحدت وظيفة القرآن الكريم من لدن الله تعالى في قوله العزيز: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97)﴾ (مريم: 97).

إن المشكلات القائمة التي يعانها الشعبان معاً مشكلات مؤسسة على خطاب الكراهية؛ فقد توجهت الجهات الرسمية والدينية والمجتمع برمته⁽¹⁶⁸⁾ في ميانمار،

168. في إقليم أراكان، تولّى كثير هذه الأفعال الراهب البوذي "يو إراثو"، فأوقد نيران الكراهية التي لم تنطفئ فداً على الروهينجا، وما لبثت كلماته أن تحولت إلى أفعال، فكان من نتائجها أن مرق الشعب كل ممزق. وفي إقليم شينجيانج، تولت الجهات الرسمية في الصين عمليات التعذيب والاعتصاب وغسل الأدمغة من الثقافة الإسلامية، وحشوها بمبادئ الحزب الشيوعي الحاكم وشعاراته، في مخيمات ستمها مراكز إعادة التأهيل المهني والتدريب والفداء، طلباً "للتحول عبر التعليم".

لتأليب القلوب ضدّاً على قبيلة الروهينجا، عبر الخطب والدعايات، فكان لها ذلك، وما لبث الأمر حتى تطور إلى أفعال بغيضة وممارسات يندى لها الجبين؛ فساد القتل الممنهج القائم على الخطط المسبقة، وارتكبت الجرائم، واغتصبت النساء، وقتل الرجال، وأضرمت النيران في المنازل، وألقي الأطفال في اللهب المشتعل.

وأما شعب الإيكور في إقليم شينجيانج، فقد توجهت الدولة نحوه. وهو شعب يضم أكثر من 10 ملايين من المسلمين. ويقبع منهم الآن مليون معتقل في مساحة تعادل مساحة 140 ملعب كرة قدم. وهي مساحة شاسعة مما يعكس أعداد المعتقلين في ظروف غير إنسانية؛ قذارةً، وتجويعاً، وتعذيباً بالليل والنهار، فيجبرون على عدم الإيمان بالدين، ويوقعون على ذلك؛ رغبةً من الدولة في تطهير المسلمين من الأمراض الإيديولوجية!

فالمشكلتان إذن ليستا عائدتين إلى منافسة على سلطة أو حكم أو ثروات أو غيرها، مما يعد أصولاً معتادة للمشكلات التي نجدها بين الشعوب والأمم، ولكنهما عائدتان إلى الاختلاف الديني والعقدي؛ فالروهينجا مسلمون وغيرهم بوذيون استشفروا المستقبل فأرأوا أنهم مهددون من لدن المسلمين، فاستبقوا الأحداث وفعلوا فعلاّتهم التي فعلوا فأتت على الأخضر واليابس فلم تبق ولم تذر.

وأما الإيكور فهم مسلمون أيضاً، تشبثوا بدينهم وبثقافتهم الإسلامية في ظل حكم شيوعي مستبد، فنّبّه بعضُ حكامهم إلى أن الثقافة الشيوعية لم تؤثر في هؤلاء ولو قيد أنملة، بعد سبعين سنة من الحكم الشيوعي، فوجهوا طاقاتهم نحو تغيير الثقافة وتحويل المستضعفين عن اختياراتهم التي تمسكوا بها قروناً طوالاً، وإخضاعهم لتعليم بمواصفات خاصة يمكنهم من غسل الأدمغة وتطهير هؤلاء مما يخالف الثقافة الشيوعية.

إن الملاحظ أن أي جهة لم تتدخل تدخلاً فعالاً من أجل حماية المسلمين من مآلات خطاب الكراهية. وكل التدخلات كانت تتخذهم ورقة ضغط للظفر ببغية سياسية، أو تقرب اقتصادي، أو تزلف ودغدة للمشاعر بإبداء الميل لجهة الغالب على حساب المغلوب.

وفي هذه الظروف، لا يبقى مسوغ أمام الخطاب الدعوي ليتأخر أكثر، ولا سيما أن تدخله سيكون عن بعد، عبر شبكات التواصل الاجتماعي؛ فكما يستغل مُروِّجُو خطاب الكراهية هذه الشبكات في تأجيج ما لم يؤجج، فإنه ينبغي للدعاة أن يتوجهوا بالخطاب الوسطي الذي يوضح الحقائق ويبدد الغموض ويزيح الغشاوة المنسدلة على الأعين، حين يكون المخاطبون من الأبعد أو ممن تلقوا تعليل الظلم من جهة واحدة فلم يكلفوا أنفسهم تلقي غيره من الآراء من جهات أخرى. وحين يكون المخاطبون من الضحايا، فإن الخطاب الدعوي يلزمه أن يتوجه إليهم بما يجعل جراحهم تندمل، ويفتح لهم أبواب الأمل بتذكيرهم بما لقيه أناس آخرون عبر التاريخ في سبيل تمسكهم بدينهم، فكانت لهم البشرية بأن لهم الجنة⁽¹⁶⁹⁾.

169. يمكن للخطاب الدعوي أن يذكرهم بما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين، فيعرض بين أيديهم قول الله تعالى: (وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قَتَلْنَا أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ (4) النَّارُ ذَاتَ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُعُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)) (البُورِج: 1-9). وبما لاقاه السابقون الأولون من المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم الذين كان يمتد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون، فيقول: "اضْبِرُوا آلَ يَاسِرٍ، فَوَعَدَكُمْ الْجَنَّةَ". رواه الطبراني في المعجم الكبير، في مسند النساء، باب السنين: سَمِيَّةُ بِنْتُ خَبَّاطٍ "مَوْلَاةُ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُخْرُومٍ أُمُّ عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَكَانَتْ مِنْ غَدَبٍ فِي ذَاتِ اللَّيْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا"، رقم: 769، 303 / 24.

المبحث الثاني: تمكين الدعاة من التقنيات التواصلية المؤثرة

• المطلب الأول: ترسيخ اللّمسات الخُلقية المؤثرة

من صفات الداعية الناجح أن يستهوي القلوب ويشد الأبصار ويجعل الأسماع تتعطش إلى الإصغاء إليه. وهي صفات إذا اجتمعت في الداعية، فإن فضله لا ينحصر فيه، فيتجاوزه إلى أن يكون عاملاً من عوامل تفعيل الخطاب الدعوي كله.

فإذا كان تحديد هذه الصفات مطروحاً في الطريق؛ حيث يقدر على جردها ورصفها كل من أولاهما قدراً من الاهتمام، فإن المشكل الأكبر بهذا الخصوص يتمثل في كيفية الاتصاف بها وتمثلها والوصول إلى جعلها مقومات يتميز بها الداعية لِيُفَعِّلَ بها الخطاب الدعوي، فيؤتي أكله في نفوس المستهدفين به، فيقتربون بعد بَعْدٍ، ويعتقدون فيه بعد نفور، ويستجيبون لما يدعون إليه بعد إدبار.

إن هذه الصفات لا تتحقق وحدها، ولكنها تتأسس على غيرها؛ فلكي يكون الداعية ناجحاً أخذاً بتلابيب نفسيات المستهدفين بخطابه ينبغي له أن يكون متمثلاً لصفات ترتبط بسلوكه أكثر مما ترتبط بكلامه وخطبه. ونفضل أن تكون لنا معها وقفات في الفقرات الآتية:

• التزام الرفق واللين:

ليتحقق تفعيل الخطاب الدعوي بالطريقة التي ننشدها له، فإن الداعية يلزمه أن يكون لين الجانب، مرن التعامل. وقد تختلف طبائع الناس بخصوص هاتين الصفتين؛ فكم من الناس يميل في قوله وفي فعله نحو الشدة والخشونة، وكم منهم من آتاه الله تعالى رقة ودمائة وخفض جناح، فتراه ملتزماً إياها في كل حال. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إلا أن الأمر إذا كان عائداً إلى الجِبَلَّةِ التي جُبِلَ عليها المرء منذ أول وهلة، فإن التدريب عليه والحرص على التزامه وتفقدته في الأحوال والمواقف المختلفة، يمكّن صاحبه من أن يحقق منه نسبة ليست بالهينة، فيظهر بمظهر الناس الذين جبلوا عليه أول مرة. والذي يبدي حقيقة ما نذهب إليه من ذلك، فيتبين منه أن صفات اللين والمرونة وخفض الجناح يمكن أن تكتسب بفعل الدربة والمران، قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ

مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴿﴾ (آل عمران: 159). فرحمة الله تعالى تمثل المنطلق الأساس والمظلة الجامعة التي ترعى كل فعل من الأفعال، وتوجه كل سلوك من السلوكات؛ فالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر كلها عزائم مرتبطة بالإرادة الشخصية التي يكون لها مردود عظيم على العلاقة بين الطرفين، والتي يؤول مفعولها إلى الاستجابة وإبداء الطاعة والعمل من أجل إنجاح المشروع الدعوي برمته.

وينسجم مع هذا الأمر توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لأَمِ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقوله الشريف: "إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ"⁽¹⁷⁰⁾؛ حيث يجعل الحديث النبوي الرفق ذلك المكون الذي يكون لحضوره المفعول الذي لا يضاهيه غيره في تجميل كل شيء. وكلمة شيء، كما نعلم، هي أنكر النكرات، كما هو مقرر عند النحويين والبلاغيين. فإذا أطلقت في الحديث فإن المقصود منها هو أن تحقق جمال كل شيء يكون مقصوداً على حضور الرفق فيه، فإذا غاب الرفق فصار مجرداً منه، فإن أمره ينقلب رأساً على عقب، فحتى إذا تحقق وجود الشيء فإنه يكون فاقداً لذته ومتعته وجماليته.

وكذلك الشأن بالنسبة للخطاب الدعوي، فإنه إذا أشرب بصفات الرفق واللين والمرونة، فإنه يكون قد حقق لنفسه شرطاً أساسياً من الشروط الضرورية الداخلة في صناعة الجمال فيه، فيقبل عليه الناس؛ أباعد وأقارب، ويتفاعل معه كل من يتمكن من طرق أبواب نفسه تفاعلاً إيجابياً.

• احترام المتلقي وتقديره:

من العناصر التي تتدخل في تفعيل الخطاب الدعوي عنصر احترام المتلقي. وهو عنصر قد لا ينصرف إلى ما يتبادر إلى أذهاننا مما تستوجبه كلمة الاحترام في المواقف الحياتية العادية، فينصرف إلى ما يتعلق بممارسة الدعوة أمام جمهور مستهدف بها. وأول ما يقتضيه احترام المتلقي اختيار المعجم الذي يبقى الخطاب ذا نكهة ممتعة،

170. رواه مسلم في كتاب الأَلْبَرِ وَالصَّلَوةِ وَالْأَذْيَابِ، بَابُ قُطْلِ الرِّفْقِ، رقم: 2594، 4/ 2004، وأبو داود في كتاب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ الْهَجْرَةُ وَشُكْنَى الْبُذُو، رقم: 2478، 3/ 3، وأحمد، 467/ 42.

فلا ينحط إلى الخوض في سفاسف الأمور، ولا يتسلق الأبراج العاجية التي تتجاهل الطبقات التي يكون مستواها المعرفي هيناً.

ولننظر إلى التوجيه القرآني إلى احترام المتلقي- وهو ليس متلقياً عادياً، فقد كان أشد على الرحمن عتياً- إنه فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية، فقال الله تعالى بشأن ادعائه الأول: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِكْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (20) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (21) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ (22) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24)﴾ (النازعات: 15-24). وقال سبحانه بشأن ادعائه الثاني: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: 38). ولكن التوجيه الإلهي لموسى وهارون عليهما السلام يلح عليهما بأن يبدأ احتراماً للمقصود بخطابهما، فقال سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّهٗ لَيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44)﴾ (طه: 43-44).

لقد نازع متلقي الخطاب الدعوي الله سبحانه في صفاته العليا. وكان من الممكن أن تكون عاقبته على صورة غير محمودة بعد اتخاذ المواقف اللازمة، ولكن القدر أبى إلا أن يعلمنا الكيفية التي ينبغي أن نتعامل بها حينما ندعو إلى الله، وحينما نهدف إلى إصلاح أخلاق المجتمع بإبعاده عن كل ما يعكّر صفو الحياة فيه من حقد وغلٍّ وكراهية قاتلة.

• اصطحاب الابتسامة الدائمة:

يشدني إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الابتسامة شداً. فكيف تصنف الابتسامة في جملة موارد الصدقات والأجور، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم بشأنها، في ما رواه عنه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: ”تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّيِّئِ الْبَصَرَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوْكَ وَالْعِظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ“⁽¹⁷¹⁾.

171. رواه مسلم في كتاب صِلَاة الْمُسَافِرِينَ وَمَقْرِهَا، باب اسْتِخْبَابِ صِلَاة النَّحْسِ، وَأَنْ أَقْلَهَا رَجْعَتَانِ، وَأَقْلَمَهَا ثَمَانِ رَجْعَاتٍ، وَأَوْسَطُهَا أَرْبَعُ رَجْعَاتٍ، أَوْ سِتٌّ، وَالتَّحْتُ عَلَى الْمَخَافَةِ عَلَيْهَا، رقم: 498 / 1، 720، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب صِلَاة النَّحْسِ، رقم: 1285، 26 / 2، والترمذي في البِرِّ وَالصِّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب مَا جَاءَ فِي ضَائِعِ الْمُغْرُوفِ، رقم: 339 / 4، 1956، واللفظ للترمذي.

إن تتبع موارد الصدقات الواردة في الحديث النبوي يكشف عن كونها جميعاً تتطلب بذل الجهد وتحمل المشقة، إلا التبسم في وجه المؤمن، فإنه لا يكلف شيئاً، ولا يخرج مალًا من جيب، ولكن مردوده النفسي، وإسهامه في بناء المجتمع ورص صفوفه ومحو الضغائن منه جعله من تلك الموارد التي لا يتحقق عطاؤها إلا بفعلٍ يُفَعَّل وجهه يُبَدَّل.

وقد يكون الداعية قد جمع فأوعى، وحاز المعارف كلها؛ صغيرها وكبيرها، ولكنه حين يبدو لمتتبعي خطابه وهو عبوس قمطير، مكفهر الوجه، مقطب الجبين، مقوس الحاجبين، خشن الألفاظ، فإن معارفه كلها توضع في مهب الريح، وحنكته في التبليغ لا يكون لها طائل البتة. ومن ثم، فإن طلاقة المحيّا، وخفض الجناح، والتبسم في الوجوه المتلقية، تكون هي العوامل المفعلة لخطاب الداعية، كما يكون غيابها مبطلًا لكل تلك الصفات والمميزات.

وإذا كان مرامنا المنشود متمثلًا في استثمار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإنه لا يجوز بأي وجه أن نقصد شيئاً ونحن مجردون من العناصر التي تحيل عليه؛ فخطاب الكراهية يتلاءم تلاؤماً واضحاً مع اكفهرار الوجه وتقطيب الجبين وتقويس الحاجبين وخشونة الألفاظ. وإذا كنا ننشد التعايش الإنساني المشترك، فإنه يتوجب علينا أن نتصف بمقابلات الصفات المحيلة على الكراهية.

إن التحلي بالابتسامة الدائمة ليعد آلية تأهيلية مؤثرة، فإذا وُجَّه الدعاة نحوه، فإن مردوده عليهم وعلى خطابهم الدعوي يكون مردوداً ذا شأو عظيم. وقد يبدو التزامه لمن لم يألفه صعب المآل، بعيد الشُّقة، ولكنه حقيقة يسير على من يسره الله عليه؛ فهو لا يحتاج سوى تغيير ملامح الوجه وإطلاق عضلاته والتزام الدربة والمران في ذلك. وإذا تدبر المرء الحالين معاً؛ الحال المصطحبة للابتسامة والأخرى المجردة منها، فإنه يجد عضلاته تُجهد وطاقاته تُنفق في الحال الثانية، ويرى أنها مستريحة غير مكدودة في الأولى. ولذلك، فإن الواجب أن يلتزم السير، وأن يُعَصَّ بالنواجذ على السهل غير العسير.

• خفض الصوت إلا لضرورة:

من الصفات التأهيلية التي ينبغي للدعاة أن يجتهدوا في التزامها خفض الصوت حين الحديث. وخفض الصوت لا نقصد به الحال التي يكون عليها صوت غير مسموع، ولكننا نقصد به التزام الوسطية فيه، إلا لضرورة. ولقد كان التوجيه القرآني واضحاً لما أمر الله تعالى بغض الصوت والاقتصاد فيه، فقال عز وجل حاكياً توجيهات لقمان عليه السلام لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)﴾ (لقمان: 17-19).

فوصية لقمان الحكيم شاملة محيطية بأساسيات العلاقات في الحياة، إلا أننا اقتصرنا على إيراد ما يستدعيه المقام. والغض من الصوت يعني النقص منه. وقد وقف المفسرون على هذا المعنى فقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي انقُصْ مِنْهُ، أَي لَا تَتَكَلَّفْ رَفْعَ الصَّوْتِ وَخُذْ مِنْهُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْجَهْرَ بِأَكْثَرِ مِنَ الْحَاجَةِ تَكْلُفٌ يُؤْذِي⁽¹⁷²⁾.

وهو ما أشار إليه الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، فقال: "وَالْغَضُّ: نَقْصُ قُوَّةِ اسْتِعْمَالِ الشَّيْءِ (...) فَغَضُّ الصَّوْتِ: جَعْلُهُ دُونَ الْجَهْرِ (...) وَلَكِنَّهُ لَا يَبْلُغُ بِهِ إِلَى التَّخَافَتِ وَالسَّرَارِ"⁽¹⁷³⁾، ما لم يكن هناك داع إلى الرفع أو إلى الخفض. وما ذلك إلا لأن لخفض الصوت مردوديات جمّة نفسية وجسمية، فهو "أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه"⁽¹⁷⁴⁾.

فينبغي لهذا التوجيه القرآني الكريم أن يفَعَّلَ بين الدعاة، فيعلموا أن الطرائق التي كان فيها رفع الصوت مميزاً للداعية المصقِّع المفوّه، لم يعد لها طائل في الحياة إلا بمسوغ يتبصّر فيه الداعية الشروط التي تحيط به، والتي تفرض عليه أن يخاطب الناس تبعاً للسياق الذي يوجد فيه.

172. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 14 / 71.

173. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 21 / 168.

174. المحرر الوجيز، ابن عطية، 4 / 351.

• المطالب الثاني: تمكين الدعاة من تمثيل صفات الأمانة الدعوية في التواصل

مما يلفت الانتباه في الخطاب القرآني بخصوص الدعوة إلى الله أنه خطاب ينبني على الأمر؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125). فالألفاظ التي تنقل التعبير من القول إلى الفعل، ومن السكون إلى الحركة، متمثلة في الأفعال: ”ادع“، و”جادل“، هي أفعال موجهة إلى الإنجاز المستقبلي، وهي أمر منصرف بالمخاطب إلى فعل ما لم يفعله بعد.

ومن ثم، فإن الدعوة وما حام حولها من توجيهات تبدو ذات حمولة تتطلب بذل الجهد وإنفاق الطاقة؛ فكلمة ”ادع“ تتطلب الاستجابة الفورية للأمر الإلهي، وتفرض على المخاطب الارتقاء بعزائمه وإراداته إلى المستويات التي تؤهله لاقترام المدعويين وهدم الجدر الحائلة بينهم وبين إطلاعهم على الدين وتمسكهم بتعاليمه.

كما أن كلمة ”وجادلهم“ تتطلب تحقيق الاستعدادات اللازمة التي تمكن الداعية من أن يكون لخطابه مردود إيجابي، وأن يكون لحججه النصيب الأوفى من الإقناع والظهور، فتصيب ثلثة الأثافي من حجج الخصوم، وتعرض الحقائق واضحة لأحبة؛ فتجلي مواقع القوة والتميز من دين الله، وتكشف عن الترهات التي يتمسك بها المخالفون حتى يروا أنهم إنما يتمسكون بما وهى من خيوط العنكبوت.

فأمر الدعوة إلى الله، من هذا المنطلق، يتطلب تحقيق الاستعدادات اللازمة والشروط الضرورية لدى الداعية قبل شروعه في دعوته⁽¹⁷⁵⁾. وهو أمر يجعل الدعوة أمانة ينبغي لمن تولاها أن يوليها ما تستحق من الاهتمام.

لقد كان لهذه الشروط والاستعدادات أثر بَيِّن في توجيه أذهان بعض المفسرين إلى تفهيم المدعويين وتنويع طرائق الدعوة؛ فقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير القرآن

175. نجد من تلك الشروط ما فسر به الطبري قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (125)، فحددها في توفير الاستعدادات النفسية لممارسة الدعوة إلى الله بتعريف الخلق بشريعة الله، والتزام ما يدعو إليه الوحي، والتمسك بالموعظة الحسنة القائمة على العجز والعجز والقصص الحق، والقدرة على المجادلة؛ عفواً وصفحاً ودفعاً بالتي هي أحسن. ينظر: جامع البيان، الطبري، 321 / 17.

الحكيم (تفسير المنار): أن "دَعْوَةَ النَّبِيِّ عَلَى مَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ التَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ وَتَأْثِيرِ رُوحِ الْوَحْيِ لَهَا ثَلَاثَةُ مَظَاهِرٍ"⁽¹⁷⁶⁾. وهي مظاهر تتنوع بتنوع المخاطبين الذين يفرضون على الداعية أن ينوع خطابه تبعاً لتنوعهم، وأن يسخر طاقاته المختلفة حسب ما تقتضيه طاقاتهم. وهو ما نعرضه في الآتي:

1. التزام الحكمة: وقد جعله المفسر خاصاً بالعقل وأهل النظر، فقال: "فَالْحِكْمَةُ مَا يُدْعَى بِهِ الْعُقَلَاءُ وَأَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ".

2. والتزام الموعظة: وقد خص بها العوام، فقال: "وَالْمَوْعِظَةُ مَا يُدْعَى بِهِ الْعَوَامُ السُّدُجُ".

3. والتزام الجد: وقد صرفه للمتوسطين الذي يستقرون في منزلة بين المنزلتين، فقال: "وَالْجَدَلُ بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ لِلْمُتَوَسِّطِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَقُوا إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ لِطَلَبِ الْحِكْمَةِ وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَى الْمَوْعِظَةِ بِسُهُولَةٍ، بَلْ يَبْحَثُونَ بَحْثًا نَاقِصًا، فَلَا بُدَّ مِنَ الْحُسْنَى فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ"⁽¹⁷⁷⁾.

إن كل خلل في التزام ما ينبغي التزامه في ممارسة الدعوة إلى الله؛ حيث يُوظَّف أسلوب مكان أسلوب، أو تُخاطَب فئة بما ينبغي أن تُخاطَب به أختها، يؤدي إلى عواقب قد لا تكون خاطرة على بال، فيجد الداعية العنت والمشقة والمواقف السلبية من لدن الآخرين. وذلك ما يوضحه محمد رشيد رضا بقوله: "وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرُ مَا يُصِيبُ الدَّاعِيَ إِلَى الْخَيْرِ مِنَ الْأَذَى نَاشِئًا عَنْ طَرِيقَةِ الدَّعْوَةِ وَكَيْفِيَّةِ سَوْقِهَا إِلَى الْمَدْعُوِّ"⁽¹⁷⁸⁾.

إن الدعوة إلى الله باعتبارها أمانة لا يبقى أمرها مقصوراً على التطلع النفسي والحماس العاطفي لأن يبلغ بها الدينُ مواقع الذرى؛ فيَقْدَم فيها ما حَقُّه التأخير، ويُستعمل في سياق منها ما يكون استعماله في سياق آخر أكثر نفعاً وأغزر عطاءً، ولكنه يفرض على القائمين بها أن يكونوا أهلاً لتلك المهمة التي هي مهمة الأنبياء.

176. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، 3/ 216.

177. المرجع نفسه.

178. المرجع نفسه، 4/ 27.

فأمانة الدعوة من خلال هذا تقتضي أن يؤهل القائمون بها؛ فكثيراً ما نرى وجوهاً اقتحمت المجال وأخذت في القول محكومة بالجموح الذي يدفع إليه التطلع إلى إصلاح الواقع بين عشية وضحاها، غير مستحضرة ظروفها ولا شروطاً ولا سياقاً ولا تاريخاً ولا تربُّصات، فتقول ما لا ينبغي أن يقال، وتستفز هذا وتثير الآخر وترمي ثالثاً بالمرقوق والضلال، فينقلب الأمر رأساً على عقب، وتوجّه القوى المختلفة الضروب والألوان شركاءها للدعوة ولمن حام حولها ليدوقوا ما لم يكن خاطراً على بال، بسبب تصرف طائش أو قول غير محسوب العواقب.

ومن ثم، فإن تأهيل الدعاة في الجانب التواصلي أمر ذو بال؛ فمن لم يجد في نفسه القدرة اللازمة على القيام بأمر الدعوة، فإنه لا يكون واجباً عليه؛ حيث إن هناك "طَائِفَةٌ يُعِدُّونَ لَهُ عُدَّتَهُ" (179). ولذلك، فإن اعتبار الخطاب الدعوي أمانة، يقتضي ألا يُتَعامَل معه كما يُتَعامَل مع الإشهار، أو مع مجالات الترف الفكري أو الخطابية؛ فلا مجال للخوض فيه بدون عُدّة، ولا مجال فيه للتعامل باستهتار.

فإذا أُخضع الداعية للتأهيل في هذه الجوانب، فإنه يكتسب قدرة على ألا يتحرَّج من عدم معرفته جواباً عن سؤال يتقدم به إليه أحد السائلين، ولا يجد في نفسه ما تدعو إليه المنافسة حين ذكر غيره من الدعاة؛ خيراً وشرّاً، ففي الحال الأولى، لا يبدي امتعاضاً داخلياً كما يبديه من لم يتمثل الأخلاق الفاضلة، وفي الحال الثانية لا يسارع إلى تزكية ما يسمع عن يشاركه احتلال الصفوف الأولى من المجابهات، بالضحكات الساخرة، والألفاظ الفجّة، والحركات التي تحطُّ من قدر المتحدث عنه؛ رغبةً في أن يعلو مقامه بين المقامات.

• المطلب الثالث: تمكين الدعاة من امتلاك المؤثرات المظهرية والإخراجية

لقد أثر عن الأولين قولهم السائر: لباسك يرفع بك قبل سلامك، وكلامك يرفع بك قبل مقامك. وهو قول صحيح إلى أبعد الحدود؛ فالعين تتبع المظهر وتنشد إليه قبل التفتيش في دواخل المخبر، والذهن يمنح المتكلم قدره انطلاقاً مما ينطق به من كلمات وما وجود به من أفكار.

179. المرجع نفسه، 4/ 29.

ومن هذا المنطلق، نريد أن نستثمر هذه الحقائق المرتبطة بالمؤثرات المظهرية والإخراجية في تفعيل الخطاب الدعوي. فكلما كان الداعية مهتماً بهذين المدخلين، إلا وكانت الممهدات تسبقه لقبول ما يدعو إليه. فالناس يحددون درجة تقديرهم لما يعرض بين أيديهم انطلاقاً من درجة تقدير صاحبه له. ولذلك، فقد كان الدعاة الأولون يبذلون قصارى جهودهم في الظهور بالمظهر اللائق بالداعية؛ هنداماً، وصوتاً، وجلسة. وما كان ذلك ليصدر عنهم إلا لما يعلمون من مردودياته وأفضاله.

وقد يكون أكثرُ الدعاة شهرةً في هذا الجانب، مالك بن أنس يرحمه الله تعالى؛ فقد سارت بأخباره الركبان، وأكدت حرصه على جعل المظهر من الوسائل المحققة لنجاح الخطاب. فقد روى القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أنه كان يولي درسه، ولا سيما إذا كان قائماً على الحديث النبوي الشريف، ما يستحق من الاهتمام، ويتفقد الشروط المحيطة به أياً تفقد، فأورد ما ذكره مطرف من أن مالكا كان "إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل، خرج إليهم فأتاهم. وإن قالوا: الحديث، قال لهم: اجلسوا ودخل مغتسله، فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جديداً ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه طويلة، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم، وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع. ويوضع عوداً، فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" (180).

فكأننا بالإمام مالك حين يهتم بدرسه حتى هذه الحدود، يكون قد درس نفسيات المتلقين، وترقب عائدات الإلقاء عليها. وكأننا به مرة أخرى يكون قد أحاط بما استهوى من كان معاصراً له من تقنيات التأثير على المتلقين. لقد كانت ثقافة عصره تسير في المسار نفسه، وتعتمد القوانين ذاتها؛ فقد احتفظ لنا الجاحظ بكثير من تلك التوجيهات، فروى أن مطرف بن عبد الله كان يقول: "لا تطعم طعامك من لا يشتهيهِ" (181).

180. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)، تحقيق عبد القادر الصحرابي، 1966-1970م، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط 1، 2/ 14.

181. البيان والتبيين، الجاحظ، 1/ 105.

إن القول يقوم على المجاز؛ فالنهي يتجاوز إطعام الطعام إلى إسماع الكلام. وهو ما شرحه الجاحظ بقوله: "لا تُقبل بحديثك على من لا يُقبل عليه بوجهه" (182).

ولما كان اهتمام أهل المرحلة التي كان يعيش فيها الإمام مالك يرحمه الله تعالى، وما قبلها، اهتماماً صادراً عن تنازع الإقناع بين الفرق الكلامية السائدة، فإنهم كانوا يُولّون كلامهم قيمة متميزة، فلا ينبغي لأي حرف منه أن يضيع، ولا يجوز بوجه أن توضع أفكاره في مهب الريح. وهو ما رواه الجاحظ عن بدايات هذا التوجه، متمثلاً في قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "حدّث الناس ما حدّثوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك" (183).

إن هذه التوجيهات هي ما نجده لدى الإمام مالك رحمه الله، فقد ذكر الجاحظ أن ابن قُعب كان يقول: "ما رأيت قط أشد وقاراً من مجلس مالك، لكأن الطير على رؤوسهم" (184). وذلك ما شهد به آخرون، فمجلس الإمام مالك لم يكن فيه "لغط أو رفع صوت، بل سكوت تام وإصغاء كامل، فيقرأ القارئ بحيث لا يتجاوز الورقتين أو الثلاث" (185).

إن ذلك كله يرجع إلى الهيبة التي يُكسبها الداعية مجلسه؛ فإذا كان يُبدي اهتماماً بالمقام، ويظهر للآخرين أن كلامه ليس مثل كل كلام، فإن المتلقين يتبعونه في رسمه المسار الذي يريد. وكذلك كان الشأن بالنسبة للإمام مالك؛ فقد روى ابن بكير أن مالكا كان "إذا عُرض عليه الموطأ تهيأ ولبس ثيابه، وعمامته، ثم أطرق ولا يتنحنح، ولا يعبث بشيء من لحيته حتى يفرغ من القراءة؛ إعظاماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" (186).

فإذا كان داعية الأمس مهتماً بخطابه وبمجلسه وبتحقيق المردوديات المنشودة من قاصديه، وهو مجرد من كل التقنيات المساعدة التي تشد الأبواب إذا سخرت

182. المرجع نفسه.

183. المرجع نفسه.

184. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، 14/2.

185. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك، 41/1.

186. المرجع نفسه، 42/1. (من مقدمة المحقق).

على الوجه الصحيح، فكان يحقق الفائض من المبتغى المنشود، فإن داعية اليوم- وهو الذي يمتلك ما لا يمتلكه سابقه من الأسباب- يتحمل مسؤولية كبرى ليحقق ما يُنتظر من خطابه الدعوي، ولا سيما إذا خضع للتأهيل الضروري في هذا الباب، فيعلم أن خطابه ليس مثل الخطابات. إنه دين وعقيدة، فلا ينبغي أن يؤتى الدين والعقيدة من الثغرة التي هو عليها. فكل نصر يتحقق، وكل تقريب للأبعد، هو أجور وافرة، وكل دحر للأحقاد والضغائن من القلوب هو انتصار على ما يفكك المجتمع ولا يبنيه، وتثبيت للتعايش الإنساني المشترك في النفوس.

فالواجب أن يؤهل الداعية في كل ما يتعلق بالمؤثرات المظهرية العائدة إليه؛ هنداماً وابتسامة وصوتاً وطبع مجلس بوقار، وبالمؤثرات الإخراجية العائدة إلى المنتج الدعوي؛ صورة وإضاءة. فلتتبعنا لما تحبُّل به شبكات التواصل الاجتماعي، مثل ”اليوتيوب“ و”الفيسبوك“، ليبين أن من يهتم بجمالية المظهر والإخراج من الدعاة يحقق متابعات أكثر وإنصافاً أقدر. ومن ثم، فإنه يحقق مدعوين أكثر، فيوسع مجال الدعوة، ويصحح الأفكار المغلوطة، ويوجه العقول نحو ما ينبغي أن تتوجه إليه من أخلاق فاضلة، تنفر من الأحقاد والضغائن وكراهية الآخرين، وتدعو إلى التمسك بالفضائل المعززة للأواصر بين بني الإنسان.

المبحث الثالث: توسيع مدارك الدعاة عن الثقافات المختلفة

• المطلب الأول: الكشف عن خصائص الثقافات ونشرها بين الدعاة

جرى على الألسنة منذ آمد بعيدة أن من جهل الشيء عاداه. والعداوة في سياق حديثنا هذا لا تنصرف إلى الشنآن والتوتر، ولكنها تنصرف إلى عدم الإحاطة بما لدى الأطراف المستهدفة بالخطاب الدعوي. فينبغي للداعية أن يؤهل في هذا الجانب ليتعرف من خلاله على ما عند مدعويه ممن لا يشاركونه اللغة والدين والمعتقد، ويطلع على ما يتميزون به من ملامح ثقافية؛ ذلك، لأنه إذا لم يحط بهذا الأمر جمعاً، فقد يسلك مساراً خاصاً في الدعوة، فلا يتأثر به متلقو خطابه، ولا يبدون إقبالاً على دعوته، بل إنهم قد يدفعون إلى النفور والكراهية وعدم الاهتمام، فينفلت من يديه ما كان يصبو إليه، ويتسبب في الضرر أكثر مما يتسبب في تحقيق المنفعة.

إن الواجب أن يؤهل الداعية في معرفة المقدس لدى مدعويه، ويغوص في عاداتهم وتقاليدهم، ويحيط بأعيادهم واحتفالاتهم، ويدرك مواقفهم من غيرهم، ويرصد مصالحهم ومنافعهم، ويميز توجهاتهم الفكرية وقناعاتهم الفلسفية. وأن يهتم إلى أبعد الحدود بهذه المسألة الأخيرة؛ فقد تشكلت التصورات من خلالها، وبنيت المواقف على أساسها، حتى إنها لتعد أقوى من كل قوة في تسيير المجتمعات ورسم معالم مساراتها نحو المستقبل. فيبدو واضحاً- كما يشير إلى ذلك السيد محمد عقيل المهدي في كتابه المذاهب المعاصرة- "أن تأثير القوة الفكرية أكثر خطورة من القوة المادية، لأن تأثيرها يدخل في أعماق الإنسان، وعلاج الأمراض الفكرية يحتاج إلى وقت طويل"⁽¹⁸⁷⁾.

وقد تبدو لنا خطورة الجهل بثقافة الجهات المستهدفة بالخطاب، فقد تتسبب في هزيمة نكراء للمجتمع برمته، فإذا لم تتدارك فإن الجهة الجاهلة بالحقائق تؤدي الثمن غالياً. وشاهدنا على ما نذهب إليه هو توجيه النبي صلى الله عليه وسلم شعراء الدعوة الإسلامية للدفاع عنه وعن المسلمين، ورد هجاء المشركين بما يناسب. وهو ما ترويه عائشة رضي الله عنها؛ حيث قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "أَهْجُوا قُرَيْشاً، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ".

187. المذاهب المعاصرة، السيد محمد عقيل بن علي المهدي، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1414هـ- 1993م، 5.

فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ، فَقَالَ:
”أَهْجُهُمْ“.

فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرِضْ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا
دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ:

قَدْ آتَى لَكُمْ أَنْ تُرْسَلُوا إِلَى هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنْبِهِ،
ثُمَّ أَذْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، فَقَالَ:

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرِي الْأَدِيمِ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ
بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا، حَتَّى يُلْخِصَ لَكَ نَسَبِي“.
فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَخِّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسَلِّتَكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ
الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ:

فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ لِحَسَّانَ:
”إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ“.
وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:
”هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى“⁽¹⁸⁸⁾.

فالملاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل اندفاع الشاعر حسان رضي الله عنه إلى القول، وتوجه إلى رد الصاع صاعين في الهجاء الذي بدأه شعراء قريش. وقد كان في موقف يدعو إلى قبول ذلك الاندفاع والترحيب بذلك التوق. ولكنه صلى الله عليه وسلم قال له: ”لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا، حَتَّى يُلْخِصَ لَكَ نَسَبِي“، طالبا منه التريث في الإقدام؛ فليست بين حسان وبين قريش آصرة قرى، وخلفياته التاريخية لا تمكنه من الإحاطة بمثالب القوم ونقائصهم؛ ذلك، لأن الهجاء لا يقوم إلا على ذلك، أو هو ركن ركين منه على الأقل.

188. رواه البخاري في كتاب المقاتبي، باب مَنْ أَحَبَّ أَلَّا يُسَبَّ نَسَبُهُ، رقم: 3531، 4/ 185، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، رقم: 2490، 4/ 1935، وأبو داود في كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم: 5015، 4/ 304، والترمذي في الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في إنشاد الشعر، رقم: 2846، 5/ 138، وأحمد، 1/ 298.

فلو أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل اندفاع حسان بن ثابت رضي الله عنه، فإن مردوديات قوله لن تتحقق، وتأثير هجائه على القوم لن يكون. ولذلك، فقد وجهه نحو المصدر الذي يمدّه بما يحتاج إليه من نقائص القوم ومثالبهم. وأنّذ لا يبقى عليه إلا أن يصوغه في قالب شعري ثم يرمي به قريشاً وشعراءها، فيكون عليهم كنضح النبال. فذلك الشأن بالنسبة لداعية اليوم، فإن تأهيله في هذا الجانب المتعلق بمعرفة دواخل الجهة التي يتوجه إليها بخطابه الدعوي أمر واجب. فيصير متخصصاً في ثقافتها، وإلا، فإنه يتوجب عليه أن يوسع مداركه المتعلقة بهذا الجانب من حياة الأمم كلها. فلا بد من معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها- كما يذكر محمد رشيد رضا في تفسيره- “لِيَتَيَسَّرَ لِلدَّاعَةِ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ بَطْلَانُ مَا هُوَ عَلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَإِنْ دَعَا إِلَيْهِ” (189).

ويوسع الأستاذ مجال الجوانب التي ينبغي للداعية أن يخضع للتأهيل فيها، فيذكر أنه يلزمه أن يحيط بما عندهم من المذاهب والتقاليد الدينية، والعلوم والفنون الدنيوية، حتى يتبين له “مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالدَّعْوَةِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً، وَمَنْ جَهِلَ هَذَا الْقَدْرَ كَانَ عَاجِزاً عَنْ إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ، وَحَلَّ عُقْدِ الْمُشْكِلَاتِ” (190).

189. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنان)، محمد رشيد رضا، 4/ 36.

190. المرجع نفسه.

وقف الأستاذ محمد رشيد رضا على قوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)} {آل عمران: 104}، فقال: “تَذَكَّرْ مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْخَيْرِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِيَةُ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَمِ الْقَائِمَةُ بِالْوَجِباتِ الَّتِي هِيَ قَوَامُ الْوُجُودِ وَحِفَاطُهَا، فَإِنْ أَعْمَلَهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ:

1. الْعِلْمُ الشَّامُّ بِمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ (...)
2. الْعِلْمُ بِحَالِ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ فِي شُؤْنِهِمْ وَاسْتِعْذَادِهِمْ وَطَبَائِعِ بِلَادِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ (...)
3. مَنَاشِئُ عِلْمِ التَّارِيخِ الْعَامِ لِيُغْرِمُوا الْقَسَادَ فِي الْعُقَايِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ (...)
4. عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ لِيُعْذَ الدَّعَاةُ كُلُّ بِلَادٍ مِنْهَا غَدَّتْهَا إِذَا أَرَادُوا الشُّفْرَ إِلَيْهَا (...)
5. عِلْمُ النَّفْسِ (...)، أَمِ الْعِلْمُ التَّاجِبُ عَنْ قُوَى النَّفْسِ وَتَضَرُّفِهَا فِي عُلُومِهَا وَتَأْثِيرِ عُلُومِهَا فِي أَعْمَالِهَا الْإِرَادِيَّةِ (...)
6. عِلْمُ الْأَخْلَاقِ وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَبْحَثُ فِيهِ عَنِ الْمَضَائِلِ وَكَيْفِيَّةِ تَرْبِيَةِ الْمَرْءِ عَلَيْهَا، وَعَنِ الزُّدَائِلِ وَطَرِيقِ تَوْقِيهِمْ مِنْهَا (...)
7. عِلْمُ الْإِجْتِمَاعِ (...)
8. عِلْمُ السِّيَاسَةِ (...)
9. الْعِلْمُ بِلُغَاتِ الْأُمَمِ الَّتِي تُرَادُ دَعْوَتُهَا (...)
10. الْعِلْمُ بِالْفُنُونِ وَالْعُلُومِ الْمُتَدَوِّلَةِ فِي الْأُمَمِ الَّتِي تَوَجَّهَ إِلَيْهَا الدَّعْوَةُ (...)
11. مَعْرِفَةُ الْمَثَلِ وَالنَّحْلِ وَمَذَاهِبِ الْأُمَمِ فِيهَا لِيَتَيَسَّرَ لِلدَّاعَةِ بَيَانُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ“. (ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنان)، محمد رشيد رضا، 4/ 32-36).

إنها رؤية ثاقبة صادرة عن عقل وروية، ترشد نحو تأهيل الداعية تأهيلاً متكاملاً، لا يهمل عنصراً ولا يسقط شرطاً. فإذا أخضع الداعية لتأهيل من هذا النوع، صادر عن مثل هذه الرؤية، فإن مردوده على الخطاب الدعوي سيكون مردوداً متميزاً، ولا سيما حين يوظف تأهيله في كفاءات استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، واستثمارها والإبداع في استعمالها في التبليغ.

• **المطلب الثاني: تفعيل الخطاب الدعوي** **بتقوية صفة الاقتحام لدى الدعاة**

من الصفات التي يتوجب تأهيل الدعاة فيها، من خلال استثمار شبكات التواصل الاجتماعي، تلك الصفة المتصلة بالجانب النفسي. إنها صفة الاقتحام التي تمكن المرء- أي امرئ- من التعرف على من لم يعرف، ومن إبلاغ ما يريد إبلاغه. ولما كان أغلب الناس يحجمون عن تنمية هذه الصفة وتطويرها، فإنهم من جانب آخر، يسمحون لمن نمت لديه وتطورت وترعرعت، بأن يتقدمهم ويتزعمهم، ويقبلون أن ينصتوا إليه إذا تكلم أو وجه أو دعا لشيء معين.

ومن هذا المنطلق، فإن تنمية صفة الاقتحام لدى الدعاة تكون وسيلة نفسية من الوسائل الأساس في تفعيل الخطاب الدعوي، ولا سيما إذا تفاعلت مع الصفات الأخر المشار إليها قبل، فتتوسع فئاته، ويقوى حضوره، وتتوسع شرائحه.

وإذا كان تأهيل الدعاة يستثمر شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي، فيسهل العمل، وييسر الأواصر، فإن تجارب تاريخية قد حققت ما تصبو إليه الدعوة إلى الله تعالى وهي مجردة من التقنيات المساعدة، ومن الخدمات الحديثة، الميسرة، فعانى أصحابها ما عانوا، وتحملوا ما تحملوا في سبيلها من وعثاء مضنية، ولكنها قد جاءت بكل إنجاز غريب.

ونحب أن نقف من ذلك على تجارب عاشها الخطاب الدعوي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أجل الاقتداء به فيها؛ حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحقق للخطاب الدعوي فاعليته بإيصاله إلى من يستهدفهم به، فأرسل رسله ورسائله إلى ملوك زمانه؛ مبلغاً وداعياً ومقيماً الحجة على أدائه الأمانة على الوجه

الصحيح الأكمل، فكانت أحد عشر كتاباً⁽¹⁹¹⁾، نحب أن نعرضها مجملة في الهامش المحال عليه حتى لا يطول بنا الكلام.

ومن جانب آخر، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتصر في دعوته على هذا الجانب الاقتحامي المكتوب، ولكنه كان يدخل الأسواق والأماكن التي يقصدها عامة الناس، فيمارس الدعوة كما ينبغي أن تمارس، غير مستسلم لكيد الكائدين، وغير آبه بعرقلة من يقفون في وجه الدعاة.

ولعل أقرب تلك المشاهد الدالة على قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على الاقتحام، ما يرويه ”رَبِيعَةُ بْنُ عَبَادٍ مِنْ بَنِي الدَّيْلِ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا، قَالَ:

رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سَوْقٍ ذِي الْمَجَازِ، وَهُوَ يَقُولُ:
”يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا“.

وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ، أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ:
إِنَّهُ صَابِئُ كَاذِبٌ، يَتَّبِعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ،

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا لِي:
هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ“⁽¹⁹²⁾.

191. أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتبه إلى النجاشي ملك الحبشة، وقيصر الروم، وكسرى، والمقوقس، وملكي عمان ”جَيْفَرُ وَغَبْدُ وَلَذِي الْجُنْدَى“، وهوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة، والخنز بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء من أرض الشام، والخنز الجفيري أحد ملوك اليمن، والمُنْذَرُ بن شَاوَى العبدى ملك البَحْرَيْنِ، وأهل اليمن.

ومن المصادر التي أُزِّجَتْ لهذه المراسلات ما يلي: معجم الصحابة، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع (المتوفى: 351هـ)، تحقيق صلاح بن سالم المصراي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط 1، 1418هـ، ومعرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1419هـ - 1998م، وتهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ، وأسد الغابة، أبو الحسن علي بن الأثير (المتوفى: 630هـ)، دار الفكر، بيروت، 1409هـ - 1989م، والطبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1410هـ - 1990م، ومعرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1419هـ - 1998م، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين المزي (المتوفى: 742هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1400هـ - 1980م.

192. رواه الطبراني في المعجم الكبير، باب الرأ، ربيعة بن عباد الديلي، رقم: 4582، 61/5، والبيهقي في السنن الكبرى، في كتاب البيوع، جَوَازُ السَّلَامِ الْحَالُ قَالَةَ غَطَاءُ بْنُ أَبِي زَيْنَاجٍ، رقم: 11096، 34/6، وأحمد، 342/31.

ولقد اقتدى الصحابة الأجلاء بالنبي صلى الله عليه وسلم في صفة الاقتحام الدعوي؛ فهذا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، قدم المدينة المنورة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، وهو يتقدم قبيلتين اثنتين، كانتا من أعتى القبائل العربية على المارة، ولكنهما جاءتا مذلتين يقودهما الصحابي الجليل لالتماس البيعة من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "غَفَارُ غَفَرِ اللَّهِ لَهَا وَأَسْلَمُ سَأَلَهَا اللَّهَ" (193).

إن الاقتحام الدعوي يبرئ الأنفس المؤمنة من أن تتحمل أوزار من لم يؤمنوا، فبقوا على ما هم عليه؛ فهو يجعل المؤمنين في منجاة من أمرهم، فإذا بلغوا واستجيب لهم، فذاك هو المراد الجلل، وإذا لم يستجب لهم، فإنهم يكونون قد أدوا ما يلزمهم تجاه الدعوة، فقد يختبئ غير المؤمن حين يحصص الحق خلف عجزهم عن الدعوة، وعدم قيامهم بها، فيجيب حينما يسأل بأنه لم يصله شيء.

والآن، إذا كان الاقتحام الدعوي الذي ننشده يستثمر خدمات شبكات التواصل الاجتماعي، فإن تلك الأمانة تكون قد أديت، وتلك المسؤولية التي على الكواهل تكون قد سقطت، بل أكثر من ذلك، فإن الحجة تكون قد أقيمت بالدليل القائم على الصوت والصورة.

إن الخطورة تكمن في الوضع الذي يكون منقلباً رأساً على عقب. إنه ذلك الذي يتوصل فيه من لم يمن الله تعالى عليه بأن يولد في بلاد المسلمين، أو في أسرة مسلمة على الأقل، إلى الإسلام بجهد الشخصي، فيكون قد بحث، ودرس، وتوفيق الله تعالى اهتدى إلى الإسلام فأسلم، فتراه يبكي ويزرف دموعه الفياضة. وبعد أن يتذوق حلاوة الإيمان، تسمعه يقول بملء فيه:

”لماذا لم يخبرنا أحدٌ بهذا“ (194).

193. رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِينِينَ كَسِينِي يُوشَعَ"، رقم: 26/2، 1006.

194. من النماذج التي يبدي فيها المؤمنون الجدد من الغربيين أسفهم على ما فاتهم من الإسلام، تلك المرأة الأمريكية التي وصلتها الدعوة عن طريق ابنتها. وبعد أن تبينت لها الحقائق، وذاقت من خلالها حلاوة الإيمان، قالت كلمتها المشار إليها في المتن. ينظر الرابط: <https://bit.ly/2PZ0v18> - تاريخ الاطلاع: 2021/03/06.

بل إنك تستشعر من دموعه ونحيبه وأسفه على أيامه التي قضاها في حياة اللهو والتسكع والضياع، أنه يتوجه إلى المسلمين أجمعين باللائمة فلا يعفي أحداً. وإنها لللائمة لا تبقى في حدود اللوم، ولكنها تتجاوزه إلى تحميلهم المسؤولية جميعاً أمام الله تعالى.

فهذا الوضع، وغيره من الأوضاع، يفضيان بنا إلى الدعوة بإلحاح إلى تأهيل الجانب النفسي لدى الدعاة، ولا سيما ما يتمثل في صفة الاقتحام الدعوي التي ينبغي أن تُنمى وتطوّر وتُدعم وتوجّه، انسجاماً مع ما يقتضيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ”بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً“⁽¹⁹⁵⁾.

195. رواه البخاري في كتاب أحاديث الأئمة، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3461، 4/ 170، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، رقم: 2669، 5/ 40، وأحمد، 11/ 25.

الباب الثالث

من هيمنة خطاب الكراهية إلى تعزيز التعايش الإنساني
المشترك: استشرافات مستقبلية

يهتم هذا الباب بالتحويلات التي نتوقع أن حال المجتمع الإنساني يصل إليها بعد توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي. فنستشرف من خلاله ما ستؤول إليه الأوضاع الإنسانية العامة في علاقتها بخطاب الكراهية والتعايش الإنساني المشترك. وهو ما يفرض علينا أن نذكر ببعض ما يتميز به المنطلقان السابقان؛ شبكات التواصل الاجتماعي والخطاب الدعوي، باعتبارهما الوسيطتين اللتين إذا تم توجيه أولاهما لتفعيل ثانيتهما، فإن خطاب الكراهية والتطلع إلى التعايش الإنساني المشترك سيكون لهما شأن آخر في المجتمع؛ محلياً وعالمياً.

إن توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في رسم ملامح المستقبل الإنساني برمته هو استثمار للفضاءات الافتراضية التي توجهت الإنسانية كلها نحوها، باحثة فيها عما يروقه؛ فمنها من يجد ضالته فيها حين يبحث عن العلوم والمعارف النافعة، ومنها من يجد فيها مبتغاه حين يتتبع المستجدات من أجل أن يساير العصر ويواكب الركب الإنساني الذي يستقل مركباً فائق السرعة يجري في فلك متعدد المتاهات. فهذه الشبكات هي المحاضن التي تكتنز الوسائل الضرورية للتفعيل، وتوفر الفضاءات المختلفة للدعاة ليبلّغوا ما يريدون تبليغه للناس، وتمنح الإمكانيات الهائلة لتتبع التطورات التي تقطعها المحاولات الدعوية المختلفة.

وإن تفعيل الخطاب الدعوي امتلاكٌ للوسيلة الفعالة التي توجه المجتمع وتصلحه وتنتقل به من حال إلى حال إيجابية أحسن منها. فإذا امتلك المجتمع الآليات والمحاضن والوسائل والفضاءات، فما عليه بعد ذلك إلا أن ينتظر النتائج الباهرة والعطاءات المثمرة التي يبدو فيها المجتمع متأخياً متآلفاً متعايشاً على الصورة التي تدحر فيها الكراهية وما حام حولها من خطابات وتوترات وصراعات.

فتلك الاختيارات التي اعتمدت في البابين؛ الأول والثاني، كلها، وتلك المسارات التي تم عبورها في المحطات السالفة جميعها، تفرض علينا أن نستشرف المآلات التي تؤول إليها تلك الجهود المبذولة، المستثمرة للتكنولوجيات الجديدة، ولا سيما تلك المتمثلة في شبكات التواصل الاجتماعي وما حام حولها، حتى يكون لعملنا قيمة مضافة مشهودة، وتكون له صورة ذات ملامح استشرافية يتضافر الواقع والمستقبل في وضعها واختيار مواقعها.

إن فرحتنا تكون عارمة لما يعود بنو الإنسان؛ محلياً وعالمياً، إلى رشدهم، فيضعون
الأيادي في الأيادي، ويخطون خطوات وثيدة نحو المستقبل المشرق ليعانقوا ما
يجمعهم ولا يفرقهم، يلتفوا حول ما يوحدهم ولا يشتتهم.

الفصل الأول: تصحيح المفاهيم المغلوطة

المبحث الأول: فهم حرية التعبير فهماً صحيحاً

• المطلب الأول: استخلاص الفروق الأساسية بين حرية التعبير وخطاب الكراهية

حرية التعبير مُكوّنٌ أساس من مكونات حقوق الإنسان. وقد نصت عليه مقررات الأمم المتحدة بحدّة بالغة من أجل أن يتمكن الناس من التعبير عما يخالجه من انشغالات في الحياة، سواء أكانت متعلقة بقضاياهم الشخصية، أم كانت رابطة بينهم وبين غيرهم. فهي مكفولة بموجب المادة 19 الواردة في كل من الإعلام العالمي لحقوق الإنسان والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية⁽¹⁹⁶⁾.

إن هذا التوجه من لدن الأمم المتحدة لم يلح على أهمية هذا الحق لأنه حق ينبغي أن يكفل للجميع فحسب، ولكن "لأنه وسيلة للمطالبة بجميع الحقوق الأخرى والتمتع بها، بل إنه حق أساسي يحمي ممارسة جميع الحقوق الأخرى وأساس للديمقراطية بالغ الأهمية"⁽¹⁹⁷⁾.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن حرية التعبير تكون من حق كل فرد من أفراد الإنسانية جمعاء، ولكن المشكل الذي يعترض هذا الفهم يتمثل في ضبط الحدود الفاصلة بين حرية التعبير باعتبارها حقاً من الحقوق، وبين الخطابات الأخرى التي تقوم على المساس بحقوق الآخرين؛ ذلك لأن الحرية تعرف حدوداً، وكلما حدث تجاوز لحدودها، فإنها تنقلب رأساً على عقب، وتصير ضارة بعدما كانت نافعة، كما يصبح من تبعاتها أنها تمنع المجتمع الإنساني من أن يجد معنى إيجابياً لوجوده.

ولكي تتضح صورة المشهد المضطرب الذي يسود المجتمع بهذا الخصوص، فقد قام مركز "هي" للسياسات العامة بالملكة الأردنية الهاشمية باستجابات في صفوف الشباب، فتبين أن أغلبهم يعيش اضطراباً في تبين حقيقة حرية التعبير، فيتجاوزونها إلى الوقوع في ممارسة الكراهية بصورها المختلفة، بل إنهم عبروا عن كون التصدي

196. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 35.

197. المرجع نفسه، المادة: 36.

لخطاب الكراهية يعد استكانة ومساساً بهذا الحق الذي تتجلى من خلاله حرية تعبير الناس عن انشغالاتهم المختلفة، فلم ينج منهم من الخلط والاضطراب سوى ربع المستجوبين. وهم الذين صرحوا بكونهم صاروا يدركون الخط الفاصل بين حرية التعبير وخطاب الكراهية من خلال تطور البعد المعرفي والسلوكي لديهم⁽¹⁹⁸⁾.

فإذا كانت ثلاثة أرباع المستجوبين من الشباب الذين يعول عليهم في بناء المستقبل وقيادة المجتمع إلى الأفضل لا يدركون الفروق بين حرية التعبير وخطاب الكراهية، فإن الطامة تكون كبرى في المستقبل القريب على المجتمع برمته. ولذلك، فإن الحاجة تكون ماسة لتمييز الخط الفاصل بين حرية التعبير والانخراط في خطاب الكراهية، ولا سيما عبر الإنترنت بأي شكل من الأشكال⁽¹⁹⁹⁾. ومن ثم، فإنه يتوجب - كما وجهت الأمم المتحدة المجتمع الإنساني إلى ذلك - "ألا يقتصر التثقيف بشأن حقوق الإنسان على أطفال المدارس فحسب، فشئ حملات إعلامية قوية، تنظمها السلطات أو غيرها، يمكن أن يؤدي إلى التوعية بخطاب الكراهية وبالضرر الذي يسببه، والتوعية بالأهمية المستمرة لنشر ثقافة تسامح وسلام وما يرتبط بها من أخلاقيات"²⁰⁰.

وكما أن مفهوم حرية التعبير يعتريه غموض خاص، فيمارسه الإنسان ويتجاوز حدوده وهو لا يدري، فإن خطاب الكراهية يعد خطاباً غامضاً أيضاً. وبالنظر إلى عدم وضوحه، فإن المشتغلين عليه من المؤسسات العالمية لم يقدرُوا على رسم حدوده، فتجلى لديهم في توصيفات عدة، أجملتها بعض مقررات جامعة الدول العربية في "العنف اللفظي، والكراهية، والتعصب الفكري، والتمييز العنصري، والتجاوزات التعبيرية، والنظرة الاستعلائية"⁽²⁰¹⁾. ولذلك، فقد ازدادت درجة الانشغال بتحديد سبل التوفيق بين الحاجة إلى حماية الحق في حرية الرأي والتعبير وتعزيزه، من ناحية، ومكافحة التعصب والتمييز والتحريض على الكراهية من ناحية أخرى⁽²⁰²⁾.

198. التصدي لخطاب الكراهية عبر الإنترنت، مركز "هي" للسياسات العامة، 6.

199. المرجع نفسه، 4.

200. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 59.

201. التقرير العلمي لورشة العمل المتخصصة بشأن: توظيف الإعلام وتكنولوجيا الاتصال

لمواجهة خطاب الكراهية والتطرف، جامعة الدول العربية، 56.

202. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، (مقدمة المذكرة).

وإذا كان هذا الاضطراب في إدراك دلالة هذا المفهوم سارياً بين أفراد المجتمع؛ حيث يظنون أنهم أحرار في قول كل شيء، والخوض في كل أمر خوضاً يبلغهم مستويات المساس بحقوق الآخرين والإضرار بخصوصياتهم، فإن انعكاساته لا تقتصر على ما يجري في الحياة الآنية؛ فالحياة الآخرة لها معه شأن آخر يفزع صاحب الخلق الرصين والعقل الحصيف، فيقشعر جلده، ويقف شعره، وتكاد تنكتم منه أنفاسه.

فالكلمة المحيلة على حرية التعبير لا تبقى حقاً من حقوق الإنسان المطروحة في الطريق، فيوظفها الإنسان كيف يشاء، ويوجهها حيث يريد. ولكنها تتخذ منحنيين اثنين؛ أولهما منحى خير وفضل وبركة، وذلك حين توظف الكلمة في الخير والبناء، فتكون لها نتائج طيبة على صاحبها؛ حيث يرفع بها درجات إلى الأعالي في الدنيا وفي الآخرة. وثانيهما منحى شر ووزر وعذاب، وذلك حينما تكون الكلمة من سخط الله تعالى، فتطلق للإضرار بالآخرين ولإضحاك الناس عليهم؛ سخرية وتهكماً، فتكون نتائجها من جنسها؛ حيث تهوي بصاحبها في نار جهنم.

إن اضطراب إدراك دلالة حرية التعبير لا تقتصر مآلاته على ما نعرفه في حياتنا، حتى إذا تحقق به المساس بحق جهة من الجهات، فاحتجت على من أضر بها كلامه، شوهه راكناً إلى كونه إنما كان يمزح، ولكنها تمتد إلى مآلات غير متوقعة بيننا؛ فنحن نمارس حرية التعبير المنطلقة من عقالها الذي يبقينا في دائرة الحقوق الإنسانية، لتستقر في دائرة العبث والتسيب والظلم.

ولنستمع بتدبر لما قاله الله تعالى في حق من يطلقون العنان لكل قول غير متزن، فقد توعدهم بالخروج من الدين وبكون مأواهم لن يكون غير العذاب الأليم، فقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)﴾ (التوبة: 65).

فإذا كانت هذه المآلات الخطرة تنتظر من يسيء تدبير حرية التعبير- وهي مطلقة غير مقيدة- فما الذي يمكننا أن نقوله عن مرتادي شبكات التواصل الاجتماعي؟ وما

الذي يستشرفه الإنسان من مصير لمن يضع التعليقات العنصرية والعنصرية التي
تعمر فضاءاتها⁽²⁰³⁾؟

إن إطلاق الكلمات العنصرية والعنصرية على صفحات شبكات التواصل الاجتماعي
أنواع مختلفة، وإن خطورة ما يترتب عنها تتأرجح بين السهل القريب وبين ما لا
يمكن التساهل فيه بوجه من الأوجه. فإذا وقفنا على ما نشرته صحيفة "تشارلي إيبدو
Charlie Hebdo" من رسومات كاريكاتورية مسيئة لرسول الله صلى الله عليه
وسلم، فإننا نجد لها إساءة لا تنحصر في الإضرار بفرد أو بجهة محددة في المجتمع،
ولكننا نجد لها إساءة للمسلمين جميعاً، من مشرق الأرض إلى مغربها. وذلك ما ضمَّنه
الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إدانته التي رفعها على موقعه على الإنترنت، فجاء
فيها: إن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين "يدين إعادة نشر "تشارلي إيبدو" رسوماً
مسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، ويعتبرها خارجة عن حدود الحريات لأنها
ازدراء برسول مليار و700 مليون إنسان. ويؤكد على أنها تسهم في نشر الكراهية
والتطرف، ولا تساعد على التعايش المشترك⁽²⁰⁴⁾.

وإذا كان الانحراف بينا في توظيف الإعلام، فإن الأفطع منه ألا يجد من تولى
كبره من يأخذ على يديه، ويرده عن فعله المنكر، بل إننا وجدنا من يدعمه بالقول
والدعاية والتضامن، رغم علمه بكون الممارسة تتجاوز الحرية إلى الظلم والاعتداء
والكراهية. وهو ما نجد من يتأسس منظمة "مراسلون بلا حدود" يطلقه في المواقع
على اختلافها حتى يسمع صوته ويصغي إليه الناس أجمعون، فقال: "إنه خيار
شجاع وكريم. "مراسلون بلا حدود" ترحب بإعادة نشر "تشارلي إيبدو" للرسوم
الكاريكاتورية للنبي محمد. كريستوف ديوار: "أنا تشارلي" صرخة عامة لصالح
حرية التعبير"⁽²⁰⁵⁾.

203. التصدي لخطاب الكراهية عبر الإنترنت، مركز "هي" للسياسات العامة، 4.

204. ينظر الرابط: <https://umsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=12313> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/05.

205. ينظر الرابط: <https://bit.ly/36Xn3F6> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/05.

وقد تكرر هذا الموقف من كريستوف ديوار Christophe Deloire في مشاهد أخرى. وهو ما يبين أنه
موقف متجذر من الإسلام والمسلمين. ولينظر اللقاء الذي جمع بينه وبين كريستوف ديوار
Dubois، الذي كان يحمل عنوان: "الإسلاميون موجودون بالفعل- "Les islamistes sont déjà là"
ينظر الرابط: <https://bit.ly/2MSfw3x> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/05.

كيف يفهم التضامن؟ وكيف تفهم حرية التعبير؟ إذا كان الأول ميلاً إلى جهة الظالم المستبد، ودعماً لغيرته التي تتكرر مشاهدتها النَّتَّةَ حيناً بعد حين. وكانت الثانية دعماً للتعبير الضار الذي يهوي بالمجتمع ويقض مضاجعه ويرفع بين يديه شارات اقتراب الأجل. وهو ما نبّه عليه علماء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين؛ حيث شددوا على عواقب الاستهتار بمشاعر المسلمين من خلال الرسوم المسيئة. وهو "الأمر الذي يساعد على إثارة الفتن بين المسلمين وغيرهم، لأنها تؤدي إلى زيادة الحقد والكراهية بين أصحاب الأديان المختلفة وضرب السلام الاجتماعي بين الناس" (206). ولذلك، فإنّ العقول السليمة لا تتقبل بأي حال من الأحوال جعل حرية الصحافة والتعبير مسوغاً لهذه الأفعال الشنيعة (207).

إن هذه المسالك التي يعبرها الناس في تعاملهم مع هذا المفهوم؛ إدراكاً، وممارسة، ومآلات، تنتهي بالمجتمع الإنساني إلى ما يضره ولا ينفعه، ولا سيما حين يكون الإدراك قاصراً عن التمثيل الصحيح، فيوقع صاحبه في المحذور، بل إنه يقفز به نحو المواقع التي لا يتشبث بها عاقل، فيُنصر الظالم ويميل على المظلوم ويثير الفتن النائمة.

ولكي نسهم في وضع معالم ومحددات للمفهومين المتقابلين؛ مفهوم حرية التعبير باعتباره حقاً إنسانياً أساسياً، ومفهوم خطاب الكراهية بصفته سماً زعافاً يجهز على الإنسانية كلما استفحل انتشاره في جسدها المهدد في كل حين، فإننا نحب أن نذكر المميزات الآتية التي يختص بها كل مفهوم منهما، وليكن ما نريده على الصورة الآتية:

1. تنطلق حرية التعبير من منطق موضوعي؛ فالتعبير حق إنساني أساسي، فإذا مارسه الإنسان أو طالب به فإنما يكون قد طالب بعنصر من العناصر التي تشتمل عليها دائرة الحقوق لديه، وإذا مارسه فإنما يكون قد مارس ما يخول له أن يشعر بإنسانيته. وينطلق خطاب الكراهية من رؤية مغرضة، فيصاغ في الدواخل، ويوضع له ما يلزمه، ويوجه نحو الجهات المستهدفة به؛ فيستهدف الإيذاء والإضرار ولا يهتم القائمون به بما يبني المجتمع أو ينميّه.

206. ينظر الرابط: <https://iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=12313> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/05.

207. ينظر الرابط وتاريخ الاطلاع نفسها.

2. حرية التعبير حق إنساني باني؛ فهي حق ينعش الحياة، ويثبت الوجود الإنساني. وخطاب الكراهية اعتداء على الغير؛ فلا يجد موقعاً في الحياة الإنسانية جمعاء إلا إذا استُهدف به الإضرار بالآخرين، فنيل منهم، وأوذوا في حقوقهم، ولحقت كرامتهم الذلة والهوان.

3. حرية التعبير تفتح أبواب التعايش الإنساني؛ فهي كلما كانت قائمة على مبادئ إنسانية رصينة كلما تم بها تفعيل الإيجابي من الحياة كلها، وفتحت بها الأبواب الموصدة في وجه الإنسانية لتعايش. وخطاب الكراهية يغلقها في وجه أفراد المجتمع جميعهم، فتتقطع الأواصر، وتنقسم العرى، وتولي الوجوه إلى غيرها الأدبار؛ فيموت التفاعل إلا أن يكون سلباً، وتغتال إنسانية الإنسان فتلفظ أنفاسها، وتضيق الأرض على من يعمرها بما رحبت حتى يظن المستضعف ألا مهرب من الله إلا إليه.

4. حق التعبير يفضح الخروقات التي تنتجها الأفعال غير السوية ويكشفها، وخطاب الكراهية يعمق الشرخ فيها. فكلما اقترُف فعل غير سوي من لدن فرد أو جماعة، ووجه نحو جهة أو جهات مستضعفة، فنتج عنه الضرر أو لم ينتج، ولكنه كان يستهدف وقوع ذلك، فإن الوسيلة المؤهلة لفضحه أمام العالمين، وكشف ما يُتقنَع به حتى تُفعل الفعلة ويُمحى الأثر، لا تتحدد في شيء آخر غير حرية التعبير.

فإذا كان خطاب الكراهية يهيء المراكب لإشعال الفتنة، فإن "الحق في حرية التعبير يساعد على فضح الأضرار التي يتسبب فيها التحيز، ويسهم في مكافحة الصور النمطية السلبية"⁽²⁰⁸⁾. ولكن الحدود التي تؤمّن مفهوم الحرية، تلزمنا بوضع حدود تتميز بها حرية التعبير عن الشطط في القول، وعن الاعتداء اللفظي، كما تلزمنا بوضع ما تتميز به عن التخلف عن ممارسته ولا سيما حينما يكون الإحجام عنه مضراً بالإنسانية وبمصالحتها.

208. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 75.

• المطلب الثاني: إدراك تأرجحات التعبير بين الحرية والاعتداء

حين نطوف بجنبات القرآن الكريم ونرصد موضوعة القول فيه، فإنه يستوقفنا قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (18) ﴿ق: 18﴾. وهو خبر ينبأ به المرء- كما يوضح ذلك الإمام الطبري- بأن ”ما يتكلم به من شيء إلا كتب عليه“⁽²⁰⁹⁾. فقد ”وَكَلَّ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَحْوَالِهِ مَلَكَينَ بِاللَّيْلِ وَمَلَكَينَ بِالنَّهَارِ يَحْفَظَانِ عَمَلَهُ، وَيَكْتُبَانِ أَثَرَهُ إلْزَامًا لِلْحُجَّةِ“⁽²¹⁰⁾، حسب عبارة القرطبي في الجامع لأحكام القرآن. ولا بد للقول من أن يكون خيراً أو شراً، حتى تكون الكتابة إحصاء لكل صغيرة وكبيرة؛ فلا يهمل الشر ولا يضيع الخير، بقدرة الله تعالى. ”ولا بد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه“⁽²¹¹⁾.

فالقول نؤمن بتبعاته بما لا يؤمن به كثير غيرنا؛ فالجم الغفير من أفراد الإنسانية اليوم ممن يعتقدون في ثقافة حقوق الإنسان لا يجاوزون بتبعات القول حدودها الدنيوية؛ فتقتصر المحاسبات والمراقبات والمتابعات على ما يجري في حياة الناس، ولكن القرآن الكريم يرسم بين أيدينا مسار العواقب، فلا يجعل محطتها الأخيرة إلا يوم يقوم الأشهاد، فتكون لها مصائر أخرى ومآلات تتحدد في الجنة أو في النار.

ومن ثم، فإن حرية التعبير ينبغي أن يتصرف فيها المرء بتحفظ، فهي ليست خيراً كلها، كما أنها ليست شراً كلها؛ فالحق الإنساني فيها ينبغي أن يحفظ ويصان حتى لا يعيش المرء أحوال الرق والعبودية، ولكن الاستعمال غير الأمثل لأحوالها ينبغي أن ينظر إلى عواقبه المخزية غير المرضية.

ولقد أوضحت السنة النبوية الشريفة هذا الأمر بما يكفي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: ”إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ

209. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 22/ 345.

210. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ، 9/ 17.

211. المحرر الوجيز، ابن عطية، 5/ 160.

بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَلَاءً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ
بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَلَاءً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ“⁽²¹²⁾.

وإذا كانت السنة هنا شارحة للقول الكريم مؤكدة لما ورد فيه، فإننا نريد أن نتقدم في تفكيك الفكرة من أجل تبين دقائقها، فنمد البصر إلى الأمام ونتساءل عن السبب الذي يجعل جزاء القول مختلفاً من حال إلى حال؛ فالكلمة لفظ ينطق، وتسهم الأعضاء والجوارح المكلفة به بإنجازه، سواء أكان خيراً أم كان شراً. فاللفظ - كما يشير ابن عطية في المحرر الوجيز - ”هُوَ عَمَلُ الشَّفَتَيْنِ“⁽²¹³⁾. وخيره وشره لا يتحددان إلا من دلالاته ومضمونه.

إن مضمون ما يتلفظ به الإنسان هو الذي يتحكم في تحديد المآل؛ فما كان للجزء أن يكون مختلفاً لولا أن المضمون إكرام مرة؛ حيث يكون اللفظ محافظاً على كرامة المستهدف به، مفتحاً أبواب نفسيته لتعيش الانشراح والسرور، فتند الجسور التواصلية بينها وبين صاحب القول، وأنه ظلم واعتداء مرة أخرى؛ حيث تكون الألفاظ كذخيرة قد وضعت في فوهات المدافع، وصوبت نحو النفسيات من أجل الإضرار بها. فكلما انهالت عليها هدمت جسور التواصل ووطدت أركان القطيعة والتنافر، إن كانت للقطيعة والتنافر أركان. ولذلك، فإن الجزاء يكون من جنس العمل؛ فالخير يجازى بخير وفير، والشر تكون عاقبته خسراً غير مطاق.

فإذا تبينت للمرء هذه الحقائق وتوضحت خطورة التعبير التي يلهج بذكرها القريب والبعيد، فإن التعبير حين يوضع في مفترق طرق بين الحرية في ممارسته وركوب مراكبه، وبين توظيفه في الاعتداء على الآخرين وتآليب القلوب عليهم والإضرار بحقوقهم الإنسانية المختلفة، فإنه يصبح مخيفاً مفرعاً ولا سيما حين تستحضر تبعاته في ذهن من يدرك خطورة الوقوف بين يدي الله تعالى للعرض أو للحساب.

212. رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب جَفَظَ اللِّسَان، رقم: 6478، 8/ 101، ومسلم في كتاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، باب التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، رقم: 2988، 4/ 2290، والترمذي في الزُّهْدِ، باب فِيمَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُضْحِكُ بِهَا النَّاسَ، رقم: 2314، 4/ 557. وابن ماجه في كتاب الفتن، باب كَفَّ اللِّسَانُ فِي الْفِتْنَةِ، رقم: 3970، 2/ 1313، وأحمد، 14/ 296.

213. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 104.

ولقد ورد في بعض مقررات الأمم المتحدة أن "القانون الدولي يحظر بعض أشكال التعبير لما يترتب عليها من نتائج، وليس لمضمونها في حد ذاته، لأن ما قد يكون مسيئاً جداً في أحد المجتمعات قد لا يعد كذلك في مجتمع آخر" (214).

إننا نرى أن المضمون كثيراً ما كان سبباً في نتائج وخيمة، فاهتزت بلدان بأسرها، وسادت توترات في أرجائها، وجعلت الفتنة عالياً سافلاً، بعد أن كانت آمنة مطمئنة يأتيتها رزقها رغداً من كل مكان؛ فأصل المضمون كلمة، وأصل العهود والمواثيق كلمة، وأصل الخلق كلمة. ومن ثم، فإنه يبدو لنا أن في الأمر تساهلاً كبيراً، من خلال عدم اعتبار المضمون ذا جدوى في القانون الدولي في هذا الباب؛ حيث إنه لا يحتكم إلا إلى النتائج ولا يلتفت إلى المداخل التي يُقطع بها دابر ذلك كله؛ فلكي يقيّم الأمر يفرض أن ينظر "في عوامل شتى، منها وجود أنماط توترات بين الطوائف الدينية والعرقية، وتمييز ضد الفئة المستهدفة، ونبرة الخطاب ومضمونه، والشخص المحرض على الكراهية، ووسيلة نشر التعبير عنها" (215).

ونجد أكثر من هذا التساهل في عدم اتخاذ الأسباب التي تقطع الطريق على خطاب الكراهية وإغلاق الأبواب في وجهه، فحينما نقرأ في تلك المقررات أن "الحق في حرية التعبير يشمل الحق في التمييز، والمناقشة العلنية، والإدلاء بأقوال تسوء وتصدم وتزعج، وانتقاد النظم والآراء والمؤسسات العقائدية (كذا)، بما في ذلك الدينية منها، بشرط ألا تدعو تلك الأقوال للكراهية المحرصة على العداوة أو التمييز أو العنف" (216)، فإننا نندهش لكثير من العناصر التي بني عليها؛ فالتمييز لا ضير فيه، والمناقشة العلنية أمر محمود، والسماح بالأقوال التي تسوء وتصدم وتزعج هو فتح لباب الجهر بالسوء، وتخصيص النظم والآراء والمؤسسات العقائدية بالانتقاد توجيه تحريضي مباشر.

214. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 46.

215. المرجع نفسه.

216. المرجع نفسه، المادة: 53.

• المطلب الثالث: التمييز بين الحق في التعبير والواجب فيه

أشرنا من قبل إلى أن حق التعبير حق إنساني. ولذلك فقد أكدت عليه الأديان كلها والفلسفات السُّوية جميعها ومنظومات الأفكار التي تحترم الإنسان على اختلافها. إلا أن الملاحظ أن القوانين الوضعية المنظَّمة للحياة الإنسانية المعاصرة بما فيها التشريعات الصادرة عن الأمم المتحدة تهتم بالحق في التعبير بشكل لافت، وتكاد تهمله باعتباره واجباً⁽²¹⁷⁾.

ولكن الدين الإسلامي ينص على كون التعبير يكون حقاً كما يكون واجباً. وإذا كنا قد عرفنا ما يتعلق به حين يكون حقاً، فإن الحال التي يكون فيها واجباً تتحدد أساساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث يكون فرض كفاية.

إن حق التعبير هذا- وهو المتخذ مظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- يعد في الدين الإسلامي صفة أساسية من صفات المؤمنين به الذين حين يُمْكِّن لهم في الأرض لا يفرطون فيه. وبهذا الخصوص يقول الله تعالى: ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلْأَنْصَارِ الْكَفَالَةُ مِنَ الَّذِينَ أَمْسَوْا وَأَلْزَمَهُمُ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَارِثَةَ اللَّهِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ السَّمَاوَاتُ بِالنَّاسِ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)﴾ (الحج: 40-41).

فكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين يوضع إلى جانب الصلاة والزكاة باعتبارهما ركنين أساسيين من أركان الإسلام، في سياق قد تحقق فيه التمكين للمؤمنين، يصبح عنصراً تستمر به الحياة الإسلامية نظيفة طاهرة، غير مشوبة بشائبة تعكر صفوها؛ حيث يمثل المراقب لكل عنصر دَخِيل ينبغي لَفْظُهُ وإبعاده قبل أن يَسْتَتَبَّ له الأمر ويجد مقومات التثبيت في المكان.

217. خصص الإمام مسلم باباً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر في عنوانه "أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ". ينظر: المسند الصحيح المختصر، 1/ 69. كما أن ابن عطية قد أشار في المحرر الوجيز، ص: 1/ 486، إلى أنه قد تقرر لدى بعض أهل العلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير (...). والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولاً".

ولذلك، فقد شدد عليه المهتمون بإصلاح أحوال المجتمع ومآلاته، فجعلوه ركيزة أساساً في وصاياهم التي كانوا يتوجهون بها لـخلفهم. ومما يرد على رأس ذلك، وصية لقمان لابنه وهو يعظه، فحكى الله تعالى قوله في كتابه العزيز، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (17) ﴿لقمان: 17﴾.

وهو أمر ينقلب انقلاباً جذرياً حين ينظر إليه في علاقته بفئة اجتماعية أخرى. إنها المتمثلة في فئة المنافقين؛ حيث يدفعونه ويرفضونه ويقفون في وجهه، بالنظر إلى كونه يحول بينهم وبين الوصول إلى مبتغياتهم، ويدعون إلى المنكر ويدعمونه لأن مقاصدهم منسجمة معه، وما يسعون إليه متطابق مع الصور التي يتجلى فيها المنكر. ويتحدد هذا الملح الذي يميزهم عن غيرهم في قول الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (67) ﴿التوبة: 67﴾.

ولذلك، فإن التعبير حين يكون واجباً يفرض توفر مجموعة مرتكزات لا يجوز بوجه من الأوجه أن يتخلف أحدها؛ فالأمر جد، ومواصلة المسير من أجل تحقيق الأهداف المنشودة تقتضي توفير العتاد الضروري. ونحب أن نقف من ذلك على ما يلي:

1. كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مأموراً بهما:

لقد أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه العزيز أمراً لا يقتضي انصراف الذهن إلى غيرهما، فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿آل عمران: 104-105﴾؛ فهو أمر مؤسس لغوياً على اقتران لام الأمر بالفعل المضارع: "ولتكن". وكل أمر في القرآن الكريم ينصرف إلى الوجوب ما لم توجد قرينة تصرفه عن ذلك.

ولقد وقف الزمخشري على الحدود الفاصلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث الوجوب أو الندب، فقال: "والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجباً

فواجب، وإن كان ندباً فندب. وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب لا تصافه بالقبح“⁽²¹⁸⁾.

ويعترض الباحث إشكالٌ يتعلق بتحديد الصفات التي ينبغي أن تتوفر في من يلزمه التعبير حين يكون واجباً، أو من يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو ما ناقشه علماء الإسلام قديماً، فوضعوا له شروطاً نوردها على الصورة الآتية:

أ. أن يكون خالياً من النَّخْرُق:

وهو شرط بناه ابن عطية على قول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما رواه عنه أبو ברزة رضي الله عنه: “من كان آمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف“⁽²¹⁹⁾، فأكد على وجوب توفر الشروط التي تتحقق بها ماهية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تتحقق بها مردودياته التي تواترت عليها أقوال العلماء، فقال النووي بشأنها “وَيَنْبَغِي لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ أَنْ يَرْفُقَ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ، فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرّاً فَقَدْ نَصَحَهُ وَرَأَاهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ فَضَحَهُ وَشَانَهُ“⁽²²⁰⁾.

ب. ألا يخاف القائم به أدنى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره⁽²²¹⁾:

وقد بناه على قول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما رواه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: “أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ“⁽²²²⁾.

ج. أن يكون القائم به من أهل العلم الذي يتميز به المعروف عن المنكر:

وقد نص الزمخشري بهذا الخصوص على أن الأمر يقتضي العلم بترتيب خطوات المعالجة وبكيفية مباشرتها، منبهاً على أن “الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر

218. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 397.

219. رواه الشهاب القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيم القضاعي المصري (المتوفى: 454هـ)، في مسنده، رقم: 465، 1/ 285، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2/ 1407هـ - 1986.

220. شرح النووي على مسلم، 2/ 24.

221. المحرر الوجيز، ابن عطية، 1/ 486.

222. رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم: 4344، 4/ 124، والترمذي في الفتن، ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم: 2174، 4/ 471، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم: 4011، 2/ 1329، وأحمد، 18/ 133.

بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يُغْلِظ في موضع اللين، ويَلِين في موضع الغلظة، ويُنكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على مَنْ الإنكار عليه عَبَثٌ“⁽²²³⁾.

2. تعطيلُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعطيلٌ للصالح ودعمٌ للفساد:

يعد المنكر عنصراً دخليلاً على بنية الصلاح التي يكون عليها مجتمع ما. وبقدر إهماله والتساهل في التعامل معه تصير المخاطر محدقة بالمجتمع كله، فإذا استفحلت في جنباته نتوءاتها، وهيمنت على دواخله أمراضها، فإن نهايته تقترب شيئاً فشيئاً، حتى يصير أثراً بعد عين ويغدو أحاديث تلوكها الألسنة. ولذلك، فقد وردت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم تنبيهات تخص تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتستشرف المستقبل، وترسم المآلات السلبية التي لن ينجو منها أحد؛ سواء أكان صالحاً أم كان طالحاً.

إن من ذلك ما رواه قيس بن أبي حازم عن أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ”إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ“⁽²²⁴⁾. وقد وردت الإشارة إلى العقاب، ها هنا، وروداً عاماً غير محدد؛ فقد يكون متمثلاً في الفتن الداخلية التي ينتجها التقاعس عن مجابهة المنكر والدعوة إلى المعروف ودعمه، وقد يكون محدداً في الأمراض الفتاكة التي تصيب المجتمع حين يفتح الباب على مصراعيه لتقبل الاختلالات كلها وتمهيد الطريق لممارستها، وقد يكون متجلياً في الاضطرابات الأمنية التي تلج إلى حصون المجتمع من خلال الثلوم التي يحدثها التناول على النظام العام.

لقد نبهنا القرآن الكريم إلى هذه النتائج غير مرة، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)﴾ (النور: 63). فالخالفة العمدية منكر، وكلما استتب لها الأمر وغدت من المقومات

223. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 396-397.

224. رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم: 4338، 4/ 122، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في ثلول العذاب إذا لم يُغَيَّرِ الْمُتَكَبِّرُ، رقم: 2168، 4/ 467، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم: 4005، 2/ 1327، وأحمد، 1/ 197.

المألوفة التي يسير عليها المجتمع، كانت سبباً لتوافد الفتن عليه وداعياً للمصائب التي لم يعرفها في سالف عهوده.

ولذلك فقد دفع الخوف من العواقب غير المحمودة علماء الأمة قديماً وحديثاً إلى حث العزائم للاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد شدد الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم على طالب الآخرة "أَنْ يَغْتَنِي بِهَذَا الْبَابِ فَإِنَّ نَفْعَهُ عَظِيمٌ لَا سِيَّماً وَقَدْ ذَهَبَ مُعْظَمُهُ، وَيُخْلِصُ نَيْتَهُ وَلَا يَهَابُ مَنْ يُكْرِ عَلَيْهِ لِارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ وَلِيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصِرُهُ"⁽²²⁵⁾.

3. ليس وراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان حبة من خردل:

إن هذا المرتكز له من الخطورة ما له في علاقته بسابقه؛ فهو مهدد للمرء بالأبى يبقى في دائرة الإسلام. وليس وراء الإسلام إلا الكفر، مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما رواه عنه عبد الله بن مسعود؛ حيث قال: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ"⁽²²⁶⁾.

فقبل أن يصل المجتمع إلى المحطة التي يتوجب فيها جهاد الخُلُوف الملوحة بكل شر مستطير؛ إذ إن الخُلُوف "جمعُ خَلْفٍ بإسكان اللام وهو الخَالِف بِشَرٍّ"⁽²²⁷⁾. فممارسات هؤلاء هي الطرق السالكة إلى جعل المجتمع يعيش على صفيح ساخن؛ حيث "يُلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ سَفْكُ الدَّمَاءِ أَوْ إِثَارَةُ الْفِتَنِ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ"⁽²²⁸⁾.

لقد توضح من الفقرات السابقة أن حق التعبير إنما هو أحد شقين يتكون منهما التعبير؛ فإما أن يكون التعبير حقاً وإما أن يكون واجباً. والشق الذي يكون به التعبير

225. شرح النووي على مسلم، 2/ 24.

226. رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بَيَانُ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ تَزِيدٌ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ، رقم: 50، 1/ 69، وأحمد، 7/ 387.

227. شرح النووي على مسلم، 2/ 28.

228. المرجع نفسه.

واجباً مهمل إهمالاً بيّناً في التشريعات التي يسير المجتمع الإنساني على هداها. ولكن ديننا الإسلامي أولاه حيزاً واسعاً جداً من مساحته المتزامية الأطراف، واتخذ له اسماً قائماً على ثنائية يتفاعل طرفاها في القيام بالبناء والهدم على السواء؛ فالأمر بالمعروف بناء وتشديد، والنهي عن المنكر هدم وإزاحة علل. وهو يعكس دلالة وظيفته التي يقوم عليها في بناء المجتمع، بل إنه جعل تفعيله مفتاحاً للصالح المنشود والنجاح الذي يسعى إلى تحقيقه المجتمع. كما حذر من التقاعس عن أدائه، أو التقليل من قدره؛ فالعقاب مقترن به، والدعوة تكون أبوابها بتعطيله موصدة.

إن الخطاب الدعوي المفعّل يجعل حرية التعبير لأبَسَّ لَبُوساً آخر غير الذي كانت ترتديه من قبل فيصحح مفهومها ويتتبع أحوالها؛ حيث يجعل الفروق بين حرية التعبير وخطاب الكراهية واضحة جلية، حتى لا تختلط الأمور على الناس فيمارسونها وقد تهدمت الحدود الفاصلة بينهما، فلا يماز أحدهما عن الآخر. كما يوضح الحالات التي يكون التعبير فيها محيلاً على الحرية والحالات التي يكون محيلاً فيها على الاعتداء. وفي الأخير يميّط اللثام عن السياقات التي يكون التعبير فيها حقاً، وتلك التي يكون فيها واجباً.

المبحث الثاني: تصحيح الفهم السائد عن إنسانية الإنسان

قد يتساءل كثير ممن سيطلعون على عملنا هذا عن علاقة إعادة النظر في الفهم السائد عن إنسانية الإنسان بموضوعنا المحدد في دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني، فيرون أن البون شاسع بينهما، وأن البعد بينهما كالبعد بين المشرق والمغرب. ولذلك، فإنهم سيذهبون إلى أن إدراج هذا الأمر في الباب الخاص بالاستشرافات المستقبلية لا مُسوِّغ له ولا داعي لإيراده.

إننا نرى أن العلاقة أساسية، ولولا الخلل فيها ما كان لخطاب الكراهية ليكون. وإذا تم الإقلاع عن الفهم السائد في مفهوم الإنسانية، فإن التعاملات كلها تجري على سواء، فيدرك كل امرئ، مهما علا شأنه وتميز موقعه، أن صفاته الإنسانية لا تكاد تختلف عن صفات الآخرين، مما يدفعه إلى التعامل معهم على الصورة التي يحب أن يتعامل معه بها غيره، ويسوي مشاعره تجاههم فتتفى منها الشوائب والأدران التي تعكر صفو سلوكه تجاههم، ويجتهد في محو الأحاسيس السلبية التي يبدي منها كراهية واحتقاراً وإيذاءً وعنفاً.

ومن ثم، فإن تصحيح الفهم السائد عن إنسانية الإنسان يمكّن الناس من معرفة حدود التعامل التي يقتضيها التصرف الإنساني، فيستوطن اليقين في النفوس كلها بأن الفروق التي ينسجها الخيال في أذهان الناس عن التفاضلات بينهم غير موجودة البتة إلا أن تكون متمثلة في تقوى الله تعالى.

فكثيراً ما كان الفهم الخاطئ لمفهوم الإنسانية سبباً في ارتكاب الانحرافات في الأقوال والأفعال، وكثيراً ما أومأت الأصابع إلى جهات بعينها من أجل تأليب القلوب عليها، وجعلها محط الكلام البذيء والنظرات الشّزر والأيادي التي لا تأبه بما ليس لها فتمتد إليه، فتضر وتؤذي وتعتدي. وإن تفعيل الخطاب الدعوي سيكون له أثر بالغ في تحقيق هذا المبتغى الذي نستهدف تحقيقه في المجتمع الإنساني برمته، فإذا وظفت شبكات التواصل الاجتماعي التوظيف المناسب في إحداث التغير الإيجابي في الخطاب الدعوي، فإننا نستشرف أن يكون للمجتمع الإنساني شأن آخر في المستقبل القريب بحول الله تعالى.

وإذا تحقق هذا الأمر بكل عناصره المختلفة، فإنه يتبين للناس أن مآلات المجتمع الإنساني مؤسسة على رشاد الأفكار وانحرافها. وبه يتم تصحيح المسار الإنساني كله؛ علاقات وممارسات ورغبات. وحينها تصير التطلعات إلى بناء مجتمع إنساني متفاعل الأطراف، متلاحم الجوانب، متراص الصفوف، تطلعات إيجابية تنتقل من مستوى التنظير إلى مستوى التطبيق والممارسة. وهو ما ينشده كل غيور على وضع الإنسانية ومصيرها؛ حالاً ومآلاً.

• **المطلب الأول: الفرق الوحيد بين الناس هو تقوى الله تعالى**

من الوصايا التي يشدنا إليه فيها خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلقي خطبة حجة الوداع، تلك التي قرن فيها تنبيه الناس أجمعين- من خلال تنبيه من حضر معه حجة الوداع- إلى أن ربهم واحد وأباهم واحد وألا فرق بينهم، فقال صلى الله عليه وسلم، في ما رواه أبو نضرة عن سمع في وسط أيام التشريق، فقال:

”يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أُبَلِّغْتُ“،
قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ“ (229).

فالمكونات المذكورة في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المكونات الأساسية التي إذا التزمت بحق وصدق، فإن الحياة تسير سيراً طبيعياً، فلا تعرف هزات ولا اضطرابات ولا تقلبات؛ فالخالق سبحانه واحد وهو من يستحق العبادة بحق، والأصل واحد وهو أبونا آدم عليه السلام. ولذلك فالتفاضل بيننا لن يكون بأي وجه من الأوجه، إلا أن يكون قائماً على تقوى الله وبذل الجهد في تحقيق مرضاته سبحانه.

إن هذه المكونات تجعلنا أمام وضع يمثل بداية الانطلاق؛ فنحن سواسية أمامها، والمسافة التي تفصل كلاً منا عنها مسافة واحدة. ولذلك، فهي محققة لتكافؤ الفرص بين الناس جميعاً تجاه مسألة تمييز الحضور في الحياة الدنيوية، وانتظار نتائجها في الحياة الأخروية.

فإذا كانت نقطة الانطلاق واحدة، وكانت الفروق بين الناس في ما يخص الجنس والعرق والغنى غير معتبرة؛ فهي ليست المقاييس التي يحتكم إليها، وإنما هو مقياس واحد يتمثل في تقوى الله تعالى، فإن عدالة الأحكام ستكون عدالة لا ينتابها ما يعكر صفوها، ولا يداخلها ما يفقدها قيمتها. ولذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أكرم الناس لم يأت بشيء آخر من مقومات الشخصية الإنسانية غير مقوم تقوى الله تعالى. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قيل يا رسول الله،

”مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟“

قَالَ: ”أَتْقَاهُمْ“،⁽²³⁰⁾.

لقد نطق القرآن الكريم بهذا المحدد من قبل، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات: 13). فخلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل، إنما كان من أجل تحقيق التعارف بينهم. فالله تعالى ينبههم ويقول لهم بأن الأمر لم يكن ”لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقربكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم“⁽²³¹⁾. فهو ليس مكرمة ولا معياراً تقاس به درجاتهم وتفاوتاتهم، ولكن المقياس المعتمد هو التقوى فقط.

لقد شدد الشرع الإسلامي على جعل التقوى مقياساً للمفاضلة بين الناس تشديداً ظاهراً، فألغى المقاييس التي كانت تعتمد بينهم في سيرورات حياتهم المختلفة. فحفز الهمم للإقبال على هذا الأمر الجديد، ووضع لذلك التحفيز مقومات وأسساً بالغة الأهمية؛ إيجاباً وسلباً، وكان من الإيجاب منها أن يذف النبي صلى الله عليه وسلم البشرى للمتقين فيقول في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن، فخرج معه يوصيه، فقال:

”يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَىٰ أَلَّا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا وَلَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا، وَقَبْرِي.“

230. رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء: 125)، رقم: 3353، 4/ 140، وأبو داود في كتاب المناسك، باب الضَّلَاةِ فِي اللَّحْظَةِ، رقم: 2027، 2/ 214.

231. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 22/ 312.

فَبَكَى مُعَاذُ جَشَعًا لِّفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ التَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ
نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ:

”إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ؛ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا“⁽²³²⁾.

وكما كانت تلك المقومات والأسس قائمة على الإيجاب، فقد كانت في سياقات أخرى قائمة على السلب. ومنها ما رواه ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، فقال: ”يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاضَّمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ“⁽²³³⁾. فإذا كان الناس في الحديث السابق يُدْعَوْنَ إِلَى الإِقْبَالِ عَلَى التَّقْوَى، فَإِنَّهُمْ يُنَبَّوْنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ كَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ التَّفَاخَرَ وَالتَّعَاضُّمَ بِالْآبَاءِ، وَعَنِ الْأَحْوَالِ الَّتِي سَيَكُونُونَ عَلَيْهَا. وَهِيَ الَّتِي تَتَحَدَّدُ فِي حَالَيْنِ اثْنَيْنِ لَا ثَالِثَ لِهَمَا؛ ”بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ“.

وطُرُقُ السَّلْبِ الَّتِي جَاءَ الشَّرْعُ لِيُبْعِدَ الْمُسْلِمِينَ عَنْهَا كَثِيرَةٌ جَدًّا؛ فَكُلُّ مَا ظَهَرَ مُخَالَفًا لِلتَّقْوَى وَمُبْتَعِدًا عَنِ الْمَادِخِلِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ يَدْرَجُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ حَتْمًا. وَمِنْ ذَلِكَ الْإِحْتِكَامِ إِلَى عَامِلِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى الَّذِي تَكُونُ نَظَرَةُ النَّاسِ فِيهِ مَنْطَلَقَةً مِنَ الْوَضْعِ الْاجْتِمَاعِيِّ؛ فَيَقْدَرُ مَا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ مَالٍ وَرِيَاشٍ تُحَدِّدُ دَرَجَتَهُ، فَيَكُونُ بِالْإِنْطِلَاقِ مِنْهَا فَاضِلًا أَوْ مَفْضُولًا، رَغْمَ أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ عَامِلًا أَسَاسًا فِي تَحْدِيدِ قِيَمَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سبأ: 37). فَالتَّحْقِيقُ - كَمَا يَذْكُرُ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ الْحَنْفِيُّ فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ - ”أَنَّ التَّفْضِيلَ لَا يَرْجِعُ إِلَى ذَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالْحَقَائِقِ“⁽²³⁴⁾.

232. رواه أحمد، 36/ 376.

233. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فِي التَّقَاظُرِ بِالْأَخْشَابِ، رَقْم: 5116، 4/ 331، وَالتَّرْمِذِيُّ فِي الْمُنَاقِبِ، رَقْم: 3955، 5/ 734، وَأَحْمَد، 16/ 455.

234. شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين بن أبي العز الحنفى، (المتوفى: 792هـ)، تحقيق جماعة من العلماء، دار السلام، ط 1، 1426هـ - 2005م، 360.

إن الفقر والغنى حالان يبتلي الله تعالى عباده بهما فينظر كيف يعملون. فمن الناس من يشكر ربه على ما أسداه إليه من نعم، ويضرع إليه ليكشف ما مسه به من نقم، ومنهم من يكون في الحالين معاً مقترفاً أفعالاً لا توصل إلا إلى ما لا تحمد عقباه في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا يقول رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)﴾ (الفجر: 15-16). وطالما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مثل هذا السياق أنه كان يقول: ”الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِئَتَانِ، لَا أَبَالِي أَيُّهُمَا رَكِبْتُ“⁽²³⁵⁾.

إن اختيار طريق التقوى اختيارٌ عظيم، ولكنه يسير على من يسره الله عليه؛ فإذا كانت سبيله ممهدة ميسرة، فإن تفضيل صاحبه يكسبه درجات التميز في الدنيا وفي الآخرة. وذلك ما نستشفه مما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

”إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيزَنَّهُ“⁽²³⁶⁾؛

حيث تتحقق له الولاية، والولي- كما يذكر ابن أبي العز الحنفي- ”خِلَافُ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَلَاءِ وَهُوَ الدُّنُوُّ وَالتَّقَرُّبُ، فَوَلِيُّ اللَّهِ: هُوَ مَنْ وَالَى اللَّهَ بِمُؤَافَقَتِهِ مَحَبُّوْبَاتِهِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَرْضَاتِهِ“⁽²³⁷⁾.

فال فوز بالولاية يكسب المرء جوائز لا تحصر عطاءاتها، ولا تنضب خدماتها. فالمحبة الإلهية تورثه تحصين سمعه من لدن الله تعالى وتحصين بصره ويده ورجله،

235. المرجع نفسه.

236. رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: 6502، 8/ 105، وابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبُد، التميمي، (المتوفى: 354هـ)، في صحيحه، في كتاب البر والإحسان، ذُكِرَ الْإِخْتِيَارُ عَقْدًا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنَ النَّقْصِ بِاللَّهِ فِي أَحْوَالِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ بِإِثْبَانِ الْأُمُورَاتِ، وَأَنْزَعَا جِهَ عَنْ جَمِيعِ الْمَرْجُوزَاتِ، رقم: 347، 2/ 58، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1414هـ - 1993م، والبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، في السنن الكبرى، في كتاب صلاة الاستسقاء، باب الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْضَّدَقَةِ وَنَوَافِلِ الْخَيْرِ رَجَاءَ الْإِجَابَةِ، رقم: 6395، 3/ 482، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ - 2003م.

237. شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين بن أبي العز الحنفي، 360.

حتى يبدو جسده محصناً من جهاته كلها. والأعظم من ذلك كله أن يصير مجاب الدعوة، فإذا سأل الله تعالى مسألة لم يتأخر القدر في تنفيذها والإقبال عليه بها، وإذا استعاضه دفع عنه المكروهات وأبعد عنه الشرور بصورها المختلفة.

فإذا علم هذا- وغيره كثير- فإن مداخل التفاضل بين بني الإنسان؛ أفراداً وشعوباً وأممًا، توصل مداخلها، وتردم منافذها، فلا اعتبار للأنسب ولا للأحساب ولا للغنى ولا للفقر ولا لشيء آخر غير تقوى الله تعالى. ومن ثم، فإن مفهوم الانتماء الإنساني يعاد فيه النظر؛ فلا فضل لأمة على أمة، ولا رفعة لشعب على شعب إلا بتقوى الله تعالى. ومنه، فإن الأحاسيس التي تنتاب كثيراً من الناس فتتحرك فيهم هواجس الانتماء، ويصعدون أبراجهم العاجية من خلالها، ليطلوا على غيرهم فيحتقرونهم، تُمنع من الظهور وإحداث التأثير في النفوس.

• المطالب الثاني: الفهم الخاطئ لمفهوم الإنسانية يُنتج الانحراف في الأقوال والأفعال

يتحدد المفهوم العام للإنسانية في كونها ”تدل على ما اختص به الإنسان من الصفات“⁽²³⁸⁾. وقد وُفق الفلاسفة العرب القدماء إلى تحديد مفهومها من غير ابتعاد عن حقيقتها في علاقتها بالإنسان، فقال ابن سينا إن الإنسانية ”هي المعنى الكلي المجرد الدال على ما تَتَقَوَّمُ به ماهية الإنسان“⁽²³⁹⁾. ولذلك، فإن ”الإنسان عندهم لا يبلغ أعلى مراتب الإنسانية إلا بإخراج ما في قوته إلى الفعل“⁽²⁴⁰⁾.

ونحن نريد أن نكتفي بما أمدنا به الفلاسفة العرب القدماء في هذا، ونرصد في جنباته الومضات التي تخدم موضوعنا فتجليه جلاءً كافياً. فعلى مقياس إدراك حقيقتها تنجز الأقوال والأفعال، وعلى تحديد الدرجة التي يشعر المرء أنه يستقر فيها تنبني مواقفه ورؤاه في علاقته بغيره من الناس.

238. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، بيروت، 1982م، 1/ 158.

239. نقلاً عن المرجع نفسه.

240. المرجع نفسه.

فإذا أصاب مفهوم الإنسانية في الأذهان خللٌ فإن كل ما يأتيه الإنسان في حياته يكون مؤسساً على ذلك الخلل، فيكره ويحقد، ويظلم ويعتدي، ويفعل الأفاعيل التي لا تخدم الفرد ولا الجماعة على السواء؛ ذلك، لأنه يكون قد ترسخ في ذهنه أن ذاته- سواء أكانت ذاتاً فردية أم جماعية- خير من غيرها من الذوات، وأن قدرها أكبر من قدر غيرها، وأنها بمقدورها أن تمد يدها إلى ما يخص الآخرين مما تقوم عليه حياتهم من غير أن يعترض أحد أو أن ينسب بِنْتِ شَفَةٍ. وإذا فعل، فله الويل والثبور وما لا تحمد عقباه.

إن الباحث، وهو يجوب مغازات هذا الجانب من هذا الموضوع، قد تشكل لديه يقين عن كون الخلل في فهم حقيقة إنسانية الإنسان يعد العمود الفقري من أسباب المصائب التي يعانيتها المجتمع الإنساني؛ محلياً وعالمياً، كما يعد القلب النابض من تلك الأسباب التي لن يكون لها طائل إذا لم يتحقق وجود هذا الخلل.

ولقد جبتُ شواهد القديم والحديث والطَّارِف والتَّلَاد، من أجل أن أتبين حقيقة الأمر، فكننت أَلْقَبَ الرأي على وجوهه كلها، وكان الأمر ينتهي بي دوماً إلى النتيجة نفسها والحقيقة ذاتها، محددة في كون الخلل في إدراك مفهوم الإنسانية يعد أصل ما يعيشه المجتمع الإنساني برمته. ولنقف على ما يشفي صدورنا بهذا الخصوص، فينير الجوانب المظلمة، ويضيء الساحات المعتمة، وليكن محدداً في ما كان ممارساً معيشاً أيام جاهلية العرب، مقتصرين منه على نموذج واحد فقط، قبل أن نطل على بعض ما عاشه بنو الأنسان في العصر الحديث، حتى تكون التغطية شاملة، وتكون الدعوى التي نقدمها بين يدي نجواناً مُسَلِّمةً لا شية فيها.

إن النموذج الذي نحب الوقوف عليه مقتطفاتٌ من معلقة عمرو بن كلثوم الذي يمثل الخلل في إدراك مفهوم الإنسانية أوضح تمثيل؛ حيث تنبني مواقفه على الكراهية والحقْد والضغينة. وكل ذلك يشفي صدره ويخرج داءه ويظهر نفسه، فيقول⁽²⁴¹⁾:

(الوافر)

وَإِنَّ الضُّغْنَ بَعْدَ الضُّغْنِ يَبْدُو *** عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا

241. ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1411هـ- 1991م، 75.

فالكراهية لديه دين وديّن، وهي الوقود الذي يحرك عجلة الحياة النكدة المحيطة به وبغيره، فتجعله يفصح عن الغطرسة التي لا تُحد بحدود ولا تقف عند نهايات، فيتوعد الآخرين على اختلافهم؛ أعداء وأصدقاء ومسلمين. فكل من يقف في طريقه تليفحه نار كراهيته، وتدوسه حوافر خيله، وتجري دماؤه في كل واد، فيقول⁽²⁴²⁾:
(الوافر)

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا *** وَأَنْظِرْنَا نَحْبِرَكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّاياتِ بَيْضاً *** وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوِينَا
بل إنه يقول⁽²⁴³⁾: (الوافر)

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا *** يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا

إن الشاعر هو لسان القوم، وهو الناطق الرسمي بما يجري في واقعهم. فإذا سلكوا سبيلاً سلكه، وإذا شاعت بينهم ملامح ثقافية صاغها في كلامه ليخلدوها عربون اعتراف وتقدير لوجودهم. وهو الآن نراه يرعد ويزبد، ويشهر في وجوه الأقوام كلماته الجارحة ووعيده اللافح الذي لن يكون مؤهلاً بأي وجه لأن يمد الجسور الإنسانية بين الأطراف، ولا لأن يقرب المسافات الفاصلة بين بني الإنسان، فيقول⁽²⁴⁴⁾: (الوافر)

أَلَا لَا يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ أَنَّا *** تَضَعُضَعُنَا وَأَنَا قَدْ وَنِينَا
أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا *** فَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

إن القائد لا يؤمن بشيء غير الغطرسة والتجبر على الآخرين، بناء على كون الحدود التي تحد إنسانية الإنسان هي حدود مهدمة لديه؛ فإيمانه راسخ بكونه صاحب المقام الأعلى من الذروة والسنام، ولغيره المؤخرات ومواقع الأذنان. وهو ما يدفع غيره إلى مبادلتها ما يناسب كلامه، وإبداء القوة الطائشة في وجهه؛ إذ إن ثقافة القوم أجمعين كانت تحكمها قوانين الحمية والأخذ بالثأر وحماية العرض والانتماء، علماً أن القصيدة لم تأت رداً على فعل مشين طلع به غيره على قومه، وإنما هي استقزاز

242. المرجع نفسه، 71.

243. المرجع نفسه، 72.

244. المرجع نفسه، 71.

للأقوام الأخرى، وتحريك لدواخلهم. ويزيد الطين بلة لما يلقي القائد على ما أوقدته كلماته في نفوس مخاطبيه من نيران ملتهبة ما يزيدها التهاباً وتسعراً، فيقول⁽²⁴⁵⁾:
(الوافر)

وَنَحْنُ الْحَاكِمُونَ إِذَا أُطْعِمْنَا *** وَنَحْنُ الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ التَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا *** وَنَحْنُ الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا

فمفهوم الإنسانية الذي يقتضي الشعور بالصفات المشتركة الجامعة بينه وبين غيره من الناس، كما يقتضي الشعور بوجود الآخرين فيبادلهم الكلمات الطيبة البانية، مفهوم غير مثبت الأركان لديه، بل إننا نستشعر ألا وجود له في ذهنه البتة. ولذلك، فلا نستغرب إذا سمعناه يقول⁽²⁴⁶⁾: (الوافر)

وَنَشْرَبُ إِذَا وَرَدَنَا الْمَاءُ صَفْوًا *** وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينًا

إنه التحدي الذي يموت في أحضانه مفهوم الإنسانية الذي نلح على فعاليته في تقوية جنبات المجتمع الإنساني، فإذا كانت الأذهان مجردة منه، أو كان فهمه المستقر فيها فهما مختلا، فإن الحياة لن تكون إلا على شاكلة الحياة التي كانت سائدة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. والأدهى والأمر أن نسمع صدى طيش القائد المتغطرس يأتي إلينا مخترقاً أثر التاريخ، فيعلن فيه أنه وقومه ظالمون ولن يقبلوا أن يكونوا مظلومين بوجه من الأوجه، فيقول⁽²⁴⁷⁾: (الوافر)

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا *** وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَ
بُعَاةَ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا *** وَلَكِنَّا سَبَدًا ظَالِمِينَ

إن القوم لم يكن فيهم رجل رشيد، وإنهم لم يكونوا يتناهون عن منكر فعلوه. ولذلك، فإنهم كانوا يُمنُّون أنفسهم بأنهم سادة الوجود، وهم محكومون مأمورون مقودون من لدن قوم آخرين. وقد فعل الله بهم خيراً لما أنقذهم من ضلالتهم القاتلة وجهالاتهم التي لا تبقي ولا تذر لما أرسل فيهم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم،

245. المرجع نفسه، 83.

246. المرجع نفسه، 90.

247. المرجع نفسه.

فأنار لهم الطريق، وانتشلهم من الذل والهوان وجعلهم شامات بين العالمين بعد أن لم يكونوا شيئاً ذا بال.

ونحب الآن أن نطل على مشهد من مشاهد الحياة المعاصرة التي تَنَزُّ دماؤها، وتغور أنفاسها بفعل الكراهية المركوزة في الدواخل، والحقْدِ المَبْثُوثِ في الجنبات، والضعيفة التي لا تكاد تنطفئ نيرانها في كل صعيد، رغم الجهود المبذولة للحد من ذلك السم الزعاف. وليكن متمثلاً في الخلل الذي كان قد استتبَّ في ذهن أحد قادة الصراع الذي ساد أوروبا خلال الحرب التي لم تنحصر في حدود القارة العجوز، فما لبث أن اكتوى بنيرانها العالم كله.

إن النموذج الذي نروم الوقوف عليه في هذا الشق من هذا المطلب، يتمثل في الفهم الخاطئ لمفهوم الإنسانية الذي مثله أدولف هتلر، فقاده إلى إغراق ألمانيا وما حام حولها في حرب ضروس لم تضع أوزارها إلا بعد أن أتت على الأخضر واليابس، وأحرقت الأقارب والأباعد بنيرانها الملتهبة.

لقد كان المنطلق الذي أسس عليه الزعيم رؤيته منطلقاً قلب فيه المفاهيم رأساً على عقب، بل إنه جعل عاليها سافلها. وأول اعتقاد مثير لديه أن يرى أن "الصراع القائم بين الأجناس مبعثه الجوع والحب قبل أن يكون مبعثه الكراهية المتبادلة"⁽²⁴⁸⁾.

لقد قام فهمه الخاطئ على مجموعة معالم، واتسم بمجموعة ملامح كلها كانت وبالأعلى الإنسانية. وكل ما بني على باطل فهو باطل. ونحب أن نقف عليها في الفقرات الآتية:

• أولاً: إيمانه بكون المبادئ الإنسانية غير مجدية

يقول هتلر: "عندما نكافح من أجل كياننا، لا يبقى هناك مجال للاعتبارات الإنسانية، لأن هذه الاعتبارات هي من صنع مخيلة الإنسان، فمتى زال هو زالت معه الاعتبارات الإنسانية، لأن الطبيعة لا تعترف بها"⁽²⁴⁹⁾.

248. كفاحي، أدولف هتلر، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، من غير رقم للطبعة ولا تاريخ، 97.

249. المرجع نفسه، 62.

إن ما تأمر به الأديان السماوية، وما توجه إليه الشرائع السوية، من التزام للمحبة والتآخي والتعاون والتكافل ونبذ الكراهية والحرص على التعايش الإنساني المشترك، كله ردُّ على من يأمر به أو يريد إصلاح المجتمع الإنساني على هداة. فأدولف هتلر ألغى هذا المبدأ قبل أن يلغي غيره؛ فغيره كله له تَبَع.

ولذلك، فإننا نراه يدعو جهاراً نهاراً إلى العداء والظلم والسيطرة على الآخرين بأي ثمن؛ فالسلم محذوف من ذهنه، ومفهوم الإنسانية مقصور على ما يحقق مصالحه ومصالح بني جنسه فقط. واستمع إليه وهو يلوم ساسة بلاده على اختيارهم طريق التفاوض والسلام، فيقول: ”إن التعلق بالسلام بهذا الشكل أقعد الساسة الألمان عن الأخذ بفكرة التوسع في أوروبا. فقد كانوا يعلمون أن هناك أراض (كذا)، يمكن الاستيلاء عليها في الشرق، وأنهم بحاجة ماسة إليها، ولكنهم أحجموا عن ذلك، لأنهم يريدون السلام بأي ثمن، بدلا من أن يضعوا نصب عيونهم توفير أسباب البقاء ومقوماته للشعب الألماني بأي ثمن“⁽²⁵⁰⁾.

إنه اختيارٌ لطريق الدمار ورصدٌ لمقومات السقوط والانهيال ولو بعد حين. فحق الحياة الذي ينبغي أن يتمتع به غير شعبه ملغى من ذهنه تماماً، ومد الجسور بينه وبين الشعوب الأخرى لا يؤمن به أبداً، والحرص على تدمير ما بناه غيره، ومد الأيدي الظالمة التي لا تميز بين حق لها أو لغيرها إلى متاع الآخرين بغية سلبه ونهبه لكي تعيش في رخاء وسعة ورغد عيش، ويعيش غيرها الذل والهوان والموت والإبادة، هو المهيم على عقله ونفسه.

ولكي يميز موقفه تمييزاً بيناً، فقد لجأ إلى أن يوجه شعبه لما يريد، فقال: ”لقد أصبح على ألمانيا أن تختار بين الاعتماد على التوسع أو الاعتماد على التجارة. وقد اختارت التجارة بعد تردد طويل، وكان عليها أن تختار التوسع لأنه أصلح وأسلم“⁽²⁵¹⁾.

إنه يخشى غائلة الجوع في المستقبل، ويتوجس خيفة من شبح الاحتياج، ولذلك، فإنه يحث العزائم المتهورة التي يريدها أن تقتفي أثره في السير قدما نحو تحقيق

250. المرجع نفسه، 49.

251. المرجع نفسه، 47.

بغيته الرعناء التي وإن حققت مبتغاه الآني فإنها لن تحقق للإنسانية جمعاء إلا السم الزعاف والأشواك النكدات، فنسمعه يقول: ”لن ينقذ ألمانيا من خطر الجوع إلا الاستيلاء على أرض جديدة. والبلاد الصغيرة في مساحتها تبقى معرضة للمفاجآت العسكرية والسياسية، فالمساحة الكبيرة هي بحد نفسها عامل أساس من عوامل الاستقرار“⁽²⁵²⁾.

• ثانياً: إيمانه بكون القوة مفتاحاً لكل شيء

لم يكن أدولف هتلر يؤمن بغير القوة وأسبابها؛ فالقوة فيصل حاسم بين النجاح والفشل، وهي المفتاح الرئيس الذي يمكنه من السيطرة على ما يريد السيطرة عليه. ولذلك، فإنه يرفض الضعف في شعبه كما يرفضه في الشعوب الأخرى، فيقول: ”إن العالم على سعته ليضيق بالشعوب الضعيفة“⁽²⁵³⁾.

وحتى في الأوقات العصيبة التي كانت تواجهها ألمانيا؛ داخلياً وخارجياً، فإنه كان يقف في وجه من كانوا يسوسون البلاد قبله، فيتجاوزهم إلى توجيه الشعب إلى التزام أسباب القوة التي لن يكون لهم وجود في غيابها. ولذلك، فإن دفاعهم عن البقاء أولى من دفاعهم عن الدولة. وإلى ذلك يشير بقوله: ”إن نضال البشر من أجل البقاء، معناه بقاء الجنس البشري لا بقاء الدولة، فإذا وجد شعب أو عنصر نفسه مهدداً بالزوال، فإن الدفاع عن النفس وعن مقومات الوجود يجيز له اللجوء إلى كل الوسائل الممكنة“⁽²⁵⁴⁾.

ولكي تتوفر له أسباب القوة، فإنه كان حريصاً على التنبيه على خطورة الاختلاط بين الجنس الآري وغيره من الأجناس، فيعقد مقارنة بين القوة التي كان يتمتع بها أجداده، وبين ما يعانيه شعبه من ضعف وانحلال؛ إذ إن الدم الآري الذي كان يجري في عروق أجداده كان صافياً⁽²⁵⁵⁾، ولكن الدم الذي يجري الآن في عروق الأحفاد هو دم مختلط. فينتهي إلى نتيجة مفادها أن ”الاختلاط في التناسل لا يكون في مصلحة العرق المتفوق“⁽²⁵⁶⁾.

252. المرجع نفسه، 45.

253. المرجع نفسه، 33.

254. المرجع نفسه، 32.

255. المرجع نفسه، 94.

256. المرجع نفسه.

فَتَحَقُّقُ القوة التي تمكن العرق من الاستقرار في المصاف الأولى يوجب تحقق الفصل بين القوي منها وبين الأعراق الضعيفة؛ ”فتدني الأعراق هو نتيجة الاختلاط بشعوب أقل مستوى منها“⁽²⁵⁷⁾. وكلما اقتحمت تلك الجوانب فإن امتياز القوي من السيطرة سيضيع. ”والقوي مدعو للسيطرة على الضعيف“⁽²⁵⁸⁾.

• ثالثاً: إيمانه بكون الجنس الآري أعلى من غيره

ويؤمن أدولف هتلر بكون الجنس الآري يفوق الأجناس الأخرى كلها قدراً، ويتجاوزها مرتبة، إلا أنه يحس بدبيب بعض العناصر الغريبة إلى جسده سعيًا منها إلى تحقيق انحلاله. ومن ذلك مسألة امتزاج الدم الآري بغيره من الدماء؛ ”فامتزاج الدم الآري بدم شعوب وضيفة قد أدى إلى خراب الشعب ذي الرسالة التمدينية“⁽²⁵⁹⁾. وقد ينظر أحدنا إلى المسألة من وجهها الآخر، فيرى أن الاختلاط بدل أن يضيع مقومات القوي، فإنه يكسب الضعيف مقومات سليمة تمكنه من الانطلاق والعمل والعطاء. ولكن هتلر يضع هذا الرأي في حسابه، فيستبق الأمر ويقول: ”وخلاصة القول، إن الاختلاط بين الأجناس يؤدي إلى تدني مستوى الجنس المتفوق، وإلى تأخر روحي ومادي يؤدي في نهايته إلى التفكك والانحلال“⁽²⁶⁰⁾.

إن الدعوى التي يتقدم بها أدولف هتلر والتي تمثل يقيناً متجذراً في ذهنه، ليست مجردة من الحجج الداعمة لها، لكي تبدو لمن لا رغبة له في تحقيق التعايش بين الناس دعوى مسلمة لا شية فيها. ولذلك، فقد قارن بين الجنس الآري الذي يستوطن أمريكا الشمالية اليوم، بقوته وعنفوانه ووسطوته - وهو جنس حافظ، كما يدعي، على صفائه العرقي، وبين الأجناس المختلطة في أمريكا الجنوبية، بضعفها وتخلفها وأزماتها. كما استدل بكون الحضارات القديمة التي صارت أثراً بعد عين، لم تعش ذاك الاندثار إلا بفعل اختلاطها بالأجناس الضعيفة. وفي ذلك يقول: ”فالحضارات الكبرى التي انهارت في الماضي كانت بسبب سريان الدم الفاسد في عرقها الخلاق“⁽²⁶¹⁾.

257. المرجع نفسه، 102.

258. المرجع نفسه، 97.

259. المرجع نفسه، 98-97.

260. المرجع نفسه، 98.

261. المرجع نفسه.

وقد يبدو لبعضنا أن أدولف هتلر لم يدع حتى الآن إلى شيء يضر بالإنسانية، وإن كان موقفه مطبوعاً في ذلك بالانعزال وتدمير الجسور الواصلة بين أطرافها المتعددة، ولكن خطورة الموقف تظهر ظهوراً واضحاً حينما نسمعه يقرر أن الجنس الآري هو أصل الأجناس وأعلاها. ولذلك، فإن حقه في السيادة لا يجوز أن تمتد إليه يد بسوء. فالآريون- كما يذكر أدولف هتلر- ”قد أسسوا في الماضي حضارة بشرية متفوقة، ولذلك فهم يمثلون النموذج البدائي لما نسميه ”الإنسان“. فكل ما نراه من الحضارات البشرية يعود بأصله إلى ثمرة النشاط الآري الخلاق“⁽²⁶²⁾. ومن ثم، فإن مدار الأفلاك يتخذ الجنس الآري محوراً، فلا يمكنه أن يخطو خطوة في مساره بدونه. ”فإذا توارى الآري سيسود الظلام، وتنهار الحضارة البشرية في بضعة قرون“⁽²⁶³⁾.

وقد ينبري بعض الناس للاعتراض على ما قدمه أدولف هتلر بين يدي نجواه، فيقول إذا كانت الحياة كلها؛ قديمها وحديثها، طارفها وتلادها، لن تتقدم قيد أنملة في مسارها الطويل إذا لم يكن الآري موجوداً بقوته وسطوته، فما أدوار غيره من الأجناس في هذا الوجود. وهنا يكون أدولف هتلر بالمرصاد لكل هذا، فيقول: ”أما إذا صنفنا البشر إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى التي خلقت الحضارة، والثانية التي حافظت عليها، والثالثة التي قوضت دعائمها، فإننا نجد أن الآري هو الممثل الوحيد للفئة الأولى، فهو الذي وضع الحجر الأساس، ووضع تصميم ما حققه التقدم البشري“⁽²⁶⁴⁾.

ومن تجليات خطورة ذلك الموقف أيضاً أن نراه يقرر أن الآري سيد أبدأ، وأن الآخرين عبيد وأقنان؛ فهم لديه في مرتبة الآلات أو الحيوانات، فيذكر أن ”بناء الحضارة في أرض لا تزال على الفطرة يحتاج إلى اليد العاملة التي تقوم مكان الآلة. ولا يمكن للآري أن يضع الأسس الأولى ما لم يستخدم الشعوب الوضيعة في بناء الأساس الحضاري“⁽²⁶⁵⁾.

262. المرجع نفسه، 99.

263. المرجع نفسه.

264. المرجع نفسه.

265. المرجع نفسه، 101.

لقد بدت الاختلافات في فكر أدولف هتلر من كل جانب، وقد كان سبب ذلك محدداً في الفهم الخاطئ لمفهوم الإنسانية؛ فالإنسانية لديه تقوم على التفاوتات واختلاف المراتب والدرجات. وقد كان الجنس الآري لديه أعلاها مرتبة. ولذلك، فإن حقه أن يكون في المقدمة أبداً، ويستخدم الآخرين استخداماً عبودياً كما يشاء.

إن هذه الرؤية لم تنتج إلا الانحراف عن جادة الصواب في الأقوال والأفعال، فخيضت الحرب واشتعلت نيرانها في كل مكان، واهتز العالم من أطرافه وأصبحت أوروبا أرضاً يباباً خراباً، وساد الجوع والموت والتشرد، وتفرق العالم كله أيادي سبا.

المبحث الثالث: تصحيح مفهوم الغائية من الوجود

• المطلب الأول: خَلَقَ الناس لم يكن عبثاً أبداً

لطريقة فهم الغائية من الوجود تدخل كبير في صناعة خطاب الكراهية؛ فمن يعتقد أن الخلق لم يكن لهدف محدد، فإن تصرفاته واقتراحاته لن تكون على الوجه السوي أبداً، فيظلم ويعتدي، ويسب ويشتم، ويؤلب القلوب على الآخرين فيوجهها لما يضرهم ولاينفعهم، لأن العبث يحيط به من كل جانب، ولأن المصير لا يكون واضحاً في ذهنه وضوحاً يهديه إلى سبيل الرشاد. وهو ما نستشرف تصحيحه لدى من يعاني من اضطراب فهمه له، ولا سيما لما تسهم شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي، فيؤدي واجبه على الوجه المرضي، ويستهدف العقول والأفئدة التي استمدت أفكارها العقدية استمداداً مغلوطاً.

ولقد بين القرآن الكريم أن الهدف من الخلق كان محدداً في عبادة الله تعالى؛ فنص على أن خلق الإنسان مقصور على طاعة الله سبحانه. فلم يكن في ساعة من الساعات منحرفاً عن هذا المراد، فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾ (الذاريات: 56-58).

إن القرار الإلهي محسوم منذ الأزل، وإن تنبيه الإنسان إلى الهدف المسطر في القرآن الكريم، إنما هو تفضل من الله سبحانه على عباده ليدلهم على سبيل الهداية التي ينبغي أن يلتزموها ويولوها ما تستحق؛ تصوراً وممارسة. وهو من جهة أخرى- كما يشير إلى ذلك الطاهر بن عاشور- ”خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْرِيزِ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنِ الْفِطْرَةِ الَّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا فَخَالَفُوا سُنَّتَهَا اتِّبَاعاً لِتَضْلِيلِ الْمُضِلِّينَ“ (266).

266. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 25/ 27.

وقد وجه مفسرون آخرون دلالة الخطاب في الآية توجيهها آخر يستحق العرض ها هنا؛ فقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز، 182/ 5، أن الناس اختلفوا في مراد الله منها ”مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع، لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته“. ولكي يتوضح الأمر، فقد أورد ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه بهذا الخصوص؛ حيث قال: ”معنى: ”لِيَعْبُدُونِ“، أي ليتذللوا لي ولقدرتي، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع“. (المرجع نفسه). وبعد ذلك انتهى إلى التعبير عن هذا التوجه بقوله: ”وعلى هذا التأويل، فجميع الجن والإنس عابد متذلل، والكفار كذلك“. (المرجع نفسه، 183/ 5)؛ فهم جميعاً يبدون الافتقار والعبودية عند الاضطرار في مثل حال القطط والأمراض وغير ذلك.

ومن هنا، فقد وجدت توجهات مثلها كثير من الناس، تعبر عن اعتقادهم في عبثية الوجود. وهو ما يقتضي اقراراً بأفعال منحرفة وأقوال غير سوية، تدل على أن أصحابها لا يعتقدون في صواب الشرائع، ولا يجدون امتداداً للأوامر والنواهي. وهي واقعة في بحبوحة التعارض مع ما ينظم الحياة الإنسانية ويمضي بها نحو الصلاح والفلاح والتعايش ونبذ ما يعكر صفوها؛ كراهية وحقدًا واعتداءً.

إن ما نتطلع إليه للانتقال من هذا الوضع المزري الذي ينطلق من الخلل ولا يحط رحاله إلا عند الخلل، يتمثل في التوجه بالخطاب الدعوي على شبكات التواصل الاجتماعي نحو طبعه بالملامح المميزة المسطرة في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف؛ رقة ودمائة وكلمة طيبة وتوظيفاً للآليات التي سبق أن رصدناها لتفعيل الخطاب الدعوي على شبكات التواصل الاجتماعي في طرق أبواب العقول الموصدة، وعرض حقيقة وجودها المنزهة عن العبث بين أيدي أصحابها الذين يعتقدون أن نهاية الأمر تتحدد بالموت.

فإذا انبرى الخطاب الدعوي على شبكات التواصل الاجتماعي لبيان هذه الحقيقة، ودل على تنبيه عقيدة التوحيد عليها، فقال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (115) ﴿المؤمنون: 115﴾، فإنه يكون قد وجه ما يستفز الدواخل لدى من يعتقد في كون الوجود قد وجد صدفة، وأن أفعال الناس لا يجوز في حقها إلا أن تكون عبثية؛ فلا طائل من تنزيل الشرائع، ولا مردود لوضع القوانين. ولا سيما حين يتوجه الخطاب فيه باعتماد ضمير المخاطب: أفحسبتم - خلقناكم - ترجعون، فيحس المتابع الذي نزلت على عينيه الغشاوة أنه المقصود بالكلام، وأن حدة التحذير المؤسسة على الاستفهام لا تتجاوزه إلى غيره، فتتفاعل العبارة القرآنية في دواخله حتى يشعر بها وكأنه يقال له من خلالها - حسب عبارة الطبري -: "أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم، لعباً وباطلاً وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون؟" (267).

فإذا أورد الخطاب الدعوي هذا النص القرآني ودعمه بمجموعة نصوص تسعى لأن تؤدي الدور نفسه، فإنه يكون قد رگم ما يكون سنداً لما طرق دواخل المتلقي أولاً.

267. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 83 / 19.

ومن ذلك أن يورد قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (70) (القصص: 70)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (40) (مريم: 40)، وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (83) (آل عمران: 83).

إن النفوس تختلف من حيث درجة استجابتها؛ فبعضها تكفيه العبارة والعبارتان، وبعضها يستهويه الجدال والمراء ولكنه يميل مع الحق إذا تبين له، وبعضها يكون مختوماً على قلبه، فلا يقبل ما يلقي إليه، ولا يستسيغ ما يطرق أذنيه. وإذا استطاع الخطاب الدعوي المفعّل على شبكات التواصل الاجتماعي أن يوصل نداءاته إلى هذه الفئات فاستجاب ثلثاها؛ إذ إن الأول قريب المأخذ، والثاني يقتنع إذا توفرت له شروط الإقناع. وهي شروط تقع في حيازة الخطاب الدعوي القائم على الاستدلال القرآني. وأما الثالث، فإنه يبقى في حدود ما يشاؤه الله له، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (56) (القصص: 56).

فإذا كانت الاستجابة من الفئتين السابقتين وكان انتظار تحققها من الفئة الثالثة، فإن أبواب الاستفسارات التي لم تكن مطروقة من قبل من لدنها جميعاً تصير كذلك في هذه الآونة؛ فتطرح من لدن الفئات الثلاث الأسئلة المتعلقة بالغائية من الوجود أصلاً، ويطرح معها ما تستلزمه من مصائر ودرجات ودركات وأسباب وعوامل كانت لها أياد في صناعة ذلك كله.

فحين يقف هؤلاء على الخطاب الجديد الذي لم يطرق مسامعهم من قبل قط، فيرون الأمور الغائبة عن أذهانهم رأي العين، ولا سيما لما يكون القائمون بالخطاب الدعوي أهلاً للإلقاء والوعظ والخطابة؛ فيكونون مفوهين على الوجه المطلوب، ويكونون متقنين لسلك المسالك الموصلة إلى دواخل النفوس للعزف على أوتارها الغائرة والتأثير فيها بما يردّها إلى مراتع الإيمان والتزام مقتضياته، فإنهم يصيرون مأسورين بالحقائق الجديدة عليهم، مقبلين على تتبعها لاكتشاف خباياها وقضاياها.

إن وقفة مع قائم بالخطاب الدعوي قيام البلغاء الفطاحل على قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)﴾ (المؤمنون: 12-16)، لتبين للبعيد والقريب على السواء أن معالم المسار الذي يقطعه الإنسان من بداية وجوده حتى نهايتها- وهي بداية غائرة في الأزل، ممتدة إلى البعث بعد انصرام الأجل- موضوعة وضعا دقيقا، لا عبث فيه ولا خلل.

فآليات الكريمة تصحح ما وقر في القلوب المعمى عليها؛ فتجعل المنطلق ليس على شاكلة ما عرفه القوم في مدارسهم، فأصلهم وأصل غيرهم تراب وليس قردة، وتجعل ما يعرفونه معرفة يقينية من أحوال التوالد والإنجاب محطة متحولاً إليها وليست أصلاً ومنطلقاً، وتعرض التحولات الدقيقة التي يخضع لها الإنسان وهو في رحم أمه؛ فيكون علقه ومضغة وعظاماً مكسوة لحماً، وتذكر النهاية الدنيوية التي تتحقق بها مغادرة المكان بعد التجرد من مظاهر الحياة، ثم تنبئ بأن النهاية التي كانت مستقرة في الأذهان، متمثلة في الموت، إنما هي محطة من المحطات، فلا بد من بعث وحساب وعقاب.

إن كثيراً من أفراد الفئات المرشحة لأن يصل إليها الخطاب الدعوي تكون قد قطعت أشواطاً ليست بالهينة في مدارج العلم والمعرفة. ولذلك، فإن الآيات الكريمة لن يكون تأثيرها عليها حبيس تلك المحطات التي يمر منها الإنسان، ولكنه سيتجاوز تلك الحدود إلى تميز فن القول؛ نظماً وبلاغة ودقة عرض. ولاسيما حين ينصرف التدقيق لمواطن استعمال الحروف الدالة على مدد الزمن؛ ترتيباً وفورية وتراخياً. وهما حرفاً "الفاء" و"ثم". فالامتداد الزمني الذي يستغرقه جعل النطفة في قرار مكين، وخلقها علقه، وإنشاء المخلوق الآدمي خلقاً آخر، ليس مقارباً ولو بارتياح للامتداد الزمني الذي يستغرقه خلق العلقه مضغة، وخلق المضغة عظاماً، وكساء العظام لحماً.

فهذا الترتيب الدقيق، وذاك الاستعمال البليغ للحرفين؛ الفاء وثم، كافيان لإثارة ما طبع عليه من الران منذ آماذ بعيدة، فيتبين للمتلقين أن الأمر لا عبث فيه، وأن الوجود

يسير نحو نهاية محددة من لدن خالقه سبحانه وتعالى. وإذا تحقق هذا، فإن ما بعده مما لم يكن خاطراً على بال، يصير مستساغاً مقبولاً معتقداً فيه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)﴾ (المؤمنون: 12-16).

فإذا استساغت الأذهان هذا كله، واطمأنت القلوب إلى ما فيه، فإنه يكون له ما بعده. وهو المتمثل في تغيير السلوك الذي يتأسس عليه الأمر كله؛ فالعرض والحساب، والثواب والعقاب، والرحمة والعذاب، إنما هي مآلات تؤول إليها الأعمال والاقترافات. وهنا ينتبه المرء قبل فوات الأوان إلى أن الظلم والاعتداء، والقتل وسفك الدماء، والكراهية والبغضاء، لن تكون اقترافات محررة من التبعات، فيكون الأمر مهمازاً للانصراف عما يضر بني الإنسان ولا يخدمهم، ويكون دافعاً للحرص على ما يحقق إنسانيتهم في تعايش إيجابي.

• المطلب الثاني: بعد الموت هناك ثواب وعقاب

لما يلجأ الخطاب الدعوي المفعّل على شبكات التواصل الاجتماعي إلى تصحيح المغالطات المركوزة في الأذهان، بخصوص غائية الوجود التي لا آصرة قربي بينها وبين العبث، فإنه يكون قد قطع أشواطاً ليست بالهينة بالمعمى عليهم نحو الإيمان بامتدادات الوجود الدنيوي. وهي التي يتبين من خلالها أن خلق الناس لم يكن عبثاً قط، ويتبين أن الإيمان بها تكون له مردوديات جمة على تغيير السلوك الإنساني، فيهتم الإنسان بما يصلح ولا يفسد، وبما ينفع ولا يضر، ويتصرف تصرفات تسهم في توجيه بني الإنسان نحو ما يحقق تعايشهم الإنساني المشترك.

ولكي تتوضح لنا الصورة بجلاء، فإننا نريد الآن أن نصرف وجوهنا نحو كون نفى العبث عن خلق الناس يقتضي أن يكون له ما بعده. وما بعده يتحدد في كون كل قول أو فعل يكون له جزاء من الله تعالى يوم القيامة؛ فإذا كان الأمر قولاً، فإن القرآن أنبأنا أن الرقيب كله بصر، فلا يكاد يعزب عنه همس ولا جهر؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ (ق: 18)؛ حيث بناه على القصر المؤسس على النفي والاستثناء. فرب العزة سبحانه ”لطيف يتوصل علمه إلى

خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به“⁽²⁶⁸⁾، في مراقبة دائمة وفي حضور دائم⁽²⁶⁹⁾.

وكذلك الشأن بالنسبة للفعل، فإن كل ما يصدر عن الإنسان مما تقتصره يداه، أو تسعى إليه رجلاه، أو تجنيه جوارحه، فإنه يبقى مسجلاً محفوظاً حتى يخرج للإنسان كتابه المنشور، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (13) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (14) ﴿ (الإسراء: 13-14)، فيجد صحائفه قد أحيط فيها بكل شيء، ولم يهمل مما اقترفته يداه شيء، مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (49) ﴿ (الكهف: 49).

إن المفاجأة لا تكون إلا لمن كان غافلاً عن مثل هذه المشاهد بعد أن جاءه النذير في الدنيا، فأبلغه أن الصغيرة والكبيرة من أفعاله ستعرض عليه يوم القيامة، فقال الله تعالى بشأنها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ (الزلزلة: 7-8). فقد أخبر قبل أن مثقال حبة من خردل لا ينسى، وما يلفظ من قول لا يضيع. وكل ذلك، لا ينحصر أمره في أن ترى الإحاطة بالأمر رأي العين، وإنما هو لأجل ضمان نزاهة الأحكام ودقة العدل الإلهي. حتى إذا كان الجزاء ثواباً أو عقاباً، فإنه يكون مؤسساً على الإثباتات غير المدفوعة ولا المردودة.

وبداية هذه الرحلة التي لم تكن خاطرة على القلوب المعنى عليها تبدأ في القبر لما يكون الإنسان في برزخ فاصل بين الدنيا والآخرة. وهو عالم خاص له ما يميزه عن كل ما عده، إلا أنه يبقى مفترق الطرق الذي يحمل من المؤشرات ما يكفي للدلالة على طبيعة المصير الذي سيؤول إليه المرء بعد.

وحين يحل موعد الخروج من الأجداث تحل معه التخوفات كلها، وتطرق الأذهان التوجسات جميعها. فرغم هول المشهد الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسماوات،

268. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 4/ 384.

269. المحرر الوجيز، ابن عطية، 5/ 161.

وتصبح أفئدة المجرمين فارغة، إلا أن تثبيت الله تعالى للمؤمنين يتدخل، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (27) (إبراهيم: 27)، فيكون التثبيت من نصيب هؤلاء، ويكون التضييل من نصيب أولئك.

ومن انعكاسات شدة الهول وحدة تدخلات القدر، لا يستطيع من كان منحرفاً أن يقدر المدة التي لبثها في قبره. وعنها يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (55) (الروم: 55)، كما أن من قوة تثبيت الله تعالى للمؤمنين أنهم يعلمون ذلك يقيناً، فقال الله سبحانه بشأنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَلَكِنِّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)﴾ (الروم: 56-57).

فلو أن الخطاب الدعوي يركز على إيراد هذا المشهد وأشباهه الواردة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، فيلقيه على مسامع من أبدى استجابة فألقى السمع وهو شهيد، وانصرف به إلى أن يجعله متقمصاً ما تعيشه تلك الأقوام؛ كفاراً ومؤمنين، ووجهه نحو الميل إلى فئة من الفئتين، فإنه يكون قد قدم خدمة جليلة لمن يستهدفهم بخطابه، ولا سيما حينما يصر على جعلهم من المؤمنين في آخر المطاف.

والخطاب الدعوي لا ينتهي دوره عند هذه الحدود، بل يجاوزها إلى الحرص على الاستفادة من الطرائق التي يوظفها القرآن الكريم في بيان هذه الأحوال، من أجل تصحيح مفهوم الغائية من الوجود. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الخطاب الدعوي ينتظر منه أن يوظف الأساليب التالية:

1. أسلوب المقابلة بين وضعين:

يضع الخطاب الدعوي بين أيدي متلقيه المشهدين اللذين لن يكون لهما ثالث يوم القيامة؛ فإما أن يكون المرء في الوضع الذي يجد فيه راحة ونعيماً، وإما أن يكون في وضع مأساوي لا يعيشه إلا كافر حاد الله ورسوله في حياته الأولى. وهما الوضعان اللذان تعرضهما الآية الكريمة؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) ﴿البقرة: 80-82﴾.

والخطاب الدعوي من جانب آخر، يحث نفسيات المتلقين وأذهانهم على اختيار أحد الوضعين السابقين للذين لا يعدوان كونهما نتيجتين لنوع من الأعمال التي لا تخرج عن الوقوع في المحظورات المنهي عنها، أو الاستجابة لما أمر به من لدن الله تعالى. فكل واحد من الناس حر في بناء المصير الذي يريد. ومن ثم، فهو يتحمل تبعات اختياره، سواء أكانت خيراً أم شراً.

ومن ذلك أن يلح الخطاب الدعوي على إيراد المصيرين اللذين ستؤول إليهما أحوال الناس جميعاً، فيعرض قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَقَمْنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)﴾ (فصلت: 40).

إن الآية ناطقة بما يرفل في ظلاله المؤمنون من أمن ونعيم وفوز دائم، شاهدة بما يجده الكافرون من نار وجحيم وخوف سرمدي. ومن ثم، فإن الخطاب الدعوي يكون قد أسدى معروفاً لمن يريد به الله خيراً، فينقذه من المصائر الوخيمة، وينتشله من الاضطراخ الأبدي في النيران الملهبة التي يحطم بعضها بعضاً، ولاسيما حين يضعه أمام ما يثير دواخله، فيصير كأنه واقع في بحبوحة أحد الوضعين، فلا يجد مفرّاً من الاستجابة للأوامر الشرعية التي تكون الجنان ثمرة لها. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)﴾ (آل عمران: 56-57).

2. أسلوب زفّ البشري للمؤمنين:

إن هذا الأسلوب ينصرف بتأثيراته البلاغية العميقة إلى النفوس الباحثة عن الخلاص، أو الراصدة لأحوال المؤمنين والكافرين على السواء، وهي في حيرة من أمرها بخصوص مَنْ تقتفي أثره من الفئتين، مترددة في الإقدام على أن تخطو خطوة في أحد

المسلكين، فتأتيها البشرية بالفوز بالأمان في الجنان الوارفة الظلال، المتدفقة المياه، الغاصة بالأزواج المطهرة، ويأتيها النداء الإلهي الخالد من كل مكان بكون رزق الله تعالى ما له من نفاذ، فليرفل الفائز بالعطاء غير المجذوذ، وليقطف ثمرات مثابرته في الطاعة في كل حين.

والحق أن من يقف على قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)﴾ (البقرة: 25)، لا يبقى أمامه إلا أن يطلق الحيرة التي تنتابه إلى الأبد، ويجدد العزم الأكيد بأن يعرض على شرع الله بالنواجذ، بغية أن يفوز كما فاز هؤلاء، وأن يُنقذ مما وقع فيه أولئك. ولن يكون ذلك إلا إذا حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وعقل يده عن ظلم الآخرين، وصرف قلبه عن حسد غيره وكراهيتهم.

3. أسلوب التوكيد:

إن هذا الأسلوب يجعل الوعد مرئياً رأي العين، فيدفع كل شك ويرد كل ارتياب. فالمرء المستهدف بالخطاب الدعوي المفعول حين يطرق أذنيه الوعد الإلهي الذي يخصه الله تعالى لعباده المتقين، يجعله يُقبل على البغية الثمينة التي إذا فاتت واحداً من الناس يكون قد فاتته بفواتها خير كثير، فحين يقف على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)﴾ (البقرة: 277)، يجده مقررراً أمراً لا مرد له من الله تعالى؛ حيث يكون الأجر وافراً، والفضل عامراً، والأمن منسداً على الفائز به، والخوف منتفياً عنه في كل حال.

وحين يقف على قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (33) وَكَأْساً دِهَاقاً (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَاباً (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً (36)﴾ (النبا: 31-36)، فإنه ينسبه ما عرضه القول السابق بين يديه؛ حيث الفوز بالدرجات العلى، والعيش في الحدائق الغناء بين الكواعب الأتراب، يتبادل فيها كؤوس الخمر واللبن والعسل المصفى، بعيداً عما يجده الناس في حياتهم الدنيوية من اضطراب وتوتر وتصرفات لا تليق. فلا يبقى أمامه إلا الإقدام

على اقتراف ما ينبغي اقترافه لقطف الثمرات التي لا يفوز بها إلا من أراد الله به خيراً فألهمه الطاعة وصرف قلبه إلى التوبة والالتزام بالدين.

4. أسلوب التهديد:

ولا ينبغي للخطاب الدعوي أن يبغي أمره مقصوراً على المبشرات فقط؛ إذ لا بد من إيراد الأساليب المنذرة إلى الآذان، فتطرقها طرقاتاً، حتى لا تتركز النفوس إلى فتح باب الأمل وحده؛ فالكافرون لم يكن ذلك مستقرهم إلا لأنهم انزاحوا عن طريق الرشاد. ولذلك، فإن الذي يتمنى على الله الأمانى، فلا يبذل جهداً، ولا يستجيب لأمر، ولا ينتهي عند نهى، سيكون مصيره شبيهاً بمصير المفرط في كل شيء، الجاحد لكل دين.

إن من ذلك أن يقدم الخطاب الدعوي بين يدي نجواه قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (12) (السجدة: 12)، فتطفو على السطح صورة من استهان بأمر الله تعالى بعد أن جاءت آياته فأنصرف عنها، واستهزأ بمن جاء إليه بها من الأنبياء والدعاة؛ فالذلة قاتلة بعد كبرياء وعجرفة، والاعتراف بعد فوات الأوان غير مجد، والتوسل بأن يرجع ليصلح ما أفسده غير مقبول.

والسبب في الوقوع في هذه المطبات واضح جلي، تشهد به الآية الكريمة؛ حيث يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْباً (28) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً (30) ﴿ (النبا: 27-30).

إننا نستشرف أن الخطاب الدعوي المفعول في شبكات التواصل الاجتماعي لما يصرف قوته عبر المداخل الموصلة إلى النفسيات المستهدفة، يكون قادراً على رد طوائف عديدة من الناس إلى الصواب، ولا سيما بعد تصحيح ما وقر في قلوبهم من أن نهاية الحياة تتحقق بالموت، فيتسع الأفق لديهم، وترى المحطات المقبلة رأي العين، وتلوح إجراءات الثواب والعقاب من بين ثناياها، فتستحضر الأعمال التي كانت سبباً في حيازة سيئاتها إن كانت شراً، وفي ضم حسناتها إن كانت خيراً، فنرى المرء المستهدف بالخطاب حاثاً خطاه نحو الحرص على تدارك ما فات وتصحيح ما هو آت؛ فلا ظلم ولا اعتداء ولا كراهية، بغية الفوز بالجنات.

• المطلب الثالث: للتعايش أجور، وللظلم ظلمات يوم القيامة

إذا انتفى خطاب الكراهية فإن التعايش الإنساني يقطع أشواطاً عديدة على سلم التحقق؛ فالأسباب التي تحول بين التعايش وبين أن يسود حياة الناس ترجع في مجملها إلى الكراهية المتفشية في صفوفهم، وإلى الروافد التي تنعشها حيناً بعد حين؛ أقوالاً وأفعالاً. ولذلك، فإننا لن نولي الحديث عن التعايش الإنساني، في هذا السياق، كبير اهتمام، لأننا سنفيض فيه في ما سيأتي من الفصول والمباحث، فنخصص له فصلاً مستقلاً، ولأن تفعيله يتحقق بقطع دابر روافده واستئصالها من جذورها.

إن هدفنا في هذا المطلب الذي لا يند عما استهدفناه من أخويه السالفين من مقاصد وأهداف، يتحدد في توجيه المستهدف بالخطاب إلى أن ممارسته لخطاب الكراهية لا تنتهي بانتهاء الممارسة ذاتها أو، بالوصول إلى نتائجها الآتية المتمثلة في الإضرار بالآخرين؛ إهانة وتشريداً وقتلاً وسفك دماء، ولكنه يتجاوز ذلك كله ليصل إلى المحاسبة يوم القيامة.

إن الأمر كله يتلخص في ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ"⁽²⁷⁰⁾. وما الكراهية، وما خطابها، سوى ممارسة للظلم في مستوى من مستوياته. فهي تحيط بالمرء من جوانب كثيرة، إذا لم يتفطن إليها فإنها تفعل في حياته فعلها؛ فتبني المواقف السلبية، وتؤسس العلاقات غير السوية، وتكون لها انعكاسات على حياة الآخرين بصورة من الصور.

ولذلك، فإننا نرى المسلمين كانوا يتخوفون من انعكاسات الأفعال التي قد يأتونها في حياتهم من غير أن يستحضروا ما لها من امتدادات. ولنا في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما أرسله إلى أهل اليمن شاهداً حي على ذلك، فنراه كيف كان يلح عليه بأن يدعوهم إلى ما يوجبهم عليهم الدين، وكيف كان يحذره من الوقوع في الشطط في ذلك، فقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في وصيته:

270. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، رقم: 2447، 129/3، ومسلم في كتاب الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَذْيَابِ، باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رقم: 2579، 4/1996.

”فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ“⁽²⁷¹⁾؛ حيث تصبح دعوة المظلوم، مهما كان، من أقوى الدعوات التي لا يحول بينها وبين الوصول إلى الله تعالى حائل.

لقد كانت الوصية النبوية مؤسسة على رؤية شاملة تحرم الظلم وتمجه وتجتهد في اجتثاثه من أرض الله، فقد نطق القرآن الكريم من قبل بقول الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) ﴿طه: 111-112﴾. ونطقت السنة النبوية إلى جانبه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم في ما رواه عن ربه سبحانه: ”يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا“⁽²⁷²⁾.

ولذلك، فقد كان هاجس الخوف من اقتراف الظلم يتبع الأنفس أنى حلت وحيثما ارتحلت. وأول ما يشدنا إليه من ذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظلم؛ فقد روى أبو نضرة عن أبي سعيد أن الأسعار قد غلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا لَهُ: لَوْ قَوَّمتَ لَنَا سَعْرَنَا، قَالَ: ”إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُقَوِّمُ، أَوِ الْمُسَعِّرُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَفَارِقَكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ، فِي مَالٍ وَلَا نَفْسٍ“⁽²⁷³⁾.

وهاجس الخوف من ظلم العباد، كما كان يجده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وجده الصحابة أيضاً، مقتدين به في ذلك. ومن ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بشأن إقامة الحد على شارب الخمر، فقال: ”مَا كُنْتُ لِأُقِيمَ حَدًّا عَلَى أَحَدٍ فَيَمُوتَ، فَأَجِدَ فِي نَفْسِي، إِلَّا صَاحِبَ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ لَوْ مَاتَ وَدَيْتُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسُنَّهُ“. فالخوف من الوقوع في ظلم المحدود كان يستبد بعلي رضي الله عنه، حتى إنه إذا مات بين يديه يؤدي دِيْنَهُ لأهله خوفاً

271. رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَتَرَدَّدَ فِي الْمَقَرَّاءِ حَيْثُ كَانُوا، رقم: 1496، 2/ 128، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالْدُّعَاءِ إِلَيْهِ، رقم: 19، 1/ 51، وأبو داود في كتاب الزكاة، باب فِي زَكَاةِ الشَّائِقَةِ، رقم: 1584، 2/ 104، والترمذي في الزكاة، باب مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ أَخَذِ خِيَارِ الْمَالِ فِي الصَّدَقَةِ، رقم: 625، 3/ 12، وأحمد، 498.

272. رواه مسلم في كتاب الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْآذَابِ، باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رقم: 2577، 4/ 1994، وأحمد، 35/ 332.

273. رواه ابن ماجه في كتاب التَّجَارَاتِ، باب مَنْ كَرِهَ أَنْ يُسْعَرَ، رقم: 2201، 2/ 742، والطبراني في الأوسط في باب الميم، من اسمه محمد، رقم: 5955، 6/ 110، وأحمد، 18/ 328. واللفظ لأحمد.

من الوقوع في المخالفة، ولاسيما أنه يعلم أن رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم جلد "في الخمر أَرْبَعِينَ، وَأَبُو بكر رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ أَرْبَعِينَ، وَكَمَّلَهَا عمر رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ، ثَمَانِينَ، وَكُلُّ سُنَّةٍ" (274).

وتطلعنا السنة النبوية على ما يجعل التخوُّف من تبعات الظلم مستتباً في نفوس المتقين؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ" (275). فالظلم يهوي بصروح الأعمال التي يكون المرء قد بناها في أيامه الخالية، فيجعلها في خبر كان، ويقلب النتائج رأساً على عقب، ويُجهز على الآمال العظيمة التي يكون قد ارتقبها صاحبها فيظن ظن اعتقاد أنه سيكون من الظافرين بالجنان، المبعدين عن النيران، فيطلع عليه المصير المشؤوم بما لم يخطر على باله قط.

إن هذه الملامح التي تحدت للعلاقات التي يكون للظلم نصيب في بنائها، لتبين أن الكراهية يكون لها نصيب وافر في صناعتها؛ فالكراهية إذا لم تكن مطابقة للظلم فإنها تكون مُتماسكة معه في أحيان كثيرة؛ فكثيرة هي مشاهد الظلم التي يكون أساسها منطلقاً من الكراهية ومن خطابها. والتحلل من تبعاتها، كما ذكر الفقهاء، يقوم على طلب التسامح والغفران. وقد جعلوا أجلاً صوره متمثلة في بيان قدر المظلمة، فقالوا: "إِنْ بَيَّنَّ فهو أطيب وأصح في التحلل؛ لأنه يعرف مقدار ما يحلله منه معرفة صحيحة" (276).

ونحب أن نقف على بعض الصور التي يُقترَف فيها الظلم وتتولد عنها الكراهية، فننتقل في ذلك من الحالات القريبة التي يرتبط فيها الأفراد في ما بينهم، ونحط الرحال عند الحالات الكبرى التي تتمثل في بعض ما يربط الإنسانية من علاقات وأواصر.

273. عمدة القاري، العيني، 23/ 269.

273. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ عِنْدَ الرَّجُلِ فَحَلَّلَهَا لَهُ، هَلْ يَبَيِّنُ مَظْلَمَتَهُ، رقم: 2449/ 3، 129، والترمذي في صِفَةِ الْفَيَّامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَزَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا جَاءَ فِي شَأْنِ الْجِسَابِ وَالْقَضَا، رقم: 2419/ 4، 613، وأحمد، 16/ 337.

273. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 6/ 577.

إن من ذلك ما يتدخل فيه تفضيل ولد على آخر في صناعة الكراهية التي لا تندمل جروحها، ولا يخبو أوارها، فيتوارثها الخلف عن السلف، وتفكك الأواصر ويضيع المجتمع. ومن ذلك أن يميل الأب أو الأم لأن يهب أحد أولاده ولا يهب أحداً من إخوته غيره، مثل ما قام به والد النعمان بن بشير رضي الله عنهما حين نحله غلاماً عبداً صغيراً ولم يفعل مع أحد من إخوته ما فعل معه. وهو ما رواه النعمان بقوله: ”نَحَلَنِي أَبِي نُحْلاً، ثُمَّ أَتَى بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُشْهِدَهُ، فَقَالَ: ”أَكُلَّ وَلَدِكَ أَعْطَيْتَهُ هَذَا؟“ قَالَ: لَا، قَالَ: ”أَلَيْسَ تُرِيدُ مِنْهُمْ الْبِرَّ مِثْلَ مَا تُرِيدُ مِنْ دَا؟“ قَالَ: بَلَى، قَالَ: ”فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ“⁽²⁷⁷⁾.

ولقد وردت في الحديث، من بعض الطرق، عبارتا: (”لَا تُشْهِدُنِي عَلَى جَوْرٍ“، و”لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ“)⁽²⁷⁸⁾. وهي عبارة نبوية لا تبقى الكلام مطبوعاً برأفة، بل إنها عبارة يستهدف منها وخز دواخل النفوس حتى يستفيق أصحابها ويتحرروا من هيمنة العاطفة؛ فالإجراء ظلم واعتداء على الآخرين لن تكون عاقبته ليئة حتى يُلان في الكلام، ولكنها عاقبة يعيش صاحبها الخسران والجحيم والعذاب الأليم.

ومنه ما يظهر في علاقات الجوار المتردية التي غدت المحاكم غاصة بها؛ فالظلم والاستبداد، والتطاول والعنجهية، والاقترحام وأكل المال بالباطل، كلها أصبحت قضايا تحبل بها المحاكم ليل نهار. وقبل أن تَرِدَ الشكاوى على المحاكم، كان الوعيد النبوي قد طرق الآذان والأفئدة؛ فكل من يخشى أن يخرج من دائرة الإسلام يستحضر أنه قد يكون كذلك بانتهاكه حرمت جاره. وهو عمل يهدم الصروح، ويقطع الأواصر، ويفكك عرى المجتمع، وينبت الكراهية الدائبة التي لا تتوقف بهلاك الأجيال التي أسهمت في صناعتها، ولكنها تدوم وتُتَوَارَثُ ويلقنها السابق للاحق.

لقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الاقتراعات التي تمس حقوق الجار تكون سبباً في إخراج مقترفها من دائرة كمال الإيمان؛ فقد روى سعيد بن شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

277. رواه البخاري في كتاب الهبة وقضيلها والذخيرة غنيها، باب الإسهاد في الهبة، رقم: 2587، 3/ 158، ومسلم في كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بغض الأولاد في الهبة، رقم: 1623، 3/ 1244. واللفظ لمسلم.

278. رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم: 2650، 3/ 171، ومسلم في كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بغض الأولاد في الهبة، رقم: 1623، 3/ 1243.

”وَاللّٰهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللّٰهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللّٰهُ لَا يُؤْمِنُ“.

قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: ”الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَاقِيهِ“⁽²⁷⁹⁾.

وحين نتجاوز علاقات الأفراد إلى علاقات الدول، فإننا نجد الكراهية المتجذرة بين الدول الفقيرة والدول الغنية كان من أسبابها الاستعمار الذي قتل وشرذ، واغتصب وانتهك الحرمات، وسلب الأراضي وابتز الخيرات من أيدي أصحابها. واقترافت الاستعمار ليست هيئة حتى يُنصح من اقترفت في حقهم بالتزام الصبر والتسامح والصفح الجميل، ولا سيما إذا تقدمت دولة استعمرت من قبل بملتمس لدولة استعمرتها يقضي بالاعتذار عن الجرائم التي اقترفتها في حق أبنائها وبناتها، فيقابل الملتمس بالرفض وبهز الكتف استصغاراً لمن فعل فيه ما فعل، واستهانة بقدره في القديم وفي الحديث.

لقد كان الاستعمار ظلماً صراحاً. وإذا اقتصر على المظالم التي اقترفتها في حق الدول المستعمرة والتي تتعلق بسلب الأرض فقط، قبل إزهاق الأرواح وإراقة الدماء، فإن ذلك في منظور الشرع يعد من الكبائر التي لا تغتفر إلا بالتحلل منها، ولا سيما إذا علمنا ما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم، في ما رواه عنه سعيد بن زيد رضي الله عنه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ”مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئاً طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ“⁽²⁸⁰⁾، فيكون تخيُّل صورة التطويق عويصاً؛ حيث لا يقدر الذهن على استحضار العناصر الداخلة في تشكيل الصورة. فالأرض ليست أرضاً واحدة وإنما هي سبع أرضين، والشبر المغتصب يصبح طوقاً يجعل في العنق، إلا أنه ليس شبراً واحداً، وإنما هو سبع نسخ يؤتى بكل واحدة منها من أرض من الأرضين التي أخبرنا بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. ولإتمام الصورة، فإن العيني في عمدة القاري يقول: ”وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ يَخْسَفُ بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، أَوْ فِي حَشْرِهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَنْقُلَ جَمِيعَ مَا أَخَذَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ، وَيَجْعَلُ كُلَّهُ فِي عُقَّةِ طَوْقاً ثُمَّ يَخْسَفُ بِهِ“⁽²⁸¹⁾.

279. رواه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بواقفه، رقم: 6016، 10/8، وأحمد، 13/ 261.

280. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم: 2452، 3/ 130، ومسلم في كتاب الطلاق، باب تحريم الظلم والغضب الأرض وتغيرها، رقم: 1610، 2/ 1230.

281. عمدة القاري، العيني، 12/ 299.

فإذا أدى الخطاب الدعوي ما عليه في هذا الجانب، فإنه يكون قد قدم خدمة لا تضاهيها خدمة؛ فإذا بين أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن الاقترافات التي يكون منطلقها الغل والحسد والحقد والكراهية لا تنتهي بانتهاء الأعمار، ولكنها تكون مدخرة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فمن كاد لأحد، أو ظلمه، أو حرك عليه الضغائن، ووجه إليه القلوب بما يضره ولا ينفعه، فإنه سيؤدي ثمنه من حسناته يوم لا يكون التعامل بالدراهم ولا بالدنانير، فلا عملة إلا الحسنات أو السيئات. ولذلك، فإن من كانت الغشاوة قد وضعت على عينيه، فإنها تتبين له الحقائق فيعود إلى رشده، ويرعوي عن غيه، فيتم الإقلاع عن الكراهية وعن أخواتها التي لا تبقي من المجتمعات ولا تذر.

الفصل الثاني: رجوع الناس في المجتمع الإنساني إلى التزام الأخوة والتواد

المبحث الأول: تحقق الإقلاع عن خطاب الكراهية

• المطلب الأول: تجفيف منابع خطاب الكراهية واجتثاث جذوره

سبق أن عرفنا في الفقرات التي خصصناها للاستشراف المستقبلي أن توظيف شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي في سياق معالجة هذا الموضوع إنما يراد منه رجوع الناس جميعاً إلى التزام الأخوة والتواد. ولن يكون ذلك إلا بعد الإقلاع عن الكراهية بأصنافها المختلفة وتجلياتها المتعددة الضروب.

إن الإقلاع عن الكراهية أمر يتأسس على الإرادة الشخصية. ولن يتحقق ذلك إلا إذا جففت المنابع التي تزود النفوس بالوقود الذي يؤجج جنبتها في كل حين، ويقطع الأواصر بين بني الإنسان عبر اتخاذ المواقف السلبية وترويجها والاجتهاد في غرسها في نفوس المخاطبين.

وإذا كانت الشرائع كلها تقر أن الناس جميعاً قد ولدوا أحراراً، فلم يغيّر الواقع وتعبث به الأيادي للزورار به إلى ما لم يخلق الإنسان من أجله؛ فيكون خليفة لله في الأرض، ويقيم أوامره ويجتنب نواهيه، ويبتعد عن كل ما يفرق ولا يجمع، وينأى بنفسه عن كل ما يضع ولا يرفع.

فإذا كانت المفارقة بين التشريع وبين الممارسة الواقعية صارخة، فإن إصلاح الشرخ بينهما يقتضي الرجوع إلى ما تؤكده الحقائق الدامغة. وإن إقامة الأود الذي لن يكون من مآلاته سوى السقوط والانهيال يوجب التفكير بروية وحكمة، لأن من حق جميع البشر - كما هو في تقرير تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة - "أن يتمتعوا على قدم المساواة بجميع الحقوق، دونما تمييز من أي نوع، بما في ذلك التمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي، وغير السياسي، أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الثروة أو المولد أو أي وضع آخر"⁽²⁸²⁾.

282. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 34.

إن المسارين- مسار الكراهية ومسار التعايش- متعارضان، ودور التنظير وحده في إصلاح النفوس يكون بلا أثر في أغلب الأحيان. ولذلك، فإن الخطاب الدعوي الفعال يجد ضالته في هذه الأثناء بعد أن أصبح سليماً معافى؛ فالمرتج خصب والفرصة مواتية لاجتثاث جذور الكراهية وتجفيف منابعها. وأولى الخطوات التي ينبغي له الانطلاق منها تتمثل في البحث عن كيفية نشوء الكراهية، لأنها تقتلع في كثير من الأحيان ثم تعود كلما و انتهت الفرص وتهيأت لها الظروف.

إن الكراهية، كما وضحنا ذلك في كثير من الأحيان، تتخذ منطلقاتها من تربة الجانب النفسي الذي إذا لم يخضع لعملية إصلاح يطبعها الجد فإن إزاحة الكراهية لن تكون على الوجه المقبول. ومن ثم، فإن تعطيل مولداتها يعد ضرورياً لتعطيلها. وأول مولد لها يتمثل في الحسد الذي لا يفارق الإنسان إلا بغرس التربية الصالحة التي تظهر النفوس من أدرانها، وبالانكباب على اقتلاع جذوره الخبيثة من أصولها. والخطاب الدعوي يجد لنفسه من المؤهلات ما يكفيه لمواجهة هذه المعضلة الإنسانية التي كانت سبباً في إزهاق أول نفس في التاريخ. وكلها عائدة إلى أوامر الشرع ونواهيه. فحينما يتوجه الخطاب الدعوي إلى النفوس مقدماً بين يدي نجواه ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ"⁽²⁸³⁾، فإنه يوجه النفوس المخاطبة نحو ما يجمع ولا يشتت، ويرص الصفوف ولا يفرقها، فيذكرها جميعاً بعلاقتها بربها أولاً ويدعوها إلى أن تلتزم شروط الأخوة المساعدة على المسير في جَحْفَل واحد⁽²⁸⁴⁾.

ويبدو لنا المولد الثاني من مولدات الكراهية التي ينبغي للخطاب الدعوي الانصراف إليها باهتمامه من أجل إزاحتها واجتثاثها من النفوس متمثلاً في عدم

283. رواه البخاري في كتاب الأدب، باب مَا يُنْهَى عَنِ النَّحَاسَةِ وَالنَّدَائِرِ، رقم: 6065، 19/ 8، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النَّهْيِ عَنِ النَّحَاسَةِ وَالنَّدَائِرِ، رقم: 2558، 4/ 1983، وأبو داود في كتاب الأدب، باب فِيمَنْ يَهْجُرُ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ، رقم: 4910، 4/ 278، والترمذي في البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي النَّحَاسَةِ، رقم: 1935، 4/ 329.

284. مظاهر فعل الحسد في اندلاع نيران الكراهية وتأليب القلوب نحو جهات يعينها تنذ عن الحصر، وأمرها إلينا في هذه الأيام وقوف دول كثيرة في وجه دولة تركيا بعد أن اجتهدت وبحثت ونقبت. وحينما وجدت ثرواتها الغازية الطبيعية داخل حدودها البحرية أثّرت حفيظة تلك الجهات، وتنادى قادتها مصبين وبالليل، حتى إن بعضهم أخذ يذق طبول الحرب. فكان الانتقال من حسد الأفراد إلى حسد الدول. ولو أن النفوس الحاكمة المحركة للضغائن كانت سليمة معافاة لتوجهت إليها بالتهاني الخالصة، ولكنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

التسامح والعزوف عن الصفح وكظم الغيظ. والخطابُ الدعوي لديه من الزاد ما يكفيهِ لمواجهة هذه العضلة المهلكة التي توقف مسيرة العلاقات وتقصم عرى الأواصر بين الناس، وتعطل البناء والإنتاج، وتجعل وجه الإنسان عبوساً قمطيرياً، فيطبعه الكَلْح من كل جنباته، ولا تجد لصاحبه إلا تغيظاً وزفيراً.

فإذا ركب الخطاب الدعوي مراكز الفاعلية وتوجه نحو مخاطبيه بخطى ثابتة، موجهاً إياهم إلى المسارعة إلى الجزاء الأوفى الذي لا ينقضي ولا يبيد، منبهاً على أنه جزء لا يناله إلا من كان صاحب أوصاف خاصة، يشملها قول رب العزة سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) ﴿ (آل عمران: 133-134)، فإنه يكون قد فتح الباب ووضع رجله في الركاب، فيكون موفقاً إلى أبعد الحدود للماسمة أعماق النفوس، وتحريك الجوارح كلها نحو التمسك بما يحقق هذا المبتغى الجلل.

وثالث تلك المولدات التي تنتج السم الزعاف يتمثل في كون المخاطبين من المسلمين ليسوا على قلب رجل واحد. فمنهم فريق - وهو فريق واسع - انقلبت في ذهنه المفاهيم الثقافية الأساس انقلاباً جذرياً، فلم يعد يميز الغث من السمين، ولم يعد قادراً على الفصل بين الخبيث والطيب؛ فالمسلمون إبان هزائمهم الحضارية الأخيرة - حسب عبارة الشيخ محمد الغزالي - "ابْتَلُوا بِمَنْ قَلَبَ لَهُمْ شُعْبَ الْإِيمَانِ رَأْساً عَلَى عَقَبٍ، وجعلها رُكْماً فَوْضُوياً اخْتَفَتْ مِنْهُ أَصُولُهُ، وَبَرَزَتْ فِرْعَوْنُهُ..." (285).

فوقفة على جانب الولاء والبراء في علاقته بما نحن فيه، لتبين أن ولاء هذا الفريق أصبح موجهاً لصالح الآخر؛ فتسمع من يدعو لمن كادوا لنا من المستعمرين وخَلَفِهِم بالفضل والخير، ويصرح بتطلعه إلى اليوم الذي يعودون فيه إلى استعمار بلاد المسلمين. وتجده من جانب آخر يناصب المسلمين العداء، ويكشف ثلومهم لكل من هب ودب، كراهية لهم وتطلعاً إلى اليوم الذي يولون القهقري إلى المواقع الأكثر اندحاراً مما هم فيه.

285. مستقبل الإسلام خارج أرضه، كيف نفكر فيه؟ محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ، 98.

فالذي يلزم الخطاب الدعوي المفعّل بهذا الخصوص أمر ليس باليسير؛ فهو إعادة بناء وترتيب. وإذا كان البناء والترتيب يحمّل القائم به عادة فوق طاقته، ولاسيما أن الوضع يستقر في المواقع الأمامية القريبة ممن يكيد للأمة بالليل والنهار. فالتدخل الإصلاحي يفرض الانتباه إلى المكائد والعراقيل من جهة، كما يفرض العزم على الإصلاح الإيجابي الذي يعيد الأمور إلى جادة الصواب، فلا يبقى ثغرة ولا ثلماً.

ورابع تلك المولدات التي تجعل الضر يمس الأمة من كل جانب- وهو مكون يدخل في علاقة مع ما سبق- ذلك الذي تترأى إلينا ملامحه من خلال اضطراب الحقائق في الأذهان بخصوص الثقافات المختلفة، سواء أكان يمس الثقافة الإسلامية، أم كان يتعلق بغيرها من الثقافات. فالواجب أن يكون الخطاب الدعوي المفعّل قد أدى دوره في إصلاح هذا الجانب، فتصحّح النظرة تجاه الثقافات المختلفة؛ فالحق حق والباطل باطل، والظلم ظلم والاعتداء اعتداء⁽²⁸⁶⁾. فتنشر الحقائق كما هي من غير لفّ ولا دوران.

إن زاد الخطاب الدعوي المفعّل زاد وافر في ما يتعلق بإصلاحات هذه الجوانب مما يسود حياة الناس. وقد يكون من الشواهد القريبة إلينا مما يخدم ما نذهب إليه، في علاقتنا بثقافات الآخرين، ما روي عن صعصعة بن يزيد لما سأل عبد الله بن عباس عن متاع أهل الذمة؛ حيث كانوا يصيبون منه الشاة والدجاجة، فيبيحون لأنفسهم أكلهما من غير رضى أصحابهما.

إن الشرع الإسلامي لا يقر الظلم؛ فهو ليس سياسة جبروت لصالح من يؤمن به، ولكنه دين رحمة للعالمين. فأساليب تحقيق الغلبة المقررة في الشرع كثيرة، ولذلك، فإنه لا يقبل مثل هذه الأساليب التي يستبد فيها القوي بمتاع الضعيف. ومن ثم، فإن فتوى ابن عباس رضي الله عنه بخصوص النازلة كانت فتوى تحمي متاع الضعفاء

286. لا أظن أن الخطاب الدعوي المفعّل يكون أقل تأثيراً مما أبداه "إيدي كوهين"- وهو باحث يهودي مهتم بإلصاف الإسلام- أثناء مقابلة تلفزيونية؛ حيث استطاع أن يوضح كثيراً من الحقائق عن الإسلام، مما هو مستقر في أذهان بني دينه ووجدته استقراراً مخالفاً للحقيقة. فبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى المجاهدين وهم في الحرب عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، وأوضح أن الاغتصاب في الإسلام حرام؛ فلا يجوز أن تغتصب يهودية أو نصرانية أو مسلمة، لأن تحرير الأرض أو فتحها لا يكون باغتصاب النساء وقتلهن. ومن يقترف هذا الجرم فإنه يقام عليه الحد. ولذلك، فإن المسلمين الحقيقيين يرفضون هذه التصرفات غير السوية. وكل مخالفة تبقى صاحبها في موقع الشيطان الأخرس إذا لم يندد بجرائم ترتكب باسم الدين. وأوضح في الأخير أن اللافتات الجديدة التي صارت ترفع فتنسب إلى الإسلام أفعالها الإجرامية، إنما هي مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين.

ينظر الرابط: <https://twitter.com/EdyCohen> - تاريخ الاطلاع: 2020/10/13.

من أهل الذمة، وتدفع المسلمين عن أن يقتربوا ظلماً، فصَحَّ المفهوم المغلوط الذي كان يدفعهم لفعل ما فعلوا، فقال: ”وَلِمَ تَفْعَلُونَ ذَاكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّا نَرَاهُ لَنَا حَلَالًا. قَالَ: فَتَلَا هَذِهِ آيَةَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾“ (آل عمران: 75)“(287).

لقد صدر الخطأ عن المسلمين، ظناً منهم أن غلبتهم لمن يطلبون فتح أرضه تبيح لهم أن يتصرفوا في ما يملكه، فيذبحون منه ما يشتهون ويأكلون من لحومه ما وصلت إليه أيديهم. ولكن الخطاب الدعوي الصادر عن ابن عباس رضي الله عنه كان أقوى من أن يبقي الأمور على عواهنها، وبعد أن تم تصحيح المفهوم فإن الممارسة ستصحح حتماً.

وخامس مولدات الكراهية التي تجعل الغشاوة على أعين الناس فيقتربون ما يضر غيرهم مما يمس أعراضهم وأموالهم ودماءهم يتحد في عدم التبين مما يروج بين الناس. والخطاب الدعوي المفعّل حينما يُصرُّ على استنبات خلق التَّبَيُّن في نفوس مخاطبيه، يكون قد رَدَمَ هوةً غائرة تأتي بالفتن المختلفة الضروب في كل حين.

ولكي تؤدي الدعوة إلى التبين وظيفتها البانية، فإنه يتوجب على الخطاب الدعوي المفعّل أن يحقق التغطية الشاملة للمستويات الحياتية التي يسودها عدم التبين؛ فينطلق من إصلاح أخلاق الأفراد والجماعات، ولا يحط رحاله إلا عند الدعوة إلى إصلاح الإعلام الذي لا يرعوي عن ترويج ما يخدم السياسات الدولية الكبرى، ولو على حساب الحقيقة. فالإصلاح إذا تحقق في هذا الجانب، يكون قد تحقق به فضل عظيم في حياة الناس، فإذا تمسك كل فرد بخلق التَّبَيُّن في ما يصل إلى مسمعه من أقوال وأخبار، وإذا تولى الإعلام نقل الحقائق كما هي من غير لف ولا دوران، ومن غير زيادة ولا نقصان، فإن الحياة البشرية سيختفي منها جزء ليس بالهين من خطاب الكراهية؛ إذ إن لوسائل الإعلام والحكومات - كما هو مقرر في خطابات الأمم المتحدة - أدواراً ”جوهرية عليها أن تؤديها في الحيلولة دون تصاعد العنف والتمييز“(288).

287. رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: 18699، 9/ 333، وعبد الرزاق الصنعاني (أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ)، في مصنفه، رقم: 10102، 6/ 91، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1403هـ.
288. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 33.

• المطلب الثاني: تطهير شبكات التواصل الاجتماعي من ترويج الكراهية

نوليَّ وجوهنا شطر شبكات التواصل الاجتماعي فنخصها بالتطهير من خطاب الكراهية، لأننا نراها مكوناً حديثاً ملأ الدنيا وشغل الناس، فنقوم بتبئيرها من أجل أن نتبين مدى التحول الذي طرأ على الذهنيات بعد تفعيل الخطاب الدعوي؛ فأغلب من يريدون أن يتواصلوا يمرون عبر هذه الشبكات، وأغلب رؤاهم تظهر ملامحها واضحة جليلة حينما يكتبون أو يتحدثون أو يتفاعلون بأي صورة من صور التفاعل المختلفة. فقد صار الالتفاف حولها هاجس كل فرد وكل مجتمع، وأصبحت المشاركات والتفاعلات على صعيدها مبتغى يطلبه الجميع.

فمن هذا الجانب، تظهر شبكات التواصل الاجتماعي بكونها المحضن الذي يختصر علينا الطريق في تبين التحولات التي تنطبع بها العقلية العامة في علاقتها بالحد من خطاب الكراهية وتحقيق التعايش الإنساني المشترك. وبقدر التحول في الخطاب السائد فيها تكون درجة الانتقال من حال إلى حال.

ومن ثم، فإن الذي نرمي إليه بهذا العنوان لا ينصرف إلى رغبتنا في تطهير هذه الشبكات من ذلك الخطاب الحامل للخشونة، ولكن الذي نرمي إليه يتوق إلى تسجيل الملاحظات الخاصة بالتطهير المتحقق فعلاً في هذه الشبكات؛ فالتطهير الذي نقصده تطهير نستشرف من خلاله درجة التحول الاجتماعي وليس تطهيراً نتوق إلى تحقيقه بسلك مسار معين.

فإذا كانت المؤشرات التي نلجأ إليها لقياس درجة التحول الاجتماعي في علاقته بالحد من خطاب الكراهية مؤشرات مختلفة، فإن تطهير شبكات التواصل الاجتماعي يأتي على رأسها؛ فالوضع الذي تنن تحت وطأته هذه الشبكات قبل أن يفعل الخطاب الدعوي معروف لدى الجميع، بل إنه ليعد ملمحاً مميزاً ضابطاً للحال التي يعرفها المجتمع الإنساني كله. ولذلك، فإن درجة التحول في تطهيرها تمثل درجة في تطهير المجتمع الإنساني كله. ومن خلال ذلك، يتبين قياس زاوية الميل التي يتحقق بها ميل المجتمع عن مساره القديم الذي كان خطاب الكراهية طافحاً فيه، وكانت أطراف من الإنسانية تكتوي بلفحاته وأطراف أخرى تمد له مداً بإلقاء ما يحتاج إليه من وقود حتى يزداد هيجاناً وتسعراً.

• المطلب الثالث: أداء الخطاب الدعوي دوره المنشود في تحقيق الأخوة والتواد

بعد تخلية النفوس من خطاب الكراهية وإزاحة مساوئه منها، فإن الخطوة التي تأتي بعد ذلك ينبغي أن تتمثل في تحليلتها بكل صالح مفيد مما يحقق التعايش الإنساني المشترك؛ ذلك، "لأنَّ شَأْنَ الإِصْلَاحِ أَنْ يَبْدَأَ بِإِزَالَةِ النَّقْصِ" (289) - حسب عبارة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير.

إن تحقيق التعايش ليس كلاماً يلقي على عواهنه، ولا تمنياً يجول في الدواخل النفسية ولا يستطيع الخروج منها ليتنزل على أرض الواقع؛ فيصير مرئياً رأي العين. ولذلك، فإن بذل الجهد عن علم وإنفاق القوة عن دراية أمران يصبحان من أوجب الواجبات، فيفرضان على القائم بالدعوة أن يسير بالتعايش الإنساني المشترك نحو وجهة تخدم الإنسانية ولا تضرها، وتحفظ للدين الإسلامي ملامحه فلا تزيحها أو تمسخها.

فكثيراً ما انطلقت الدعوات في مشرق الأرض ومغربها من أجل تحقيق التعايش بين بني الإنسان، إلا أننا لم نر منها إلا ما يضر ولا ينفع، ولم نجد فيها إلا ما يفرق ولا يجمع، لأنَّ القائمين بها يرون التعايش من منطلقات غير منطقاتنا، وينتصرون لما يتوافق مع توجهاتهم الفكرية والإيديولوجية، وإن كان البون بينه وبين ثقافات الآخرين بوناً شاسعاً، والشقة بينه وبين ملامح المستضعفين شقة بعيدة. فقد بذلت جهود مضنية من لدنهم "لترضية المسلمين بإسلام آخر غير الذي تلقوه عن نبيهم، وعرفوه من كتابهم" (290)، حسب إشارة الشيخ محمد الغزالي. فجاءت دعواتهم إلى التعايش الإنساني على المقاسات التي يريدها هؤلاء وهم يخالفوننا في الدين والعقيدة، ويعادوننا في اللغة والثقافة، ويضعون لنا العراقيل التي تحول بيننا وبين تبين ملامح المستقبل، فصرنا لا نرى إلا ظلمة دامسة، وأصبحنا لا نستطيع في أي حال تبين معالم الطريق.

289. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 19 / 59.

290. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ، 16.

فإذا كان الوضع الإنساني يبدو على هذه الصورة؛ حيث إن الرؤى بخصوص مفهوم التعايش الإنساني مختلفة، والتوجهات نحو ما يرص الصفوف متباينة، فإن العنت الذي سيجده الخطاب الدعوي في طريقه لأداء هذه المهمة العويصة سيكون عنثاً شديداً، لاسيما وأن وحدة الدعاة مفككة، ورؤية طائفة منهم لا تكاد تمد أصحابها بأبعاد المستقبل القريب، بل إنها- كما يشير إلى ذلك الشيخ محمد الغزالي- دعوة "ميتة أو مشلولة، في أيام تبرزت فيها الدعوات وافتتت في عرض نفسها"⁽²⁹¹⁾.

إن المفارقة الغريبة التي سيقع فيها الخطاب الدعوي حينما ينبري للسعي نحو تحقيق التعايش الإنساني المشترك، تتمثل في عدم قدرته على إصلاح شأن أولي القربى ومد الجسور بينهم؛ سواء أكانوا عرباً أم أعاجم. "فماذا فعل العرب لتذويب الفوارق بينهم وبين الترك والعجم والهنود والزنوج وغيرهم من الأجناس التي دخلت الإسلام"⁽²⁹²⁾. وماذا فعل العرب في تذويب جليد العداوات والصراعات بينهم؛ حيث لا تكاد تسمع في الإعلام إلا مآسيهم، ولا تكاد ترى فيه إلا بأسهم الشديد بينهم؛ ذلك، لأن العقل الناضج يقضي بأن يصلحوا ذات بينهم قبل أن يلتفتوا إلى غيرهم من الأبعاد.

إن سنة التدرج سنة كونية وضعها القدر في الأشياء كلها، فلنا أن نستفيد منها في ممارسة الدعوة؛ فقبل أن نلتفت إلى الآخرين ممن لا يجمعنا بهم جامع، ينبغي أن نهتم بشأن بنائنا الداخلي، فنرص الصفوف، ونوحد الكلمة، ونحث على المحبة والتواد، ونحرص على مد الجسور الإيجابية بيننا، فتموت الضغائن وتخلو القلوب من غلوائها.

فإذا بلغنا هذا المبلغ، فإننا نكون قد بلغنا المستقرات التي نريد، فنحقق التعايش بيننا بأقل كلفة وأيسر طريق؛ بل إننا نصحح الصورة السلبية التي نقدمها للعالم عن أنفسنا؛ حيث إنها ستعرف تحولاً كبيراً إذا أصلحنا ذات بيننا، فيكون لها أثر بالغ في جعل الآخرين من المنتمين للثقافات الأخرى متقبلين لآرائنا وتوجيهاتنا، مؤمنين أن دعوتنا إلى التعايش الإنساني المشترك ليست دعوة يفرضها علينا الضعف والهوان الذي نعانيه في أيامنا الحالية، وإنما هي دعوة صادرة عن ثقافتنا الضاربة بجذورها الراسخة في أعماق التاريخ، الحريصة على سعادة بني الإنسان أنى حلوا وحيثما ارتحلوا.

291. المرجع نفسه، 17.

292. المرجع نفسه، 19.

فتصحيح الصورة المركوزة في اللاشعور الجمعي لدى الآخر تجاهنا أمر ضروري لكي تنفتح مسامعه إلينا، فيصغي إلى ما نقول، وتشغل أذهانه ليفهم عنا ما نرمي إليه حين ندعوه إلى العدول عن استعمال خطاب الكراهية تجاهنا إلى الالتزام بما يحقق التعايش الإنساني المشترك بينه وبين بني الإنسان جميعاً.

والحقيقة أن تصحيح صورتنا في الأذهان، وإن كان أمراً ضرورياً، فإنه ليس كافياً لنصل إلى الدواخل التي نريد. فعودة إلى تاريخ المسلمين الأولين في علاقتهم بغيرهم، وإطلالة على الطرائق التي نهجها الآخر في العصر الحديث معنا ومع غيرنا، لتبين أن الاستقرار في موقع القوة يقتضي اقتحام الآخرين من الأغيار، والتعرف على طرائق عيشتهم ونفسياتهم، وسبر أغوار بلادهم، والإحاطة بما يميز مناطقهم وجغرافيتهم⁽²⁹³⁾.

وهذا الأمر يعد من التحديات العويصة على الخطاب الدعوي اليوم. فالتحديات التي يمكنه أن يؤسس عليها علاقته تجاه الآخر غير متحققة بالصورة الكافية التي تمكنه من المعرفة الدقيقة بنفسيات الآخرين؛ فقد بعدت الشقة بيننا وبينهم كثيراً، وقد سلكوا مسالك في حياتهم نجهل تفاصيلها العميقة إلا لماماً. ورحلاتنا إلى ديارهم رحلات اتخذناها مراكز للحصول على القوات، ولم نتخذها فرصاً ذهبية لممارسة الدعوة إلا لدى من رحم الله.

لقد أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي ميسرة لهذا الأمر الذي يستعصي على كثير من الدعاة على أرض الواقع؛ فقد صارت مقدمة إلينا أخبار القوم على الصورة التي تقدم إليهم بها أخبارنا، راسمة ملامحهم بين أيدينا على الشكل الذي ترسم به بين أيديهم ملامحنا. ولذلك، فإنه يلزم الخطاب الدعوي المفعّل أن يبذل قليلاً من الجهد ليحقق التغطية الكاملة عبر هذه التقنيات الجديدة؛ فرغم كون الآخر قد قطع أشواطاً ليس هيناً أن نقطعها الآن في مسار التقدم والمدنية، إلا أنه يعاني من

293. نقتصر بهذا الخصوص على الإشارة إلى رحلتين تاريخيتين يتبين منهما اقتحام المسلمين لأقوام بعيدة والاجتهاد في التعرف على ثقافتهم وظروفهم الحياتية عن قرب. وهما المتمثلتان في رحلة ابن فضلان إلى روسيا وبلاد الترك، (ينظر: رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والمقالية، سنة 309هـ - 921م، تحقيق الدكتور سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1960م). ورحلة ابن بطوطة إلى أطراف مختلفة من العالم، (ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ابن بطوطة (المتوفى: 779هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ).

فراغ روحي وإيمان تاريخي مؤسس على المغالطات التي تجعله يتخذ المواقف المبينة المؤسسة على الكراهية منا ومن غيرنا.

فحين يمارس الخطاب الدعوي بوعي يستشرف المقاصد الحضارية التي يفرضها الدين الإسلامي الحنيف، ويوظف الآليات المتاحة المتميزة بفعاليتها، من وسائل تقنية ولغات عالمية وأخلاق إيجابية رفيعة، فإنه آنئذ يكون قد أمسك بالآليات التي تردم بها الهوات، وتتجاوز الزلات، ويتدارك بها ما فات من النقائص والهناات.

فقوة الخطاب ووضوح الحجة ورصانة الاستدلال تتغلغل في النفوس التي تعاني من الفراغ الروحي والإيمان المؤسس على المغالطات، فتجعلها تقتنع بما يلقي عليها، وتجعلها، حين التركيز على الحد من خطاب الكراهية والدعوة إلى التعايش الإنساني المشترك، أكثر اقتناعاً، ولاسيما أنها موضوعة واحدة يكون الإيمان بصدقها يسيراً، والاستجابة لدعوة صاحبها متحققة.

إن الخطاب الدعوي حين يلتزم الحكمة، ويوظف التقنيات التواصلية الحديثة، يكون قد طوى المسافات وعرض إصلاحاته على أطباق من ذهب بين أيدي المستهدفين به؛ طلباً لإصلاح المجتمع الإنساني وتطهير القلوب من الأدران ونشر الأخوة والتواد ورغبة في الوصول إلى السعادة.

المبحث الثاني: تحقق الشعور بالإنسانية المشتركة

• المطلب الأول: استحضار وحدة الأصول يبعد التنافر

حين نتدبر تاريخ البشرية منذ بدايته حتى اليوم، فإننا نجد قائماً على أسس وقواعد تجعل بني الإنسان أقرب إلى تحقيق التواد والمحبة والانسجام منهم إلى تحقيق التنافر والكراهية والاختلاف. وهذه الأسس والقواعد تتمثل في الأصول الأولى التي قامت عليها الحياة البشرية أول مرة، كما تتمثل في الموجهات الراسمة لمعالم الطريق الذي ينبغي للناس أن يسلكوه. فإذا أحببنا أن نتلمسها فإننا نجدها متمثلة في الآتي:

1. خالق الأكوان هو الله تعالى:

يعرض علينا القرآن الكريم عدداً وافراً من الآيات البينات التي تدلنا على أن الله تعالى هو من خلق الخلق كله، مقيمة أمرها على الدليل القاطع والحجة الدامغة، فتجعل كل ادعاء لغير ذلك في مهب الريح. ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)﴾ (ص: 65-66).

وقوله عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74)﴾ (ص: 71-74).

وهو بيان إلهي لكل واحد من الناس حتى لا تنزل على عينيه الغشاوة فيضل عن الحقيقة وتتفرق به السبل، فيقول ما ليس حقاً، ويسلك من المسالك ما ليس صدقاً، وينطق الخنا، ويعادي بني أصله وإخوته في الإنسانية ممن أخذ منه معهم موثقته بين يدي من خلقه منذ الأزل؛ حيث يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)﴾ (الأعراف: 172-173).

2. الأصل الأول آدم عليه السلام:

نرجع بأنفسنا إلى البدايات الأولى التي يخبرنا بها القرآن الكريم، فنجد أصلنا الأول أصلاً مشتركاً بيننا جميعاً؛ فما من أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر أو غيرهم ممن خلق الله تعالى إلا ويرجعون جميعاً إلى أصل واحد؛ أبوة وأمومة. وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)﴾ (النساء: 1).

فالدعاء موجه إلى الناس جميعاً لالتزام تقوى الله سبحانه في البدء والختام، مذكراً إياهم بأصلهم الذي كانت منه الانطلاقة الأولى، ومنبها إياهم على انتشارهم جميعاً من ذلك الأصل. ولذلك، فإن وحدة الأصل تقتضي ألا يطرق الأذهان طارقُ التفاخر بالآباء، وألا ينجرّف الإحساس نحو ذكر المناقب، ولا سيما إذا كانت مناقب تستمد وصفها من موقع رؤية غير الرؤية التي يرتضيها الله للبشر.

وتكتمل عناصر المشهد التوجيهي الصادر عن القرآن الكريم بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَحَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ" (294). فلا قبول للتفاخر بالآباء، ولا ركون إلى الاعتزاز بذكريات الجاهلية؛ إذ المعيار الوحيد الذي يُحتكم إليه ينحصر في العوامل التي تجعل المرء من أهل الجنة أو من أهل النار، وأما الأصل فهو أصل واحد كان التراب مادةً تسويته أول مرة.

3. إرسال الرسل مبشرين ومنذرين:

ونجد ثلاثة الأثافي من الأسس والقواعد التي تقتضي سيادة المحبة والتواد والتآلف تلك التي تتمثل في كون القدر لم يترك الخلق هملاً، يسبحون في الأرض كما يشاؤون، ويسرحون حسب رغباتهم في كل واد. فأرسل الله تعالى رسله إليهم مبشرين ومنذرين ليدلوهم على سبيل الهداية، ويهدوهم إلى صراط العزيز الحميد.

294. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الثَّمَانِ بِالْأَشْجَابِ، رقم: 5116، 4 / 331، والترمذي في المناقب، رقم: 3955، 5 / 734، وأحمد، 16 / 455.

وإذا استحضرنا وحدة الأصل التي وقفنا عليها في الفقرات السابقة، فإننا نجد التراخي الزمني بعد انطلاقة الوجود الإنساني يتدخل بتأثيره في الانزياح بالإنسان عن جادة الصواب؛ إذ إن عوامل مختلفة كان لها موقف حاسم منذ البداية من الإنعام عليه بالتكريم، فكانت تتدخل لتُضلَّهُ عن سبيل الله تعالى، وقد كانت تتمثل في كل مرة في فعل الشيطان وفي الضعف البشري وفي النفس والهوى.

لقد نبهنا القرآن الكريم في سياقات مختلفة إلى ما كان يقتضيه الانزياح عن المسار من إرسال الأنبياء ليعيدوا الإنسانية إلى التزام سبيل الرشاد، فقال الله سبحانه بخصوص هذا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة: 213)، بل إن القرآن الكريم ينبهنا إلى أن الأمم جميعاً قد جاء إليها، بأمر الله تعالى، من يعيدها إلى جادة الصواب، فدعاها بدعوة الحق وذكرها بما أَرَادَهُ اللهُ لها من الهداية، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (24) ﴿فاطر: 24﴾.

ولم يكن الهدف من ذلك كله سوى أن تكون الإنسانية في أسعد الأحوال؛ فتقيم شرع الله عز وجل، وتتعامل بالحسنى، وتدفع بالتّي هي أحسن، فتفوز بالأجر الوافر في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ (66) ﴿وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُم مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (67) ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (68) ﴿النساء: 66-68﴾، ويقول عز وجل: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (16) ﴿الجن: 16﴾.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإنسانية كلها؛ فخالقها واحد، وأصلها واحد، وسبيل هدايتها واحدة، فإن أمرها يكون على شاكلة قوم استقلوا سفينة واحدة مشتركة. ولذلك، فإنه ينبغي لكل واحد منهم أن يحرص على أن تعبر السفينة إلى أهدافها بسلام؛ فيستحضر المصالح الكبرى المشتركة، ويتيقظ إلى ما يضر غيره فيجتهد في إصلاحه أو التنبيه عليه.

إننا نقول هذا، ونحن موقنون بالموقع الذي يستقر فيه موقف شرع الله من هذه الأوضاع الإنسانية المختلفة؛ فإذا وجد مفكرون يدعون إلى الصراع بين بني الإنسان،

وينظرون له في كتابات كم أسألو فيها من مداد، وكم سودوا فيها من أوراق، فإننا لا ندعو إلى الوحدة الانصهارية الكاملة، لأن موقف الشرع الإلهي من ذلك واضح؛ حيث إن التعددية هي الأصل والقاعدة والقانون- كما يذكر محمد عمارة يرحمه الله تعالى- ”والعالم يجب أن يكون ”منتدى حضارات“، لا حضارة واحدة تُصارع وتَصْرَع غيرها من الحضارات..“ (295).

فإذا كان ذلك كذلك، فإن من أوجب الواجبات، بعد استحضار الأصول المشتركة الأولى، أن تسير الحياة الإنسانية في كل زمان مقيمة أمرها على التدافع الذي يحث الخلائق على التنافس الإيجابي الموصل إلى الارتقاء والتقدم والازدهار، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (40) (الحج: 40)، ومصداقاً لقوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 251).

فإذا علم هذا كله، وتبينت حقيقة الإنسانية في مسارها الطويل، فإن الركون إلى التنافس الإيجابي، والحرص على تحقيق المصالح الإنسانية الكبرى، والسعي نحو التقدم والازدهار اللذين تستفيد منهما الإنسانية جمعاء، لن يبقي مدخلاً تطل منه الحزازات على حياة الناس، ولن يمكن الكراهية من الاستقلال بموطئ قدم يتأذى منه واحد من بني الإنسان.

• المطلب الثاني: إبعاد الفوارق يشعر الإنسان بحقيقته

حين يبعد الخطاب الدعوي المفعّل الفوارق التي تتجلى في التمايزات بين الناس؛ أفراداً وجماعات، فإنه يكون قد دلّهم على مسلك إذا سلوكه يصلون من خلاله إلى إبعاد كل ما يؤجج الكراهية بينهم ويولد العداوة والشحناء في حياتهم.

وأقوى الركائز التي يقوم عليها إبعاد الفوارق بين الناس وإلغاؤها من أذهانهم هو ما يذكرهم بما يلتقون فيه قبل أن يتفرقوا فتنتبج كل جهة منهم بطابع خاص،

295. الحضارات العالمية: تدافع أم صراع، محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي، رقم: 24، نهضة مصر، القاهرة، ط 1، 1998، 18.

وتتميز بلامح مميزة خاصة. وهو الذي ذكّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع، فقد روى أبو زرعة بن عمرو، عن جرير رضي الله عنهم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضَلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى" (296).

إن الأساس الذي يقوم عليه وزن الإنسان لا يتحدد في ماله، ولا في انتماؤه العرقي، ولا في لونه المميز، ولا في إتقانه للغة من اللغات المعتمدة، وإنما يتحدد في تقواه واهتمامه بما يصلح ولا يفسد وينفع ولا يضر. فإذا لم ينتبه المرء إلى هذه الحقيقة، فإن متهاتات صناعة العداوة وتطويرها، وغرس منابت الكراهية في القلوب، يجدان مرتعاً خصباً لينتعشا ويحققا وجودها النشاز في الواقع. وهما اللذان يتطوران إلى سفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل وإبادة الحياة. وهو ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، فقال: "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (297)، داعياً إياهم إلى "تحريم بعضهم من بعض على نفسه سفك دمه، ما أقاموا على الإسلام" (298)، حسب عبارة ابن بطال في شرحه صحيح البخاري.

ولقد خاض شراح هذا الحديث في دلالاته وخلفياته ومقاصده، فانتهوا إلى سبعة أقوال، كما يشير إلى ذلك النووي في شرحه صحيح مسلم. وقد رجّح رابعها. وهو "أَنَّهُ فَعُلَ كَفَعَلَ الْكُفَّارِ"، فقال: "وَأُظْهِرُ الْأَقْوَالِ الرَّابِعَ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِي عِيَاضَ رَحِمَهُ اللَّهُ" (299).

وبلوغ تلك المحطات التي يكون المسلم مهدداً فيها بالخروج من دائرة الإسلام، يرجع في نهاية المطاف إلى التعلق بالدنيا ومتاعها؛ أموالاً ورياشاً وموقعاً اجتماعياً وغيرها من العوامل التي تربط المرء بالحياة الدنيوية وزينتها. والمتدبر في حقيقة

296. رواه الطبراني في الأوسط، في باب العين، مَن اِسْمُهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، رقم: 4749، 86/5، والبيهقي في شعب الإيمان، في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، رقم: 4774، 132/7، وأحمد، 474/38.

297. رواه البخاري في كتاب العلم، باب الْإِنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ، رقم: 121، 35/1، ومسلم في كتاب الإيمان، باب "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"، رقم: 65، 81/1، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، رقم: 1300، 2/3942.

298. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 4/413.

299. شرح النووي على مسلم، رقم: 55/2.

الحياة الدنيا بعقل وروية ليجدها أهون على الله من كل شيء؛ حيث إن القيمة التي تكتسبها إنما تكتسبها من تعلق الإنسان بها، ولو أنه انصرف باهتمامه وهمته نحو الأفضل لكان أولى. ولقد دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أعمال العقل والتفكير في هذا الأمر دعوة صراحاً، ولاسيما حين قارن بينها وبين جيفة من الجيف ملقاة على الأرض؛ حيث ينزاح المارة عن الطريق لكي لا تزكم أنوفهم بريحتها النتن.

لقد روى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، أنهم كانوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: "أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِرُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا"⁽³⁰⁰⁾.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الدنيا، وكان الناس جميعاً بأغراضهم وعلاقاتهم وتطلعاتهم لا يمثلون منها شيئاً ذا بال، فَلِمَ العداوة والبغضاء بشأنها؟ وَلِمَ يهتم بعض أهلها بتأليب القلوب على إخوانهم فيها؟ فأمرها عابر، وأهلها عابرون. ولو كانت تدوم لدامت لمن كان قبلنا. ولقد اهتدى أمير الشعراء أحمد شوقي إلى وصف هذه الحقيقة فقال⁽³⁰¹⁾: (الوافر)

أَخَا الدُّنْيَا، أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى *** تَبْدُلُ كُلَّ آوِنَةٍ إِهَابًا
وَمَنْ عَجَبٍ تُشَيِّبُ عَاشِقِيهَا *** وَتُقْنِيهِمْ، وَمَا بَرِحَتْ كَعَابًا

إن الخطاب الدعوي المفعّل لما يقوم بوظيفته السامية في هذا الباب، فيختار هذا الطريق الإصلاحي الدائم الأثر، يكون قد حقق المطلوب وجاء بالمرغوب. وهو بذلك يجعل حقيقة الإنسان واضحة جلية يراها الإنسان بعينه كلما ولى وجهه نحو جهة من الجهات، فيدرك أن الانشغال بالصراع والكراهية وزرع الأحقاد وإشعال نيران الفتن والحروب، إنما هو انحراف عن جادة الصواب التي يُنتطح من خلالها إلى البناء والتشييد وتحقيق راحة الإنسان في أيامه المعدادات قبل أن يتخطفه الموت ويؤذن له بالرحيل.

300. رواه الترمذي في الزهد، باب مَا جَاءَ فِي هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، رقم: 2320، 4/ 560، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم: 4110، 2/ 1376. واللفظ لابن ماجه.

301. الشوقيات، أمير الشعراء أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مدينة نصر، القاهرة، مصر، 2012، 95.

• المطلب الثالث: تحقق الشعور بأحوال الأقليات والمستضعفين

حينما يسود التخلف المجتمع فإنه يميل على الضعيف. والضعف صور ومشاهد؛ فهناك الضعف الجسدي والاجتماعي والمالي. وهناك الضعف الذي تعانيه الأقليات؛ فقد يكون عائداً إلى الانتماء الديني أو العرقي أو الجغرافي.

وكم ألفت منظمة الأمم المتحدة في أدبياتها على أن الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية أو دينية أو لغوية يكون لهم "الحق في التمتع بثقافتهم الخاصة، وإعلان ممارسة دينهم الخاص، واستخدام لغتهم الخاصة، سراً وعلانية، وذلك بحرية ودون تدخل، أو أي شكل من أشكال التمييز"⁽³⁰²⁾. كما ألفت كثيراً على أن "يكون للأشخاص المنتمين إلى أقليات الحق في المشاورات في الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية العامة مشاورة فعلية"⁽³⁰³⁾.

ولكن الواقع يعكس غير هذا، فيدير لهذه التوجيهات ظهر المجن، فيقهر الأقليات، ويوجه نحوها سهامه الطافحة تغيظاً وكراهية يحولان بين الفئة المستهدفة وبين أن تعيش حياتها العادية على الصورة التي يحيا بها الآخرون، فتقصى من مشاهد المشاركة الإيجابية كلها، وتدفع عن أن تكون لها ملامح مميزة في الحياة.

إن هذا الموقف المناهض للأقليات ليس وليد اليوم ولا نتاج المدنية المعاصرة، ولكنه موقف قديم قدم الثقافات الإنسانية؛ فكم سمعنا الملام من الأقوام البائدة يصفون الأقل عدداً من شعوبهم بكونهم الشرذمة القليلين والأراذل المنكرين، فقال الله تعالى بشأن موقف قوم نوح عليه السلام من نبي الله ومن تبعه من المؤمنين: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116)﴾ (الشعراء: 105-116).

302. نص إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية وإلى أقليات دينية ولغوية، رقم: 135، بتاريخ: 18 كانون الأول/ ديسمبر 1992م/ اعتمدته الجمعية العامة في قرارها 47، المادة: 2.

303. المرجع نفسه.

فالمانع الذي حال دون إيمان قوم نوح عليه السلام إنما هو إيمان الضعفاء بدين الله تعالى، فقالوا- حسب عبارة الطبري-: ”أنؤمن لك يا نوح، ونقرّ بتصديقك فيما تدعوننا إليه، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات“⁽³⁰⁴⁾. وإنه لمقياس يزور عن أن يقوم على ضعف رأي الضعفاء، أو سخافة أفعالهم في الحياة. فلا يقوم إلا على النظرة الاستعلائية التي لا تحتكم إلا إلى التمايز الاجتماعي.

وقال سبحانه بشأن موقف فرعون وملتئه من نبي الله موسى عليه السلام والمؤمنين به من بني إسرائيل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِتُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) ﴿ (الشعراء: 52-56).

ولكن الغشاوة التي تنزل على أعين الأكابر المتغطرسين تجعلهم في فتنة لا تضاهيها فتنة؛ حيث إن أذهانهم لا تؤمن إلا بالاستعلاء، ولا توقن إلا بكون الأقليات يبقون أقل شأنًا أبد الأبد. ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد تعبيراً صادقاً يكشف عن العمه الذي يعيشه هؤلاء، فقال تعالى بشأنه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (53) (الأنعام: 53).

وتمدنا السنة النبوية بمشاهد يميل فيها المجتمع إلى الأقليات ولا يميل عليها، فيعز علينا أن نجدها في تجارب تاريخية غيرها. ومن ذلك أن نرى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسابقون بشأن سلمان الفارسي يوم حفر الخندق؛ فقد روى كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم ”قَطَعَ لِكُلِّ عَشْرَةِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، فَاحْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فِي سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: سَلْمَانُ مِنَّا، وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ“⁽³⁰⁵⁾.

وقد يقول قائل إن تجاذب الأنصار والمهاجرين بشأن سلمان رضي الله عنه، قد كان بسبب قوته وفتوته وقدرته على بذل الجهد في العمل. ولكن ذلك لا يكون سبباً

304. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 19 / 370.

305. رواه الطبراني، باب السنين، سلمان الفارسي، رقم: 6040، 6 / 212.

في كل مرة؛ فكم نرى من فرد من أفراد الأقليات يسجل تمييزاً في مجال من مجالات الحياة، إلا أن المواقف السلبية تجاهه تجعل أصحابها ينأون بأنفسهم عن أن يعترفوا له بفضل، أو أن ينسبوا إليه محمداً. ولذلك، فإن دين المسلمين وأخلاقهم وثقافتهم أكسبتهم التميز الإيجابي بشأن التعامل مع الأقليات، فنطق بها القرآن أولاً ونزلتها السنة على أرض الواقع في حياة الناس ثانياً.

فيجب على القيادات الدينية في خطابها الدعوي أن تحيي هذه السلوكات الإيجابية التي أسسها المسلمون إشعاراً منهم للأقليات بأدوارهم في صناعة الحياة العامة؛ فكثيراً ما تضيع حقوق الأقليات، وكثيراً ما لا تستطيع الأقليات تقرير مصائرهما، وكثيراً ما تدفع عن المشاركة في صناعة القرار. فإذا قام الخطاب الدعوي بدوره في إصلاح هذه الأوضاع، فإنه يكون قد قطع أشواطاً ليست باليسيرة في بناء الإنسانية المعاصرة بناءً رشداً.

المبحث الثالث: تحقق الاستعدادات النفسية لخدمة المشترك الإنساني

• المطلب الأول: تفعيل الخطاب الدعوي يوضح الحقائق ويزيح المغالطات

لما كانت العلاقات التاريخية بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم، في كثير من الأحيان، قائمة على التنافر والتدابير والصدام والحروب، فقد انتقل سدنة الفكر لدى تلك الأمم؛ مفكرين وفلاسفة وقسيسين ورهباناً، بتلك العلاقات من مستوياتها المادية إلى مستويات التنظير والتدوين والكتابة، فأخذوا يدسون في أذهان أقوامهم المغالطات والأكاذيب والأحداث الموضوعة والروايات الملفقة. وهو الأمر الذي كان يضمن لهم استمرار العداوة وترسخ الشنآن بعد أن تضع الحروب أوزارها، فتبقى المواقف السلبية مطبوعة في الذاكرة الجمعية لديهم، فيرثها اللاحق عن السابق، ويستشرف بها المستقبل حاملاً ملامحه النكدات المشؤومات.

وشهادة واحدة من الفيلسوف الفرنسي ميشيل أونفري Michel onfray تكفي في هذا السياق؛ فقد قدم شهادته في لقاء تلفزي بثته إحدى القنوات الفرنسية. وهو ماثوث على "اليوتيوب"⁽³⁰⁶⁾؛ حيث ذكر أن كراهية الأجانب من المسلمين لفرنسا ترجع إلى أسباب عديدة، منها أن الجمهورية لم تجعل نفسها جمهورية مرغوباً فيها من لدن هؤلاء المهاجرين. وقد زادت سياسة الغرب تجاههم الطين بلة، ولا سيما حينما قام الرئيس الأمريكي جورج بوش عام 1991 بشن الحرب عليهم في كل مكان؛ فمئذ ذلك العام حتى اليوم قتل بسبب هذه الحرب أربعة ملايين من المسلمين. ويبيدي أسفه من هذه السياسة التي لا تزيد النظرات إلا سوداوية، ولا تزيد القلوب إلا تغيظاً وزفيراً، فيقول:

أليسوا شيئاً؟ ألا قيمة لهؤلاء؟

ثم يردف أن الإسلام عقيدة. ولذلك، فإن المسلم قد يكون فرنسياً أبيض أو أسود

306. ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=wJZvop08xqg&ab_channel=Jean_MichelMOUSSET تاريخ الاطلاع: 2020/11/01.

أو غيرهما. والمسلم يتبع منطق الأمة، وهم إخوة. فنحن قتلنا أربعة ملايين كلهم إخوة. قتلناهم نحن بقيادة جورج بوش! قتلناهم حين خضناها حرباً صليبية. ومن هنا- كما يذكر الأستاذ محمد قطب- ”يتبين أن الدافع الصليبي كان موجوداً دائماً مع الغزو الأوروبي لبلاد الإسلام (...) ولكنه في جميع أحواله حادّ النزعة محتدم الأوار لا يهدأ ولا يسكن، بل ازدادت حدته في القرن الأخير خاصة مع بروز حركات البعث الإسلامي“⁽³⁰⁷⁾.

وبمرور الأزمان تشكلت المؤسسات الإعلامية المختلفة، وأصبحت حاملة هوياتها المعروفة، فتدخل الإعلام غير النزيه في اختيار السياقات المناسبة وانتقاء الأوقات الفعالة في تجديد ذلك التوتر التاريخي الذي لا تندمل جروحه حتى تتجدد، أو بصناعة مشاهد من الصراع التي لا تعرف أسبابها الحقيقية، ولا تدرك حقائقها العميقة؛ فكم من عداوة انفجرت بين عشية وضحاها، وكم من حرب اندلعت بإشعال فتيلها الذي تتحكم فيه الأيادي المشؤومة التي تدبر أمر الكراهية وتصرفه خدمة لمصالحها تبعاً للسياق الذي تجد فيه ضالتها.

إن السبب المباشر الذي يجعل تدخلاتهم السلبية تثمر في صناعة الواقع القائم على الكراهية والحقد والبغضاء هو أنهم يمتلكون الإعلام فيتكلمون كما يشاءون، ويُسمعون الآخرين حين يتكلمون، ولا نمتلك من ذلك شيئاً، فلا نتكلم، وإذا تكلمنا فإن كلامنا لا يسمع لأحد.

إن الفرصة سانحة اليوم أمام الخطاب الدعوي المفعّل؛ حيث يستفيد من نشر الحقائق على شبكات التواصل الاجتماعي التي تمكن المرء من أن يعبر عن رأيه كيفما يشاء، ولا سيما إذا التزم بسياسة خصوصية هذه الشبكات. فيعرض الحقائق، ويرد الاتهامات، ويدفع الترهات والمغالطات؛ ذلك لأن هذه الشبكات، وإن كانت ملكاً لأصحابها، فهي تتيح للمستفيدين منها أن يشعروا كأنهم أصحابها الحقيقيون⁽³⁰⁸⁾.

فإذا قيل عن الإسلام ما ليس فيه وألصقت به الدعاوى المغرضة التي تنأى بنفسها

307. واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1418هـ - 1997م، 182.

308. سبق أن وضعنا حقيقة هذا الأمر، فأفصنا في الحديث عنها حين خصصنا لها مطلباً عنوانه شبكات التواصل الاجتماعي محاضراً مطروحة في الطريق.

عن أن تلزم جادة الحق والصواب، فقليل عنه إنه دين الإرهاب والقتل وسفك الدماء وهو دين الرحمة ورص الصفوف وجمع الكلمة، فإن الخطاب الدعوي بمكنته أن يرد الصاع صاعين، وأن يقدم الحقيقة ناصعة وضاعة بجميع الألسنة واللغات، حتى لا تضيع الفرصة في إيصال الحقائق إلى الناس أجمعين.

وإذا قيل عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه ليس رسولاً من عند الله، أو ألصقت به التهم التي ينحصر دورها في الإيذاء فقط؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (آل عمران: 111)، وكانت الدلائل مازالت تأتي تترى بالليل والنهار شاهدة على صدقه وصحة نبوته، فإن الدعاة يمتلكون في خطابهم الدعوي المفعّل ما لم يكونوا يملكونه من قبل؛ حيث يعرضون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصورة التي توضح الحقائق وتدفع الاتهامات وترد المناوئين على أعقابهم خاسرين.

وإذا اجتهد المجتهدون في إلباس المسلمين التهم الملفقة التي تشوه صورتهم وتلطيخ سمعتهم، فصاروا يبدون للعالمين، في حركاتهم وسكناتهم، مفرعين، يتوجس الناس منهم خيفة أنى حلوا وحيثما ارتحلوا، فإن الخطاب الدعوي المفعّل يجد من القدرة الباهرة على إرجاع الأمور إلى نصابها؛ توضيحاً وبياناً، وحمايةً ودفاعاً، وكشفاً لأساليب العداء التي يكر بها من لديه حقد دفين وكراهية متجذرة من الإسلام وأهله.

فإذا رفع الرئيس الفرنسي المشعل ضداً على الإسلام والمسلمين دون سابق إنذار، إلا أن يكون رد فعل على ما قابلته به السيدة الفرنسية مريم⁽³⁰⁹⁾ بعد عودتها من دولة مالي يوم الجمعة التاسع من أكتوبر 2020؛ حيث إنه لما مد يده لمصافحتها أحجمت وقالت: إني مسلمة، مشيرة إلى أنها لن تصافحه كما يفعل ممثلو المدنية المعاصرة، فإن الخطاب الدعوي يكون ممتلكاً المؤهلات الأساسية التي تمكنه من الكشف عن المثالب التي سقط فيها الرئيس، والتي تجعله مروجاً لخطاب الكراهية أكثر منه ممارساً للسياسة.

309. كان اسمها قبل إسلامها "صوفي بيترونين" (Sofi Petronin)، وتبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً. وقد دفع إيمانويل لاستثمار لقطة عودة المرأة المحررة تسعة ملايين يورو، بعد مبادلتها بمائتين وستة أسماك ربي من أبناء مالي الواقعين في أيدي الجيش الفرنسي.

ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=qVEQ_sgVOKA&ab_channel=

تاريخ الاطلاع: 24 / 10 / 2020.

لقد كانت السيدة الفرنسية مريم ناشطة في منظمة فرنسية لمساعدة الأطفال، فاختطفت في الرابع والعشرين من ديسمبر 2016، وقضت رهن الاختطاف 1381 يوماً، إلا أنها بعد عودتها إلى فرنسا عادت مسلمة، بعد أن أزيحت عن ذهنها المغالطات، بفعل المعاملة الحسنة والأخلاق الفاضلة والفطرة النقية والدعوة إلى الله بالتي هي أحسن.

ولنا صورة أخرى توضح أن القوم يعانون من تراكم المغالطات التي ركزها القسيسون والرهبان وبرامج التعليم والإعلام غير النزيه في أذهانهم. إنها صورة "فان دورن" الهولندي منتج فيلم "فتنة" المسمى للنبي صلى الله عليه وسلم، الذي عاد إلى رشده، بعد أن توضحت الحقائق لديه وأزيحت الغشاوة عن عينيه، عودة محمودة؛ فبعد أن كان عدواً لدوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح من محبيه، وبعد أن أنتج فيلمه الذي ضمنه كل تهمة شائنة أنتج فيلمه الجديد عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي لن تبلغها سيرة أي واحد ممن سجلوا حضورهم في التاريخ البشري. إن فان دورن يصرح بأنه قد تبين له أن ما كان يسمعه عن القرآن قبل إسلامه مخالف تماماً لما وجد فيه بعد اطلاعه عليه دون واسطة تشوه الحقائق وتضل الناس عن أن يعرفوا ربهم وما ارتضاه لهم، كما صرح بأن النظرة التي يقدمها الإعلام عن الإسلام فيركزها في أذهان الناس تحريف للحقيقة. ولذلك، فقد انتهى إلى تسطير توجيهاته بأن يبحث كل شخص عن الحقيقة بنفسه، وأن يتعلم الدين الصحيح من مصادره.

• المطلب الثاني: تفعيل الخطاب الدعوي يطهر النفوس من الكراهية

من خصائص الخطاب الدعوي الناجح إشراب محتوياته بمشاهد من الرقائق، فإذا وضع الخطاب الدعوي المفعل هذا المبتغى نصب عينيه فإنه يكون قد فتح الأبواب الموصدة وجعلها مشرعة إلى دواخل النفوس المخاطبة من لدنه. إن الرقائق ليست نوعاً واحداً وما هي بموضوع واحد، ولكنها لمسة تمتزج بالخطاب امتزاجاً يحوِّله إلى قول مؤثر في النفوس فيكسبها رقة خاصة، فيتفاعل في إنتاج تأثيرها المضمون والإلقاء والنبرات الصوتية والصدق والتقوى.

فإذا حرص الخطاب الدعوي على استحضار هذه العناصر المتفاعلة التي تؤتي أكلها كلما كانت مبنية على الصدق، فيتوق صاحبها إلى أن ينتقل خطابه بالنفوس إلى المصاف الإيجابية التي تبني المجتمع ولا تهدمه، وتدعمه ولا تحقنه بما يفتت أركانه ويبدد قواه، فإن عطاءه الإيجابي يكون غير مجذوذ، ونتاجه يكون محموداً إلى حد بعيد.

إن جماع الأمر يتركز في نقطة واحدة تتمثل في طهارة النفوس من الغل والحسد والتكبر والتعالي وأدران الكراهية المختلفة؛ ذلك لأن النفوس إذا تطهرت من هذه المنغصات التي تؤثر على أصحابها تأثيراً يجعلهم لا يرون في الآخرين إلا شراً ينبغي أن يزول، ويجعل نظراتهم تجاههم شراً يتطاير منها الشرر الحارق الذي إن لم تندلع به الحرائق المهولة يكن له أثر سلبي على مظاهر الحياة المختلفة.

فإذا استطاع الخطاب الدعوي أن يطهر النفوس من الغل والحسد فإنه يكون قد أسدى للإنسانية معروفاً لا يقدر بثمن. فإذا كان الغل والحسد يلتهمان العلاقات الإنسانية ويصيبانها بالتوترات والصراعات من كل جانب، فإنهما يلتهمان الحسنات التي يكون الإنسان قد وفرها ليوم لا يغني فيه مال ولا بنون.

وإذا وفق الخطاب الدعوي في انتشال النفوس من مستنقع التعالي والتكبر فإنه يكون قد أدى مهمة ليست كالمهمات؛ فيغلق بوابة ضخمة تلج منها الخزايا المختلفة إلى الحياة الإنسانية. ولكي يتمكن الخطاب الدعوي من أدائه هذا الإنجاز الجلل، فإنه يتوجب عليه أن ينبه على المصائر التي توصل إليها هاتان الصفتان الذميتان في الدنيا وفي الآخرة.

فإذا كان أثر هاتين الصفتين لا يتجاوز في الدنيا حدود سوء المعاملة مع الآخرين، والنظر إليهم نظرة احتقار وصغار، فإنه في الآخرة سم زعاف وأشواك نكدات. ولعل الصورة النفسية التي يشكلها الحديث النبوي عن الذين يعانون من هاتين الصفتين صورة تقشعر منها الأبدان وتهتز لها الأركان وتذوب لها القلوب خوفاً وحسرةً وكمداً. فقد روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

”يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: لَأَنَا الْمَلِكُ أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟“⁽³¹⁰⁾.

وبعد أن تسمع الخلائق كلها قول الحي القيوم سبحانه يحشر أهل الكبر الذين كانوا يتكبرون في الأرض بغير الحق فينظرون لغيرهم من الناس نظرة احتقار وهوان فيذوقون مما كانوا يذيقون غيرهم من أصناف الذل والهوان ما لا حصر له. فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ:

”يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسْأَلُونَ إِلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْثَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْحَبَالِ“⁽³¹¹⁾.

وأول شرط تقوم عليه طهارة النفوس من تلك العناصر السلبية أن ينشغل المرء بذاته، ويولي عيوبه ما تستحق من الفحص والتتبع حتى يتمكن من تطهير نفسه منها، وينصرف عن الانشغال بالآخرين، لأن هذا يمثل أولى الخطوات التي تخمد بها نار الكراهية. والمرء الحصيف يرى أن الخطاب الدعوي يمتلك من الزاد ما يكفيه لأداء هذه المهمة. فالمأثور من القول مما تتطهر به الفضاءات النفسية؛ قرأناً وسنة، يملأ التاريخ ويعمر المكان.

إن من ذلك أن يوظف الخطاب الدعوي ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

”يُبْصِرُ أَحَدُكُمْ الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِدْعَ أَوْ قَالَ: الْجِدْلَ، فِي عَيْنَيْهِ“⁽³¹²⁾.

310. رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ”لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي“، رقم: 7412 / 123، ومسلم في كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رقم: 2788، 4 / 2148، وأبو داود في كتاب السنة، باب فِي الرَّذِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ، رقم: 4732، 4 / 234، وأحمد، 9 / 304.

311. رواه الترمذي في صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، رقم: 260، 11 / 2492، 4 / 655، وأحمد، 11 / 260.

312. الزهد والرفائق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المزوني (المتوفى: 181هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم: 212، 1 / 70.

فينشغل المرء، لنقصه وحبه نفسه- حسب عبارة زين الدين بن تاج العارفين الحدادي في كتابه فيض القدير شرح الجامع الصغير- ”بتدقيق النظر في عيب أخيه فيدركه مع خفائه، فيعمى به عن عيب في نفسه ظاهر لا خفاء به“⁽³¹³⁾.

فالانشغال بعيوب الذات يعد مكسباً يحول بين المرء وبين أن ينصرف بعينه إلى عيوب غيره، فإذا تحقق هذا، فإن مدخلاً من المداخل التي تتأجج بها نيران الكراهية يكون قد أغلق بعد أن تكون شرراً لا يأبه كثير من الناس بها، إلا أنها بتأججها تفعل الأفاعيل وتأتي إليهم بكل سم زعاف. ولهذا، فإن محمد بن كعب القرظي- وقد كان ممن ينطقون بالحكمة- لخص فوز العبد بالخير في تميزه بثلاث خصال، فقال: ”إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، جَعَلَ فِيهِ ثَلَاثَ خِصَالٍ: فَقَهًا فِي الدِّينِ، وَزَهَادَةً فِي الدُّنْيَا، وَبَصَرًا بِعُيُوبِهِ“⁽³¹⁴⁾.

فكلما اتجهت عين المرء نحو عيوب الآخرين إلا وكان توجهها سبباً في إثارة الضغائن ودفع الناس نحو رد الصاع صاعين. وكلما غص المرء بصره عن تتبع العورات والكشف عن المثالب إلا وكان ذلك سبباً في اجتناب ما يولد الحزازات ويعكر صفو الحياة. وهو ما لخصه الإمام الشافعي رحمه الله بقوله⁽³¹⁵⁾: (الطويل)

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *** وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

فالخطاب الدعوي المفعّل، بما أوتي من مؤهلات إرشادية وتوجيهية، يتدخل لإزاحة الكراهية من النفوس وإبعاد خطابها من الألسنة، فيعتمد هذه المنطلقات ويستحضر هذه الشروط، فيفعل ذلك كله لعلمه بأن الكراهية وما حام حولها لا تبني مجتمعاً معافى؛ فتقسم الناس، وتجعل الأجواء مكهربة حتى تصل إلى الإيذاء والقتل وسفك الدماء.

313. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين بن تاج العارفين الحدادي (المتوفى: 1031هـ).

المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط 1، 1356، رقم: 9992، 6/ 456.

314. الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، رقم: 282، 1/ 95.

315. ديوان الإمام الشافعي (الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس)، إعداد وتعليق

وتقديم محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ، 157.

• المطلب الثالث: التطلع إلى بناء الأمة الإنسانية المتوادة

التطلع توقُّ نفسي نحو الأفضل واستشراف مستقبلي طلباً للانتقال من حال إلى حال أحسن منها. وهو في علاقته بموضوعنا إطلاقاً للبصر من أجل أن يتبين صاحبه الفرق الواضح بين أوضاع الكراهية التي تسود العالم، وخطابات الشنآن التي تُخطُّ بها مسارات العلاقات الرابطة بين بني الإنسان، فتوضع معالم الطريق وضعا لا يوصل إلى خير، وبين الأوضاع التي يرسمها الاستشراف المستقبلي؛ حيث تسود المحبة والمودة والإخاء.

والتطلع حينما يرتبط ببناء الأمة فإنه يهتم بتحقيق سعادة أفرادها، فالبناء غير الهدم، والسعادة غير الشقاء. والبناء رصٌّ للصفوف وتوحيد للكلمة وجمع للشتات، والسعادة ثمرة لذلك كله؛ حيث تنزاح الممارسات المنحرفة، سواء أكانت أقوالاً أم أفعالاً، عن مسارات الناس، فتسود الكلمة الطيبة، ويستقر الفعل الحسن استقراراً طيباً في الأذهان قبل أن يترجم إلى واقع مرئي رأي العين.

وقد تتعدد مفاهيم السعادة عند الناس تعدداً لافتاً؛ فيراها بعضهم متمثلة في الإباحية التي ينتشي بها من يعيشها حين تنفك عنه قيود الجد والرجولة، ويتحرر من كل أمر أو نهى أو توجيه إيجابي.

ومنهم من يراها متحققة في ما يدره الاعتداء على الآخرين من تفاعلات نفسية خاصة، تتحقق بها متعة ذات منزع نفسي معين؛ فالتلفظ بالألفاظ البذيئة في حق الآخرين، ومد اليد إلى ما يخص حياتهم بإلحاق الأذى وإحداث الثلوم في بناءات مشاعرهم وأحاسيسهم، في سادية مقيتة لا تمكن صاحبها من أن يرى في الحياة البشرية مجالاً للتفاعل الإيجابي وتحول بينه وبين التوق إلى السعادة التي يستظل بظلها الجميع.

ومنهم من يجد السعادة في وضع منقلب عن الوضع السابق انقلاباً جذرياً؛ فلا يجدها في إيذاء غيره ولكنه يجدها في إيذاء ذاته، فيسعى جاهداً نحو ما يثير الهموم والغموم لديه، ويحرص على إثارتها والإكثار من ذكره مستجيباً لعقدة مازوخية تمنحه فرصة التلذذ بتعذيب ذاته. وربما تجده قد انكب على ذاته بالسباب والكلام الفاحش وإبراز العيوب والمثالب والكشف عن نقائص الحياة التي يحياها. وقد صدق

الله العظيم حينما ذكر هذا موجها عباده إلى أنه مسار غير رشيد، فقال سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (11) (الإسراء: 11).

فالانتشاء الذي يحققه المرء ذو العقدة النفسية التي تجعله يتلذذ بقوله المنحرف، وإن كان صادراً عن توتر الأعصاب وغلbian الدم في العروق، فإنه يجد فيه متعة لا تضاهيها متعة في تلك الحال. وإذا خبا أواره وفتر زفيره فإنه يعود إلى التماس الخير لنفسه ولن دعا عليه من قبل. فهو "يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأني المتبصر" (316) - حسب عبارة الزمخشري في الكشف.

وفي ظل هذه التقلبات النفسية المتباعدة يجد الخطاب الدعوي مدخلاً حسناً لتوجيه الأحاسيس نحو السعادة السليمة المتوازنة التي ينشدها للناس أجمعين، فينطلق من كون أفراد المجتمع يشكلون بنياناً ينبغي أن يصلوا من خلاله إلى بناء اجتماعي متراس الأطراف، متفاعل الأركان، يشد بعضه بعضاً، تبعاً لما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" وَشَبَكَ يَنْ أَصَابِعِهِ (317).

والبناء الاجتماعي المرصوص يقتضي الاهتمام بالأطراف كلها وبالأفراد جميعهم مهما قل شأنهم وضوّلت قيمتهم، فهو - كما يشبّهه ابن بطال في شرحه صحيح البخاري - "كالجسد الواحد، وعلى المرء أن يسعى لصالح كل عضو من أعضاء جسده سعيه لبعضها" (318). لأن الحياة التي تتحقق بها السعادة للجسد كله لا تتحقق إلا حين يتمتع بتلك السعادة كل عضو من الأعضاء الداخلة في تركيبه.

ولا يمكن الوصول إلى السعادة الحقيقية إلا حين يهتم كل عضو بحاجيات غيره من الأعضاء، فيدله على ما يحقق راحته، مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ" (319)، ويحرص على إسداء المعروف لجميع مكونات المجتمع؛ القرية منها والبعيدة، مصداقاً لقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه:

316. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 2/ 651.

317. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، رقم: 2446 / 3 / 129، ومسلم في كتاب البر والصلوة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتغاطفهم وتغاضهم، رقم: 2585 / 4 / 1999، والترمذي في البر والصلوة، باب ما جاء في شفقة المشيم على المشيم، رقم: 1928 / 4 / 325، وأحمد، 32 / 400.

318. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 9 / 16.

319. رواه الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء "الدال على الخير كفاعله"، رقم: 2670 / 5 / 41.

”مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ“⁽³²⁰⁾.

وهو قول نبوي شريف يحث على وجوب إيصال الخير لكل من يعمر المكان؛ إنساناً أم حيواناً أم غيرهما.

وتمدنا مرجعيتنا الإسلامية بمشاهد أكثر مما مضى حين نفتش فيها عما يرتبط بموضوعنا المتعلق بخطاب الكراهية وما حام حوله؛ فتصريف هذا الخطاب النكد ظلم. والظلم ظلمات يوم القيامة. ولما كان رب العزة سبحانه وتعالى قد تأذن منذ الأزل بتحريمه الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً، مصداقاً لما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي، فقال:

”يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْنُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا“⁽³²¹⁾،

فإن الأمر يكون محسوماً منذ البداية.

ولذلك، فإن الشرع الإسلامي يلزم المسلم ببذل الجهد في نصرة المظلوم⁽³²²⁾؛ فيدفعه إلى حمايته من الإكراه البدني كما يدفعه إلى حمايته من ترويج خطاب الكراهية الموصل إلى ذلك. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

”انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا“،

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟

قَالَ: ”تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ“⁽³²³⁾.

320. رواه البخاري في كتاب المزارعة، باب قُطِلَ الزُّرْعُ وَالْغَرْسُ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، رقم: 2320، 3/ 103، ومسلم في كتاب الطلاق، باب قُطِلَ الْغَرْسُ وَالزُّرْعُ، رقم: 1553، 3/ 1189، والترمذي في الأحكام، باب مَا جَاءَ فِي قُطْلِ الْغَرْسِ، رقم: 1382، 3/ 658، وأحمد، 21/ 180.

321. رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: 2577، 4/ 1994، والترمذي في الزهد، رقم: 2495، 4/ 656، وأحمد، 35/ 294.

322. ولقد رأى علماء الأمة أن "نصر المظلوم فرض واجب على المؤمنين على الكفاية، فمن قام به سقط عن الباقيين، ويتعين فرض ذلك على السلطان، ثم على كل من له قدرة على نصرته إذا لم يكن هناك من ينصره غيره من سلطان وشيخه". ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، 6/ 573.

323. رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب أَعْنِ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، رقم: 2444، 28/ 128، والترمذي في الفتن، رقم: 2255، 4/ 523، وأحمد، 20/ 363.

إن الملاحظ أن حرص الشرع لا ينصرف إلى حماية المظلوم فقط، ولكنه يجتهد في إعادة الظالم إلى جادة الصواب؛ فالظالم - كما يوضح البيهقي - ”مظلوم في نفسه فَيَدْخُلُ فِيهِ رَدْعُ الْمَرْءِ عَنْ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ حَساً وَمَعْنَى“⁽³²⁴⁾. والسبب في ذلك هو الإشفاق على الظالم بالأمر الذي يرتكب ما يرتكب فيخضع للقصاص. ويوضح ابن بطال ذلك فيقول: ”لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أداه ذلك إلى أن يقتص منه“⁽³²⁵⁾.

ولكي تكتمل السعادة في نفوس أفراد المجتمع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم طالما وجه النفوس كلها لبذل الجهود نحو الاستقرار في مواقع معلمي الناس الخير، فدلها على الخير العميم الذي تفوز به إن هي بلغت تلك المبالغ، فقال صلى الله عليه وسلم: ”إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ“⁽³²⁶⁾.

فالسعادة المنشودة من لدن الخطاب الدعوي سعادة مستمدة من مقررات الدين الإسلامي الحنيف. وهي تتحدد في الأوضاع النفسية التي تجلب الطمأنينة والسكينة للمجتمع كله، وتنشر الرحمة في جنباته كلها، لأنها بناء نفسي يركزه الخطاب الدعوي في النفوس، فيكسبها الاستعدادات النفسية التي تجعلها تواقعة إلى بناء الأمة المتوادة المتراحمة في ما بينها، المتطلعة إلى ألا يستثنى منها من الفوز فرد من الأفراد.

324. نقلاً عن عمدة القاري، العيني، 12/ 290.

325. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 6/ 572.

326. رواه الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2685، 5/ 50، والطبراني في باب ”الصاد“، من اسمه الوليد بن جميل الدمشقي، رقم: 7912، 8/ 234.

الفصل الثالث: تعزيز التعايش المشترك في المجتمع الإنساني

المبحث الأول: توليد الرغبة في التعايش

• المطلب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل يستجلب نماذج التعايش من التاريخ

لتعزيز التعايش الإنساني المشترك مقتضيات كثيرة، تنطلق من توليد الرغبة في التعايش ولا تحط رحالها إلا عند تفعيل تلك المقتضيات في النفوس وترجمتها إلى واقع معيش، فتنزّل على حياة الناس وتصبح مرئية رأي العين.

ولكي نعرف ما يقتضيه توليد الرغبة في التعايش فإننا نحب أن نقف على المستويات التي يعبرها، فينتقل بها في النفوس من حال إلى حال أخرى غيرها. وأول تلك المستويات ما نراه متمثلاً في كون الخطاب الدعوي المفعّل يستجلب نماذج التعايش الإنساني من تاريخ المسلمين ويعرضها بين أيدي من يستهدفهم بخطابه حتى تتولد في نفوسهم الرغبة في تحقيق التعايش الإنساني المشترك.

والحق أن التعايش الإنساني الذي حققه المسلمون عبر تاريخهم الطويل لم يتحقق لدى أمة من الأمم عبر التاريخ كله. ولقد أفضنا في القول عن ذلك في كتابنا الموسوم بالتراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل. فلكي نعرف حقيقة ذلك التعايش الإنساني، فإنه "يتوجّب علينا استحضار ما هو مُمارَس في أيامنا الحالية على الأقليات في مختلف بقاع الأرض، فبأضدادها تُعرَف الأشياء؛ فالأقليات نَعرَف وضعها؛ إذ لا ربح تُحقّقه من ممارسة الديمقراطية ولا مردود، ولا استقلال بمناصب عُليا، ولا إحساس براحة نفسية، في ظل واقع لا تُسيّره إلا قوة الأغلبية"⁽³²⁷⁾.

إن الدين الإسلامي قبل أن يتحدث عن التعايش كما تتحدث عنه الفلسفات والنظريات الفكرية المختلفة، كان قد وضع لذلك أسساً وقواعد تضمّنّها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ حيث إنهما - كما يذكر الأستاذ طه جابر العلواني في أدب

327. التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، عبد السلام رباح، (صاحب هذا البحث)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب الأردن، عمان، ط 1، 2019، 130.

الاختلاف في الإسلام- ”ما حرصاً على شيء- بعد التوحيد- حرصهما على تأييد وحدة الأمة ونبذ الاختلاف بين أبنائها ومعالجة كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقة بين المسلمين أو يחדش أخوة المؤمنين“⁽³²⁸⁾. فاستحضر المآلات التي تؤول إليها حياة المجتمع إن تعرضت كلمتهم للتشتت، وخضعت وحدتهم للتفرق والاهتزاز.

ولكي تسير الوحدة متراسة الأركان متفاعلة الأطراف، فقد حدد القرآن الكريم من تجب ولايته، حتى لا يختلط من يستحق الولاية بمن لا يستحقها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنَّصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)﴾ (الأنفال: 72).

لقد كان لحرص الدين الإسلامي على وحدة المسلمين أثر بالغ في تفاعل الأجناس المختلفة التي كان المجتمع يتشكل منها؛ حيث وجدت أعراق وأجناس وألوان ولغات مثلها العرب والفرس والروم والأحباش والهنود والأمازيغ واليهود والنصارى وغيرهم كثير. وهو تفاعل يدفع المرء إلى التساؤل عن العوامل التي ساعدت على تحقيقه والسير بالأمة إلى الأمام في أمن وأمان. وإذا ظهرت في جسدتها اهتزازات هنا وهناك فسرعان ما يتدخل العقلاء لإخماد نيرانها وتخليصها مما دبره الأعداء.

ولذلك، فإن التفاعل الحضاري الإيجابي كان مهيمناً على مظاهر الحياة كلها؛ فنتجت حضارة متميزة، امتدت من المشرق إلى المغرب طامحة لأن ينتشر في ربوعها الأمن والأمان. وكان كل فرد من أفرادها يجتهد في أن يبذل قصارى جهده لأن يقدم ما يسهم به في صناعة وضع إيجابي يستفيد منه المسلمون.

ولا عجب إن ذكرنا في هذا السياق صورة أو صورتين مما تحقق به التفاعل بين المسلمين. وأولاهما تلك التي جاد فيها سلمان الفارسي في غزوة الخندق على المسلمين برأيه الفريد المتميز- وهو من الأقليات التي لا يؤبه بشأنها اليوم- فأشار على رسول

328. أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 8.

الله صلى الله عليه وسلم بأن يحفر الخندق، مستفيداً من الماضي في صناعة الحاضر، فقبلها النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يتردد في الأخذ بها، ولم يتأفف من أن من جاء بها واحد من الغرباء الأبعد.

وثانية الصورتين تتمثل في تلك التي تولّى فيها أهل الذمة المناصب العليا في الدولة⁽³²⁹⁾. وهو ما أشار إليه القرطبي بقوله: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان، باتخاذ أهل الكتاب كُتَبَةً وأمناء، وتسوّدوا بذلك"⁽³³⁰⁾، فتلوا مناصب مهمة في تسيير الدولة، فكان "منهم وزراء"⁽³³¹⁾، وأطباء⁽³³²⁾، ومتجمعون⁽³³³⁾، وولاة إدارة بيت المال⁽³³⁴⁾...⁽³³⁵⁾. لقد شدت هذه الصورة كثيراً من بني جلدة القوم من مفكري الغرب، فرأوا فيها محمداً ينماز بها الدين الإسلامي، ولولاها ما كان لهؤلاء القوم أن يظفروا بما ظفروا به من مناصب ووظائف. وبهذا الخصوص يقدم "صمويل أنتجر" شهادته عن اليهود في البلاد الإسلامية خلال القرن التاسع عشر فيقول: "إن اندماج اليهود بالمؤسسات الحكومية في الشرق، نهايات القرن التاسع عشر، كان نتيجة لحصولهم على المساواة في الحقوق"⁽³³⁶⁾.

إن تجليات التعايش في تاريخ المسلمين أكبر من أن تحصى وأوسع من أن تستقصى، وإنها كما تغطي الخط الزمني الإسلامي كله، فإنها تغطي المجالات الحياتية جميعها. وكل ذلك إنما كان منبثقاً عن الرؤية الحضارية التي يستهدف الدين الإسلامي أن يحترم الناس إليها في سيرونة حياتهم كلها.

329. لقد عرضنا لهذا الأمر في كتابنا: التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، 174، فذكرنا أنه "إلى جانب استفادتهم من التشريع، فقد صاروا يستفيدون من وظائف الدولة الإسلامية، على اختلاف في الآراء؛ فقد وُجد من يرى أن وظائف الدولة أماناتٌ للمسلمين، ولا ينبغي لغيرهم أن يطلع عليها، ووُجد إلى جانبه من تساهل في الأمر فلم يَر فيه بأساً".

330. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 4/ 179.

331. نذكر من الوزراء اليهود "حسداي بن شبروت" وزير عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة، و"إبراهيم التوستاري" (ق4هـ)، لدى الخلفاء الفاطميين، (ينظر: سوزنيا، جان شارل، تاريخ الطب: من فن المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتي، عالم المعرفة، العدد 281 (صفر 1423هـ، مايو 2002)، 67-116).

332. نذكر هنا "ابن حنين" بالمشرق، و"موسى بن ميمون" (ق6هـ)، بالمغرب، و"ابن زرزور" طبيب الغني بالله بن الأحمر، بالأندلس.

333. يذكر هنا "حنين بن إسحاق" شيخ المترجمين في عهد الخليفة المأمون.

334. يذكر "صمويل أنتجر" أن الحكام كانوا "يحرصون على تولية اليهود مهمة الإشراف على الشؤون المالية، لِمَا عُرف عنهم من خبرة في هذا المجال" (اليهود في البلاد الإسلامية، صمويل أنتجر، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مراجعة رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة، العدد 197، (ذو الحجة 1415هـ/ مايو/ أيار 1995م)، 51).

335. نحيل هنا على كتابنا: التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، 174-175. فمنه استقينا هذه الإحالات.

336. اليهود في البلاد الإسلامية، صمويل أنتجر، 53.

• المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعّل يرسم السبيل للمحاكاة والافتداء

المحاكاة إعجاب واقْتداء؛ فلكي تتحقّق المحاكاة لا بد من تحقّق مستوى من مستويات الإعجاب الذي يدفع صاحبه للاقتداء بالجهة المرغوب في الوصول إلى ما وصلت إليه، فهي تقوم على أسس نفسية قبل أن تتحقّق بها المشابهة بين الطرفين؛ المحاكى والمحاكى؛ ذلك، لأن المحاكاة في اللغة هي المُشَابَهَةُ⁽³³⁷⁾.

وإذا كان يظهر من جانب من جوانب مفهوم المحاكاة أنها ترتبط بالتقليد ارتباطاً وثيقاً، فإن ذلك يمثل مرحلة من المراحل التي تُتمثّل فيها الأفكار، وتُكتشف فيها الخبايا، وتُكتسب بها الدربة. وحينما يشدّ العود ويصير للسوق من القوة ما يكفي ويُعمّر الذهن في مدارج الوعي بحقائق ما يأتي وما يذر، فإن ما كان من قبل محاكاة تقوم على التقليد يغدو اقتداء متمثلاً من لدن الشخصية، فتتميّز به تميزاً يصبح ملمحاً خاصاً يميزها عن غيرها؛ ذلك، لأن معنى الاقتداء - كما يذكر ابن عطية في المحرر الوجيز - "اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة"⁽³³⁸⁾. وهو يربط المرء بغيره؛ إذ إنه - كما يقرر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن - هو "طَلَبُ مُوَافَقَةِ الْغَيْرِ فِي فِعْلِهِ"⁽³³⁹⁾.

وكما كان تأسس الاقتداء على الإعجاب قوياً، إلا وأحست الشخصية بكونها تنغمس في صفات المقتدى به حتى تغدو متقمّصة، تقمصاً لا إرادياً، لحركاته وانشغالاته وطريقة أقواله، كالذي كان يظهر على شخصيات الصحابة وبناء الجيل الأول. ومن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن زيد من أنه سأل حذيفة بن اليمان، هو وبعض أصحابه، فقال:

"سَأَلْنَا حُذَيْفَةَ عَنْ رَجُلٍ قَرِيبِ السَّمْتِ وَالْهَدْيِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَأْخُذَ عَنْهُ،

337. لسان العرب، مادة "حكي"، 14 / 191.

338. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2 / 318.

339. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 7 / 35.

فَقَالَ: "مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ" (340).

فإعجاب الصحابي الجليل برسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يبقه في المستويات الأولى التي يتبدى منها الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، ولكنه انتقل به إلى تمثل الصفات التي كان يتميز بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلاً واضحاً، فانتقل به إلى أن يمنح الآخرين إمكان ملاحظة التمثل القائم على الاقتداء المؤسس على الثقة بين المقتدي والمقتدى به. وقد كانت ثقة عميقة خلدت لنا السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي صوراً منها تطفح بالغرابة والتميز؛ حيث إنه- كما يقرر صاحباً علم النفس الاجتماعي أن "معرفة شخص آخر والإعجاب به تتطلب الثقة" (341).

والمحاكاة والاقتداء يرتبطان بموضوعنا من حيث إنهما مدخلان مهمان في توليد الرغبة في تعزيز التعايش الإنساني المشترك في المجتمع. فما يراد بهما سوى كونهما مرحلتين تنمو بهما تلك الرغبة بعد أن يعرض الخطاب الدعوي المفعّل بين أيدي مخاطبيه ما يكفي من النماذج الإنسانية التي حققت هذا المبتغى في تاريخ المسلمين، والتي تتخذ منارات هدى يقتدى بها في واقعنا المعيش لتحقيق ما حققت والانصراف عما انصرفت عنه.

فكلما كان التدبر في أحوال الأولين قوياً، كلما كانت نتائج الاعتبار من مساراتها ومآلاتها ذات مردود على الذوات الآتية؛ حيث يكون لِهَذَا النَّظَرِ- حسب عبارة محمد رشيد رضا في تفسير المنار- "أَثَرٌ فِي نَفُوسِنَا يَحْمِلُنَا عَلَى حُسْنِ الْأُسُوةِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَخْبَارِ تِلْكَ الْأُمَمِ فِيمَا كَانَ سَبَبَ السَّعَادَةِ وَالتَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ، وَاجْتِنَابِ مَا كَانَ سَبَبَ الشَّقَاوَةِ أَوْ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ" (342).

وقد وقف الباحثون منذ القديم على قيمة الاقتداء؛ فهل يكون من المفضل للأفضل دائماً، أم أنه يكون من هذا كما يكون من ذاك. وقد انتهوا إلى الحال الأخيرة؛

340. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم: 3762، 5/ 28، وأحمد، 412/38.

341. علم النفس الاجتماعي، وليم. و. لامبرت، وولاس. إ. لامبرت، ترجمة سلوى الملا، مراجعة الدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 3، 1413هـ، 1993م، 32.

342. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، 56/1.

ذلك لأنه قد دعي إليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل خلق الله تعالى- مصداقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه: ”وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ“⁽³⁴³⁾، فأمره رب العزة سبحانه بالاقتداء بالرسول الذين بعثوا قبله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾؛ حيث إنهم ”هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاز عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك.“ ”فبهدهم اقتده“⁽³⁴⁴⁾.

وكما أشاد القرآن الكريم بالذين يستمعون القول، باعتباره أوامر ونواهي، فيتبعون أحسنه، فجعل التمسك بأحسن الأقوال أفضل من غيره، فقد حث على الاقتداء بأفضل ثلة من المسلمين تمسكت بتلك الأوامر والنواهي، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (21) ﴿(الأحزاب: 21)﴾. كما حث على الاقتداء بكل من عض عليها بالنواجذ ممن كانوا قبلنا، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (المتحنة: 4).

لقد كان هؤلاء حريصين على تحقيق ما ينفع بني الإنسان أنى حلوا وحيثما ارتحلوا، وذلك بتوجيههم نحو ما ينفعهم في دنياهم وفي آخراهم. وهو ما يحقق التعايش الإنساني في أسمى صورته؛ إذ إن التعايش إذا لم يكن من ورائه نفع، ولم يحقق للإنسانية في حاضرها ومستقبلها ما ينتشلها مما هي فيه من كوارث وأحزان، فإنه يبقى في مستويات الهراء والفجاجة.

والاقتداء بهذه الفئة يقتضي تلمس المسارات التي عبرتها عبر التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات؛ فالتاريخ- كما ينبه على ذلك محمد رشيد رضا- أسُّ أساس بنى عليه القرآن الكريم دعوته؛ فكم ناداهم ”بِأَنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْأُمَمِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ هَذَا الدِّينُ؟“⁽³⁴⁵⁾، وكم حث مخاطبيه بأن يتدبروا في أحوال الأمم السابقة، وكم

343. رواه الترمذي في المناقب، رقم: 3610، 5/ 585، وأحمد، 19 / 451.

344. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 11 / 518.

345. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنال)، محمد رشيد رضا، 1/56.

دعاهم إلى اقتباس ما يستفيدون منه من ممارساتهم التي كانت بانية غير هادمة،
جامعة غير مشتتة.

فالخطاب الدعوي المفعّل لما يسخر هذه الإمكانيات التاريخية التي تمده بوقود
توليد الرغبة في التعايش الإنساني المشترك، عبر رسم السبيل للمحاكاة والاقتداء
بالنماذج البانية المحققة السّبق في هذا الجانب المهم من الحياة، يكون قد أدى دوراً
ليس بالهين في تعزيز التعايش؛ ذلك، لأن توليد الرغبة أس أساس يقوم عليه التعزيز
المنشود الذي إذا تشبّث به الإنسانية، فإنه يكون مركب نجاتها إلى الخلاص ومَعْلَم
هدايتها من التيه والضياع.

المبحث الثاني: تثبيت الرغبة في التعايش

• المطلب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل

يوظف مثبتات الرغبة في التعايش

إن إلقاء نظرة فاحصة على دواخل تثبيت الرغبة في التعايش الإنساني يكشف لنا عن القواعد والأسس التي يقوم عليها ذلك كله. وتدقيق النظر في تلك القواعد والأسس يبين لنا أنها ليست ذات طبيعة واحدة؛ فمنها النفسي ومنها المادي القائم على الممارسة. ونحب أن نقف عليها في الفقرات الآتية:

1. الدفع بالتي هي أحسن:

إذا كان الخطاب الدعوي ينطلق من توقٍ لتثبيت الرغبة في التعايش في نفوس مستهدفه بالخطاب، فإنه لا بد أن يكون حريصاً على رصد العوامل التي تمكن من الوصول لذلك المبتغى الجلل. والدفع بالتي هي أحسن ركنٌ ركين في مواصلة المسير الاجتماعي نحو تحقيق الأهداف المشتركة. وهو ذو منزع نفسي واضح؛ فالدفع بالتي هي أحسن ليس قولاً يلقي، وليس كلاماً يُخط باليمين في السطور ليُحتفظ به في القرائيس. وعودة إلى كيفية تنفيذ هذا الركن الأساس، تكشف عن أن ممارسه المتمثل لخلق عيش من التفاعلات النفسية الداخلية ما يكفي لمجابهة القوى العاتية؛ فقد يسمع كلاماً نابياً في حقه فيمنعه الدفع بالتي هي أحسن من أن يرد ببنت شفة من الكلام البذيء، وقد يستهدف بأذى فيفرض عليه بأن يغض الطرف عما استهدف به، ولا سيما إذا لم يكن الضرر بالغاً مبلغاً مؤثراً. ذلك، لأن مواصلة المسير في مجتمع يمثل أهله خليطاً متفاوتاً من حيث تأثيرات التنشئة التربوية الإيجابية، تقتضي أن يُعرض عن كثير مما يصدر عن الآخرين.

وليس عبثاً أن يأمر رب العزة سبحانه بالدفع بالتي هي أحسن، فيقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (34) (فصلت: 34). ومن ثم، فإن التمسك بما يديم الرغبة في تحقيق التعايش بين بني الإنسان، يتجاوز حدوده النفسية العائدة إلى الطبيعة البشرية، فلا يستقر إلا في المستويات المدرة للأجور التي لا حصر لها؛ حيث إن الدفع بالتي هي

أَحْسَنُ صَبْرًا. وقد قال الله تعالى بشأن الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾ (الزمر: 10).

ولنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم دروس وعبر نسترشد بها في حياتنا الآنية حتى تخف تفاعلاتنا النفسية غير السوية، ويهدأ أوار كراهياتنا التي لا تكاد تغفل جهةً من الجهات. ومن ذلك ما رواه أبو هريرة من "أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْجَبُ وَيَبْسِمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، غَضِبْتَ وَقُمْتَ،

قَالَ: "إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ" (346).

والحق أن من أراد لمجتمع أن يستمر في تحقيق وجوده في طمأنينة وسكينة؛ بعيداً عن كل اضطراب منغص، فإنه يتوجب عليه أن يغض الطرف ويدفع بالتي هي أحسن. ولقد صدق من قال (347): (البسيط)

لَوْ كُلُّ كَلْبٍ عَوَى أَلْقَمْتَهُ حَجْرًا *** لِأَصْبَحَ الصَّخْرُ مِثْقَالًا بِدِينَارٍ

ومهما ازداد تحمل تلك المتاعب النفسية، فإن المرء السوي يصير على شاكلة لا يكون عليها الآخرون، فهو يعطي ولا ينتظر عائداً، ويصبر ولا يتتبع بعينه من أين يأتي بالمردود؛ فهو كالشجرة تُرمى بالحجر وتُرمى بالثمر، ولكنه يحتسب ذلك كله ليكون له به من الأضعاف المضاعفة ما لا يحصى يوم لا ينفع مال ولا بنون.

2. تحمل الإساءة وعدم الاستجابة للاستفزاز:

من الأسس التي يقوم عليها تثبيت الرغبة في التعايش تحمل الإساءة وعدم الاستجابة للاستفزاز. وللخطاب الدعوي رصيد مهم جداً في تاريخ المسلمين وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مما يمثل هذا الجانب. ومن ذلك ما رواه خباب بن الأرت بقوله:

346. رواه أحمد، 15/ 390.

347. البيت مجهول القائل، وقد جرى مجرى المثل السائر.

”شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟

قَالَ: ”كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحَفِّرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَنْتَنَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ“ (348).

فالتاريخ يشهد أن المسلمين الأولين قد تعرضوا للظلم الشديد من أهل مكة وما حام حولها. ولقد كان صبرهم أعظم رسوخاً من رسوخ الجبال الرواسي، ولكن ضعف ابن آدم قد دفعهم إلى الإحساس بكون قوتهم لن تستطيع المقاومة أكثر مما تبدوا. ولذلك، فقد تقدموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم بالنصر والتمكين، أو ليدعو على القوم ليهلكوا فتخف وطأتهم عليهم.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يهدئ من روعهم بإجراءين اثنين؛ أولهما يقوم على المقارنة بين ما خضع له المؤمنون من الأقوام السابقة من التعذيب والتنكيل والأذى، فكانت تُحفر لهم الحفر وتوضع على مفارق رؤوسهم المناشير ويمشطون بأمشاط الحديد، فلا يرتد أحدهم، ولا يستجيب لضغفه الداخلي، فيمضي قدماً إلى حيث ينبغي أن ينتهي مسيره. ولذلك، فإن المخاطبين من الصحابة لا ينبغي أن يكونوا أقل قوة وتحملاً من السابقين. وَحَاصِلُ الْمَعْنَى - كما يذكر بدر الدين العيني في عمدة القاري -: ”لَا تَسْتَعْجِلُوا فَإِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَاسَوْا مَا ذَكَّرْنَا فَصَبَرُوا، وَأَخْبَرَهُمُ الشَّارِعُ بِذَلِكَ لِيَقْوَى صَبْرُهُمْ عَلَى الْأَذَى“ (349).

وثانيهما، إجراء يفتح باب الأمل في أعين السابقين الأولين؛ حيث يسود الأمل ويرتفع الخوف، وتكون السيادة لدين الله على الخلائق، فقال لهم مُقْسِماً على تحقق

348. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3612، 4/ 201، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب ”في الأسير يُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ“، رقم: 2649، 3/ 47، وأحمد، 34/ 536.

349. عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، العيني، 16/ 145.

هذا الأمر: ”وَاللَّهُ لَيُبَيِّنَنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءٍ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ“⁽³⁵⁰⁾.

وقد يقول قائل- كما أشار بدر الدين العيني- ”لَا مُبَالِغَةَ فِيهِ لِأَنَّهُمَا بِلَدَانِ مُتَقَارِبَانِ“⁽³⁵¹⁾. وإذا انصرفت الأذهان إلى صنعاء اليمن وليس إلى صنعاء الشام، فإنه ينبغي أن يُعلم أن التقارب بين المدينتين غير متحقق؛ ذلك، ”لأنَّ بَيْنَ عَدَنَ وَصَنْعَاءَ ثَلَاثَ مَرَاكِلَ، وَبَيْنَ حَضْرَمَوْتَ وَالشَّحْرِ أَرْبَعَةَ أَيَّامَ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدَنَ مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمَوْتَ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامَ“⁽³⁵²⁾.

إن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ليس كدعاء عامة المسلمين، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (النور: 63). ولو دعا- صلوات الله وسلامه عليه- على الكافرين دعوة واحدة لكان من شأنهم ما كان مع الأمم البائدة التي سَجَلَتْ حضورها في التاريخ، ولكن بنزول عذاب الله عليها لم تُسكن مساكنهم من بعدهم إلا قليلاً.

لقد صدق من سماه- صلى الله عليه وسلم- رؤوفاً رحيماً؛ فالوضع المأساوي الذي عاشه أصحابه رضي الله عنهم كان يدفعهم إلى طلب الفرج، ولكن رحمته بقومه الذين لا يعلمون كانت تدفعه إلى سَوْقِ كُلِّ مَا يَجْعَلُ الضَّائِقَةَ هِينَةً فِي عَيُونِهِمْ؛ فالصبر وإن كان مرأً فإنه يتحمل، ولكن الهلاك حسم للموقف وإغلاق لأبواب الأمل في وجه من يحتمل أن ينطق الشهادتين فينجو من النار والعذاب الأليم.

ولكن مثبتات الرغبة في التعايش الإنساني لا تستوي على سوقها إلا بحرص القيادة على توجيه الرعايا إلى التزامها في كل حال؛ سواء أكانوا يستقرون في مواقع الضعف أم خضعوا للتحويلات التي تفضي بهم إلى الاستقرار في مواقع القوة. وذلك ما

350. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3612، 4/ 201، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب ”في الأسير يُكْرَهُ عَلَى الْكُفْرِ“، رقم: 2649، 3/ 47، وأحمد، 34/ 536.

351. عمدة القاري، العيني، 16/ 146. هذا، وقد ذكر بعض شراح الحديث أن المقصود قد يكون متعلقاً بصنعاء الشام؛ فصنعاء تطلق على موضعين؛ ”أحدهما باليمن، وهي العظمى، وأخرى قرية بالغوطة من دمشق“. ينظر: معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، دار صادر، بيروت، ط 2، 1995م، 3/ 426. وقد نبّه العيني على أنه ”يُحْتَمَلُ أَنْ يُزَادَ بِهَا صَنْعَاءُ الزُّومِ أَوْ صَنْعَاءُ دِمَشْقَ: قَرْيَةٌ فِي جَانِبِهَا الْغُرَيْبِ فِي نَاحِيَةِ الرِّيَوةِ“. (ينظر: عمدة القاري، 16/ 146).

352. عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، العيني، 16/ 145.

نجد شاهده يوم فتح مكة؛ حيث إن المسلمين قد انتقلوا من أوضاع كانوا يُطاردون فيها ويُنفون من ديارهم وأبنائهم، إلى أوضاع أخرى صارت لهم السيادة فيها على البلاد والعباد.

لقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه "أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خَنْجَرًا، فَكَانَ مَعَهَا، فَرَأَاهَا أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خَنْجَرٌ،

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا هَذَا الْخَنْجَرُ؟"

قَالَتْ: اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ،

قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْتُلُ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ أَنْهَزُمُوا بِكَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ" (353).

إنها الرغبة في تحقيق التعايش الإنساني بين أفراد المجتمع جميعهم، وإن اختلفت عقائدهم وأعرافهم ولغاتهم. وإذا كان التعايش لا يتحقق إلا بثمن؛ فيفرض على المرء أن يصبر ويحتسب ويتحمل التصرفات الطائشة، فإن له مآلات عظيمة الشأن رفيعة المقدار على المجتمع كله؛ حيث يستفيد الجميع من التحولات التي يؤول إليها السلوك الرشيد والسياسة المتزنة.

إن ما ذكرناه من قبل بشأن ما رواه خباب بن الأرت، حين طلب السابقون الأولون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستنصر لهم، فساق إليهم ما يُهَوِّن من حدة المحن التي كانوا يلاقونها، كانت له مآلات عظيمة جداً عليهم وعلى المجتمع برمتة. وهو ما رواه عدي بن حاتم الطائي؛ حيث قال:

"بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ:

353. رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال، رقم: 1809، 3/ 1442، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في السلب يعطى القاتل، رقم: 2718، 3/ 71، وأحمد، 21/ 440.

”يَا عَدِيّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ؟“

قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا،

قَالَ ”فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الظُّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ،

قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَارُ طَيِّبِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ،

وَلَيْنَ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى،“

قُلْتُ: كِسْرَى بِنِ هُرْمُرْ؟

قَالَ: ”كِسْرَى بِنِ هُرْمُرَ، وَلَيْنَ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِصَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ (...)“

قَالَ عَدِيّ: فَارَأَيْتَ الظُّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ. وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بِنِ هُرْمُرَ وَلَيْنَ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ“⁽³⁵⁴⁾.

3. ممارسة الدعوة إلى الله بصدق بالسلوك قبل القول:

هل يظن ظان أن السيدة الفرنسية مريم بيترونين: ”Petronin“، التي كانت رهينة في أيدي بعض المقاومين في مالي، إنما أسلمت صدفة، أو اتبعت ملة الإسلام تحت الضغط والإجبار؟ إنها المعاملة الحسنة التي قلبت لديها المقاييس كلها، وفرضت عليها إعادة ترتيب قناعاتها ترتيباً آخر مغايراً لما كانت قد تلقنته في مدارس فرنسا أيام طفولتها وشبابها. لقد عاملها المقاومون معاملة إنسانية على الطريقة التي يأمر بها دين الله تعالى في ما يخص كيفية التعامل مع الأسير⁽³⁵⁵⁾.

354. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام رقم: 3595، 4/ 197، والترمذي في تفسير القرآن، باب ”ومن سورة فاتحة الكتاب“، 2953، 5/ 202، وأحمد، 30/ 196. وبالنظر إلى طول الحديث النبوي الشريف، فقد اقتصرنا على إبراد ما احتجنا إليه في هذا السياق.

355. ينظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=pyvWabO9pqQ&ab_channel=MariNew تاريخ الاطلاع: 2020/11/08.

وكذلك الشأن بالنسبة لمريم بوجطو⁽³⁵⁶⁾ التي أصبحت رئيسة لاتحاد طلبة جامعة السوربون⁽³⁵⁷⁾ - وهم الذين يقدر عددهم الإجمالي بـ 55600 طالب، ويقدر عدد الطلبة الوافدين على الجامعة من خارج فرنسا بـ 10200 بمعاملتها الحسنة، وبدفاعها عن مصالح الطلبة، وبسعيها الحثيث لتحقيق مطالبهم. وذلك كله يمثل دعوة سلوكية يعكسها الفعل والممارسة لا يمكن أن تضاهيها أي دعوة قولية كيفما كان نوعها.

ولننظر إلى أحد كبراء دولة جنوب أفريقيا وهو يحكي قصته المؤثرة مع أحد التجار الهنود؛ فقد كان الأفريقي طالباً جامعياً يتيماً معيلاً لأمه وإخوته، وكان مهيب الجناح قليل ذات اليد، فتقدم إلى التاجر الهندي ليقرضه شيئاً من المواد الغذائية مخبراً إياه أنه لا يقدر على تسديد القروض إلا بعد أن يحصل على راتبه الأول، فقبل الهندي وأخذ في كل شهر يسلمه ما يحتاج إليه.

وبعد مرور أعوام حصل الأفريقي على راتبه الشهري، فجاء إلى التاجر الهندي المسلم مستفسراً إياه عن المبلغ الذي في ذمته، فأجابه بكلمات هزت أركانه وجعلت عينيه مغرورقتين بالدموع. لقد قال له الهندي:

”ليس لنا في ذمتك شيء، فاصنع في غيرك من المحتاجين مثل الذي صنعناه فيك“!

ولنا في التاريخ شاهد وعبرة؛ فكم من مناطق العالم فتحت بالدعوة إلى الله بالأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن. فلنسأل بلاد جنوب شرق آسيا التي يقطنها الملايين من الناس، والتي أسلم أغلبها بتأثير التجار المسلمين الذين كانوا يوفون الميزان ولا يخسرونه، وكانوا يلتزمون بالعهود ويؤدون الأمانات، ويحسنون التعامل بالكلمة الطيبة والسلوك الحسن.

356. مريم بوجطو: Maryam Pougetoux فرنسية من أبوين كاثوليكين، اعتنقت الإسلام مع والديها، ومنعت من ارتداء الحجاب وهي تلميذة بالثانوي طبقاً للقانون الفرنسي، ولكنها ارتدته بعد التحاقها بالجامعة لأنه ليس ممنوعاً فيها. وقد تعرضت لمضايقات عديدة ممن يمارسون الكراهية ويروجون خطابها. ولعل أقرب صور ذلك أن تعلن إحدى النائبات في البرلمان الفرنسي انسحابها من اجتماع لأن ممثلة طلبة جامعة باريس مريم بوجطو Maryam Pougetoux تحضره وهي مُحجَّبة.

ينظر الرابط: <https://bit.ly/3utzWAV> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/02.

357. جامعة السوربون جامعة فرنسية تقع في باريس، تم تشكيلها من دمج جامعات باريس الرابعة وجامعة بيير وماري كوري (باريس السادسة). وهي منظمة في ثلاث كليات موزعة على ستة وعشرين موقعاً.

• المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعل يسوق الشواهد عن تثبيت الرغبة في التعايش

بعد أن توضح لنا من قبل أن الخطاب الدعوي يوظف مثبّات الرغبة في التعايش، فإننا نسعى جاهدين في هذه الآونة لأن نؤكد ما ذهبنا إليه، من خلال إيراد بعض الشواهد التاريخية التي يمكن أن يستند إليها هذا الخطاب من أجل تثبيت الرغبة في التعايش. فبعد أن تكون المثبتات المشار إليها في ما سبق قد ركزت في الأدهان، وتُمثّلت في الأحاسيس والمشاعر، وأصبحت جزءاً من التصور العام الذي ينطلق منه المرء في رسم معالم الطريق التي يهتدي بها في صناعة المستقبل الإنساني وإزاحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإنه لا مندوحة له من استجلاب المواقف التي عاشها الأسلاف في بناء علاقاتهم القائمة على التعايش والرحمة والصفح الجميل.

إن أول مشهد من تلك المشاهد التي يغصُّ بها التاريخ الإسلامي، والتي تعدّ قادرة على أن تكون نماذج يقتدى بأصحابها في أفعالهم ومواقفهم في بناء الحضارة الإنسانية المؤسسة على الرحمة والتواد، ذلك المشهد الذي يظهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم متسامحاً، دافعاً بالتي هي أحسن، بعد أن أخذت بعض نُوقه من لدن رجال من غطفان وفزارة. وهو ما يرويه يزيد بن عبيد عن سلمة؛ حيث قال:

”حَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ ذَاهِباً نَحْوَ الْغَايَةِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَةِ الْغَايَةِ، لَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قُلْتُ: وَيْحَكَ مَا بِكَ؟

قَالَ: أَخَذْتُ لِقَاحَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟

قَالَ: غُطْفَانُ، وَفَزَارَةُ.

فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ أَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا: يَا صَبَاحَاهُ يَا صَبَاحَاهُ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ حَتَّى أَلْقَاهُمْ، وَقَدْ أَخَذُوهَا، فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ، وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضْعِ.

فَاسْتَنْقَذْتُهَا مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبُوا، فَأَقْبَلْتُ بِهَا أَسْوَفَهَا“ (357).

إن النوق الضائعة المستردة نوق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن ملاحقة ابن الأكوع لرجال غطفان وفزارة كانت من أجل استرداد ما أوشك على أن يضيع من تلك النوق، فرماهم بالسهم ونضحهم بالنبال، بل إنه ما يزال يرغب في حشد من يصحبه لملاحقتهم والنيل منهم، فلقى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

”يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْقَوْمَ عَطَّاشٌ، وَإِنِّي أَعْجَلُهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا سِقْيَهُمْ، فَأَبْعَثْ فِي إِثْرِهِمْ“ (358).

إن الاستنفار واضح جلي، وإن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للانتقام ممن مد إلى ما يملك أيادي المكر والخديعة لها من المسوغات ما يكفي للإقدام عليها. ولكن المفارقة العجيبة أن يرى من لا يملك من النوق شيئاً مشمراً عن ساعده لملاحقة من فعلوا فعلتهم في نوق النبي صلى الله عليه وسلم، ويرى رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه مهدئاً روعه، رابطاً جأشه، دافعا بالتي هي أحسن من أقدم على إيذائه، فقال:

”يَا ابْنَ الْأَكُوعِ: مَلَكْتَ، فَاسْجَحْ إِنَّ الْقَوْمَ يُقْرَوْنَ فِي قَوْمِهِمْ“ (359).

لقد كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم- وهو المبعوث رحمة للعالمين- دعوة متجاهلة للسير قدما في سبيل الإيذاء، رغم أن مسوغات ذلك السير أكبر من أن يحاط بها، داعية إلى غض الطرف عن مد يده إلى ما لا يملك بعد أن استرد منه، مؤسسة لرؤية تجعل الصفح الجميل والدفع بالتي هي أحسن من أركانها التي تقوم عليها. وهي صفات ينبغي لمن ينشد التعايش الإنساني أن يلتزمها في حياته؛ فهي تظهر القلوب من الضغينة بعدم الإصرار عليها، وتزيح الأثقال النفسية التي يرصقها في الذهن الحرص على الانتقام.

ويشدنا إليه مشهد آخر من المشاهد العديدة التي يمدنا بها تاريخ المسلمين، والتي ستكون طوع يمين الخطاب الدعوي لتصريفها في تثبيت التعايش الإنساني. إنه

357. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب مَنْ رَأَى الْغَدُوَّ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَبَاحَا، حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ، رقم: 41/ 3041، 66/ 4، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غَزْوَةِ ذِي قَرْيَةٍ وَغَيْرِهَا، رقم: 1806، 3/ 1432، وأحمد، 41/ 27.

358. رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب مَنْ رَأَى الْغَدُوَّ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَبَاحَا، حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ، رقم: 41/ 3041، 66/ 4، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غَزْوَةِ ذِي قَرْيَةٍ وَغَيْرِهَا، رقم: 1806، 3/ 1432، وأحمد، 41/ 27.

359. التخریج نفسه.

مشهد يجمع بين أهل الأديان المختلفة؛ حيث يظهر الحرص على التعايش ممن كان دينه الإسلام ظهوراً واضحاً، ويبدو مد جسور التواصل بينه وبين غيره بجلاء. فقد روى مجاهد أن عبد الله بن عمرو "ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ" (360).

لقد ذكر شراح الحديث أن الرعيل الأول من المسلمين كان يستجيب لهذه الأخلاق الكريمة لأنه كان يراها ديناً قيماً مأموراً به من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد روى عبد الله بن عمرو أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" (361). ومن ثم، فقد كانت هذه الأخلاق واجبة في أول الدعوة الإسلامية- حسب عبارة ابن عبد البر في الاستذكار- "ثُمَّ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى بِالْخَيْرِ وَالسَّعَةِ فَصَارَتِ الضِّيَافَةُ جَائِزَةً وَكَرَمًا مَنُودِبًا إِلَيْهَا مَحْمُودًا فَأَعْلَاهَا عَلَيْهَا" (362). ولذلك، فقد كانوا يحرصون على التزين بها؛ فالمؤمن- كما يقرر ابن عبد البر- "يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ أَخْلَاقُهُ: قَوْلُ الْخَيْرِ أَوْ الصَّمْتُ، وَبِرُّ الْجَارِ، وَإِكْرَامُ الضَّيْفِ، فَهَذِهِ حَلِيَّةُ الْمُؤْمِنِ وَشِيْمَتُهُ وَخُلُقُهُ" (363).

إن حرصهم على مد الجسور بينهم وبين الجيران، وإن كانوا من الأبعد؛ ديناً وثقافة، فإن مواقف من سبقوهم من أهل الجاهلية كانت تحشرهم في باب المنافسة على الظفر بمكارم الأخلاق؛ فلا يليق أن يسبق الجاهليُّ المؤمنَ في التمسك بالأخلاق الفاضلة، ولا يجوز بوجه أن يفوته في الحرص على تحقيق التعايش مع الناس.

ولذلك، فإنهم كانوا يقارنون الوضع الذي يستقر فيه بعضهم ممن كانوا يتخلفون عن مواقع الريادة في هذه الجوانب الفاضلة، بأوضاع من سبقوهم من أهل الجاهلية،

360. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في حقِّ الجوار، رقم: 5152، 338/4، والترمذي في البرِّ وَالصَّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب مَا جَاءَ فِي حقِّ الجوار، رقم: 1943، 333/4، وأحمد، 38/11.

361. رواه الترمذي في البرِّ وَالصَّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب مَا جَاءَ فِي حقِّ الجوار، رقم: 1944، 333/4، وأحمد، 126/11.

362. الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمرى القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1421هـ - 2000، 368/8.

363. المرجع نفسه، 367/8.

فيقول بعضهم: "كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أَكْبَرَ بِالْجَارِ مِنْكُمْ. وَهَذَا قَائِلُهُمْ يَقُولُ⁽³⁶⁴⁾:

نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ *** وَإِلَيْهِ قَلْبِي يَنْزِلُ الْقَدْرُ

مَا ضَرَّ جَارٌ إِلَّا أَجَاوَرُهُ *** إِلَّا يَكُونُ لِبَابِهِ سِتْرُ

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزْتُ *** حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدرُ

فالخطاب الدعوي لما يستثمر هذه الإشارات، ويحدد للمستهدفين به مواقعهم في مقارنتها بمواقع من لا يندرجون في محاضن الإسلام والمسلمين، ولا ينتمون لصفوفهم فإنه يطبق عليهم آلية التربية بالنظير. ولذلك، فإن هذه الأخلاق ما تلبث أن تصل إلى دواخلهم النفسية لتجد مستقراتها المناسبة التي تتقهقر فيها الأحقاد، وتموت الضغائن، ويتولى خطاب الكراهية إلى الظل، وتورق الدعوات إلى تعزيز التعايش الإنساني المشترك في كل صعيد.

وإذا كانت هذه المشاهد التي تشد إليها الأبواب، مؤسّسة ذواتها على التسامح والتواد والصفح الجميل، فإن مشاهد أخرى كثيرة يوجّه فيها المسلمون من لدن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم نحو مد الجسور بينهم وبين أهل الثقافات الأخرى بدعوتهم إلى الاقتراب من محاضنهم الاجتماعية؛ أكلاً وشراباً ونكاحاً ومصاهرة. وهي تعد محطات أساسية يتحقق فيها التفاعل الاجتماعي العميق.

لقد نص القرآن الكريم على المدخلين السالفين من أجل تحقيق التعايش وتقريب الهوة بين أهل الثقافات المتقاربة المؤسسة على الأديان السماوية، فقال تعالى بخصوص الطعام والنكاح؛ مجيزاً أكل طعامهم من لدن المسلمين ومجيزاً أكل طعام المسلمين من لدنهم، ومجيزاً نكاح الكتابيات المؤمنات منهم: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾ (المائدة: 5).

فقد دفع القرآن الكريم في اتجاه التعايش مع أهل الكتاب المتمثلين في اليهود

364. المرجع نفسه.

والنصارى وهم الذين أوتوا التوراة والإنجيل، فدأنوا بهما أو بأحدهما⁽³⁶⁵⁾. وما كان ذلك، إلا لأن من يدين باليهودية أو النصرانية تحكمه شروط دينية في تذكية ذبائحه. ولذلك، فإن ذبائحهم أو جميع مطاعمهم، حسب بعض الآراء، هي جائزة للمسلمين⁽³⁶⁶⁾.

وإذا كان مدخل الطعام والإطعام مدخلاً ثقافياً عظيماً؛ حيث إن الهوات تُردم، والمسافات تطوى، والتواصل يتحقق، والتفاعل يسود واجهات اجتماعية وثقافية مختلفة، فإن مدخل النكاح والمصاهرة مدخل ذو بال؛ فبه تمتد جسور التواصل بين المجتمعات، وبه تتحقق الامتدادات التناسلية فتنتقل من محض اجتماعي ولا تستقر إلا في محاضن قد تبدو متباعدة في ما بينها، ولكنها بالنكاح والمصاهرة تصبح محضاً واحداً وأسرة واحدة؛ فتجد الخؤولة والعمومة مواقع فيها، فيصير الأبعاد أولي قربى، وتغدو الأواصر بين المتنافرين مؤسسة على التواصل والتواد، بعدما كانت مبنية على التدابر والإعراض.

وإذا كان تفعيل هذه المداخل كثير التجليات في تاريخ المسلمين مع غيرهم من أهل الثقافات المختلفة، فإن ذلك لم يكن يعني لديهم السعي وراء الذوبان ومحو الملامح؛ فالتعايش والتسامح والتواصل كلها مفاهيم كانوا يحرصون عليها ولكن من غير أن تقودهم نحو فقدان هوياتهم أو المساس بمقوماتها.

ولننظر في هذه الشواهد التاريخية التي تؤكد ما نذهب إليه. ومنها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما من أن المسلمين حين قدموا المدينة كانوا ”يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخَذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوْقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”يَا بِلَالُ قُمْ فَنادِ بِالصَّلَاةِ“⁽³⁶⁷⁾.

365. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 9/ 572-573.
366. وجدت في هذا الأمر آراء مختلفة؛ رأى أصحابها أنه يستوي في ذلك جميع النصارى. ولكن علياً رضي الله عنه ”استثنى نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر، وبه أخذ الشافعي“. ينظر الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 607. وسئل ابن عباس رضي الله عنه ”عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس. وهو قول عامة التابعين، وبه أخذ أبو حنيفة“. (المرجع نفسه).
367. رواه البخاري في كتاب الأذان، باب يذء الأذان، رقم: 604، 1/ 124، ومسلم في كتاب الصلاة، رقم: 377، 1/ 285، والترمذي في أبواب الصلاة، باب ما جاء في يذء الأذان، رقم: 190، 1/ 362، وأحمد، 10/ 425.

فالنبي صلى الله عليه وسلم- حسب ما جزم به ابن المنذر- ”كَانَ يُصَلِّي بِغَيْرِ أَذَانٍ مُنْذُ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ بِمَكَّةَ إِلَى أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِلَى أَنْ وَقَعَ التَّشَاوُرُ فِي ذَلِكَ“⁽³⁶⁸⁾. فكان المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة يتحینون الصلاة؛ ”أي: يُقَدِّرُونَ حينها ليأتوا إِلَيْهَا، وَهُوَ مِنَ التَّحِينِ مِنْ بَابِ التَّفَعُّلِ الَّذِي وَضَعَ لِلتَّكْلِفِ غَالِباً، وَالتَّحِينُ مِنَ الْحِينِ وَهُوَ الْوَقْتُ وَالزَّمَنُ“⁽³⁶⁹⁾. ولما وقع التشاور ”قَالُوا:

لَوْ اتَّخَذْنَا نَاقُوساً.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ لِلنَّصَارَى،

فَقَالُوا: لَوْ اتَّخَذْنَا بُقُوعاً،

فَقَالَ ذَاكَ لِلْيَهُودِ،

فَقَالُوا: لَوْ رَفَعْنَا نَاراً،

فَقَالَ ذَاكَ لِلْمَجُوسِ“⁽³⁷⁰⁾.

إن ذكرهم للبوق والناقوس ليبين ألا تشدد لديهم في الاستفادة مما يستعمله أولو الأديان الأخرى؛ طلباً للتعايش ومد الجسور. ولكن حرصهم على استعمال ما يميزهم عن غيرهم، هو ملمح دال على إيلاء تمييز الذات عن غيرها من الذوات ما يستحق؛ فالتعايش ومد جسور التواصل أمر مقرر في الدين والحفاظ على الخصوصيات أمر واجب لا يجوز بوجه التساهل فيه.

ومن جانب آخر، فمن خلال تقديم الاقتراحات بخصوص هذا الأمر الديني الجلل، تتبدى لنا مراتب المسلمين آنئذ في علاقتهم بغيرهم؛ فمن أقدم منهم لأول وهلة على اقتراح البوق أو الناقوس يلوح من خلال اقتراحه أن إدراكه لوجوب تمييز الحدود الفاصلة بين الثقافة الإسلامية وثقافات الآخرين لم يكن إدراكاً عميقاً. ومن احترام خصوصيات غيره وانصرف إلى البحث فيما يميزه عن الآخرين ولا يسبب لهم أضراراً دينية أو ثقافية، فقد كان مدركاً لما يقوم عليه الأمر كله.

368. فتح الباري، ابن حجر، 2/ 79.

369. عمدة القاري، العيني، 5/ 105.

370. فتح الباري، ابن حجر، 2/ 80.

ولننظر في مسارات الاقتراحات المعروضة؛ فحين اقترح الناقوس، فقال بعضهم:
”لَوْ اتَّخَذْنَا نَاقُوسًا“.

فقد دفع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاقتراح. فَقَالَ:
”ذَاكَ لِلنَّصَارَى“.

وحين اقترح البوق، فقال آخرون:
”لَوْ اتَّخَذْنَا بُوقًا“.

فقد اعترض النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى، فَقَالَ:
”ذَاكَ لِلْيَهُودِ“.

وحين اقترح رفع النار، فقالوا:
”لَوْ رَفَعْنَا نَارًا“.

أبان النبي صلى الله عليه وسلم عن خلل الاقتراح، فَقَالَ:
”ذَاكَ لِلْمَجُوسِ“.

فالنبي صلى الله عليه وسلم حين اعترضه على هذه الاقتراحات، فإنه لم يدعُ إلى رفض ما اقترحت وإبعاده، ولا إلى معاداة أصحابه، وإنما دعا إلى رسم معالم مميزة لدين المسلمين وثقافتهم؛ إذ إن التعايش، بقدر ما يعني مدًّا لجسور التواصل الإنساني ودعماً لأركانه، فإنه يعني الحفاظ على الملامح الثقافية المميزة لكل طرف من الأطراف.

ومن جانب آخر من جوانب المشهد السابق، فإن الاقتراحات السابقة دفعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن يقول لمن قدموها:
”أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُبَايِي بِالصَّلَاةِ؟“⁽³⁷¹⁾.

إنه- رضي الله عنه- بقوله هذا يعترض على الاقتراحات التي لا يتميز بها المسلمون عن غيرهم، ويقرر ما يضمن بروز ملامحهم المميزة. وذلك بيِّن من خلال دلالات

371. رواه البخاري في كتاب الأذان، باب يَدْعُ الْأَذَانَ، رقم 604، 1/ 124، ومسلم في كتاب الصلاة، رقم: 377، 1/ 285، والترمذي في أبواب الصلاة، باب مَا جَاءَ فِي يَدْعِ الْأَذَانَ، رقم: 190، 1/ 362، وأحمد، 10/ 425.

عناصر النظم وتفاعل أطراف الدلالة؛ فالهمزة- كما يقرر العيني في عمدة القاري- ”للاستفهام، وَالْوَاوُ لِلْعُطْفِ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَيُّ: أَتَقُولُونَ بِمُؤَافَقَتِهِمْ وَلَا تَبْعَثُونَ؟“⁽³⁷²⁾. بل إن بعض الدارسين رأى أن ”الْهَمْزَةُ إِنْكَارٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى، أَيُّ: الْمَقْدَرَةُ، وَتَقْرِيرٌ لِلْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ“⁽³⁷³⁾. فهو يرفض الاقتراح الذي يمحو ملامح المسلمين، فيجعلهم يجتمعون لصلاتهم باستعمال البوق أو الناقوس كما يجتمع اليهود والنصارى باستعمالهما، ويقرر اعتماد وسيلة لا تضر بأهل الأديان الأخرى؛ طلباً للتعايش الإنساني، ولكنها تضمن تمييز المسلمين عن غيرهم.

فالخطاب الدعوي حين يعرض هذه المشاهد وغيرها على المستهدفين به، فإنه يعرض بين أيديهم الخلفيات التي ينطلق منها والمقاصد التي ينشدها. ومن ثم، فإن ما استقر في الأذهان من أن المسلمين يمجّون التواصل ويعزفون عن التعايش، يُكشف عنه كلُّ ستر، وتبدو ادعاءاته للعالمين، فيتوضح للمتلقين كما يتوضح الصبح لذي عيّن، أن كل ما يروى عن المسلمين ودينهم من أوصاف تجعلهم غير متوافقين مع المسار الإنساني العام، إنما هي محض افتراء واختلاق وهراء.

إن التعايش يقتضي الأخذ بالقواسم المشتركة التي تجمع أبناء الإنسانية كلها، من غير أن يعزف عن الملامح المميزة؛ فالخصوصيات تفرض ألا تمحى كما يفرض التعايش الإنساني أن يتحقق. وحين نطل على ما وجهنا إليه القرآن الكريم، فإننا نجد سباقاً إلى تقرير هذا المبدأ الذي يجعل الإنسانية في سلام دائم ولا يمس مكوناتها بأذى يلحق ثقافات وخصوصياتها؛ فقد توجه إلى بناء العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، فقال الله تعالى بشأن ذلك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (64) ﴿آل عمران: 64﴾.

فالدعوة القرآنية، هاهنا، دعوة موجهة إلى قوم مخصوصين محددين في أهل الكتاب. وهم- كما يذكر الطبري في جامع البيان- ”أهل التوراة والإنجيل“⁽³⁷⁴⁾، أو

372. عمدة القاري، العيني، 5/ 105.

373. المرجع نفسه.

374. جامع البيان، الطبري، 6/ 483.

هم- كما يذكر الزمخشري- وفد نجران أو يهود المدينة⁽³⁷⁵⁾. وهي لا تستهدف منهم شيئاً آخر غير الاجتماع حول القواسم المشتركة الجامعة بينهم، متمثلة في كلمة جامعة شَتَاتِ الأَقْوَامِ، موجهة إليهم نحو معبود واحد؛ ذلك لأن ”الكلمة“، هنا، عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها“⁽³⁷⁶⁾. وهي المفسرة بقوله ﴿لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾⁽³⁷⁷⁾.

وقد يذهب ذهن امرئ إلى أن الشق الثاني من الآية الكريمة الذي ينهى المخاطبين عن أن يتخذوا لأنفسهم أرباباً من دون الله، يدخل في باب المساس بخصوصيات القوم، ولا سيما أن المقصود بالربوبية هنا هو عُزِير الذي يوصف بكونه ابناً لله تعالى عند اليهود، والمسيح الذي يعد ابناً لله سبحانه عند النصارى⁽³⁷⁸⁾.

ومن ثم، فإن التعايش الذي نريد، يقوم على القواسم المشتركة التي كانت تقوم عليها الأديان السماوية السابقة قبل تدخل الإنسان في تحريفها وتزويرها. وما ننعته بالقواسم المشتركة هو ما نعته القرآن الكريم بعبارة ”كلمة سواء“ التي تحيل على العدل والموضوعية. ”والكلمة العدل، هي أن نوحّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئاً“⁽³⁷⁹⁾.

وإلى جانب هذا التنبيه على سوء المسار، فإن القرآن الكريم ناقش معهم أساسيات اعتقاداتهم المنحرفة مرة أخرى، فقال الله تعالى بشأنها: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)﴾. وهو مشهد يضاف إلى غيره من المشاهد التي تبين أن الدعوة إلى التعايش فيه لا تقوم على إرضاء الأطراف الأخرى وإن كانت تند عما يرتضيه لبني الإنسان. فالحق أحق أن يتبع، والحرص على التعايش الإنساني لا يقوم على إبقاء الأوضاع على ما هي عليه، بغض الطرف عن الاختلالات السائدة في أي واجهة من واجهات الحياة؛ حرصاً على المصالح العامة لبني الإنسان أجمعين.

375. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 370-371.

376. المحرر الوجيز، ابن عطية، 1/ 449.

377. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 371.

378. المرجع نفسه.

379. جامع البيان، الطبري، 6/ 483.

ومن الصور العظيمة التي شدتني إليها كثيراً، تلك المتعلقة بقراءة اليهود كتابهم بالعبرانية ثم يفسرون ذلك للمسلمين بالعربية. ولما كانوا غير مأموني الجانب فقد التزم في حقهم نبي الله صلى الله عليه وسلم موقفاً عادلاً؛ فلم يمنعهم من قراءة كتاب دينهم، ولكنه أمر المسلمين بالألا يصدقوهم ولا يكذبوهم؛ ذلك لأن التعايش قواسم مشتركة فإذا تجوّزت أو استهدفت بسوء أخذنا بالأحوط. وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: ”كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾“ (البقرة: 136)“ (380).

إن هذا الإجراء الذي يتوقف به المسلمون عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم إجراء يلتزم العدل والحكمة تجاه ما بحوزة القوم؛ فقد يكون ما معهم صدقاً وقد يكون كذباً ووضعاً. ولكن العامل الحاسم في الأمر هو الجهل باللغة التي يترجمون عنها، فلما كان الأمر كذلك فقد وجب التوقف، ”فَلَا نَصَدِّقُهُمْ لِئَلَّا نَكُونَ شُرَكَاءَ مَعَهُمْ فِيمَا حَرَفُوهُ مِنْهُ، وَلَا نَكْذِبُهُمْ فَلَعَلَّهُ يَكُونُ صَاحِحاً فَنَكُونُ مُنْكَرِينَ لِمَا أَمَرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ“ (381).

وإذا كانت الصور الواردة في هذه الفقرات ترمي كلها إلى إبراز التعايش الذي كان يحرص عليه المسلمون مع أهل الثقافات المختلفة، فإن صوراً أخرى تكشف عن مخططات كان يضعها الأغيار لعرقلة التعايش وتدميره. وذلك ما يشهد به القرآن الكريم في سياقات كثيرة نورد منها قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران: 72).

فإذا كان التعايش قد شق طريقه وأخذ يبني معامله ويرسم أهدافه، فإن هذه الطائفة لم يرق لها أن ترى الأوضاع على الحال التي يسودها السلام والأمن وصفاء النفوس. ولذلك، فقد أخذت تضع مخططاتها التي تحول بين التعايش وبين أن

380. رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) (البقرة: 136)، رقم: 4485، 20 / 6.
وشعب الإيمان للبيهقي في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، رقم: 4842، 174 / 7.

381. عمدة القاري، العيني، 94 / 18.

يستمر. والهدف من ذلك كله يتجاوز أن يُقصد به الأقوياء من الصحابة الذين ذاقوا الأمرين وبلغوا في الحق عين اليقين، فيتحدد في خداع ”الضُعَفَاءَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِتَفْضِيلِهِ عَلَى الْوَتَنِ فِي الْجُمْلَةِ قَبْلَ أَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ، كَالَّذِينَ كَانُوا يُعْرِفُونَ بِالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ“⁽³⁸²⁾، حسب عبارة محمد رشيد رضا في المنار.

لقد كانت هذه الخطط تباغت المسلمين في كل مرة. ولقد كان مبعثها الأخبار والزعماء؛ فهم الذين كانوا يخشون على مواقعهم الدينية والاجتماعية. ولذلك فقد كانوا يدبرون المكائد تلو المكائد، وينصبون الفخاخ تلو الفخاخ. ولولاهم لآمن اليهود بأسرهم، مصداقاً لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ“⁽³⁸³⁾.

• المطلب الثالث: الخطاب الدعوي المفعّل يَخْتِمُ عَلَى تَثْبِيتِ الرِّغْبَةِ فِي التَّعَايِشِ

يعرض علينا القرآن الكريم مشهداً من أوائل المشاهد التي تبدت فيها الكراهية بجلاء متمثلاً في ما دار بين ابني آدم عليه السلام، فيحكي رب العزة سبحانه ما كان من شأنهما، فيقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30)﴾ (المائدة: 27-30).

إن الحوار الذي دار في المشهد حوار بين جلي؛ حيث تقدم المتحاوران بقربان إلى الله تعالى، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. ولقد كان هذا أصل الكراهية والحسد وتدبير المكيدة.

382. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 3/ 275.

383. رواه البخاري في كتاب المناقب، باب إثبات اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، حين قدم المدينة، رقم: 3941، 5/ 70، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة، رقم: 2793، 4/ 2151، وأحمد، 14/ 229.

وبعد أن فعل القاتل فعلته، فمد يده بسوء إلى أخيه فأزهق روحه وأراق دمه، جاء القصاص من الله تعالى، ليس منه فقط، ولكن من الناس أجمعين الذين يمكن أن يقعوا في هذه المخالفة الشنيعة، فقال سبحانه: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. فالحكم الإلهي يسري على الجميع، وإن كان ذكر بني إسرائيل، باعتبارهم قوماً مخصوصين، مختصاً بهم تغليظاً عليهم⁽³⁸⁴⁾، حسب عبارة القرطبي في الجامع لأحكام القرآن.

ولقد تساءل كثير من الدارسين عن وجه الشبه بين قاتل النفس وقاتل الكل، فانتبهوا إلى أنه لا يطرد من جميع الجهات، باستثناء ثلاث جهات ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز، فقال: "إحداها القود فإنه واحد، والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب (...) والثالثة انتهاك الحرمة، فإن نفساً واحدة، في ذلك وجميع الأنفس سواء، والمنتهاك في واحدة ملحوظ بعين منتهاك الجميع"⁽³⁸⁵⁾.

ومن ثم، فقد جاء الحكم مصرحاً به في كتاب الله تعالى، مقررّاً على الناس أجمعين. إلا أن المفسرين إن كانوا قد سلكوا ذلك المسلك في إيجاد التعليل الذي يقوم عليه حكم قتل الفرد مستمداً من قتل الكل، فإننا نرى أن التعليل الأقرب للصواب يتمثل في كون القتل تحقق حال بداية البشرية، وإذا كان ابنا آدم عليه السلام هما أصلاً هذه الأعداد الغفيرة التي عمرت الدنيا منذ البداية، وستعمرها حتى قيام الساعة، فإن المقتول قد انقطع نسله المساوي تقريباً للأعداد التي سجلت حضورها، والتي سيبقى توالدها مستمراً إلى أن يشاء الله. ولذلك، فإن قتل المقتول معادل لقتل نسله وهو ما يقارب هذه الأعداد. ومن ثم، فإن الحكم الإلهي المؤسس على الشبه بين قتل الفرد وقتل الكل حكم عادل تماماً.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما يختم على تثبيت الرغبة في تحقيق التعايش بين أبناء المجتمع يتحدد في تفعيل التشريعات والقوانين. فهي التي تبين للمظلوم حقه، وهي

384. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 6/ 147.

385. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 182.

التي تقرر للظالم مصيره. وحين يعلم كل ذي حق حقه، فإنه يصير قرير العين بما أمده به التشريع والقانون.

ومما يختم على تثبيت الرغبة في التعايش ليونةً المواقف. فكلما كانت المواقف يسيرة سهلة، وكانت الأذهان والنفوس غير متمسكة بما لديها تمسكا أعمى، فإن ذلك كله يجعل تثبيت الرغبة في التعايش في نفوس الناس مستقرا استقرارا طيبا، لا تشوبه شائبة ولا يقف في وجه الختم عليه عنصر ضار.

ولكي تتبين لنا حقيقة ما نذهب إليه، فإننا نحب أن نقف على الوجه المقابل لما ييسر الختم على الرغبة في التعايش في نفوس أفراد المجتمع، فإذا وجد من الناس من يتمسك برأيه تمسكا كزاً متصلباً، غير مسترشد بما رواه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

”يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تَنْفُرُوا“⁽³⁸⁶⁾.

بل إنه يتمسك بالطريقة التي تمسك بها قوم آخرون، فوصف رب العزة سبحانه حالهم بقوله: ﴿وَلَيْئِنْ أَنْتِئِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: 145)، فإنه يحول بين كل تعايش إنساني وبين أن يتحقق، ويقف في وجه كل استشراف مستقبلي يغدو به المجتمع في مصاف الرقي والازدهار.

وإذا كان التشبث بالرأي تشبثاً كزاً مقيتاً يحول بين تثبيت الرغبة في التعايش وبين أن يختم عليه، فإن ما يتحكم في نفسية صاحبه لكي تسلك هذا المسلك إنما هو الاستكبار وتضخم الأنا، فلا يقبل النصيحة ولا يأبه بالتوجيه الرشيد. ولذلك، فقد توعده الله تعالى بأخس المآلات وأخطرها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادُ (206)﴾ (البقرة: 206).

ومما يختم على تثبيت الرغبة في التعايش الحرص على ما ينفع؛ ذلك، لأنه ينبغي للمرء أن يكون كيساً فطناً، راصداً ما يحقق النفع الخاص والعام، وأن يتجرد من العواطف التي تشده إلى الإخلاق إلى ما أنتجه غيره وإن كان فاسداً. فقد وصفه رب العزة سبحانه وصفاً ينبئ بوقوعه في مسالك الشذوذ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا

386. رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتداولهم بالموعظة والعلم، كَيْ لَا يَنْفِرُوا، رقم: 69، 1/ 25، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وَتَرْكِ التَّنْفِيرِ، رقم: 1734، 3/ 1359.

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (170) ﴿البقرة: 170﴾.

فالحرص على ما ينفع ركنٌ من الأركان التي تختم على تثبيت الرغبة في نفوس أفراد المجتمع من أجل مواصلة المسير مواصلة طيبة سليمة. ولقد نطقت السنة بذلك نطقاً صريحاً؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:

”أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ“⁽³⁸⁷⁾.

فالحرص على ما ينفع توق إلى تحقيق المصلحة التي لا نريد أن يستحوذ عليها ”ظلمٌ ولا إجحاف؛ فنحن لا نريد لطاقة أن تضيع، ولا نريد لجهة أن تستفيد على حساب غيرها“⁽³⁸⁸⁾.

ومما ينبغي للخطاب الدعوي المفضل أن يحث خطاه من أجل أن يختم على تثبيت الرغبة في التعايش نشر المعلومات الإيجابية النافعة وعدم كتمانها. فكما كان الحرص على عدم احتكار المعلومات الإيجابية وجعلها رهن إشارة أفراد المجتمع جميعهم، فإن النفوس مطمئن للمحضن الذي توجد فيه، وإنها لتتوق إلى أن تسهم بما أفاء الله عليها به رداً للجميل وإسداء للمعروف حتى يستفيد منه المجتمع كله.

وقد تلوح علاقة عموم بخصوص بين ما نحن فيه وبين قول الله الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)﴾ (البقرة: 159-160)، فتمتد الجسور الواصلة بين الحرص على نشر المعلومات الإيجابية النافعة، وبين ما أنزل الله تعالى من البينات المتمثلة في ما بين من أمر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وصفته، والهدى المتمثل في ما أوضح لهم من أمره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم⁽³⁸⁹⁾.

387. رواه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالثقة وتزك العجز والإستغاثة بالله وتأميؤي المفايد لله، رقم: 2664.

388. وابن ماجه في كتاب في الإيمان وفوائد الصحابة والعلم، باب في القدر، رقم: 79، 1/31، وأحمد، 14/395.

388. البحث العلمي وأثره في التنمية الشاملة: من التآرجح بين التراث والتجديد إلى رصد المصلحة، الدكتور عبد السلام رباح (صاحب هذا البحث)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2018، 38.

389. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 3/249.

إن الفرق سيكون كبيراً بين من يجعل ما فيه نفع بين أيدي الناس ليستفيدوا منه، وبين من يكتمه ويطمس عليه ويبقيه متولياً إلى الظل؛ فهو- حسب عبارة القشيري في لطائف الإشارات- قد ”كاشفه الحق سبحانه بعلم من آداب السلوك، ثم ضنّ بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد، فاستوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قصّر فيه لما أخر من تعليم المستحق“⁽³⁹⁰⁾.

ومما يختم على تثبيت الرغبة في التعايش التمسك بما يضمن السلم العام؛ فالخطاب الدعوي سيجد مرتعاً خصباً في ما يمدّه به القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الدعوي من نصوص وشواهد كلها تحت على التزام ما يتحقق به السلم العام. والقرآن الكريم يوجه المسلمين توجيهاً صريحاً نحو هذا المبتغى، فيقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: 208).

إن المقصد من الدعوة إلى ”السلم“، أو ”السلم“، يتحدد في أن يدخل الناس جميعاً في الإسلام في انقياد واستسلام، بكليتهم؛ إذ كان ”السلم: الإسلام. والسلم: الاستخذاء والانتقياد والاستسلام“⁽³⁹¹⁾، وكانت كلمة ”كافة“ عند العرب ”بمعنى الجميع والإحاطة، فيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كُلِّهِ، أَيِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِهِ“⁽³⁹²⁾.

وقد وجد من المفسرين من نظر إلى المقصود بالآية من خلال السياق الذي وردت فيه؛ فقد جاءت مسبوقة بحديث عن المنافق وصفاته التي تدفعه إلى أن يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، فقال: ”أَعْلَمُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يُضَادُّ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمُؤَافَقَةُ فِي الْإِسْلَامِ وَفِي شَرَائِعِهِ“⁽³⁹³⁾.

ويعجبني قول القشيري في لطائف الإشارات حينما وقف على معنى الآية، فنظر إلى التزام السلم في اتجاهين؛ فهو عنده ليس نافعاً دائماً، وليس ضاراً دائماً، فنفعه

390. لطائف الإشارات، القشيري، 1/ 142.

391. لسان العرب، مادة ”سلم“، 12/ 295.

392. المرجع نفسه، مادة ”سلم“، 9/ 305.

393. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، 5/ 351.

وضرره يتحققان تبعاً للمقصود به، فقال: ”كَلَّفَ الْمُؤْمِنُ بَأْنَ يُسَالِمُ كُلَّ أَحَدٍ إِلَّا نَفْسَهُ، فَإِنَّهَا لَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ سَيِّدِهِ، فَإِنْ مَن سَالِمَ نَفْسَهُ فَتَرَ عَنْ مُجَاهَدَاتِهِ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْقِطَاعِ كُلِّ قَاصِدٍ، وَمُوجِبُ فَتْرَةِ كُلِّ مُرِيدٍ“⁽³⁹⁴⁾.

ومما يختم على تثبيت الرغبة في التعايش اعتبارُ الناس جميعاً سواسية، مصداقاً لما رواه أبو نضرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

”يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالْتَّقْوَى أَتَلَّغْتُ“،
قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ“⁽³⁹⁵⁾.

فإذا تدخل الخطاب الدعوي المفعّل بقوته، واستفاد مما يمده به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتوجه به إلى قلوب مخاطبيه ليحرك فيها ما لم يتحرك بعد، وليذكّرهما بما نسيته أو أعرضت عنه؛ سهواً وغفلة، أو تجاهلاً واستكباراً، فإنها آتئذ تعدل عما اقترفته أقوام أخرى حينما خاطبت رسل الله وأنبياءه بأخس العبارات، وواجهتها بما لا يليق من القول.

فلو أن أولئك الأقوام كانوا يؤمنون بسواسية الناس، ما كانوا ليقولوا لنبي الله نوح عليه السلام ما حكاه عنهم القرآن؛ حيث قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27)﴾ (هود: 27)، ولو أنهم كانوا يؤمنون بذلك ما كانوا ليسخروا منه حين صناعته السفينة، فقال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)﴾ (هود: 38).

فلولا انصراف الناس عن الإيمان بسواسية بعضهم ببعض ما كانت السخرية لتكون، ولولا انحرافهم عن جادة الصواب ما كانت المواقف لتتطور إلى ما لا تحمد عقباه، فيقال للأنبياء ومن كان على شاكلتهم، كما حكاه رب العزة سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم: 13).

394. لطائف الإشارات، القشيري، 1/ 171.

395. رواه أحمد، 38/ 474.

ومما يختتم على تثبيت الرغبة في التعايش التزام العدل والموضوعية؛ فالخطاب الدعوي المفعّل حينما يتخذه مركباً يجوب به واجهات الحياة، حاثاً على العض عليه بالنواجذ، مخوفاً من عواقب الانحراف عنه، فإنه آتئذ يكون قد قطع الطريق على خطاب الكراهية، فينضب الصَّيب الذي يمدّه بما ينتعش به ويتطور، وينقطع عنه الإمداد القائم على شذوذ الفكر وانحراف السلوك.

لقد أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم بالنتائج الوخيمة التي تؤول إليها أمة حين تمسُّكها بالانحراف عن العدل والموضوعية، فذلك الهلاك باعتباره نتيجة للتمييز بين الشريف والضعيف، فقال:

”إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ“⁽³⁹⁶⁾.

396. رواه البخاري في كتاب أَلَدِيْبِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الْغَارِ، رَقْمٌ: 3475، 4/ 175، ومسلم في كتاب الحدود، بَابُ قَطْعِ السَّارِقِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُمَّ عَنْ الشُّفَاعَةِ فِي الْخُدُودِ، رَقْمٌ: 8، 3/ 1315.

المبحث الثالث: تفعيل مقتضيات الرغبة في التعايش

• المطالب الأول: الخطاب الدعوي المفعّل

يدحر خطاب الكراهية إلى الأبد

للرغبة في التعايش الإنساني مقتضيات، ولا بد من تفعيلها للانتقال بالحياة العامة من منحدرات التردّي إلى ذرى الأخوة والتّواد. ومن تلك المقتضيات أن يطهر الفضاء الزماني والمكاني من خطاب الكراهية، اعتماداً لمبدأي التخلية والتحلية المقررين من لدن علماء الأمة؛ إذ لا جدوى من تعايش إنساني مجاور لكراهية تلفح الوجوه بلهيبها، وتزكم الأنوفَ رعونتها المتطايرة في الأرجاء.

ومن الوسائل المناسبة لتحقيق هذا الغرض النبيل أن يسخر الخطاب الدعوي المفعّل تسخيراً إيجابياً بعد إكسابه القدرة الكاملة على دحر خطاب الكراهية إلى الأبد. فإذا التزمت فيه شروط، وفعلت فيه آليات، فإنه يكون قادراً قدرة جبارة على تحقيق الأهداف التي ننشدها للإنسانية كلها. ومن ذلك، أن تكثف الدروس الفعالة ذات القوة التي لا تقف في وجهها الترهّات، والتي لا ينفق فيها الجهد والمال بدون طائل.

فإذا كانت مقررات الأمم المتحدة تنص على حث الخطى ومضاعفة الجهود في كل آن من غير توقف من أجل محاصرة هذا المرض الفتاك الذي يهدد الإنسانية كلها، فإن الأولى برفع شعارات تلك الدعوات وتنفيذها على الوجه الصحيح هو الخطاب الدعوي المفعّل؛ ذلك لأن المرجعية التي يمتح منها تحفزه لبذل الجهود تلو الجهود في سبيل جعل المجتمع سالماً مسلماً لا شيء فيه.

ومن بين ذلك أن نقرأ فيها القول التالي: "وتزايد عدد التعبيرات عن الكراهية والتحريض على العنف والتمييز والعداء في وسائط الإعلام الجماهيري وعلى الإنترنت هو تذكراً بأن الكفاح ضد التعصب هو مهمة عاجلة ودائمة على حد سواء"⁽³⁹⁷⁾.

بل إن تلك المقررات لتصف الوضع الإنساني، بهذا الخصوص، بأنه وضع مزر؛ حيث إن الجهود المبذولة فيه من لدن الحكومات لمكافحة خطاب الكراهية هي جهود

397. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 31.

ليست موجهة توجيهاً جيداً⁽³⁹⁸⁾؛ فهي قليلة المردود على الانتقال من الأوضاع السلبية السائدة إلى أوضاع إيجابية يطمح إليها الأسوياء من الناس.

فالخطاب الدعوي المفعّل بتوجيهه الدروس والمواعظ ونشرها على شبكات التواصل الاجتماعي نشرًا لا يستثني جهة من الجهات، ولا يهمل توظيف تقنية من التقنيات التي توسع فئات المستهدفين به، وتبلغ محتواه لمن يتوجه إليهم به، يكون قد حاز لنفسه التميز ورسم لذاته طريقاً يبساً في بحر لجيٍّ، طالما كانت الأعمال فيه تسير سيراً يخطب أصحابه خبط عشواء؛ فيُقصد في السير، ويتمسك بما تدله عليه المعالم الموضوعية في الطريق الرّشد.

إن مرجعية الخطاب الدعوي؛ قرآناً وسنة، مرجعية زاخرة بالمواد التي تدعم هذا التوجه وتحت عليه. ومن ذلك أن يعرض القرآن الكريم مقارنةً بين ما يحض عليه من أعمال الخير المختلفة التي يرد من بينها الصلح بين الناس والحيلولة بينهم وبين الوقوع في ما يفسد عليهم أمن حياتهم، وبين ما يسلكه غير المسلمين في ممارساتهم الحياتية المختلفة، فقال سبحانه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)﴾ (النساء: 114).

بل إنه في سياقات أخرى يتجاوز عقد المقارنة والمفاضلة بين ما تأتية المنظومتان وتحتان عليه، إلى توجيه الأمر إلى الناس توجيهاً صارخاً بعدم الإفساد في الأرض مهما كانت درجته، وبالإجابة إلى الله تعالى ودعائه والتذلل إليه خوفاً من انتقامه وطمعاً في رحمته التي وسعت كل شيء، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)﴾ (الأعراف: 56).

وتبدو المرجعية مرة ثالثة، بعد المقارنة والتعميم، قاصدة إلى بيان قيمة الوقوف في وجه ما يحول بين الناس وبين أن يحققوا الألفة والتواد في المجتمع؛ حيث يظهر في مرتبة أعلى من الصيام والصلاة والصدقة - وهي الأركان التي يقوم عليها الإسلام إلى جانب الشهادتين والحج - منبهاً إلى أن عدم التمكن من الوصول إلى هذه البغية، أو

398. المرجع نفسه، المادة: 32.

العزوف عنها، سيوصل المجتمع إلى ما لا تحمد عقباه؛ فقد روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

”أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مَنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟“

قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ،

قَالَ: ”إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ“ (399).

وإذا كانت الجهات المشرفة على سير العالم لم تستطع أن تحدد درجة الإيذاء التي بسببها يكون خطاب الكراهية جرمًا، فإن الخطاب الدعوي له من المقومات التي تمكنه من تحديد ذلك ما لا حصر له؛ فقد ورد في المادة (43) من إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الخاص بتعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، أن الدعوة للكراهية على أسس قومية أو عرقية أو دينية لا تشكل جرمًا في حد ذاتها، ”ولا تصبح هذه الدعوة جرمًا إلا عندما تشكل أيضًا تحريضًا على التمييز أو العداوة أو العنف، أو عندما يسعى المخاطب إلى إثارة ردود أفعال من قبل المخاطبين“ (400).

ولنقارن بين القانون الذي لا يعدُّ الدعوة للكراهية على أسس قومية أو عرقية أو دينية جرمًا، لأنه يستعصي عليه تحديد درجة الفعل التي تسمح له بإدراج الفعل في خانة الجرائم، وبين مشهد تاريخي من المشاهد التي تدل على تدخل الشرع الإسلامي من أجل تجريم الفعل المعبر عن الكراهية على أسس قومية أو عرقية أو دينية.

لقد ثبت في تاريخ المسلمين وقوع خصام بين أبي ذر الغفاري وبين بلال رضي الله عنه، فتحركت في نفس أبي ذر أخلاقه المركوزة فيها قبل إسلامه؛ انتصاراً للذات، واستجابة للانتماء للأشراف، واحتقاراً لمن كانوا محتقرين في المجتمع الجاهلي. إلا أن نفس بلال رضي الله عنه تحركت دواخلها من أجل الوقوف في وجه هذا التصرف الذي طالما لاقى في سبيل دحره ما لاقاه من سيده في الجاهلية أمية بن خلف، فشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

399. رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في إصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، رقم: 4919، 280/4، والترمذي في صِفَةِ الْفَيَافَةِ وَالرِّفَافَةِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم: 2509، 663/4، وأحمد، 499/45.

400. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: (43). هذا، وقد شدد المقرر ”على أن الحالات الجسيمة والمتطرفة من التحريض على الكراهية، التي تتجاوز العتبة المكونة من سبعة أجزاء، هي وحدها التي ينبغي تجريمها“. والأجزاء المقصودة هي الواردة في المادة (44). وهي: الكراهية، والازدراء، والدعوة، والتحريض، والتمييز، والعداوة، والعنف.

إن النبي لم يحرك من بنود القانون ما لم يتحرك في سبيل مواجهة هذا التصرف، ولم يبد تهيئاً من إصدار حكمه الذي كان مقتصرأ على وصف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بأوصاف تلفظها البيئة الإسلامية الجديدة. فما كان منه إلا أن قال له مؤنباً إياه:

”يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ“⁽⁴⁰¹⁾.

فوقعت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم من نفس أبي ذر موقعاً زلزل أركانها وهذَّ جنبات نفسه التي كانت ترى غيرها أحقر منها، وتعامل مهیضي الجناح معاملة السادة الأشراف للعبید ومسلوبي الحرية. فالقول النبوي وصف ليس كالأوصاف، وهو حكم ليس كالأحكام. ولذلك فقد دارت الدنيا دورتها التي صار موقعه منها في غابر الأزمان التي كان الظلم فيها سائداً، وكان الشريف يزدرى أخاه المستضعف ولا يجد المجتمع في فعله شذوذاً ولا غصاصة.

ولكن التربية التي تلقاها أبو ذر الغفاري من رسول الله صلى الله عليه وسلم ستفرض عليه أن يقيم الحد على نفسه؛ فلم ينتظر إصدار قانون ولا نُطق محكمة بحكم، فوضع وجهه على الثرى، وقال كلمته التي يهتز لها التاريخ كلما ذكرت:

يا بلال، إنني لن أرفع رأسي حتى تطأ عليه بقدمك؛ طأطأة لهذه النفس المستكبرة. لقد صار بلال في موقع قوة بعد أن أصدر النبي صلى الله عليه وسلم وصفه، وبعد أن أصدر أبو ذر الغفاري حكمه على نفسه، وكان بإمكانه أن يستجيب لنزوة نفسية ترد له الاعتبار، ولكن الأخلاق الرفيعة ذات الحصون المنيعة منعه من أن يفعل فعلاً لا يليق بمسلم، فقال كلمته التي ما زال صداها يتردد في فضاءات الزمان:

ارفع رأسك يا أبا ذر، فوالله لن تطأ قدمي وجهاً سجد لله.

لقد كان للتربية النبوية التي كانت توجه المسلمين نحو ترسيخ المحبة بينهم أثر بالغ في إخماد نيران هذه الحادثة؛ ”فلولا المحبة التي كان فعلها مهيمنا على قلبي أبي

401. رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب المقاصي من أمر الجاهلية، وَلَا يَكْفُرُ صَاحِبُهَا بِإِثْمِهَا إِلَّا بِالشَّرْكِ، رقم: 30، 1/ 15، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وَلِئَابِسِهِ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يَكْلَفُهُ مَا يَحْلِيهِ، رقم: 1661، 3/ 1282، وأبو داود في كتاب الأدب، باب في حق المملوك، رقم: 5157، 4/ 340، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الإخسان إلى الخدم، رقم: 1945، 4/ 334، وأحمد، 341/ 35.

ذر الغفاري وبلال رضي الله عنهما، ما كان للصالح بينهما أن يجد طريقه الممهد، ولا سيما بعد أن نال من أمه فعيّره بها فطفت على صفحته راسبُ الجاهلية التي لقي المسلمون ما لقوا في دحرها وإبادة مظاهرها“⁽⁴⁰²⁾.

ومن جهة أخرى، فإن للخطاب الدعوي مرتعاً خصباً في استثمار مجال الجهر بالحق والصدق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك لأن الحال التي يؤول إليها التزام هذه المبادئ حال لا تتحقق إلا في مجتمع يسلك ما يسلكه المجتمع المسلم منها؛ فطالما عيّر القرآن الكريم بني إسرائيل ووصف فعلهم بالخساسة والدناءة لما كانوا يَمرون على المنكر ولا يتناهون عنه، فقال الله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)﴾ (المائدة: 79).

لقد وجد الإمام الطبري في الآية قسماً من الله تعالى، فقال: ”وهذا قَسَمٌ من الله تعالى ذكره. يقول: أقسم: لبئس الفعل كانوا يفعلون، في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تعالى ذكره، وركوب محارمه، وقتل أنبياء الله ورسله“⁽⁴⁰³⁾. والتناهي عن الأمر- كما يذكر الزمخشري في الكشف- هو الامتناع والترك؛ حيث ”يقال: تنهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه“⁽⁴⁰⁴⁾. والقسم من الله تعالى لا يكون إلا على أمر جليل عظيم. فقد كانوا- كما يوضح ابن عطية في المحرر الوجيز- ”يتجاهرون بالمعاصي. وإن نهى منهم ناه فعن غير جد، بل كانوا لا يمتنع الممسك منهم عن مواصلة العاصي وموأكلة وخطته“⁽⁴⁰⁵⁾.

إن هذه السبيل التي كان بنو إسرائيل يسلكونها انتهت بهم إلى عاقبة غير محمودة، أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقتها، فقال في ما رواه عنه أبو عبيدة رضي الله عنه: ”فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ“ فَقَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

402. عقيدة التوحيد وأثرها في إتيان العمل والإبداع فيه، الدكتور عبد السلام رباح (ماحب هذا البحث)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2019م، ص: 25. وقصة أبي ذر وبلال رضي الله عنهما معروفة، وللمزيد من معرفة تفاصيلها يُرجع إلى الجامع الصحيح للبخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم: 6050، 16/8.

403. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 10/ 496.

404. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 667.

405. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 224.

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٤٠٦﴾ فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: 81). قَالَ: وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ:

”لَا، حَتَّىٰ تَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ فَتَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا“ (406).

لقد اهتز الزمخشري للتحويلات التي أصابت التزام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقارن ارتباط المسلمين في أيامه بهذا المبدأ العظيم، فوجد أن البون قد اتسع بين الطرفين، ورأى أن الحرص على تفعيله في حياتهم قد أصابه الضعف والخوف من كل جانب، فقال: ”فيا حَسْرَةً على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلة عبثهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب“ (407). رغم أن الإجماع عليه - كما يذكر ابن عطية في المحرر الوجيز - ”واجب لمن أطاقه، ونهى بمعروف، وأمن الضرر عليه وعلى المسلمين، فإن تعذر على أحد النهي لشيء من هذه الوجوه، ففرض عليه الإنكار بقلبه وألاً يخالط ذا المنكر“ (408).

إن الهزة التي أصابت الزمخشري بهذا الخصوص، وهو واصف لحال المسلمين في القرون الأولى، ستكون أضعافاً مضاعفة لو أنه اطلع على حالنا اليوم؛ فقد أصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما لا يفكر فيه، بل مما يُنهى عنه لأنه يجرُّ الويلات على من اقترفه.

وهناك جانب آخر من الجوانب التي ينبغي إيلاؤها ما تستحق من العناية لدحر خطاب الكراهية إلى الأبد. وهو ذلك المتعلق بالتوظيف السياسي لما يثير الضغائن ويولد الأحقاد ويدفع الإنسانية نحو التنافر والتدابير.

إن هذا الأمر ملاحظ في مشاهد كثيرة لما يكون الإسلام والمسلمون في الواجهة، أو لما تُختلق لهم قضية تناسبهم لتوجيه الضغائن تجاههم وتأليب القلوب عليهم.

406. رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم: 4336، 4/ 121، والترمذي في تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة المائدة، رقم: 3048، 5/ 252.

407. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 1/ 667.

408. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 224.

وقد تكون الشهادة، بهذا الصدد، ذات قيمة لما تكون صادرة عن جهات بعيدة عن الإسلام والمسلمين.

ومن ذلك ما تعانيه فرنسا في هذه الأيام من موجة كراهية تلتفح أطرافها، وتثير الضغائن بين أبنائها والوافدين عليها. وكل ذلك بفعل السياسة المعوجة التي لا تهتم لحال المجتمع بقدر ما تهتم لنتائج الانتخابات؛ فمن يستقرون في الظل ينبغي إرضائهم ببذل المزيد من الجهود في محاصرة الإسلام والمسلمين.

لقد نادى الرئيس الفرنسي بأعلى صوته بأن يحاصر الدين الإسلامي الحنيف، فجمع أمره وشركاه من أجل الإصرار على استفزاز المسلمين بإعادة البحث في نفايات الصحافة الفرنسية عن الصور المسيئة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشرها في وسائل الإعلام كلها، فاستجاب كل خفيف عقل لدعوته التي تشتت شمل المجتمع الفرنسي ولا تجمععه، وتفرقه ولا توحيده، فكانت الطامة الكبرى حين تم القتل وإزهاق الأرواح، فوقف على القبر أمام أربعمائة شخص، فقال، من غير أن يستشرف مستقبل كلماته غير المتزنة: ”سنظل مدافعين عن الحرية التي كنّا نعلمها، وعن العلمانية، ولن نتخلّى عن نشر الرسومات الساخرة، وسنمنح الشباب الفرنسي كل الفرص التي تسمح بها الجمهورية من دون أي تمييز“⁽⁴⁰⁹⁾.

إن مروجي الكراهية لم يستطيعوا إظهار صورة المتهم بقتل الضحية. ولذلك، فإنّ المعتقّد أن القتل مُدبر من لدنهم، مرادٌ منه وصمُّ المسلمين بالعبث بأرواح المواطنين. وهو ما احتج به مسلمو فرنسا فطالبوا بإظهار ما يثبت الدعوى؛ حيث إن من وجه التهمة لم يستطع نشر صورة المتهم، فلفق التهمة ومحا آثارها، بغية إثارة الفتنة وترويج الكراهية والدفع بالمجتمع إلى الهاوية⁽⁴¹⁰⁾.

ومن الإجراءات التي تقطع دابر الكراهية وتبيد خطابها إلى الأبد التنسيق مع القيادات الدينية؛ فالقيادات الدينية هي التي تتولى توجيه الناس وتسهم في تشكيل الرأي العام، وهي التي تعلو المنابر وتستقل بكراسي الوعظ وتنتشر في كل مكان.

409. لقد أصبح هذا الموقف ثابتاً لدى كثير من الذين ينظرون إلى الحادثة بعقل وروية في فرنسا.

ينظر الرابط: <http://bit.ly/2MAze3P> - تاريخ الاطلاع: 2020/10/24.

410. ينظر الرابط: <https://bit.ly/2NqJH1T> - تاريخ الاطلاع: 2020/10/24.

ولذلك، فإن التنسيق معها وإشراكها في مواجهة هذا الخطر الداهم يعد من أوجب الواجبات، ولا سيما تلك القيادات التي تلتزم شرع الله وتستحضر الشروط المحيطة والأبعاد التي تؤول إليها تفاعلات الأقوال والأفعال، في التزام بالوسطية التي أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بها.

ولننظر إلى تدخل هذه القيادات الدينية الحكيمة لإيقاف تطورات حادث من الأحداث التي تعبر عن كراهية دفينية في نفوس بعض المناوئين للمسلمين في أوروبا، والتي تفاعلت تفاعلاً شديداً ما لبث أن استهدف القرآن الكريم، فنظمت مظاهرة من بعض من يركبون هذه المراكب التي تضر بالإنسانية ولا تنفعها، والتي تولّى كبرها اليمينيُّ الدنماركي راسموس بالودان؛ فقد ”رتب لمشاركة في فعالية بصحبة دان بارك، يتم خلالها حرق مصحف ملفوف في لحم الخنزير المقدّد. وهو ما فعله عدة مرات في الدنمارك“⁽⁴¹¹⁾. ولقد أنجز ما وعد به؛ ففي يوم الجمعة 28 أغسطس 2020، فوجئ المسلمون بواقعة حرق المصحف الشريف وركله على أيدي متطرفين، وتصوير ذلك⁽⁴¹²⁾.

لقد تدخلت القيادة الدينية متمثلة في سعيد عزام رئيس المجلس السويدي للإفتاء من أجل تنبيه المسلمين إلى الخلفيات التي توجه مقترفي الجريمة⁽⁴¹³⁾. كما أن الداعية عثمان عثمان نبه على أن مروجي أفعال الكراهية إنما يستدرجون المسلمين للقيام بأعمال تحكمها العاطفة، فيخربون ويحرقون ويضربون، فتشوه صورة دينهم لدى من يكتفي بالحكم على المظاهر، فيتّهمون بكونهم ظالمين وهم مظلومون، فينصحهم باللجوء إلى القانون؛ فالسويد تعترف بالقانون ولا تعترف بغيره⁽⁴¹⁴⁾.

ومن صور تدخل القيادات الدينية التي ندعو إلى إشراكها في عمليات التوجيه والحوار من أجل دحر خطاب الكراهية إلى الأبد ما قام به الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين؛ حيث رد على الفعل الشنيع بالحكمة والموعظة الحسنة، فنشر الخبر في بيانه

411. ينظر الرابط: <https://bit.ly/3q1JT4X> - تاريخ الاطلاع: 2020/11/17.

412. ينظر الرابط وتاريخ الاطلاع نفسها.

413. ينظر الرابط وتاريخ الاطلاع نفسها.

414. ينظر الرابط وتاريخ الاطلاع نفسها.

الصادر بالمناسبة التي تَنزُّ كراهيةً وحقدًا حتى يكون الناس على بينة من الحقيقة، فكان من ذلك ما يلي:

”ولقد صدمنا مؤخرًا بواقعة حرق المصحف الشريف في مالو بالسويد التي حدثت أواخر الأسبوع الماضي عندما أقدمت عناصر جماعة يمينية متطرفة بالسويد، مؤيدة للمتطرف اليميني الدنماركي راسموس بالودان، وتصوير الجريمة عبر فيديو نشر على وسائل التواصل الاجتماعي“⁽⁴¹⁵⁾.

وبعد ذلك أردف في بيانه العبارات التي تعبر عن موقفه من الحادثة وكيفية تدبير التعامل معها، فجاء قوله على الصورة الآتية:

”وبهذه المناسبة يؤكد الاتحاد ما يلي:

1. إدانة كل أعمال العنف والاعتداءات والإهانات المتكررة ضد المسلمين، سواء في أرواحهم أو في معتقداتهم أو مقدساتهم أو كراماتهم...

2. مطالبة الدول الأوروبية المعنية بمنع هذه الاستفزازات والانتهاكات، وبالتعاون البناء الحقيقي الصادق لتحقيق السلم الاجتماعي على مستوى جميع الدول وبموازين عادلة، كما يطالب بمنع العنصرية والكراهية ضد الإسلام وضد أي دين آخر حتى يسود السلام في الأرض كلها.

3. دعوة الأقليات المسلمة إلى التمسك بأخلاق النزاهة والاستقامة والتعاون والتعايش، واحترام المجتمعات التي تعيش فيها“⁽⁴¹⁶⁾.

إن هذه المواقف الإيجابية التي تبديها القيادات الدينية لا ينبغي أن تذهب سدى، ولا يجوز بوجه من الأوجه أن توضع في مهب الريح، فتبقى أحوال الإنسانية على ما هي عليه؛ كراهية وحقدًا وضغينة. ومن ثم، فإن القيادات الدينية ينبغي إشراكها في إيجاد الحلول للمعضلات التي تعانيها الإنسانية؛ فتخمد الأوار الملتهب في النفوس المكومة، وتوقف الغلواء المتصاعدة من نفوس الحاقدين، وترسم السبيل الرشدي التي يطمح عقلاء الإنسانية إلى سلكها.

415. ينظر الرابط: <https://www.iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=12356> - تاريخ الاطلاع: 2020/09/13.

416. ينظر الرابط نفسه، تاريخ الاطلاع: 2020/12/06.

• المطلب الثاني: الخطاب الدعوي المفعّل

يبني المجتمع الإنساني على التسامح

إذا كان من مقتضيات الرغبة في التعايش الإنساني أن يظهر الفضاء الزماني والمكاني من خطاب الكراهية، فإن من مقتضياتها أيضاً بناء المجتمع الإنساني على التسامح. وهو أمر يحرص الخطاب الدعوي المفعّل على تحقيقه. وإذا كانت روافد كثيرة تسهم في إخماد نيران خطاب الكراهية في النفوس، فإن تفعيل التسامح فيها يرتبط برافد أساس ارتباطاً وثيقاً. وهو المتمثل في التربية السالمة والتنشئة على القيم البانية للمجتمع.

إن التسامح آلية تخمد الفتن، وتسكت الأصوات الصاخبة، وتحول بين الأفراد والمجتمعات وبين أن تسقط في مهاوي الردى التي لا يخرج منها من وقع فيها إلا بقدرة قادر. ولذلك، فقد كان القرآن الكريم يحض دوماً على الدفع بالتي هي أحسن، وينص على الصفح في كل حال، وقيم العدل بين الناس. وفي كل موقف من تلك المواقف يبين العواقب الإيجابية للتسامح والعفو.

ومن ذلك أن نقف على قول الله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96)﴾ (المؤمنون: 96).

ونقف على قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)﴾ (فصلت: 34).

ونجد قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)﴾ (التغابن: 14).

ويستوقفنا قوله الكريم:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)﴾ (الشورى: 40).

ويشدنا إليه قول الله سبحانه:

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)) (البقرة: 237).

ويلفت انتباهنا قوله العزيز:

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (148)﴾
 إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيراً (149) ﴿ (النساء: 148-149).

ويستوقفنا قوله العظيم:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) ﴿ (الشورى: 36-37).

ويلفت انتباهنا قوله عز وجل:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)﴾ (الشورى: 40).

ونجد من ذلك قوله الكريم:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)﴾ (النحل: 126).

إن هذه الآيات البينات - وغيرها كثير - كلها تمنح الخطاب الدعوي المفعّل قدرة باهرة على الانطلاق للصبح في مرتع خصب يجد فيه ما يخدم الإنسانية ويبني علاقاتها بناءً رشداً يعصمها من الانحرافات بعد أن تتحكم في النفوس العزة بالإثم، ويصرفها إلى الهدم بدل البناء، ويدفعها إلى التهور غير العائد بخير بدل الالتزام بالاعتزان والعقل والروية.

وإذا كانت الدعوة إلى التسامح في الإسلام أمراً بديهياً، فإن التسامح درجات؛ فمن يبذله في أمر هين كالأقوال البذيئة، لن يكون في درجة من يبذله في العفو عن قاتل قريبه. ولذلك، فقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على أن أجر العفو في الجروح يكون

على قدر الجرح المتصدق به؛ فقد روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

”مَنْ جُرِحَ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةً فَتَصَدَّقَ بِهَا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِثْلِ مَا تَصَدَّقَ بِهِ“⁽⁴¹⁷⁾.

ولقد أشار محمد رشيد رضا إلى أن الله تعالى إذا كان قد أباح لنا في التَّعَامُلِ فِيمَا بَيْنَنَا أَنْ نَجْزِيَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَمَلًا بِالْعَدْلِ، فقد جَعَلَ الْعَفْوَ فَضِيلَةً لَا فَرِيضَةً⁽⁴¹⁸⁾. وهو مستوى متقدم جداً من حيث إنه يترك هامشاً للمدعو إلى التسامح؛ فيحث على بذل الجهد والضغط على النفس قليلاً لينال أفضل مما ضاع منه إذا التزم التسامح في مسألة من المسائل.

ويظهر تقدم الدين الإسلامي في هذا الجانب ظهوراً واضحاً لما نقارن بين ما كانت عليه الإنسانية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين ما صارت عليه الأحوال بعدها؛ فقد كان القصاص في القتل لدى بني إسرائيل - كما يروي مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما - ”ليس بينهم دية فيه في نفس ولا جرح. قال: وذلك قول الله تعالى ذكره ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ في التوراة، فخفف الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فجعل عليهم الدية في النفس والجراح“⁽⁴¹⁹⁾.

فإدخال الدية في القصاص في القتل مَكَّن من الاستفادة من عنصر جديد يتحقق به التسامح؛ فالتسامح لا يشترط فيه، في هذا الباب، أن يسقط أولو الهالك أو الجريح ما يقابل الفعل من دية أو قود، ولكن الذي يشترط فيه ألا يقام القصاص على الجاني. وقد أدخل الشارع الدية والقود لكي لا يلحق القصاص جسد الجاني. فبعد أن كان القصاص هو العقوبة الوحيدة الممكنة بين بني إسرائيل، فإن الدين الإسلامي فسح المجال أمام الناس للعفو والصفح والتسامح؛ فأبقى بين أيديهم الحق في العدل

417. رواه أحمد، 37/ 454.

418. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، 10/ 54.

ولقد أورد الإمام الطبري في جامع البيان، ص: 10/ 368 حادثاً على عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما؛ فقد روى عدي بن ثابت قال: ”هَيِّمَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ مُعَاوِيَةَ، فَأَعْطِي دِيَّةً فَلَمْ يَقْبَلْ، ثُمَّ أُعْطِيَ دِيَّتَيْنِ فَلَمْ يَقْبَلْ، ثُمَّ أُعْطِيَ ثَلَاثًا فَلَمْ يَقْبَلْ. فَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ”فَمَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ، كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمٍ تَصَدَّقَ، إِلَى يَوْمٍ وُلِدَ“. قال: فتصدق الرجل.“

419. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 10/ 361.

والقصاص، ولكنه حثهم كثيراً على بذل الجهد في العفو مقابل أجور لا يساوي أجر الدية والقود منها شيئاً حين يقارنان به.

ولقد تنبّهت منظمة الأمم المتحدة لمردوديات التسامح على الشعوب والأمم، فوضعت ميثاقاً يوجه المنتمين إليها نحو التزام هذه الآلية التي تعود على الناس بكل خير. فبعد أن ذكّرت مخاطبيها في ميثاقها بكون الإنسانية ابتليت بحربين ضروسين أتتا على الأخضر واليابس، وفوتتا عليها فرصاً عظيمة في البناء والتشييد والانطلاق، نبهت على أنها توصلت إلى العنصر الذي كان غيابه يفقد المسار الإنساني صلاحه، ويفوّت على الناس أن يكونوا في راحة بال.

إن ذلك العنصر هو عنصر التسامح الذي ما وجد في علاقة إلا وكانت ثمراتها طيبة في كل آن، وجاءت نتائجها كما يشتهي بنو الإنسان. فقد ورد في ميثاق الأمم المتحدة أننا في سبيل هذه الغايات ”اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار، وأن نضم قوانا كي نحفظ بالسلم والأمن الدولي، وأن نكفل بقبولنا مبادئ معينة ورسم الخطط اللازمة لها“⁽⁴²⁰⁾.

إن من التقنيات التي يقيم عليها المتسامح أمره أن يتجاهل خروقات المناوئين، ويعرض عن الأقوال والأفعال التي لا تضره إلا أذى، ولا تجهز عليه ولكنها تنبّهه إلى مكر الماكريين وكيد الكائدين. ولقد كانت للمسلمين، في قريب الأيام، فرص ذهبية لالتزام هذه الصفات، ولكنهم ما استجابوا لعقلائهم حينما نادوهم، فهاجت حناجرهم، وثارت ثائرتهم، واستجابوا لاستفزاز من لدن الذين يعضون على دينهم الأنامل، فلم يلبثوا أن انقلبت عليهم الصورة، فظهروا بمظهر المخربين الطائشين الذين لا يعرفون للحضارة حرمةً ولا للإنسانية قيمة.

إن التسامح في مثل هذا قد يُظهر للعالمين ألا حامي للمبادئ والمقومات، ويجعل النفوس تعيش انفصاماً داخلياً؛ فيعلن المرء إسلامه وقيم شعائره، ولكنه حين يتخلف عن الدفاع عن المقدس يحس بوصمة تمس دينه ومعتقدده. ولكن الذي يقال في مثل هذا السياق- ونحن مرتبطون بالتسامح- أن هيجان الجماهير من شرق

420. ميثاق الأمم المتحدة، ص، 3 (الدبلوماسية).

الأرض إلى مغربها كان سبباً في إشهار ما لم يكن مشتهراً، وفي لفت الأنظار إلى ما لم يكن مستقراً بحسبان.

والتسامح يتخذ صوراً عديدة ومختلفة؛ فلو أن المسلمين سلكوا مسالك الإعراض وغيض الطرف عن قول الخنا وتلفيق الأقاويل والأكاذيب، فإن ذلك يكون تسامحاً بوجه من الأوجه، ولا سيما إذا كانوا متشبثين بدينهم تشبثاً يظهرهم على صورة من كان قلبه مطمئناً بالإيمان- حسب عبارة الطبري- موقناً بحقيقته، صحيحاً عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر⁽⁴²¹⁾، فقال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106)؛ ذلك لأن "التسامح لا يعني على الإطلاق الاستغناء عن اليقين الشخصي الراسخ، بل فقط الاستغناء عن ترسيخه بوسائل مغايرة لوسائل الإقناع"⁽⁴²²⁾.

لقد وقع هذا الأمر في صدر الإسلام، فكان كفار قريش- كما يذكر ابن عطية في المحرر الوجيز- "يؤذون من أسلم من هؤلاء الضعفة، يعذبونهم ليرتدوا، وربما سَامَعَهُمْ بعضهم بما أرادوا من القول. يروى أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده"⁽⁴²³⁾.

وقد يسارع أحدنا إلى دفع هذا الكلام بناء على كوننا متحررين مما كان يعيشه المسلمون في مكة حين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك، فقد جاز لهم أن يفعلوا ما لم يجز لنا أن نفعل. وهنا مربط الفرس؛ فالخوف والتعذيب والتنكيل الذي كان يلاقيه المسلمون آنئذ لا تشببه الحال التي نحن عليها الآن، ولكننا ننظر إلى الأمر من زاوية أخرى. إنها المتمثلة في مردوديات الفعل على الإسلام والمسلمين وفي انعكاساته عليهم.

421. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 17 / 305.

422. أعداء الحوار، أسباب اللاتسامح ومظاهره، مايكل أنجلو ياكوبوتشي، 40.

423. المحرر الوجيز، ابن عطية، 3 / 422.

فإذا استرجعنا الذاكرة قليلاً لنستعرض من خلالها المظاهرات التي هزت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه حين أصدر سلمان رشدي روايته ”آيات شيطانية“، فإننا نجد أنها أثارت جهات أخرى كانت بعيدة عن المشهد، فتدخلت بقواها لحماية الكاتب، وتدخلت بدعما المادي والأكاديمي لنشر الرواية، فبلغ عدد المنشور منها ثلاثمائة مليون نسخة. وقد كانت دار النشر متوقعة أن ينشر منها ثلاثمائة ألف نسخة في بداية الأمر. وترجمت إلى سبعين لغة وقد كان من الممكن أن تبقى حبيسة اللغة التي كتبت بها، ولو تركت لحال سبيلها ما كانت لتعرف وتنشر وتقرأ، فتلفظ أنفاسها كما يلفظ أنفاسه كثير غيرها.

وما قيل عن رواية ”آيات شيطانية“ يقال عن الفيلم السينمائي الذي أنتجه الهولندي فثارت ثائرة المسلمين بسببه حتى تدخل عقلاؤهم، فأبأنوا عن الحكمة والتبصر التي ينبغي للمسلمين أن يواجهوا بها من يريد استفزازهم ودفعهم إلى المواجهة، فأرعد وأزبد وملأ الدنيا ضجيجاً ولكنه بعد مخاضه العسير أنجب فأراً، فعاتبه بنو جلدته على المستوى الهزيل الذي أنتج به ما أنتج، فلم تتسع له الدنيا، فانتحر وحده فعاقب نفسه بنفسه، وكفى الله المؤمنين القتال.

وأما المخرج الثاني المسمى أرنود فان دورن، مخرج فيلم ”فتنة“، فإنه بعد أن أخرج نتاجه السينمائي المسيء للنبي صلى الله عليه وسلم، ذهب إلى المسجد ليستفسر الإمام عن حقيقة الإسلام ويتعرف على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلم أنه لا يسير على صراط عقلي مستقيم، فتم إقناعه ودخل الإسلام وحج البيت وصار من المسلمين⁽⁴²⁴⁾.

ولقد فعل مثل فعل المنتج الهولندي ثلثة ممن شاركوا في أداء أدوار شخصيات الفيلم الذي أنتج في الولايات المتحدة الأمريكية للإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقدموا اعتذارهم للمسلمين بعد أن تبين لهم أن المخرج سام بسال Same bassal قد خدعهم، فذكر لهم أنهم يشاركون في فيلم ترجع بطولته لرجل مشرقي

424. ينظر الرابط: <https://bit.ly/3q39z1c> - والرابط: <https://bit.ly/2NDLssV> تاريخ الاطلاع: 2020/11/18.

اسمه ماستر جورج، ولكن بعد ذلك جعل المخرج اسم محمد صلى الله عليه وسلم مكان اسم البطل⁽⁴²⁵⁾.

إن التغاضي عن الزلات قليلاً، وعدم اللجوء إلى المحاسبة الدائمة في الأحوال كلها، يفسح المجال أمام المرء لينتظر ما تأتي به التحولات السرمدية التي لا يبقى فيها المجتمع مستقراً على حال، ويمنحه الفرصة للقيام بما يناسب المشاهد المعيشة من أفعال، ويمنعه من الوقوع في متاهات التهور والاندفاع اللذين لا يأتیان بخير يعود على الأمة، إلا أن يكون صخباً وضجيجاً يشوّه صورتها ولا يزيدها من القلوب النافرة منها أصلاً إلا بعداً.

• المطلب الثالث: من إصلاح المحلي إلى الانفتاح على الدولي والعالمي

إذا تم دحر خطاب الكراهية محلياً وتم تعميمه على من يتكلمون لغتنا ويدينون بديننا، فإننا نمد البصر إلى دحره كونياً بتوحيد الرؤى المجزأة، وتضييق الهوات الفاصلة بين التصورات، فتشرّب أعناقنا لأن نرى بني الإنسان في وضع نفسي آمن، ونراهم قد عمتهم الألفة والتواد والرحمة. فالبحث الذي نخوضه لا يقتصر حقيقة على الإصلاح المحلي، ولا يحصر الرغبة في أن يدحر خطاب الكراهية في أطراف ورُقع من الأرض، فلا يجاوزها إلى غيرها. ولكنه يحث العزائم لأن تمد البصر في الآفاق، وترسل التطلعات إلى ما هو أبعد من الحدود التي نعيش داخلها، وذلك طلباً لتوسيع دائرة الاستشراف المستقبلي الذي يدفع الإنسان إلى ألا يقبع داخل حدوده المعهودة المعلومة.

إننا لن نستطيع بلوغ هذا المبتغى إلا بتفعيل قيم التعاون الدولي والعالمي بين الأطراف الإنسانية المختلفة. وهي قيم توجب علينا بغية وصولنا الهدف المنشود- كما

425. لمن أراد الاستزادة، فليعد إلى الفيديوين المنشورين على اليوتيوب، وهما على التوالي لليلي ديون وسيندلي كارسيا. وهما على الرابطين التاليين:

https://www.youtube.com/watch?v=sMKceJ_CMGY

<https://www.youtube.com/watch?v=rpOjy9QdyPE> g

تاريخ الاطلاع: 2020/11/18.

يؤكد ذلك الشيخ محمد الغزالي- ”أن نعالج برقة، وألا نسترسل مع العناد، وأن يتسع أفقنا لوجهات نظر كثيرة“⁽⁴²⁶⁾.

إن لقيم التعاون الدولي والعالمي أسساً يتوجب توفرها قبل أن نلتفت لأي قيمة منها؛ فهي لا تؤتي أكلها وجذوراً مجتثة، ولا يعود نفعها على بني الإنسان وهي غير قائمة على أصول ثابتة.

إن من تلك الأسس التي تنبني عليها قيم التعاون الدولي والعالمي أعمال العقل والتحرر من توجيهات الآخرين. فكم من سياسة طائشة ألحقت الضرر بجهات محددة، كان سببها عدم الاستقلال في اتخاذ القرارات، وكان مبعثها عدم التحرر من أوامر الآخرين وتوجيهاتهم.

فنظرة عابرة في مجال العلاقات الدولية التي تربط الدول والشعوب والأمم في ما بينها، لتبين أن الإنسانية تنقسم إلى أقسام ثلاثة كبرى. والعلاقات التي تربطها في كل أحوالها لا تخرج عن أحد هذه الأنماط الثلاثة:

- علاقة صداقة وتعاون.
- علاقة توتر وعداء.
- علاقة صداقة وتعاون بين طرفين وعلاقة توتر وعداء ضداً على طرف ثالث.

وإعمال العقل والتحرر من توجيهات الآخرين يجد مرتعاً خصباً في الأحوال الثلاثة السابقة؛ فهو كلما استقر استقراراً محموداً كانت له عواقب إيجابية على العلاقة الرابطة بين الطرفين، وكلما أبعد عن المشهد آلت أحوال تلك العلاقات إلى مآلات غير خادمة للحياة الإنسانية برمتها.

ومن تلك الأسس التي تقوم عليها قيم التعاون الدولي والعالمي جعل الاختلاف مكوناً من مكونات التعايش الإنساني المشترك؛ فثقافة الاختلاف، من حيث منطلقاتها، ثقافة خادمة للإنسانية جمعاء، فالرأي الواحد يفضلُه الرأيان والثلاثة؛ حيث يسمح تعدد الآراء بالوقوف على الاختيارات المختلفة ليؤخذ بأفضلها. والقوة المتعددة الروافد

426. مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟ محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ، 96.

تقدر على مجابهة المخاطر أكثر من القوة المنفردة، والإنتاج المتشابه في كل حال يعلو عليه ما يأتي من إنتاجات مختلفة من جهات متباينة، وهكذا دواليك.

ومن تلك الأسس التي تقوم عليها قيم التعاون الدولي والعالمي، الأساس المتمثل في تفعيل مبدأ التآخي المستمد من الأصول الأولى لتحقيق التعايش الإنساني. وهو أساس ليس هيناً البتة، وآثاره ليست متولية إلى الظل في أي حال. فمن كان أبوهم واحداً وكانت أمهم واحدة، ومن كان خالقهم واحداً ومنطلقهم الأول واحداً، فإن أخوتهم الأولى ينبغي أن تبقي علاقاتهم مطبوعة بملامحها ولو في خفوت.

نعم، إن بعد الشقة بين الناس وبين الذكريات الأولى سيكون له أثر بالغ في عدول كثير من الأذهان عن استحضار ما ينبغي استحضاره من تلك الأجواء ومن تلك الذكريات. بل إن أثره سيكون بالغاً، لما خَلَفَ مِنْ بَعْدِ السَّلَفِ خَلْفٌ اطمأن إلى ما عنده؛ فظن أن مكونات ثقافته التي هي بين يديه هكذا كانت أول مرة، وأن انتماءه إلى عرقه الآن هكذا حدده الأولون، وأن المسار الذي ينبغي له أن يسلكه صحبة بني جلدته ينبغي أن يكون على الشاكلة التي هو عليها؛ مودة وصفاء، وتوتراً واضطراباً. ولما صار الأمر كذلك، فأصبح الإنسان يحس ألا علاقة تربطه بأخيه الإنسان، فضلاً عن كونه لم يبق العلاقة بينه وبين غيره مستقرة في موقع الحياد الذي لا ينفع فيه ولا يضر، فأخذ ينصرف إلى الناس بكلماته الجارحة المؤلمة للقلوب، ويتوجه نحوهم بنظراته الشريرة التي تكاد تزلقهم بحرارتها اللافتة، فقد أصبح الأمر موجباً لتقديم حلول آنية ترد الشارد، وتصلح الفاسد، وتقوم المعوج، وتمكن الإنسانية من أن تعيش في أمن وأمان.

لقد أولى المهتمون بالأمن الدولي والعالمي إزاحة خطاب الكراهية من حياة الناس جميعاً قدراً بالغ الأهمية، فأصدروا توصياتهم ومقترحاتهم بوضع استراتيجية تطبق على مدى ثلاث أو أربع سنوات، وتتضمن إجراءات ومؤشرات محددة للتقدم في هذا المضمار، فضلاً عن شراكات وأنشطة مشتركة مع سائر الآليات الدولية لحقوق الإنسان⁽⁴²⁷⁾، بل إنهم أنشؤوا شبكات لتتبع التطورات التي يعرفها خطاب الكراهية

427. مذكرة الأمم المتحدة حول القضاء على العنصرية والتمييز والعنصرية الكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب: التنفيذ الشامل لإعلان وبرنامج عمل ديربان ومتابعتهما، 16 يوليو 2019، المادة 3.

في العالم كله، فكان منها الشبكة الدولية لمناهضة الكراهية الإلكترونية، وشركة قاعدة الكراهية⁽⁴²⁸⁾ Hatebase .

وبعد وقوفنا على هذه الحزمة من الأسس التي يقوم عليها التعاون الدولي والعالمي، نحب أن نلتفت إلى المداخل التي إذا التزمت سيكون لها أثر بالغ في دحر خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك. وهي التي نراها محددة في الآتي:

1. تفعيل ممارسة الحوار ونشر ثقافته بين الناس جميعاً:

الحوار بين الشعوب والأمم أمر مهم لبناء العلاقات وتقوية الروابط وإدامة الود والدفع بعجلة الحياة نحو تحقيق ما هو أحسن. وليس عبثاً أن يذكرنا القرآن الكريم بهذا الأصل الأصيل في حياة الناس بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات: 13)؛ حيث إن أهداف التذكير هنا كثيرة. ومنها أن الحث على تفعيل مداخل الحوار بين الناس لما كانوا من أصل واحد، وبعد أن تفرعوا وانتشروا في الأرض، فالواجب أن يلتزم بهذا الأس الأساس لدوام تواصلهم وتحقيق منافعهم ودفع مضارهم.

ولقد تنبه المهتمون بالأمن العالمي برصد المداخل التي تقي الناس جميعاً الكراهية والتعصب، فوجدوا منها الحوار مؤدياً أدواره في الوقاية من المكاره وتحقيق العصمة من تبعات الكراهية والتعصب، فقالوا إن ”الحوار بين الأديان وبين الثقافات، قد يكون أفضل ترياق للكراهية والتعصب“⁽⁴²⁹⁾.

إنه كلام جميل، ولكن المشكل الذي يعترضه هو الكيفية التي بواسطتها تصبح آثاره مرئية رأي العين؛ فالناس جميعاً يعرفون الحوار ويمارسونه في حياتهم، ولولا الحوار ما كانوا ليقضوا مأرباً من المآرب ولو كان هيناً. ولكن الذي نريده منه، تبعاً لما يقتضيه موضوعنا، وتبعاً لما نستهدفه منه في مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، أمور أخرى غير ما هو خاطر على أذهان الناس.

428. ينظر الرابط: <https://tcm.ch/3r3dDQn> - تاريخ الاطلاع: 2021/02/28.

429. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، (مقدمة المذكرة).

إن الحوار عندنا أكبر من أن يستهلك في الأمور الهينة، ويستنفد في المشاهد اليومية المألوفة أو على الشابكة، التي تلتهم الوقت وتستنزف الأعمار في غير طائل، فهو آلية إذا تم تفعيلها فانتقلت من المستويات المعهودة إلى أن تصير بصمة نفسية مطبوعة في الذهن الجمعي للمجتمع الإنساني كله، فإنها تؤدي الأدوار التي نتطلع إلى أن تؤديها بفعالية كاملة وبتوق إلى بناء المجتمع الإنساني بناءً رشداً.

2. تنشئة المواطنين على رفض خطاب الكراهية بتوجيه الإعلام والتعليم نحو ذلك:

يلاحظ في الحياة كلها أن الأطفال لما يولدون ويأخذون في الانفتاح ما يحيط بهم، تكون تصرفاتهم في مجملها مطبوعة بطابع البراءة، فينطق الطفل ويتحرك ويجري ويتبادل النظرات المشفوعة بالابتسامات، وهو في كل ذلك يصدر عن أحاسيس بريئة لم تلوثها بعد تدخلات الآخرين.

ولكن الطفل في ما بعد يبدأ في اتخاذ المواقف وبنائها من غيره، فيعادي ويخاصم ويصرخ في وجوه الآخرين، فنتساءل عن الأسباب التي دفعته إلى التحول عن الطبيعة التي كان عليها أول مرة، فنجدها في أغلب الحالات عائدة إلى تدخلات الكبار التي كانوا يجتهدون خلالها في صناعة نفسيته وتوجيهها نحو ما يريدون.

وقد يقول قائل إن تدخل الكبار لا أثر له في إحداث التحول في نفسية الطفل، ولكن الأساس الذي يكون له ذلك الأثر إنما يتحدد في الطبيعة البشرية؛ حيث إن الظلم والاعتداء مركزان في نفوس الناس، فهما مكونان من مكوناتها الداخلة في بنائها، فيورد قول الشاعر القديم ملتماً فيه ما يعضد قوله، عارضاً إياه بين يدي نجواه، فيقول⁽⁴³⁰⁾: (الكامل)

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدَ *** دَا عِقَّةً، فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلُمُ

إن قول الشاعر هنا قول بشر يعتريه الصواب والخطأ. وإذا كان له من الصواب نصيب في هذا القول، فإن تعميمه هو الذي يمس فيه الخطأ؛ فالتعميم غالباً ما لا يكون مبنياً على أسس علمية، فلا بد أن تكون له استثناءات، ولكل قاعدة استثناء كما

430. ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق لجنة التأليف والترجمة والنشر، صححها وقارن نسخها وجمع تعليقاتها عبد الوهاب عزام، نسقها وفهرسها الدكتور الشويحي، القاهرة، مصر، 217.

قالوا، فضلاً عن قوله: "فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِقَّةٍ، فَلِيعَلَّةٍ لَّا يَظْلِمُ"، فأورد العلة نكرة. وهو إيراد لا يفيد تحديداً لسبب الظلم الذي عده شيمة من شيم النفوس كلها.

إن تدخلات الكبار في توجيه نفسيات الصغار أمر مشهود في حياة الناس. ويكفي المعترض على كلامنا أن يقيم تجربة على عينة من الأطفال ويتتبع تصرفاتهم وهم ما يزالون على الفطرة، ثم يتتبع سلوكياتهم بعد إخضاعهم لتدخلات الكبار وتوجيهاتهم. ويكفينا دليلاً أن نقف على قول النبي صلى الله عليه وسلم، في ما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"⁽⁴³¹⁾. وهو قول شريف أفاض فيه شراح الحديث كثيراً، فوقفوا على لفظ "الفطرة" الوارد فيه، واجتهدوا في تحديد دلالته، لأن عليه المغزى المنشود منه. فأشار ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد إلى أن جماعة من أهل الفقه والنظر قالت: "أُرِيدَ بِالْفِطْرَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْخَلْقَةُ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا الْمَوْلُودُ فِي الْمَعْرِفَةِ بِرَبِّهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى خَلْقَةٍ يَعْرِفُ بِهَا رَبَّهُ إِذَا بَلَغَ مَبْلَغَ الْمَعْرِفَةِ"⁽⁴³²⁾. فالفطرة جبلة تبقى الطفل على صفته الكلية الأولى التي أرادها الله تعالى له. وهي التي تجعل استعداداته مؤهلة إياه لمعرفة ربه حين يبلغ مبلغ المعرفة؛ ذلك، لأن "قُلُوبَ الْأَطْفَالِ فِي حِينٍ وَلَدَتْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ كُفْرٌ حِينَئِذٍ وَلَا إِيْمَانٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ وَلَا إِنْكَارٌ"⁽⁴³³⁾.

وحاصل معنى الحديث أن الاعتقاد في الله تعالى والإيمان الصحيح به يكونان كامنين لدى كل مولود قبل أن تتدخل الأيدي والأوامر والتوجيهات من الأطراف الخارجية، فلو ترك كل واحد من الناس "مِنْ وَقْتٍ وَلَدَتْهُ وَمَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ نَظَرُهُ لَدَّاهُ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَهُوَ التَّوْحِيدُ"⁽⁴³⁴⁾، حسب عبارة ابن حجر العسقلاني في فتح الباري. فكل تغيير في اعتقاده، أو تحوُّل عن جادة الصواب فيه، إنما يكون "بِسَبَبٍ خَارِجِيٍّ فَإِنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ السَّبَبِ اسْتَمَرَّ عَلَى الْحَقِّ"⁽⁴³⁵⁾.

431. رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم: 1385، 100/2، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفالي الكفار وأطفالي المسلمين، رقم: 2658، 4/2047.

432. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، ابن عبد البر، 18/69-68.

433. المرجع نفسه، 18/70.

434. فتح الباري، ابن حجر، 10/339.

435. المرجع نفسه، 3/248.

وبعد أن تبين أن للعوامل الخارجية أثر بالغ في تشكيل نفسية الطفل الصغير، فإننا نريد أن نستثمر الأدوار التي يمكن لمؤسسات التربية والتعليم وبرامجها ووسائل الإعلام على اختلافها أن تؤديها في هذا المضمار. فلاحظ أن الأطفال عامة في بلدان العالم جميعها، إلا ما ندر، يترددون على المدارس ويتابعون دراستهم فيها في ارتباط دائم مستمر، ولا سيما أن الدول في العالم كله تسعى إلى تحقيق مواصلة المسار الدراسي ومحاربة الهدر المدرسي في أي مستوى من المستويات التعليمية المختلفة. ولذلك، فإن الاستفادة من السياسات التعليمية السائدة في العالم ينبغي أن تكون متمثلة في تثبيت ما يتعلق بمكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك في النفوس والأذهان، بإدراج المفاهيم والرؤى المحيطة بها في البرامج الدراسية في كل المستويات.

وأما ما يتعلق باستثمار وسائل الإعلام في تثبيت مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإن القائمين على هذه الوسائل ينبغي لهم أن يدركوا ما للالتزام بما يخدم هذا المبتغى من مردوديات جسام، وأن يقدروا ما لانصرافهم عنه من تبعات لا يتوقف ضررها عند الحدود المرئية التي تنقلها إلينا تلك الوسائل صباح مساء. فذلك غيض من فيض، وتلك نُفْ تأتي من هنا وهناك، وإلا فإن خطاب الكراهية يُرغم الفئات المستهدفة به على أن تبين في العراء، وأن تجري دماؤها، وأن تلفظ أنفاسها، ويفرض عليها أن تعيش الأمرين في كل حال.

3. الاعتذار عن زلات السياسات الاستعمارية الماضية:

لقد كان للسياسات الاستعمارية في البلاد المستعمرة نصيب وافر في إنتاج خطاب الكراهية وترويجها، ولا سيما حين أقام مجده على الجماع، وأغنى اقتصاده من خيرات ما غزاه من بقاع الأرض، وبنى مستقبله على حساب المستضعفين في كل مكان. إن المشرفين على السياسات الاستعمارية كانوا يعتقدون أن خروجهم من البلاد المستعمرة متحقق في يوم من الأيام لا محالة. ولذلك، فقد كانوا يجتهدون في صناعة من يخلد لهم الاستمرار بعد ذلك الخروج. ومن الآليات التي اجتهدوا في ترسيخها ما يتعلق بتثبيت ثقافتهم ومدافعة ثقافة البلاد المستضعفة. وذلك ما يعبر عنه محمد عابد الجابري بقوله: "لقد دمر الاستعمار ثقافة الشعوب التي استعمرها، أو على

الأقل عمل في اتجاه قمعها وتآزيم نموها، وفي المقابل قدم ثقافته، بل فرضها كثقافة عالمية، ثقافة للعالم المتحضر“⁽⁴³⁶⁾.

لقد كان لهذه السياسات نتائج وعواقب وخيمة على ثقافة البلاد المستعمرة، كما كان لها انعكاس خطير على العلاقات التي ينبغي أن تكون بين بني الإنسان؛ فسادت النظرات الشزر، وتغلغل القلوب بالأحقاد، وبقي الضعيف ينتظر الأوان لاسترداد ما ضاع منه. وفي أقرب خطوة للحفاظ على الثقافة المهددة بالضياح والاندثار، فقد كان رد فعل هذه الشعوب خلال الكفاح من أجل استرجاع سيادتها واستقلالها- كما يعبر الجابري مرة أخرى- ”هو الاتجاه نحو إحياء الثقافة الوطنية تأكيداً للهوية وحفاظاً على مقومات الشخصية“⁽⁴³⁷⁾.

إن الجراحات التي لم تندمل بعد، وإن صدى الصراخ المنطلق من أعماق الأزمنة الاستعمارية، ما زال يتردد في النفوس التي تستحضر في كل مرة ما جناه الجانون على الشعوب المستضعفة، فتتألب قلوبها، وتتحرق أكبادها، فتجد الكراهية مرتعاً خصباً فيها، ويوصي بها سلفها خلفها. وإن الدواء الشافي لهذا المرض العضال الذي صنعه الاستعمار في أيام عزه، لن يكون إلا بإعادة الاعتبار لمن سلب حقه، وأزهقت روحه، ونهبت داره وماله، ولو باعتذار يشعر المستضعف من خلاله بأن المستبد قد اعترف بالذنب وأقر بالخطيئة.

4. وجوب تدخل الحكومات تدخلاً استباقياً:

نحب أن نبني هذه الفقرة على حديث نبوي شريف، رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”كَيْفَ يَقْدُسُ اللَّهُ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟“⁽⁴³⁸⁾. وهذا القول الشريف ورد في سياق اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بمهاجرة البحر بعد عودتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

”أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟“

436. إشكاليات الفكر العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 2، 1990، 32.

437. المرجع نفسه.

438. رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، رقم: 4010، 2/ 1329، والبيهقي في شعب الإيمان، في التمسك بما عليه الجماعة، باب الحكم بين الناس، رقم: 7143، 10/ 48.

قَالَ فِتْيَةُ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَحَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا عُذْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ نَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا،

قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”صَدَقْتُ، صَدَقْتُ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟“ (439).

إن هذا المشهد ليبين أن الاعتداء المؤسس على الكراهية قديم جداً. وإذا كانت الجهات المعظمة لكرامة الإنسان أعلنت وقوفها في وجهه عبر التاريخ دائماً، فإننا في العصر الحديث نجد الأمم المتحدة في مقرراتها كثيراً ما تعلن رفضها له، وتوجه صوتها نحو الدول لكي تبدي عزمها أكبر على مكافحته. ومن ذلك أن يشار ”إلى أنه يجب عدم التسامح مع الصعود العالمي لخطاب الكراهية العنصرية في الخطاب السياسي، وخاصة ضد المهاجرين والأقليات، ويجب حظر العنف العنصري بموجب القانون“ (440)، وأن يشدد ”على أنه يجب وضع تشريعات لحظر خطاب الكراهية وتجريمه“ (441)، وأن يركز على التزام التدابير الوقائية (442)؛ ذلك، لأن الوقاية أفضل من العلاج.

ولقد أشارت تقارير الأمانة العامة إلى بعض الدول باعتبارها أطرافاً داخلية في إنتاج خطاب الكراهية وترويجه، مثل الخطاب الذي ينتجه ويوجه مسؤولو الدولة في ميانمار ضداً على قبيلة الروهينجا (443)، بل إن ذلك الخطاب كثيراً ما تحول إلى ممارسة تتولى القيام بها الشرطة الأمنية والسلطات الحكومية والقوات المسلحة (التاتاماداو) (444). ولقد كان لصفحات الإنترنت وحسابات الوسائط الاجتماعية

439. التخرّيج نفسه.

440. مذكرة الأمم المتحدة حول القضاء على العنصرية والتمييز العنصري وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب: التنفيذ الشامل لإعلان وبرنامج عمل ديربان ومتابعتهما، 16 يوليو 2019، المادة: 7.

441. المرجع نفسه، المادة: 10.

442. المرجع نفسه، المادة: 12.

443. المرجع نفسه، المادة: 19.

444. المرجع نفسه، المادة: 20.

وخاصة "الفيسبوك" و"تويتر" - كما ذكرت السيدة نادية زيد في تقريرها- إسهامٌ كبيرٌ في التأثير في معاناة الروهينجا بسبب عدد متابعيها ومستويات مشاركة المتابعين ومستويات نشاطهم العالمي⁽⁴⁴⁵⁾.

والمشاهد التي ترعاها الدول من خطاب الكراهية وتأجيج الصراعات كثيرة جداً، مثل ما حدث في رواندا من إبادة جماعية أدت إلى إزهاق أرواح حوالي مليون شخص⁽⁴⁴⁶⁾. ومثل ما حدث في أفريقيا الوسطى بإشراف الدولة وبتدخلات فرنسا، وفي بلاد الإيکور على يد الدولة الصينية التي وضعت سياسة للتحكم في أصحاب الأرض وفرض الموت البطيء عليهم.

5. جمع البيانات وإجراء البحوث عن خطاب الكراهية:

يعد جمع البيانات وإجراء البحوث من أجل تتبع التطورات التي يعرفها خطاب الكراهية من أهم الإجراءات التي تمكن من الضبط والإحصاء وتقدير درجة التأثير والحدة، فيؤدي إلى فهم أفضل للمشكلات في أي بلد، وإلى وضع سياسات هادفة على نحو أفضل، وإلى إمكان إجراء تقييم لما يجري في واقع الناس⁽⁴⁴⁷⁾.

ولقد تنبّهت الأمانة العامة في الأمم المتحدة إلى أن خطاب الكراهية لا ينبغي أن يبقى عفويّاً غير محصى ولا خاضع لتتبع، فورد في تقاريراتها أن تبني قاعدة بيانات خاصة بهذا الأمر، لأن إبقائه في ذلك المستوى لا يمكّن من وضع الآليات الناجعة في السيطرة عليه والتحكم فيه. وهو توجه ذو بال؛ حيث يستشرف أن تكون له مردوديات جسام على الوضع العالمي كله؛ ذلك، لأن "عملية جمع البيانات وتحليلها تساعد أيضاً على إنشاء آليات للإنذار المبكر، وعلى تقديم العون في إنفاذ القانون على نحو فعال"⁽⁴⁴⁸⁾. ولاسيما أن هذه القاعدة قادرة على تحقيق المعرفة المناسبة عن طبيعة خطاب الكراهية الذي يتجاوز الحدود⁽⁴⁴⁹⁾.

445. المرجع نفسه.

446. المرجع نفسه، المادة: 12.

447. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، المادة: 67.

448. المرجع نفسه، المادة: 68.

449. المرجع نفسه.

وقد تضمنت تقارير الأمانة العامة للأمم المتحدة كثيراً من الدعوات الموجهة نحو تحقيق هذه البغية وتفعيلها، فألحت على إحصاء "أشكال خطاب الكراهية، والجنابة الرئيسيين، ومكان صدور الخطاب وظروفه وملابساته، ومن هم الذين تصل إليهم هذه الرسائل، وبأي السبل تصل إليهم، وما إذا كانت منافذ البث الإعلامي قد تسابقت في ما بينها لنشر هذه الرسائل ومن قام بذلك منها"⁽⁴⁵⁰⁾.

وإذا كان هذا الإجراء يساعد على الضبط التقني الخاص بخطاب الكراهية وترويجها بين الناس، فإنه يبقى في حدود كونه أداة وليس حلاً⁽⁴⁵¹⁾، حسب عبارة تيموثي كوين من شركة قاعدة الكراهية hatebase، فضلاً عن كون قاعدة البيانات الكبيرة والمتنوعة فيه، تبقى "عرضة لأنواع مختلفة من النقائص المتعلقة بالتقسيمات والحجم وتحديد الموقع الجغرافي وتكنولوجيا التطور والثقافة"⁽⁴⁵²⁾. ولذلك، فإنه يتوجب أن يقتصر دوره على أن يستفاد منه باعتباره جسراً واصلًا بين المسؤولين عن الأمن العالمي، وبين المسؤولين على الشبكة على اختلافهم؛ حيث ينبغي أن يوجه هؤلاء سياساتهم إلى حذف المحتويات الداعية إلى خطاب الكراهية من المواقع التي تقع تحت سيطرتهم.

إن هذه الدعوات التي يتردد صداها في هذه التقارير كثيراً لم تجد آذاناً صاغية في بلدان العالم حتى اليوم؛ ففي معظم البلدان، لا توجد إطلاقاً بيانات شاملة عن تلك المجالات. ومن ثم، فإن السياسات والتشريعات تستند في كثير من الأحيان إلى التصورات والتنظيرات أكثر مما تقوم على نقل ذلك كله إلى تنزيلات وتطبيقات ترى رأي العين في حياة الناس⁽⁴⁵³⁾.

450. المرجع نفسه، المادة: 67.

451. المرجع نفسه، المادة: 18.

452. المرجع نفسه، المادة: 18.

453. المرجع نفسه، المادة: 67.

الخاتمة

إن موضوع آثار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك موضوع ذو شجون؛ بقضاياها المختلفة، وتقريعاته المتعددة، ومقاصده المتزامية الأطراف التي تربطه بالناس أجمعين، يُعدّ موضوعاً يعسر على الضبط والتحكم؛ فهو من الموضوعات التي تستعصي على الدارسين؛ فشبكات التواصل الاجتماعي تطلع على الناس في كل يوم بتقنيات جديدة وابتكارات لم تكن معهودة من قبل لدى أولى الشغف بها، حيث إنها تسير بسرعة كبيرة جداً، يحق لنا أن نصفها بكونها منطبعة بملامح دالة أُسيّة. فلا يمر على الناس يوم إلا وجديدها يأتي إليهم من الشرق ومن الغرب، ولا يكادون يهضمون ما طلع عليهم به في قريب الأيام حتى يقذف إليهم بنتاجاته التي لا تنفذ.

وإذا كانت صعوبات شبكات التواصل الاجتماعي تظهر من خلال التسارع والكثرة والتزاحم، فإن توظيفها واستثمارها يجعلان تلك الصعوبات غير خفية على ذي اللب الحصيف؛ فهي ليست ملكاً للجهات المشتغلة بالدعوة. ومن ثم، فإن ساحتها ليست مقصورة على ما ينشره أهل الدعوة فيها. ومن لا يملك الفضاء لا تكون له حرية التصرف فيه على الوجه الذي يريد؛ فالذين يملكون فضاءات شبكات التواصل الاجتماعي قوم آخرون لهم ثقافتهم المخالفة لثقافة الدعوة وأهلها، وهم محكومون بالمادة وبما تدره عليهم منها، مؤسسين ذلك كله على مبدئين اثنين؛ يتمثل أولهما في مبدأ المكافأة، ويتحدد ثانيهما في تحقيق الشهرة بالإعجابات والاشتراكات. وإذا كانت لديهم أخلاق فهي أخلاق مستلهمة من محيطهم وثقافتهم ونشأتهم، فقد تلتقي أحياناً مع أخلاقنا وقد تفرقها أشواطاً عديدة كالأشواط التي بين المشرق والمغرب.

ومن الصعوبات التي يستتبعها ما ذكرناه سلفاً، كونها محاضن يلج إليها كل من هب ودب؛ ففيها المسلم والكافر، وفيها ذو الخلق الحميد ومن لا يعرف إلى الأخلاق طريقاً، وفيها من لا تهمه إلا الساعة التي هو فيها ومن يرقب ربه في كل حركة وفي كل سكون، وفيها من ينشر ما ينشر ولم يجعل على نفسه رقابة ذاتية ومن ينشر ما ينشر وهو يعلم أن أفعاله مرصودة في كل حين، وأن ما يلفظ من قول لديه رقيب عتيد.

ومن الصعوبات التي تجابه أهل الخطاب الدعوي على شبكات التواصل الاجتماعي مسألة تزام المحتويات؛ حيث يطلع عليك محتوى متميز بطهارته ونصاعة روحانيته وتطلّع أصحابه إلى البناء والإصلاح اللذين ينشد هما كل غيور على مصير الإنسانية، وترى غيره من المحتويات التي لا تمت إلى الدين والأخلاق بصلة يزاحمه ويدافعه ويختار موقفاً إلى جواره، فيخف تأثيره في النفوس، ويفتر الإقبال عليه، ولا سيما حين ينشغل الزوار بما اختص به المحتوى الفاسد.

والخطاب الدعوي بقضاياه التي لا حصر لها، وبارتباطاته بما يسود في واقع الحياة كلها؛ فيهتم بتذكير أهل الدار، ويتابع ما يأتيه الأغيار من مكر وكيد، وما يبدو منه من حقد وغلواء، وما يسارعون به إلى قلوب خفاف العقول من أجل ملئها وتعبئتها بما يجعل نظراتهم إلى الذات شزراً، فيقوون بهم صفوفهم، ويقىمون بهم أودهم، ويتطلّع إلى رآب الصدوع وتحقيق الألفة وجمع الكلمة، فضلاً عن كونه يصبو بالعمل إلى أن تتدخل شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيله وإنضاجه والانتقال به من حال إلى حال أكثر إيجابية وأعظم تميزاً وعطاءً.

وكما توضحنا بعض الصعوبات التي تختص بها شبكات التواصل الاجتماعي في علاقتها بالدعوة والدعاة، فإن الخطاب الدعوي له من الصعوبات الذاتية ما لا حصر له؛ فهو بدءاً ليس خطاباً واحداً، ينطلق من رؤية واحدة، ويتطلع إلى تحقيق أهداف واحدة. فتجد من أهله من يستثمر شبكات التواصل الاجتماعي في الدعوة إلى الله تعالى، ومن ورائه طاقم مؤهل يحرص على إخراج المحتوى إخراجاً يشد البصائر والأبصار؛ فكثيراً ما كان تميز العرض سبباً في الإقبال والاقتناء والتمثل. وتجد منهم من ليس في العير ولا في النفير، فقد قال كلمته ومضى، وتلقفت أياد بعض ما تفوه به وبثته على شبكات التواصل الاجتماعي لغرض معين، قد يكون سخرية، أو إثارة، أو تشهيراً.

كما تجد من تلك التجليات التي لا تجعل الخطاب الدعوي واحداً كون بعضه تراثياً بشدة، وبعضه انطبع بمسحة عصرية تشتم منها روائح حداثة، وبعضه التزم الوسطية في أقواله وتوجيهاته التزاماً يستهدف من خلاله بناء المجتمع بناءً مسلماً لا شية فيه.

وتجد من تلك التجليات أيضاً الطرائق السائدة فيه طرائق قديماً؛ فطرق التبليغ ليست واحدة، وملامحها ليست ماثحة من مصدر واحد؛ حيث يغلب التكوين الأساس على صاحبه، فقهياً وتفسيراً ولغةً وبلاغةً وعلومياً حقاً.

وتظهر لنا تلك التجليات في آخر مستقراتها متمثلة في تباين الرؤى التي تحكم الخطاب الدعوي، وفي الاستشرافات المستقبلية التي يتطلع إليها أصحابه. فمنهم من أقدم على الدعوة بعد أن وضع مخططاً ملائماً لتحقيق أهدافه ومراميه؛ فرصد الشروط المحيطة، وحدد الطاقات المتوفرة، وعرف المسافة الزمنية الفاصلة بين نقطة الانطلاق وبين بلوغ الهدف. ومنهم من لم يفعل من ذلك شيئاً، فارتدى في أحضان شبكات التواصل الاجتماعي لممارسة الدعوة وهو مجرد من شروطها القائمة على العلم والتخطيط وحسن التدبير. ومنهم من اقتحم تلك الفضاءات لا لممارسة الدعوة ولكن للتشويش عليها، فسخر من لدن جهات مغرضة، فسلبت عليه الأضواء، وأجلبت بخيلها ورجلها على الفضاء، ومكنته من القول بما يفوت على الدعاة المطبوعين بطابع النقاء فرصة التأثير والإصلاح والبناء.

وإذا كان ما يستهدفه هذا التفعيل متعلقاً بمسألتين اثنتين فقط، متمثلتين في الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك، فإنهما ليستا مسألتين ذاتي حدود مرسومة معلومة، ولكنهما تمتدان للماسة ما لا يخطر على بال من جوانب الحياة؛ فمرة تجدهما متعلقتين بالأقارب والأبعد، وتجدهما ثانية مهتمتين بالمادي والنفسي من مكونات الحياة، وثالثة تظهران مرتبطتين بالحاضر المعيش، كما تبدوان مطلقتين البصر نحو استشراف المستقبل البعيد.

ولقد توصلنا خلال المراحل التي قضيناها في معالجة هذا البحث إلى مجموعة نتائج، كما تبنت لنا مجموعة توصيات كلها تدخل في باب زيادة تفعيل الخطاب الدعوي في الحياة. وقد أحببنا أن نعرضهما معا في الفقرات الآتية:

أولاً: نتائج البحث

- للخطاب الدعوي المفعول من لدن شبكات التواصل الاجتماعي أثر بالغ في تطهير العقول وإزالة الغشاوة عن العيون في ما يتعلق بتصحيح السلوك وإنضاج التعامل

الإنساني مع بني الإنسان، ولا سيما ما يتعلق من ذلك بالحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك.

- للخطاب الدعوي الرائج في مواقع التواصل الاجتماعي القدرة على نشر الوعي القانوني الضروري بين أفراد الفئات المستضعفة لحماية أنفسهم والدفاع عن خصوصياتهم أمام المحاكم.

- التقابل المنتصب في الأذهان بين خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني لا ينمحي إلا بتدخل روافد التربية الإيجابية التي تدعم الإنساني منه بقوتها وصلاحتها، وتزري به لنقيضه حين تكون تربية فاسدة غير مؤهلة لإخراج مجتمع إنساني نظيف.

- خطاب الكراهية في الغالب الأعم لا يستهدف الأقوياء؛ حيث إن قوتهم تكون قادرة على رد الصاع صاعين، ولكنه يتوجه بشروره نحو الضعفاء الذين يعانون من أوضاع الهشاشة، بالنظر إلى أن المجتمع الإنساني دائماً وأبداً يصب جام غضبه على من لا حيلة له ولا قوة؛ فهو لا يؤمن إلا بقوة القوي التي ترد اعتدائه غير الراشدة.

- لشبكات التواصل الاجتماعي إمكانات فعالة تجعل الخطاب الدعوي ذا قوة وفاعلية في إزاحة خطاب الكراهية، أو الحد منه على الأقل، وتعزيز التعايش الإنساني المشترك؛ فهي قادرة على تحديد المستهدفين بالخطاب، ميسرة للترجمة الفورية المحافظة على المعاني والدلالات، موفرة لمحاظن إنتاج التطبيقات الدعوية الإيجابية.

- إذا استثمرت شبكات التواصل الاجتماعي الاستثمار الإيجابي فإنها تكون قادرة على إعادة صياغة الإنسان صياغة إيجابية؛ فتشكل نفسيته التشكيل المناسب المتفاعل مع الأخلاق الحسنة التي تدفع الإنسان لأن ينأى بنفسه عن سفاسف الأخلاق، وتكسبه تمثل الصفات الخلقية الحميدة التي تدرح خطاب الكراهية وتعزز التعايش الإنساني المشترك.

- شبكات التواصل الاجتماعي جسر واصل بين الدعاة وبين الجماهير. ولكي تؤدي

وظيفتها على الوجه المرغوب فيه، فإنها تفرض أن ينعقد الدعاة من طابع التقليد في الدعوة، وأن يتمثلوا ثقافة المقصودين بالخطاب الدعوي. فإذا كان الأمر كذلك، فإن أموراً كثيرة ستعود إلى حظيرة الصواب، وعلى رأسها تحقيق الوظيفة الأصلية لشبكات التواصل الاجتماعي.

- لتفعيل الخطاب الدعوي في شبكات التواصل الاجتماعي من أجل الحد من خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك مجموعة آليات أساسية؛ منها التواصل المستهدف لتوسيع الفئات المستهدفة. وهو أمر يقوم على إنشاء المداخل التواصلية المختلفة، كالبريد الإلكتروني والمواقع والقنوات والمنصات، كما يقوم على الترجمة وإنتاج التطبيقات الدعوية الإيجابية. ومنها التأهيلي الذي يستهدف تفتح الدعاة على استعمالات شبكات التواصل الاجتماعي، وتمكينهم من التقنيات التواصلية المؤثرة، وتوسيع مداركهم عن الثقافات المختلفة.

- تمكنا آثار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من استشراف المستقبل الذي تتبدى من خلاله مجموعة من التحولات في الحياة الإنسانية؛ محلياً وعالمياً؛ حيث تصحح مجموعة من المفاهيم التي لها الأثر البالغ في رواج خطاب الكراهية بين الناس، ويرجع الناس في المجتمع الإنساني إلى التزام الأخوة والتواد، فيتحقق الإقلاع عن خطاب الكراهية، ويملاً القلوب الشعور بالإنسانية المشتركة؛ تَحْلِيَّةً وَتَحْلِيَّةً، وتنتشر الاستعدادات في النفوس لخدمة المشترك الإنساني.

- تمكنا آثار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من استشراف المستقبل الذي تتبدى من خلاله مجموعة من التحولات الإنسانية، مرة أخرى؛ حيث يظهر تعزيز التعايش الإنساني المشترك مستقراً استقراراً طيباً في صدر تطلعات المجتمع؛ محلياً وعالمياً، إلى تحقيق العيش الرغد فيه، ومد الجسور بين أطرافه لتحقيق التعاون في مظاهر الحياة كلها، وذلك بعد أن تتولد الرغبة في التعايش في جنباته، وتثبت في أركانه، وتفعل مقتضياته في حركاته وسكناته من أجل السير قدماً نحو طبعه بطابع إنساني لم يعهد تاريخ البشرية له مثيلاً إلا لماماً.

ثانياً: توصيات البحث

- للوصول إلى مجتمع إنساني نظيف لا ينطق بالحنا ولا يجاهر بالسوء، لا بد من تفعيل سبل التواصل الإيجابي بين الثقافات المختلفة، وتشجيع ممثليها على مد جسور التعاون والتعايش والحرص على المواطنة المشتركة واحترام التنوع وجعله رافداً من روافد خدمة البشرية وليس آلة هدم لقواعدها وصروحها حتى يستمر العيش في حياة كريمة يسودها الحفاظ على القواسم المشتركة الجامعة بين أفراد المجتمع الإنساني كله.
- لا بد من استثمار القوة الوازنة المؤثرة التي تتمتع بها القيادات الدينية المتصفة بالوسطية في المجتمعات المعاصرة، ورفع الأيدي عن مراقبتها، وتوجيهها نحو تصحيح المفاهيم الخاطئة الراسخة في الأذهان، التي تتعلق بحرية التعبير، وبيان الفروق المفصلية بينها وبين خطاب الكراهية.
- لا بد من توظيف التربية والتعليم في تنشئة الأجيال على نبذ خطاب الكراهية والإقبال على التعايش الإنساني، وتحبيب التواصل والحوار؛ محلياً وعالمياً.
- لا مناص من توظيف وسائل الإعلام وتوجيه الخطاب الديني والسياسي نحو توعية الناس بوجوب تقدير الأصول المشتركة بين بني الإنسان، وتحسيسهم بأهمية الحرص على مصالحهم الجامعة، فما يوحدهم أكبر مما يفرقهم.
- استصدار القوانين المناهضة لخطاب الكراهية، الداعمة لتحقيق التعايش الإنساني، وتفعيلها، وتيسير سبل تنفيذها؛ محلياً وعالمياً، وتنسيق الجهود بين الدول لتبادل الخبرات في هذا المجال الواسع واستثمار التجارب فيه؛ إذ إن الجهود الفردية فيه لا تعد شيئاً ذا بال.
- وجوب إيلاء الخطاب الدعوي ما يستحق من الاهتمام فيوظف التوظيف الإيجابي الخادم للمراد، لاسيما وأن القيادات الدينية والخطباء والوعاظ يمتلكون القدرة الباهرة على التواصل مع الجماهير المختلفة، كما يمتلكون تقنيات التأثير على

مخاطبيهم. وتحقيقاً لهذا المبتغى، فإنه يتوجب عقد الندوات والدورات وإلقاء المحاضرات المتخصصة لصالح هذه الفئة، حتى تمتلك مقومات العمل فتؤديه أداءً إيجابياً، وتتزود بمؤهلات التأثير المتوازن الذي يدحر خطاب الكراهية ويرسخ التعايش بين الناس.

- إرساء آليات التتبع والتقويم والتغذية الراجعة، ووضع المراسد المناسبة لتجميع الملاحظات عن سير العمل، بغية تصحيح ما ينبغي تصحيحه، واستدراك ما يلزم استدراكه، واستشراف ملامح الواقع الجديد؛ محلياً وعالمياً، الذي يدحر فيه خطاب الكراهية وتفتح فيه الأبواب في وجه التعايش الإنساني، فيعيش الناس في طمأنينة وسكينة ورغد عيش.

- توفير سبل تأهيل الدعاة في مجالات التعامل مع شبكات التواصل الاجتماعي، وتمكينهم من امتلاك المهارات اللازمة التي تسمح لهم بتوظيف التقنيات الجديدة التي تؤثر في المخاطبين التأثير الذي ينقلهم من حال إلى حال إيجابية أحسن منها، فيسود التعامل مع بني الإنسان تبعاً للضوابط التي تحول بينهم وبين الوقوع في الظلم في الأفعال والشطط في الأقوال.

- تسخير الطاقات الشبابية لتفعيل مجالات الدعوة، والحفاظ على الطاقات الموجودة فيها، وإطلاع اللاحق على إمكانات السابق، وتمكين السابق من مهارات اللاحق، بغية أن تردم الهوة بين الجيلين وترمم الثلوم بينهما، فتصير الجهود الدعوية محتضنة في صرح واحد، موظفة جهوداً متفاعلة، متطلعة إلى تحقيق أهداف واحدة.

- إنشاء تخصصات في المجال الدعوي في المسالك التربوية والتكوينية المختلفة، فجّل من يشتغل بالدعوة إلى الله تعالى إنما يشتغل بها هواية تجد منطلقاتها في تكويناته الأولى، أو حماساً يتطلع من خلاله إلى إنجاح ما يخدم الإسلام، وهو مجرد من المقومات الضرورية لأداء هذه المهمة الجليلة.

هكذا نكون قد عالجتنا موضوعاً من أهم الموضوعات التي تشغل بال كل داعية غيور على دين الله تعالى، متطلع إلى تطهير المجتمع الإنساني من الفتن والإحن، فأقمناه على أثناف ثلاث؛ راصدين فيها آثار شبكات التواصل الاجتماعي في تفعيل الخطاب الدعوي من أجل توجيهه نحو مكافحة خطاب الكراهية وتعزيز التعايش الإنساني المشترك. والهدف من ذلك كله أن تجمّع أطراف الدعوة شتاتها، ويُرشّد القائمون عليها إلى خير خارطة طريق وأوضح معالم للاهتداء بها في بناء مجتمع إنساني تطبعه الألفة والمحبة والتواد.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

1. أثر الإعلام في نشر الدعوة الإسلامية، لؤي عبد الحميد شنداخ، منشورات شبكة الألوكة، 22 فبراير 2016م.
2. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن قعبد، التميمي، (المتوفى: 354هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1414هـ - 1993م.
3. أخلاقيات التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي في الكتاب والسنة، عبد التواب محمد عثمان المدرس بالأزهر، وقف جائزة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري، نظارة رئيس هيئة قضايا الدولة، مصر.
4. أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
5. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: 256هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 3، 1409هـ - 1989م.
6. الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1421هـ - 2000م.
7. أسد الغابة، أبو الحسن علي بن الأثير (المتوفى: 630هـ)، دار الفكر، بيروت، 1409هـ - 1989م.
8. إشكاليات الفكر العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 2، 1990م.
9. أعداء الحوار، أسباب الاتسامح ومظاهره، مايكل أنجلو ياكوبوتشي، ترجمة عبد الفتاح حسن، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10. الإعلام الجديد، شبكات التواصل الاجتماعي، علي خليل شقرة، نبلاء- دار أسامة- عمان- الأردن، ط 1، 2014م.
11. الإعلام الدعوي: الوسائل والمتطلبات، محمد أحمد عزب، مجلة المجتمع، 13 ديسمبر 2017م.
12. البحث العلمي وأثره في التنمية الشاملة: من التآرجح بين التراث والتجديد إلى رصد المصلحة، الدكتور عبد السلام رباح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2018م.

13. البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، دار
ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.
14. تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري
(المتوفى: 310هـ)، دار التراث، بيروت، ط 2، 1387هـ.
15. تاريخ الطب، سونيا، جان شارل، من فن المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتي،
عالم المعرفة، العدد 281، صفر 1423هـ - مايو 2002م.
16. التحرير والتنوير: "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد
الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الدار التونسية
للنشر، تونس، 1984هـ.
17. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري
(المتوفى: 1353هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت.
18. تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي
الطنجي، ابن بطوطة (المتوفى: 779هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ.
19. التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، عبد السلام رياح، المعهد العالمي للفكر
الإسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب الأردن، عمان، ط 1، 2019م.
20. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى:
544هـ)، تحقيق عبد القادر الصحرابي، 1966-1970م، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط 1.
21. التصدي لخطاب الكراهية عبر الإنترنت، مركز "هي" للسياسات العامة، عمان، المملكة الأردنية
الهاشمية - ديسمبر 2015م.
22. تعزيز الحق في حرية الرأي والتعبير وحمايته، الجمعية العامة، الأمم المتحدة، الدورة السابعة
والستون، 07 شتنبر 2021.
23. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
24. التقرير الأول عن وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي، قمة رواد التواصل الاجتماعي
العرب، 2015م.
25. التقرير العلمي لورشة العمل المتخصصة بشأن: توظيف الإعلام وتكنولوجيا الاتصال لمواجهة
خطاب الكراهية والتطرف، جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، قطاع الإعلام والاتصال، إدارة
البحوث والدراسات الإستراتيجية، مطبعة جامعة الدول العربية، القاهرة، 28 فبراير 2019.

26. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمرى القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.
27. تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.
28. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين المزي (المتوفى: 742هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1400هـ - 1980م.
29. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001م.
30. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000م.
31. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ.
32. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ.
33. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1987م.
34. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ.
35. الحضارات العالمية: تدافع أم صراع، محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي، رقم: 24، نهضة مصر، القاهرة، ط 1، 1998م.
36. خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت: 1093هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1418هـ - 1997م.
37. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان، القاهرة، 1408هـ - 1978م.
38. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ.

39. ديوان الإمام الشافعي، "الجواهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس"، إعداد وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ.
40. ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس (ت: 231 هـ)، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ت: 502 هـ)، دار القلم، بيروت، دون رقم للطبعة ولا تاريخ.
41. ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1411 هـ - 1991 م.
42. رسالة ابن فضلان: في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخرز والروس والصقالبة، سنة 309 هـ - 921 م، تحقيق الدكتور سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1960 م.
43. الزهد والرقائق لابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المزوي (المتوفى: 181 هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
44. سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273 هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
45. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: 275 هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.
46. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن شؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279 هـ)، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1295 هـ - 1975 م.
47. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458 هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ - 2003 م.
48. شرح صحيح البخاري، ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449 هـ)، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط 2، 1423 هـ - 2003 م.
49. شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين بن أبي العز الحنفي، (المتوفى: 792 هـ)، تحقيق جماعة من العلماء، دار السلام، ط 1، 1426 هـ - 2005 م.
50. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458 هـ)، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، إشراف مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية، بومباي، الهند - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1423 هـ - 2003 م.

51. الشوقيات، أمير الشعراء أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مدينة نصر، القاهرة، مصر، 2012م.
52. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط 4، 1987م.
53. الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ.
54. الطبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1410هـ - 1990م.
55. عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والإبداع فيه، الدكتور عبد السلام رباح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2019م.
56. علم النفس الاجتماعي، وليم. و. لامبرت، وولاس. إ. لامبرت، ترجمة سلوى الملا، مراجعة الدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 3، 1413هـ - 1993م.
57. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي، بدر الدين العيني (المتوفى: 855هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.
58. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف محب الدين الخطيب، تعليق العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379م.
59. فقه السيرة، محمد الغزالي السقا (المتوفى: 1416هـ)، دار القلم، دمشق، ط 1، 1427هـ.
60. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين بن تاج العارفين الحدادي (المتوفى: 1031هـ)، المكتبة التجارية الكبرى- مصر، ط 1، 1356هـ.
61. في فن الترجمة، إعداد عبد المحسن إسماعيل رمضان، مكتبة جزيرة الورد، ميدان الأوبرا، القاهرة، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.
62. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، القاهرة، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.

63. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407هـ.
64. كفاحي، أدولف هتلر، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، من غير رقم للطبعة ولا تاريخ.
65. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منطور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (المتوفى: 711هـ)، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ.
66. لطائف الإشارات= تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 3.
67. محاضرات في الترجمة، محمد يحي أبو ريشة، مكتبة عتيقة الإلكترونية، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات، الأردن، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.
68. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.
69. المذاهب المعاصرة، السيد محمد عقيل بن علي المهدي، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1414هـ - 1993م.
70. مذكرة الأمم المتحدة حول القضاء على العنصرية والتمييز والعنصرية وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب: التنفيذ الشامل لإعلان برنامج عمل ديربان ومتابعتهما، 16 يوليو 2019م.
71. مستقبل الإسلام خارج أرضه، كيف نفكر فيه؟ محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، دون رقم للطبعة ولا تاريخ.
72. مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرين، إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421هـ - 2001م.
73. مسند الشهاب القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: 454هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1407هـ - 1986م.
74. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم للطبعة ولا تاريخ.

75. مصنف عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1403هـ.
76. مضامين الإعلام الشبكي وعلاقتها بالهوية الثقافية: دراسة ميدانية للمجتمع الطلابي بالجامعات العراقية، أحمد خميس خليل، مجلة علوم الإعلام والاتصال، السنة الثانية، العدد 3، ديسمبر 2019م.
77. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
78. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، دار صادر، بيروت، ط 2، 1995م.
79. معجم تحليل الخطاب، إشراف باتريك شارودو ودومنيك منغينو، ترجمة عبد القادر المهيري وحماي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م.
80. معجم الصحابة، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع (المتوفى: 351هـ)، تحقيق صلاح بن سالم المصراطي، مكتبة الغراء الأثرية، المدينة المنورة، ط 1، 1418هـ.
81. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982م.
82. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط 2.
83. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
84. معرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1419هـ - 1998م.
85. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.
86. المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر بن محمد عطا صوفي، دار الإعلام، ط 1، 1422هـ - 1423هـ.
87. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

88. مكافحة خطاب الكراهية في الإنترنت، لأغنيو كاكاياردون، ودانيت كال، وتياغو ألفي، وغابرييلا مارتينيز، ترجمه إلى العربية صابر طرورات، اليونسكو، الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، والمكتب الميداني لليونسكو في المغرب، باريس، فرنسا، 2015م.
89. منطلقات أساسية في الفقه الدعوي، المفضل فلواتي، سلسلة: "نظرات في فقه الدعوة"، مطبعة أنفو برانت، فاس، 2002م.
90. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1392هـ.
91. نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، محمّد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993م.
92. نص إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية وإلى أقليات دينية ولغوية، رقم: 135، بتاريخ: 18 كانون الأول/ديسمبر 1992 / اعتمدته الجمعية العامة في قرارها 47.
93. واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1418هـ - 1997م.
94. وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة الدعوة الإسلامية، سامر أبو رمان، مجلة المجتمع، الكويت، 12 ديسمبر 2017.
95. اليهود في البلاد الإسلامية، صمويل أتنجر، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مراجعة رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة، العدد 197، (ذو الحجة 1415هـ/ مايو/ أيار 1995م).

1. 130 Social Sharing Sites That Boost SEO & Drive Traffic, jon Clark.
2. Cédric Manara, Réseaux sociaux, 101 questions juridiques, Edition française 2013,diatino.
3. ComScore 'it's a social world: top 10 Need- to- knows about Social Networking and Where it's headed' (December 2011).
4. dictionary of mass communication and media research, a guide for students, scholars and professionals, David Demers, by Marquette Books, Printed in the United States of America, 2005.
5. Hatred, The Psychological Descent into Violence, by Willard Gaylin, Published in the United States by Public Affairs, New York, 2003.
6. How to FIND A JOB on, LinkedIn Facebook MySpace Twitter AND OTHER SOCIAL NETWORKS, by Brad and Debra Schepp, A S, 2010.
7. 'J'ai moins de 13 ans, puis je m'inscrire quand même?', Aurélien Bonnin", in 'Réseaux sociaux, 101 questions juridiques', ouvrage collectif, sous la direction de Cédric Manara, diatino, 2013.
8. The Ideology of Hatred, The Psychic Power of Discourse, Niza Yanay, 2013, Fordham University Press.
9. WE CAN! Taking Action against Hate Speech through Counter and Alternative Narratives, Written by Agata de Latour, Nina Perger, Ron Salaj Claudio Tocchi and Paloma Viejo Otero, Edited and co-ordinated by Celina Del Felice and Menno Ettema, 2017.

ثالثاً: مواقع وروابط إلكترونية

1. رابط استقبال إيمنويل ماكرون السيدة مريم بيترونين: "Petronin":
https://www.youtube.com/watch?v=pyvWabO9pqQ&ab_channel=MariNew
2. رابط اعتذار الممثلة الأمريكية "سيندلي كارسيا" بعد أن غرّر بها:
<https://www.youtube.com/watch?v=rpOjy9QdyPE>
3. رابط اعتذار الممثلة الأمريكية "ليلي ديون"، بعد أن غرّر بها:
https://www.youtube.com/watch?v=sMKceJ_CMGY
4. رابط برنامج: ADOBE AFTER EFFECT
<http://adobe.ly/3ig46C3>
5. رابط برنامج: Illustrator
<http://adobe.ly/2Lq5Exl>
6. رابط برنامج: Photoshop
<http://adobe.ly/38L1DMD>
7. رابط تجميعية مواقف إيمنويل ماكرون السلبية من الإسلام:
https://www.youtube.com/watch?v=qVEQ_sgVOKA&ab_channel=
8. رابط تطبيق pomodoro-technique:
<https://todoist.com/productivity-methods/pomodoro-technique>
9. رابط تطبيق ticktick:
<https://ticktick.com/>
10. رابط تطبيق to-do.microsoft:
<https://to-do.microsoft.com/tasks/>
11. رابط حساب EdyCohen على تويتر:
<https://twitter.com/EdyCohen>
12. رابط الدورات التدريبية المجانية على جوجل:
<http://learndigital.withgoogle.com/maharatgoogle/courses>
13. رابط الدورات التدريبية المجانية على الفيسبوك:
<http://bit.ly/3luAX7B>

14. رابط سياسة اليوتيوب:
https://support.google.com/youtube/answer/2801939?hl=ar&ref_topic=9282436
15. رابط صندوق الإسلام 152: الحوار الثاني مع كافر مغربي عن السخرية من الإسلام:
https://www.youtube.com/watch?v=sZAQebi0Avw&ab_channel=Hamed.TV
16. رابط عن تضامن الصحافة الفرنسية مع جريدة Charlie:
<https://bit.ly/36Xn3F6>
17. رابط عن حملة "أنا أحب محمدا"، من هولندا:
<https://bit.ly/3q39z1c>
18. رابط عن مشاعر المسلمين الجدد:
<https://bit.ly/2PZ0v18>.
19. رابط عن معاداة الحجاب في فرنسا:
<https://bit.ly/3utzWAV>
20. رابط عن نصائح يقدمها مخرج فيلم "فتنة" الهولندي أرنود فان دورن للمسلمين:
<https://bit.ly/2NDLssV>
21. رابط قناة فهد الكندري:
https://www.youtube.com/watch?v=uXH_w31X0Jg&ab_channel=
22. رابط كيفية تصنيف المقاطع المقترحة من لدن اليوتيوب:
<https://www.searchenginejournal.com/youtube-video-recommendations/368426/>
23. رابط مجلة علوم الإعلام والاتصال:
<http://diraset.com/node/130>.
24. رابط مقابلة: Jean Jacques Bourdint J ONFRAY Michel على الهواء مباشرة:
https://www.youtube.com/watch?v=wJZvop08xqg&ab_channel=JeanMichelMOUSSET.
25. رابط مقال: أهمية وسائل التواصل الاجتماعي:
<http://bit.ly/2MFXiCi>
26. رابط ندوة "الإسلاميون موجودون بالفعل"، كريستوف ديوار، وكريستوف دييوا.
https://www.youtube.com/watch?v=T3AgqOAnx0g&ab_channel=InaTalkShows

27. موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:
<https://iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=12313>

28. موقع شبكة الألوكة:
<https://www.alukah.net/culture/0/99316>

29. موقع صوت الحكمة:
<https://sawtalhikma.org/archives/15803>

30. موقع الفيسبوك:
<https://about.fb.com/company-info/>

31. موقع مجلة المجتمع الكويتية:
<https://bit.ly/3sBJVCv>

32. موقع اليوتيوب:
<https://www.youtube.com/intl/fr/about>